

سعادة الأسرة المسلمة في القرآن والسنة

المؤلف

طلعت عبده أحمد الحناوى

موجه لغة عربية
بالمعاهد الأزهرية سابقاً



مَكْتَبَةُ زَيْتُونَةِ الْوَرْدِ

القاهرة : 4 ميدان حليم خلف بنك
فيصل

ش 26 بولس و صليبا - 0100004046 -

إهداء

عرفانا بالجميل أهدي هذا العمل المتواضع إلى أهلى وعشيرتى،
وفى مقدمتهم زوجتى التى سهلت لى الحصول على كثير من
المراجع الهامة، وشجعتنى على المضى فى إتمام هذا العمل الهام،
وإلى أولادى وبناتى الذين سهلوا لى طريق البحث والكتابة
وعاونونى على تخطى كل الصعاب، وإلى كل أب وأم وابن وابنة
وأخ وأخت وقريب وقريبة، من الذين يبحثون عن السعادة ويعملون
على الأخذ بأسبابها وإلى كل من ساعدنى فى إتمام هذا الكتاب
وتجهيزه للطبع داعيا المولى تبارك وتعالى من جديد، أن يجعل هذا
العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يضيفه لى فى ميزان حسناتى يوم
الحساب العظيم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين..
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المؤلف

طلعت عبده أحمد الحناوى

موجه لغة عربية

بالمعاهد الأزهرية سابقا

* * *

مقدمة

لا شك أن السعادة الأسرية هي هدف كل أب وكل أم. ولا شك كذلك أن نجاحهما في تكوين أسرة يتمتع كل فرد فيها بتحقيق طموحاته الشرعية يمثل في حد ذاته سعادة أسرية.. لكن مقياس السعادة يختلف من فرد إلى فرد ومن أسرة إلى أسرة ومن مجتمع إلى مجتمع.. فمن الناس من يعتقد أن السعادة تكون في جمع المال. ومنهم من يعتقد أنها في التقوى ومن هنا يقول الشاعر العربي⁽¹⁾:

ولست أرى السعادة جمع مال :: ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا :: وعند الله للأتقى مزيد
ومن الناس من يعتقد أن السعادة تكون في الفاخر من المسكن والمطعم والمشرب والملبس والمركب. كما تكون في الارتباط بزوجة جميلة. وبالجملة فهي عندهم تكمن في متع الحياة الدنيا وزينتها..

لكن فريقا آخر منهم يرى أن السعادة الدنيوية سعادة مؤقتة، مصيرها إلى الزوال. وأن السعادة الأخروية هي الباقية الخالدة. ويستدل هذا الفريق على ذلك بآيات قرآنية كريمة، منها قول الله عز وجل: { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } [آل عمران: ١٤] (2).

(1) هو الحطينة، وكان أقرب إلى البدو في الجفاء والخشونة. لكنه تأثر في تفكيره بالقرآن الكريم بعد ظهور الإسلام.

(2) الخيل المسومة: المعلمة الأصلية الحسان - الأنعام: الإبل والبقر والغنم - المآب: المرجع.

ومن المؤكد أن الشريعة الإسلامية بشقيها القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة - قد وضعت معايير لهذه السعادة الأسرية، لا بد من تواجدها حتى يمكن القول بأن هذه الأسرة أو تلك، أسرة سعيدة..

وقد كتب وتحدث في هذا الموضوع خلق كثير، كل أدلى بدلوه فيه. فمنهم من ركز على جانب أو أكثر من جوانب هذه السعادة ومنهم من تناولها من جميع جوانبها.. وقد تحدث قوم عن هذه السعادة في غير موطنها الإسلامي في البيئات الأجنبية. وقد انبهر هؤلاء القوم بأساليب غير إسلامية، وأعجبوا وتمسكوا بها في تحقيق السعادة لأنفسهم ولأولادهم وبناتهم. وقد اقتفى أثرهم وسار على نهجهم بعض المسلمين، غير المتمسكين بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وتعاليمه المفيدة في هذا المجال، فأرادوا تطبيق أساليبهم وأفكارهم البعيدة عن الإسلام، في البيئة الإسلامية. لكنهم فشلوا فشلاً واضحاً. وانقلبت في نظرهم الموازين فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً.

ونحن في تناولنا لهذا الموضوع بجوانبه المتعددة بعون الله ومشيبته وتوفيقه سنسير في طريق الشمول. فسوف نتبع - إن شاء الله - معايير السعادة الأسرية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لكل عنصر من عناصر الأسرة - الأب والأم والأولاد والبنات - وما يتصل به..

ومن المعروف والثابت الذي شهد به التاريخ والناس في كل جنات الأرض - أن الشريعة الإسلامية هي الشريعة الرائدة - التي تصلح لكل زمان ومكان. بعكس ما يروج له الآن أعداء الإسلام والمتعاطفين معهم. ولسوف نستدل - إن شاء الله - على ما نقوله بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، من أدلة قاطعة تدحض آراء

المخالفين. ضاربين الأمثلة عليه من واقع الحياة في أسر المجتمعات الإسلامية وأسر المجتمع المصري على وجه التحديد دون ذكر أسماء الأشخاص والأسر والبلدان⁽¹⁾، للدلالة على التقصير في مبدأ أو أساس أو إرشاد إسلامي.. راجين من المولى جل جلاله التوفيق والسداد، والنفع بما تقررره الشريعة الإسلامية - بشقيها - في مجال سعادة الأسرة المسلمة.

وتناولنا لهذا الموضوع - إن شاء الله - يكون في أبواب تتدرج تحتها فصول. ويسير على النحو التالي:

الباب الأول: عن خلق آدم وحواء وذريتهما. ويندرج تحته:

الفصل الأول: التمهيد لخلق آدم وحواء عليهما السلام.

والفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام.

والفصل الثالث: خلق حواء عليها السلام وإقامتها مع آدم في الجنة.

والفصل الرابع: طرد إبليس اللعين من الجنة وهبوطه إلى الأرض. وهبوط آدم وحواء إليها بعده.

والفصل الخامس: اعتراف بنى آدم بالربوبية والألوهية لله رب العالمين والإشهاد على ذلك.

والفصل السادس: بداية التكاثر السعيد لبنى آدم.

والفصل السابع: مراحل خلق الإنسان والاهتمام بها.

والفصل الثامن: تخير النطفة وما بعده.

والباب الثاني: عن ركائز وأسس الاختيار الصحيح للزوج والزوجة في الإسلام

(1) نقصد بلدان المحافظات التي حدثت فيها الوقائع.

ويندرج تحته :

الفصل الأول: الاختيار على أساس الدين والأخلاق الفاضلة.

والفصل الثاني: الاختيار على أساس الأصل والشرف.

والفصل الثالث: اختيار الغرباء والبعد عن الأقارب.

والفصل الرابع: تفضيل البكر في الاختيار.

والفصل الخامس: تفضيل المرأة الولود.

والفصل السادس: تفضيل واختيار المرأة الجميلة.

والفصل السابع: مراعاة الكفاءة بين الزوجين.

والباب الثالث: عن أسس أخرى لازمة لإتمام الزواج. ويندرج تحته :

الفصل الأول: الخطبة وما تتطلبها.

والفصل الثاني: عقد القران (الميثاق الغليظ).

والفصل الثالث: ما يصاحب عقد القران: خطبة النكاح - الولاية في الزواج - الإشهاد على العقد - الصداق.

الفصل الرابع: ما يكون بعد العقد: وليمة العرس - التهنئة والدعاء للعروسين - تزيين العروس ومرافقتها إلى بيت الزوجية وإيناسها.

والباب الرابع: عن الحياة الزوجية الإسلامية ومتطلباتها. ويندرج تحته :

الفصل الأول: دور الزوج في توفير السعادة لزوجته.

الفصل الثاني: دور الزوجة في إسعاد زوجها.

والفصل الثالث: اهتمام الإسلام بالإنجاب والحمل والمولود.

والباب الخامس: عن متابعة الوالدين اهتمامهما بالمولود في ظلال توجيهات الكتاب والسنة. ويندرج تحته :

مقدمة: الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

الفصل الأول: دور الوالدين في تثبيت الفطرة وتنشئة المولود عليها.

الفصل الثاني: مرحلة الرضاعة وما يتبعها.

الفصل الثالث: مرحلة الطفولة وإسعاد الوالدين لطفلها.

الفصل الرابع: عناية الوالدين بأبنائهما وبناتهما في مرحلة الصبا والشباب في ظلال القرآن والسنة.

والباب السادس: عن مرحلة الرجولة والأنوثة ويندرج تحته:

الفصل الأول: في القرآن الكريم: المجال الديني - المجال الاجتماعي - المجال الاقتصادي.

والفصل الثاني: في السنة النبوية: مجال العقيدة - المجال الاجتماعي - المجال الاقتصادي - المجال الصحي - مجال طلب العلم.

أما في الباب السابع: فتحدث - إن شاء الله - عن أسباب التعثر في الحياة الزوجية ويندرج تحته:

أولاً: اختلاف الدين بين الزوجين.

ثانياً: عدم التزامهما أو أحدهما بأسس ومبادئ الدين الإسلامي.

ثالثاً: الزواج من الزناة.

رابعاً: عقم الزوجين أو أحدهما.

خامساً: الزواج للتمتع فقط بجمال المرأة.

سادساً: الزواج من الغنية للتمتع فقط بمالها.

سابعاً: عدم التكافؤ بين الزوجين.

ثامنا: الغيرة.

تاسعا: التفريق بين الأبناء والبنات في التعليم والمعاملات الأخرى.

عاشرا: تعطيل نقل ملكية الأخت أو جزء منها إلى أبنائها وبناتها.

حادى عشر: محاولة التدخل في شئون الزوجين من جانب الأهل.

ثانى عشر: الرغبة الملحة في إنجاب البنين.

ثالث عشر: نشوز الزوجة أو الزوج أو هما معا.

رابع عشر: نساء ورد النهى عن الزواج منهن.

خامس عشر: التسرع في قرار الارتباط.

سادس عشر: الطلاق.

سابع عشر:- انعكاس الحالة السياسية في المجتمع على الأسرة وأفرادها.

ثم الخاتمة.

هذا وآمل أن يستفيد من هذه الصفحات التي بذلت فيها جهدا كبيرا، القطاع العريض من القراء ذوى الثقافة المحدودة والقطاع العريض من أصحاب الفكر الرفيع والثقافة العالية. حيث يجد كل من الفريقين مطلبه إن شاء الله.

هذا.. وأسأل الله العلى القدير والسميع المجيب، الهداية والتوفيق. إنه ولى ذلك والقادر عليه...

ملاحظة: هذا وقد ترد أخطاء إملائية نتيجة الطبع لكنها لا تخفى على فطنة القارئ الكريم.

طلعت عبده أحمد الحناوى

موجه لغة عربية
بالمعاهد الأزهرية سابقاً

* * *

الباب الأول: خلق آدم وحواء وذريتهما

الباب الأول

خلق آدم وحواء وذريتهما

الباب الأول:

خلق آدم وحواء وذريتهما

أراد الله عز وجل تعمير الكون الذي خلقه لحكمة يعلمها سبحانه. وعمارة الكون تكون بخلق الحياة في سمائه وأرضه وفيما بينهما. ففي السماء تكون الملائكة وسائر الكائنات العلوية. وفي الأرض بكل ما فيها من ظواهر لا بد من تواجد آدم وحواء وذريتهما.

* * *

الفصل الأول:

التمهيد لخلق آدم وحواء - عليهما السلام - وذريتهما من

بعدهما

لقد مهد الله لخلق آدم وحواء - وهما أبوا البشرية - بخلق ما يلزمهما من عناصر البيئة التي يعيشان فيها، وذريتهما من بعدهما، وما يتصل بهذه البيئة وعناصرها من أمور تسهل عليهم جميعا البقاء في الأرض، إلى أن يرثها الله ومن عليها. وذلك مع استثناء الفترة التي عاش فيها آدم وحواء - عليهما السلام - في الجنة، وما فيها من اختلاف في الرأي بين العلماء. فقد كانت فترة خاصة، لمهمة خاصة أراد الله عز وجل تنفيذها على يد آدم وحواء - عليهما السلام - وقد وضحت تلك المهمة الخاصة من خلال منهج رباني يشمل مجموعة من الأوامر والنواهي، يلتزم بها آدم وحواء في تلك الجنة، فيثابان على الطاعة، ويعاقبان على المعصية. وبهذا فقد أراد الله تعالى أن يدرب آدم وحواء - عليهما السلام - تدريبا عمليا، يباشران فيه واقع التجربة قبل أن يهبطا إلى الأرض ليزاولا

مهمتهما (1). ومن هنا كانت تلك الفترة الخاصة فترة تربية وإعداد لآدم وحواء حتى يستطيعا وذريتهما بعد ذلك العيش على وجه الأرض بإرادتهم الممنوحة لهم يتخيرون بها طريقة حياتهم خيرا أو شرا، فيكونون مسؤولين عن اختيارهم وبالتالي يحاسبون عليه. وعندما أمر الله جلّت قدرته آدم وحواء بالسكن في تلك الجنة حذرهما من طاعة إبليس اللعين الذي طرده الله منها ومن رحمته عز وجل؛ لعصيانه لربه العظيم بعدم السجود لآدم. فقد صار هذا الإبليس عدوا مبينا لآدم وزوجه وذريتهما يجب أن يحذروا منه في كل الأحوال..

أما عن عناصر البيئة اللازمة للأبوين - آدم وحواء - وذريتهما حتى يعمر الكون، طبقا لمشيئته وقدرته وعلمه سبحانه - فقد تحدث عنها القرآن الكريم ببعض التفصيل. وذلك في قول الله العزيز الحكيم: ﴿قُلْ إِنِّي كُنتُ مِنَ الْكَافِرُونَ بِأَلَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ١١ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٣

[فصلت: ٩ - ١٢]. فقد أمر ربنا العظيم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الناس بإنكار الخالق جل وعلا سلوك بعض بنى آدم لطريق الكفر والإشراك به عز وجل، عن عمد مع أنه جلّت قدرته سخر لهم مخلوقاته النافعة؛ كالأرض بما فيها من خيرات ظاهرة وباطنة، مباركة منه سبحانه، والجبال الراسيات التي تحفظ توازن

(1) ص173 من كتاب "الإنسان في القرآن الكريم" للأستاذ الدكتور السعيد عاشور. أستاذ الهندسة الصناعية والإدارية بكلية الهندسة، جامعة المنصورة. الطبعة الأولى يونيو عام 1998م.

الأرض حتى لا تמיד أو تضطرب بكل ما فيها وما عليها، والسماء بما فيها من ظواهر ومخلوقات لازمة وملازمة لهم، وكذلك النجوم والكواكب المعلقة بين السماء والأرض بما فيها من فوائد جليلة. وكل ذلك يلزم آدم وحواء وذريتهما. ويعينهم جميعا على البقاء في الأرض سعداء، واستعمارها إلى أن يأذن الله تعالى للدنيا بالفناء.

وعن هذه العناصر أيضا تحدثت السنة النبوية الكريمة. ففي مسند الإمام أحمد رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **خلق الله التربة يوم السبت. وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين. وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل — (1).**

ومن المعروف أن السماوات والأرضين كانت ملتصقة تبدو وكأنها شيء واحد. ففرق بينها الله عز وجل بحكمته حتى يستفيد الخلق وعلى رأسهم آدم عليه السلام وذريته من بعده من كل سماء وأرض. فقد تفتقت السماء بأمر خالقها الكريم، فنزل منها المطر. وتفتقت الأرض بأمر ربها سبحانه، فخرج منها النبات. وخرجت منها بعد ذلك وتخرج إلى الآن معادن أخرى يستفيد منها بنو آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ويقول العزيز العليم سبحانه في ذلك: **{أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُم مِّنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}** [الأنبياء: ٣٠].. قال الحسن وقتادة: " كانت السماء والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء "

(1) رواه أحمد في مسنده ص 72 حرف الخاء من كتاب مختار الأحاديث النبوية للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمي.

(1). وقال ابن عباس: " كانت السماوات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت. ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات " (2). وقد رفع الله السماء حيث هي وأقر الأرض كما هي. وكل هذا ليستفيد خلق الله وأولهم آدم وذريته. وجعل ربنا سبحانه الماء أصلا لكل الأحياء، وسببا لحياة الإنسان والحيوان والنبات. فلا يجوز بعد كل هذا أن يشرك آدمي بربه عز وجل (3).. ومن المشاهد أيضا أن إنقاص ديار الكفر، وزيادة ديار الإسلام جزء هام من تهيو الأرض والسماء ليعيش الإنس والجن عليها. وتلك سنة الله في خلقه، يقول فيها سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (الرعد: ٤١). ويقول جل جلاله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ} (غافر: ٥١)...

ولما كانت السماوات مليئة بالملائكة الذين خلقهم الله عز وجل، خاضعين له مطيعين لأمره {لَا يَسْقُوتُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٧] كان يحلو للبعض في الجاهلية أن يزعموا أن الملائكة تُعبد

من دون الله. فأبطل الله جل جلاله قولهم، وبين أن الملائكة من خلق الله تبارك وتعالى، وهم أضعف من أن يُعبدوا. فقال أصدق القائلين سبحانه: { قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ

- (1) القرطبي 283/11. يتصرف من ص 10 من القسم السابع عشر من الطبعة الأولى من كتاب صفة التفسير للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.
- (2) زاد المسير 348/5. وارجع إلى نفس الصفحة من كتاب المرحوم الشيخ محمد على الصابوني.
- (3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ { [سبا: ٢٢ - ٢٣] (1) .. وفي قرة العيون أن هاتين الآيتين تقطع عروق الشرك بأمور أربعة (2): فهم (أى الملائكة وغيرهم) لا يملكون مثقال ذرة مع الله جل وعلا في السماوات ولا في الأرض، وليس لهم مشاركة في خلق السماوات والأرض معه سبحانه، وليس لله جل ثناؤه منهم معين، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له عز جابه. فالملائكة الذين قال عنهم بعض المشركين إنهم يُعبدون من دون الله - تأخذهم رعدة شديدة وربما صعقة إذا سمعوا كلام الله عز وجل. فكيف يعبدهم غيرهم؟!

واستكمالاً لاستعداد السماء لخلق آدم عليه السلام وإعمار ذريته للأرض كما أراد الله رب العالمين - خلق ربنا الخلاق العليم النجوم مسخرات في جو السماء. ويقول خالقها العظيم سبحانه مبيناً بعض فوائدها التي خلقت من أجلها: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾} [الملك: ٥] (3). ويقول المولى جل شأنه: {وَعَلَّمْنَا وَابْتَغَيْنَا دُونَ ٱلْحَبِّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾} [النحل: ١٦]. ويقول تبارك وتعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾} [الصافات: ٦ - ١٠] (4). فمن فوائد النجوم أنها زينة ربانية للسماء الدنيا. وأنها يهتدى بها البشر لتحديد طرق السير في غيابات الصحراء، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(1) ظهير: معين ومساعد.

(2) ص 205 من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

(3) رجوما: قذائف يقذفون بها

(4) مارد: متمرّد - دحورا: مهزومين مطرودين عن السماع. واصب: موصول.

يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ [الأنعام: ٩٧]. والفائدة الكبرى لها أنها تحفظ الملائكة الأعلى من اقتراب وتنصت مرده الشياطين. إذ يسلطها الله تعالى في الوقت المناسب على مرده الجن لمنعهم من الاقتراب والاستماع والتنصت إلى الملائكة الأعلى.. ويحدث ذلك من وقت أن أفسد الجن في الأرض، فبعث الله الكبير المتعال إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم، وأجلوهم إلى جزائر البحار. وكان إبليس ممن أسير فأخذوه معهم إلى السماء. فكان هناك. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه⁽¹⁾.. وطرد إبليس من الجنة وأهبط إلى الأرض. ومن الطبيعي أن يحاول هو وفريقه من مرده الشياطين التنصت إلى الملائكة الأعلى، ليفسد على آدم سعاده في الجنة، ثم في الأرض بعد ذلك هو وذريته إلى اليوم المعلوم.. لكن الله جلت قدرته أعد لإبليس وأعوانه من الجن والإنس نوعا من النجوم ترجمهم فلا يستطيعون السماع.. قال الإمام أحمد رضى الله عنه: حدثنا محمد ابن جعفر وعبد الرزاق قالا: حدثنا معمر، أخبرنا الزهرى عن على عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في نفر من أصحابه. قال عبد الرزاق (من الأنصار): قُرْمَى بنجم فاستنار، فقال صلى الله عليه وسلم: ٭ ما كنتم تقولون إن كان مثل هذا في الجاهلية؟ — قالوا: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم. قلت: للزهرى: أكان يرمى بهذا في الجاهلية؟ قال: نعم لقد غُلْظَتْ مِنْ بَعَثِ النَّبَى صلى الله عليه وسلم: ٭ فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته. لكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سَبَّحَ حملة العرش ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش

(1) ص 10 و 11 بتصرف واختصار من كتاب قصص الأنبياء لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.

فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء وتخطف الجن السمع فيُرمَوْنَ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق لكنهم يقرفون ويزيدون — (1) ..

وعن قتادة: أن هذا كان بابتداء إحياء الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه السلام (2) .. وعنده أن هذا القول هو أولى الأقوال بالقبول .. وعلى كلتا الروايتين فقد ازداد هذا الأمر وغلظ بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. وهو ما سيتبين بعد قليل ..

أما ما ورد في صحيح البخارى عن هذا الأمر فهو أكثر توضيحاً .. فقد روى البخارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ♂ إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، يَنْقُذُهُمْ ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلى الكبير، فيسمعها مسترق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وصفه سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَنْ تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت في السماء — (3) ..

(1) ص503 من الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم لابن كثير - يقرفون: يكذبون.

(2) ص504 من نفس المرجع السابق.

(3) من ص207 إلى ص210 من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد المجيد بن حسن آل الشيخ.

صفوان: حجر أملس - ينقذهم: يسيطر عليهم - فزع عن قلوبهم: سرى عنها مما هم فيه

وهكذا كان ربنا عز وجل ولا يزال وسيظل لهؤلاء المردة بالمرصاد. فهو سبحانه يسلط عليهم الشهب وربما أدرك الشهاب مارداً الجن قبل أن يلقي بالكلمة التي سرقها بسمعه إلى الكاهن فيقصمه فلا يحقق هدفه. وربما أدركه بعد أن يليقها.. وهى كلمة بسيطة لكن الشيطان يزيد عليها الكثير من الكذب فإذا اعترض عليه أحد قال: ألم يكن قد قال لنا يوم كذا، كذا وكذا. فيصدق بهذه الكلمة رغم كذبه فــــــــــــــــــــــي بقية

ما أبلغ به.. ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعاً من الركون إلى هؤلاء الكهنة الذين يأخذون عن الجن فيصدقونهم فيما يزيدونه افتراء على الله وإيهاماً بأنهم يعلمون الغيب.. ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى..

وقد ازدادت مسألة رمى الجن بالشهب حدة وغلظة حتى لا يسترقوا السمع منذ تكليف الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين.

وقد استغربت الجن هذا الأمر حتى أنهم اهتموا به وأرادوا معرفة سببه فبعثوا أعوانهم في كل مكان حتى وصلوا مكان مولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وهناك عرفوا سبب زيادة وضراوة تلك الشهب وامتلاء السماء بالحرس الإلهي من الملائكة. فعرفوا أن السبب في ذلك هو ميلاد صاحب الرسالة الخالدة محمد صلى الله عليه وسلم فعبروا عن خيبة أملهم في الاستماع والتصنّت. ويظهر ذلك من قول الله جل وعلا واصفا حالهم: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا} (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَنْ

يَسْمِعُ الْآنَ يَحْدِلُهُ شَهَابًا رَصَدًا} [الجن: ٨ - ٩] (١) .. وهكذا تحداهم الله الخالق العظيم، القادر على كل شيء والذى أمره بين الكاف والنون. وتحدى معهم مرده الإنس، الذين يأخذون عنهم أكاذيبهم وافتراءاتهم. فقال تبارك وتعالى: {يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} (٣٣) فَإِنِّي آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ} (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ} (٣٥) [الرحمن: ٣٣ - ٣٥] (٢) ...

وهكذا اكتملت الاستعدادات في السماء كما اكتملت في الأرض إيدانا بخلق آدم عليه السلام. وانتشار ذريته في الأرض لتعميرها كما أراد الحق تبارك وتعالى. ووجه الإله الخالق الرازق العظيم، ورب العرش الكريم إلى بنى آدم النداء السارى منذ خلق آدم إلى يوم القيامة. فأمر رسله الكرام أن يخبروهم بوجوب العمل الصالح في الدنيا

من أجل السعادة في الدارين. وكان آخر هؤلاء الرسل الكرام محمدا صلى الله عليه وسلم الذي خاطبه ربه وأمره أن يخبر بنى آدم بذلك.

فقال سبحانه وتعالى: {وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥]. وقد حكم عالم الغيب والشهادة سبحانه في بنى آدم حكما عادلا يطبق على الجميع بلا استثناء. فالكل ينال جزاء ما عمل في دنياه. إن خيرا فخير وإن شرا فشر. فذلك هو يوم القيامة الذي قال عنه رب العالمين: {يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

(١) الجن ٨، ٩ - شهاب: حفر وشهب وهى النجوم المحرقة المقذوفة على مرده الجن - رسدا: تنتظرهم وتترصد لهم لتقذفهم إذا حاولوا التصنت.
(٢) أقطار: جوانب - سلطان: غلبة وقهر - شواظ: لهب لا دخان له - ونحاس: النحاس المذاب بعد الغليان.

ذَرَّةٌ خَيْرًا يَرَهُ، ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، { [الزلزلة: ٦ - ٨] }^(١).

* * *

(١) يصدر الناس أشناتاً: ينصرفون من قبورهم بعد إحيائهم متفرقين.

الفصل الثاني:

خلق آدم عليه السلام

وبعد أن تهيأت الظروف تماما لخلق آدم عليه السلام، خلقه الله عز وجل. وهذه المسألة لها جوانب متعددة، نتناولها لنسلط الضوء عليها. وأول هذه الجوانب، أن الله جلت قدرته، خلق آدم من قبضة من تراب الأرض جميعها. ونرى ذلك واضحا في روايات عديدة وردت في السنة النبوية المباركة عن خلق آدم عليه السلام. ومن ذلك ما قاله الإمام أحمد رضى الله عنه في مسنده حيث قال: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثني قسامة بن زهير، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ؛ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ﴾** (1). وصدق الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فإننا نجد أن بنى آدم جاءوا في خَلْقِهِمْ مختلفى الألوان والطبائع، فقد كان ويكون منهم الأبييض والأحمر والأسود وما بينهما من الألوان، وكان ويكون منهم السهل والصعب والطيب والخبيث وما بينها من الطبائع. وهذا مشاهد ومحسوس بين الناس.

وقد جاء العلم الحديث بعد أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ليؤكد ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن. ومما ورد في ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور السعيد عاشور في كتاب

(1) ص27 من كتاب قصص الأنبياء لابن كثير تحقيق أبى عبد الله الأنصارى - الحزن: من يصعب المراس والتعامل معه.

له: حيث يؤكد أن جسم الإنسان يتרכب من نفس العناصر التي يتרכب منها جسم الأرض وهى ستة عشر عنصرا. وهو يقول في ذلك: " وقد أقر العلم الحديث هذه الحقيقة العلمية، وأثبتت التحاليل الكيميائية أن جسم الإنسان يتרכب من نفس العناصر التي يتרכب منها تراب الأرض، وب نفس النسب وهى 16(ستة عشر) عنصرا منها ست عناصر أساسية تـَكون ما يقرب من 99% من كتلة الجسم، وهى مبيّنة بنسبتها التقريبية على النحو التالى:

العنصر	النسبة المئوية (%)
أكسجين	63.3%
نيتروجين	2.50%
وكربون	20.20%
كالكسيوم	2.25%
أيدروجين	9.95%
فوسفور	1.01%
أما بقية العناصر فهى تشكل 1% من كتلة الجسم وتتكون هذه العناصر من:	
الكلور والفلور والكبريت والبوتاسيوم والصوديوم والمغنيسيوم والحديد بالإضافة إلى آثار ضئيلة من: اليود والسيليكون والمنجنيز.	

وبمزج هذه العناصر بعضها مع بعض بنسبها الصحيحة ينتج عن هذا المزج قطعة من الطين لا حياة فيها " (1).

ومعلوم من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة - أن الله الخالق العظيم خلق منها آدم عليه السلام ثم نفخ فيه من الروح بعلمه وقدرته وإرادته وحكمته سبحانه وتعالى، ومن عجيب خلق الله تبارك وتعالى أنه جعل الحيوان والنبات والجماد تشترك مع الإنسان في هذه الألوان والأشكال والطبائع الإنسانية المأخوذة كلها من تراب الأرض. ونلمس ذلك في قوله جل شأنه: ﴿الَّذِينَ تَرَأَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا

(1) ص153 و154 من كتاب: الإنسان في القرآن الكريم، للأستاذ السعيد عاشور أستاذ الهندسة الصناعية والإدارية بكلية الهندسة جامعة المنصورة، الطبعة الأولى يونيو عام 1998م.

وَعَرَّيْبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ [فطّر: ٢٧ -
٢٨] (1).

أما عملية الخلق فقد تناولها القرآن الكريم في آيات مباركات
يكمل بعضها بعضا دون أن يحدث تنافر بينها وكذلك تناولتها السنة
النبوية المطهرة في أكثر من حديث نبوى شريف ومن الآيات
القرآنية الكريمة التي تحدثت عن خلق آدم قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى
عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ طَخَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾} [آل عمران:
٥٩]. وقوله جل جلاله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٦﴾}
[الحجر: ٢٦] (2). وقوله عز شأنه: {فَأَسْتَفْهِمُ أَهْمَ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا
خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾} [الصافات: ١١] (3) وقول الواحد الأحد: {خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾} [الرحمن: ١٤] (4). وقوله أصدق
القائلين سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ
مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٨ -
٢٩] (5).

وتستمر الآيات الكريمة السابقة في بيان صورة خلق آدم عليه
السلام، وتوضح السنة المباركة هذه الجوانب فبعد إحضار قبضة
تراب من كل بقاع الأرض، خلط هذا التراب بماء حتى صار طينا
متلاصقا وترك هذا الطين مدة من الزمن حتى صار أسودا منتنًا

(1) جدد: طرائق - غرابيب سود: شديدة السواد.

(2) الحمأ المسنون: الطين الأسود المنتن

(3) الطين اللازب: أى المتلاصق الذي يجمع بين الصلابة والسيولة.

(4) الصلصال: طين يابس يسمع له صلصلة أى صوت. الفخار: طين تصنع منه الأواني

ويوقد عليها فتصير صلبة

(5) فقعوا له ساجدين: خروا له ساجدين.

تنبعث منه رائحة كريهة. ثم صُوِّرَ كما يُشَكِّلُ الأواني صَانِعُهَا من الطين أو الخزف. ثم تُرِكَ لِيَجْفَ حتى صار غاية في الصلابة كالخار الذي يحدث صوتاً إذا نَقَرَ عليه أحد أو دَقَّ عليه. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا عمرو بن محمد، عن إسماعيل بن رافع، عن المقبرى، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا ثُمَّ تَرَكَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ حَمًّا مَسْنُونًا خَلَقَهُ وَصُورَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ—﴾**. قال: **﴿فَكَانَ إِبْلِيسَ يَمْرُبُهُ، فَيَقُولُ لَقَدْ خُلِقْتُ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ نَفَخَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ—﴾** (1). الحديث..

أما وقت نفخ الروح في آدم عليه السلام ومدة بقائه في الجنة، فقد تحدثت عنه كتب السنة النبوية الكريمة. ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده، وسبقت الإشارة إليه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه: **﴿وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ—﴾**. ولعل هذا الحديث النبوى الشريف يوضح وجهة نظر فريق من العلماء يقول: إن ساعة الإجابة يوم الجمعة هي آخر ساعة في نهار يوم الجمعة. وهو يختلف في ذلك مع فريق آخر هو الراجح، يقول: إنها من وقت جلوس الخطيب على المنبر إلى أن ينتهى من صلاة الجمعة وعلى المسلمين اغتنام الفرصتين والدعاء فيهما. وفي إشارة إلى اليوم الذي خلق فيه آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها - قال ابن جرير: " ومعلوم أنه خَلَقَ آدَمَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَالسَّاعَةُ مِنْهُ ثَلَاثٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةٌ أَشْهُرَ، فَمَكَثَ مُصَوَّرًا طِينًا قَبْلَ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَأَقَامَ فِي الْجَنَّةِ قَبْلَ أَنْ يَهْبِطَ ثَلَاثًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ

(1) ص 29 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبي عبد الله الأنصارى.

أشهر، والله تعالى أعلم " (1).

وهذا تأكيد وتصديق لما رواه النبي صلى الله عليه وسلم من أن آدم عليه السلام أهبط إلى الأرض في نفس اليوم الذي أدخل فيه الجنة وهو يوم الجمعة. فقد جاء في صحيح مسلم، من حديث الزهري عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ وفيه أُخْرِجَ منها»** (2). وقال الحاكم في مستدركه: أنبأنا أبو بكر بن بالويه عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمر، عن زائدة عن عمار بن أبي معاوية البجلي، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: **" ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس "** (3).

وأما عن طول آدم وعرضه فقد تعددت الروايات، ومنها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً ثم قال: اذهب فسلم على أولئك النفر وهم من الملائكة جلوس. فاستمع ما يحبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه " ورحمة الله "**، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم في طوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعدُ حتى الآن» (4). وقال الإمام أحمد: حدثنا روح: حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) ص 35 من المرجع السابق.

(2) ص 20 من كتاب قصص الأنبياء لابن كثير. وفي صحيح مسلم ص 387.

(3) ص 20 من نفس المرجع السابق.

(4) رواه الشيخان عن أبي هريرة ص 71 من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

قال: ♂ كان طول آدم ستين ذراعا في سبعة أذرع عرضا — (1).

* * *

الفصل الثالث:

خلق حواء وإقامتها مع آدم في الجنة

خلق الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام. وعندما نفخ فيه الروح، رفض إبليس أن يطيع الله عز وجل، وأن يسجد لآدم مع ملائكة الرحمن. فطرده الله العلى القدير من رحمته، وأخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض كما سيأتى ذكره.. فصار آدم عليه السلام وحيدا في الجنة. وكان يمشى فيها فيحس بالوحشة والوحدة. فأراد ربه جل جلاله أن يُذهب عنه الوحشة والوحدة.

فنام آدم عليه السلام نومة واستيقظ، فوجد حواء التي خلقها الله تعالى له، من ضلع من أضلاعه ليأنس بها ويسكن إليها. وفي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك..

ففــــــــــــــى كتـــــــــــــاب

الله العزيز نجد آيات كثيرة تدل على ذلك، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ {الآية [الأعراف: ١٨٩]}. وأما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنجد رواية أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا** — (1) ..

وقد ذكر ابن اسحاق " أُلْقِيَتِ السَّنَّةُ عَلَى آدَمَ فِيمَا بَلَّغْنَا عَنْ أَهْلِ

(1) رواه الشيخان عن أبي هريرة ص21 - من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي.

الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم. عن ابن عباس وغيره، ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحما. وآدم نائم لم يهب من نومه. حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال: - فيما يزعمون - لحمى ودمى وزوجتى فسكن إليها " (1).. فلما خلق الله تعالى لآدم زوجة من نفسه فسكنت إليه وسكن إليها " قال له قبيلًا: ﴿تَعَادُمْ (2) أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35] (3) الآية..

وسياق هذه الآية الكريمة يوحى بأن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. كما صرح بذلك محمد بن إسحاق في روايته السابقة. ويؤيد ابن إسحاق ومن نحا نحوه رواية ذكرت عن ابن عمر وابن عباس، رضى الله عنهما، قالوا: " بعث الله جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء عليهما السلام على سرير من ذهب كما تحمل الملوك، ولباسهما النور. على كل واحد منهما إكليل ذهب مكلل بالياقوت واللؤلؤ. وعلى آدم منطقة مكللة بالياقوت واللؤلؤ حتى أدخلوا الجنة " (4).

ويرجح فكرة هذه الرواية، ما رواه الحافظ ابن عساكر عن مجاهد في شأن إخراج آدم وحواء من الجنة، قال: " أمر الله ملكين أن يخرجوا

-
- (1) ص76، ص77 من الجزء الأول من تفسير القرآن العظيم - لابن كثير. لأم مكانه لحما: أى خلق مكان الضلع لحما سواه مع بقية أضلاع شقه الأيسر - السنة: النوم.
(2) صحتها اللغوية هكذا (يأدم) أما في القرآن الكريم فتكتب كما هى مثبتة في الآية الكريمة أو هكذا (آدم) إذا لم تسبق بياء النداء.
(3) قبيلًا: أى عيانا نفس الصفحة من المرجع السابق
(4) نقلت هذا الأثر عن الدكتور مصطفى مراد - الأستاذ بجامعة الأزهر الصحفية أمانى ماجد في صفحة فكر ديني - بالأهرام - الجمعة غرة رمضان عام 1425هـ..

آدم وحواء من جواره. فنزع جبريل التاج عن رأسه. وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به غصن، فظن آدم أنه عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو العفو فقال الله: أفرارا منى يا آدم. قال: بل حيا _____اء من _____ك
يا سيدى " (1) ..

ولكن قال آخرون: إن خلق حواء كان بعد دخول آدم الجنة. وقد قال بذلك السدى عن أبى مالك، وأبو صالح عن ابن عباس، ومرة عن ابن مسعود، وناس من الصحابة. قالوا: " أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة، فكان يمشى فيها وحشيا ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه. فسألها من أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلى. فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حى " (2).

وسواء أكان خلق حواء قد تم قبل دخول آدم الجنة، أم كان بعد دخوله عليه السلام إليها. فالمهم أنها خلقت ليأنس بها آدم وتأنس به، وليسكن إليها وتسكن إليه، وهذا هو الهدف الأول من وراء الزواج السعيد المؤدى إلى التناسل السعيد والنسل المبارك..

وقد سكن آدم وحواء عليهما السلام الجنة، امتثالاً لأمر الله عز وجل، إلى أن أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما الجليل عن الأكل منها. فاستمعا بذلك إلى وساوس إبليس اللعين، عدوهما اللدود. فأمرهما ربهما بالنزول إلى الأرض، بعد أن قبل توبتهما؛ ليوажها

(1) ص19، 20 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير..

(2) ص12 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.

مع ذريتهما إبليس وذريته في حياة دنيوية مؤقتة.

وقد قال ربنا الكريم في ذلك: {وَقُلْنَا يَتَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} (٣٥) فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) [البقرة: ٣٥ - ٣٧].

وقد اختلف العلماء في المدة التي قضاها آدم وحواء في الجنة. فقال الأوزاعي عن حسان بن عطية: " مكث آدم في الجنة مائة عام " وفي رواية " ستين عاما " (1). وهناك من الأحاديث النبوية الشريفة ما يدل على أنهما مكثا في الجنة بعض يوم. وقد سبقت الإشارة إليه، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة" (2) وكذلك قول ابن جرير في مقدار الساعة من يوم الجمعة وهو ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر. قال ابن جرير: " ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فمكث موصورا طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم " (3) ..

وهكذا تكونت أول أسرة في الوجود الإنساني من آدم وحواء

(1) رواه ابن عساکر ص 20 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبي عبد الله الأنصاري.

(2) رواه مسلم عن فروخ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. نفس الصفحة من المرجع السابق.

(3) قاله ابن جرير ص 35 من نفس المرجع

عليهما السلام. ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن آدم عليه السلام قد تلقى وعدا من ربه جل جلاله بتحقيق السعادة له ولزوجته ماداما متجنبين لوساوس إبليس عدوهما في السماء وعدوهما في الأرض..

ويقتضى هذا الوعد الرباني الكريم؛ أنه إذا أطاع آدم إبليس في الأرض فسيشقى، وإذا أذعن أحد من أبنائه لوساوس إبليس الرجيم وحزبه، فسوف يشقى فيها كما شقى آدم عند سماعه لإبليس وأكله من الشجرة التي نُهي عنها، فأخرجه الله من جنته وأهبط إلى الأرض ليشقى بالبحث عن قوته وقوت زوجته ومتطلبات عيشه على وجه الأرض هو وأسرته بعد أن كان مستريحا في الجنة يذلل له كل شيء.. ويتضح ذلك من قوله تعالى: {فَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ} [طه: ١١٧]. والشقاء هنا بنص القرآن الكريم مقدر على آدم وذريته من الرجال دون النساء. وهذا يعنى أن الرجل هو المطالب شرعا بالإنفاق على زوجته، وعلى بيت الزوجية، من كده وسعيه حتى لو كانت لها ذمة مالية مستقلة. وهذا أمر في غاية الأهمية. حيث يمثل أساسا قويا من أسس نجاح الأسرة الناشئة وسعادتها واستقرارها...

* * *

الفصل الرابع:

طرد إبليس من الجنة وهبوطه إلى الأرض وهبوط آدم وحواء بعده إليها

واكتمل التمهيد لخلق آدم وحواء عليهما السلام بخلق ما يلزمهما في السماء والأرض كما سبق القول.. فلما خلق الحق تبارك وتعالى آدم عليه السلام وحان الوقت الذي قدر الله عز وجل نفخ الروح فيه - قال للملائكة: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ} (٢٩) [الحجر: ٢٩]. ونفخ الخالق العظيم الروح في جسد آدم، {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} (٣٠) {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} (٣١) [الحجر: ٣٠ - ٣١]. ولم يكن لإبليس حجة معقولة لرفضه أمر خالقه سبحانه بالسجود لآدم. فاختلق الأعذار عذرا بعد عذر. فتارة يقول: {قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَاجِدٍ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ، مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر: ٣٣]. وتارة يقول: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (١٢) [الأعراف: ١٢]. وكان جزاء تكبره وتعاليه على آدم عليه السلام وعلى خالقه علام الغيوب - أن طرده الله تعالى من رحمته، وأمره بالخروج من الجنة، والهبوط للأرض. وأحلَّ عليه اللعنة والذلة والحقارة إلى يوم القيامة. يقول الحق سبحانه: {قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} (٣٤) {وإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (٣٥) [الحجر: ٣٤ - ٣٥] (١).. وتعبيرا عما حل به من طرد من رحمة الله وهبوط إلى الأرض في ذلة وحقار - رَنَّ إبليس رنة حين لعن، ورنة حين أهبط إلى الأرض. والرنة منه صوت يدل على الفزع مما حل به جزاء تكبره وتعاليه. "

(١) رجيم: أى مطرود من رحمة الله عز وجل.

ذكر إبراهيم بن مفلح أن في تفسير بَقِيَّ بن مَخْلَد: أن إبليس رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين وُلِدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب " (1). وقال سعيد بن جبير: " لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة " (2). وهذا الرنين منه إشارة إلى أنصاره، تَجْمَعُ على إبليس أصحابه وأعدائه من الجن حتى يستمعوا إلى توجيهاته ضد الإسلام والمسلمين من بنى آدم.. فقد ورد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: " لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رن إبليس رنة فاجتمعت إليه جنوده " (3)..

وهبط إبليس اللعين إلى الأرض امتثالاً لأمر الله عز وجل ولحق به آدم وحواء بعد عصيانهما الله وأكلهما من الشجرة وتوبتهما إلى الله بعد إحساسهما بالندم. {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨]. وطلب الملعون إبليس من ربه سبحانه وتعالى أن ينظره أى يؤجل موته وعقابه إلى يوم البعث والنشور. وقد قصد من وراء ذلك الهروب من الموت والبقاء حياً إلى يوم البعث والنشور. لكن الله جل جلاله فوت عليه قصده فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم. وهو يوم النفخة الأولى التي تموت عند سماعها كل الخلائق (4). {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [٣١]

(1) ص 301 من كتاب فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد - تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

(2) رواه ابن أبي حاتم نفس الصفحة.

(3) رواه الحافظ الضياء في المختارة. ص 301 من نفس المرجع السابق.

(4) القرطبي 27/10 ص 8 من القسم السابع من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ { [الحجر: ٣٦ - ٣٨]. وما أن حصل الشيطان الرجيم على وعد من الله تعالى بتأجيل عذابه وموته ————— إليه —————

يوم النفخة الأولى - حتى تعهد أمام خالقه عز وجل بإغواء آدم وبنيه وتزيينه طريق الضلال لهم كما أغواه ربه، واستثنى إبليس من الإغواء عباد الله المخلصين لأن هؤلاء لا سلطان له عليهم. وفى

مقابـل

وعد إبليس تعهد رب الخلق أجمعين بأن يدخل إبليس وكل من تبعه ومات على تبعيته من الضالين - جهنم وبئس المصير المخصص لهم يوم القيامة. فقال سبحانه: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ ﴿٤٠﴾} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِيَ لَكَلَّ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾} [الحجر: ٣٩ - ٤٣].. وبدأ إبليس في تحقيق وعيده. فقصد أول ما قصد إلى إغواء آدم قبل أن يخرج من الجنة. فزين له الأكل من الشجرة التي نهاه ربه عن الأكل منها هو وزوجته حواء. وأوعز الملعون لآدم، أن ربه ما نهاه عن الأكل من هذه الشجرة إلا لكي لا يصبح ملكا أو يكون من الخالدين. فإن من أكل منها يكون نصيبه الخلود والملك. ومن المؤكد أن إبليس كان كاذبا في هذا الزعم الذي أغوى به آدم عليه السلام. إذ لو كان زعمه صادقا لأكل هو منها وما طرد من الجنة وأهبط إلى الأرض. لكنها إرادة الله. وما زال إبليس يزين لآدم ذلك حتى أكل من الشجرة هو وزوجه ————— وساء رعان

ما ظهرت لكل منهما عورة الآخر فأسرعا يقطفان من ورق الجنة ما يدارى عورتها. وعاتبهما ربهما العظيم على استماعهما لوساوس

عدوهما إبليس. وأحسا بالندم على طاعتهما لهذا العدو المبين. وطلبا العفو والمغفرة من الرحمن الرحيم فأوحى ربنا العظيم لآدم كلمات يقولها مع حواء ليتوب جل جلاله عليهما. وفي ذلك يقول المولى عز وجل {فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ٣٧]. وقد ورد أن هذه الكلمات جاءت في سورة الأعراف. وهى قوله تعالى: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]^(١).. وفى رواية أخرى عن أبى نجیح عن مجاهد أيضا أن الكلمات هى: " اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك. رب إني ظلمت نفسى فتب على إني أنت التواب الرحيم " (٢). وهى كلمات تؤدى نفس المعنى الذي ورد في آية سورة الأعراف.

وبعد أن تاب الله التواب الرحيم على آدم وحواء أمرهما بالهبوط إلى الأرض؛ حتى يكملا حياتهما ويعمرا الأرض بالإنجاب والبناء والإصلاح، ويشتركا مع ذريتهما في المعركة الكبرى وهى الصراع بين الخير والشر، كما سبق بيانه. قال عز وجل: {قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ} [الأعراف: ٢٤].. وهكذا صدر الأمر الإلهي لآدم وحواء بالهبوط إلى الأرض كما صدر لإبليس من قبلهما. وما ذلك إلا لبدء مرحلة جديدة من الحياة تختلف عن سابقتها بالنسبة لآدم وحواء عليهما السلام. فهما يتعايشان مع عدوهما اللدود إبليس اللعين وجها لوجه. وعليهما أن يحذرا منه في كل تصرفاتهما وفى كل مراحل حياتهما. وكذلك الحال بالنسبة لأولادهما وبناتهما الموجودين معه والقادمين إلى يوم الدين..

(١) وقد روى ذلك عن مجاهد وسعيد بن جببر وأبى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخرساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
(٢) قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير، تحقيق أبى عبد الله الأنصاري - دار القلم للتراث ص 21.

وعن إخراج آدم وحواء - عليهما السلام - من الجنة وردت بعض الآثار، منها ما سبق أن أشرنا إليه، مما رواه الحافظ ابن عساكر عن مجاهد:

" أمر الله ملكين أن يخرجوا آدم وحواء من جوارحه. فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به غصن، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو، فقال الله: أفراراً مني؟ قال: بل حياء منك يا سيدي " (1) ..

كما وردت آثار عن مكان هبوط آدم وحواء إلى الأرض، منها ما قاله ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن سعيد عن ابن عباس قال: " أهبط آدم - عليه السلام - إلى أرض يقال لها دحنا بين مكة والطائف " (2). وعن الحسن قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستمان - من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان " (3). وقال السُّدِّيُّ: " نزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وبقبضة من ورق الجنة، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك " (4) .. وروى ابن أبي حاتم كذلك عن ابن عمر قال: " أهبط آدم بالصفاء، وحواء بالمروة " (5) ..

وسواء كان هذا أو ذاك، فقد تم هبوط آدم وحواء - عليهما السلام - بتنفيذ الأمر الذي جلا له وإرادته، حتى يحدث الصراع بين الحق

(1) سورة ص 19، 20 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبي عبد الله الأنصاري.

(2) ص 20 من نفس المرجع.

(3) الصفحة 20 من المرجع السابق ورواه أبو حاتم.

(4) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(5) من نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

والباطل كما قدمنا، وتعمر الأرض كما أراد الله سبحانه، بغلبة الحق على الباطل ويظل ذلك إلى يوم القيامة...

* * *

الفصل الخامس:

اعتراف بنى آدم بالربوبية والألوهية لله رب العالمين وحده والإشهاد على ذلك

وحتى تستقيم الحياة وتصفو السعادة لذرية آدم عليه السلام على وجه الأرض كان لابد أن تعترف هذه الذرية لله رب العالمين بالربوبية والألوهية والوحدانية. وسهل لهم الله عز وجل طريق هذا الإقرار وهم كالذر في ظهر أبيهم آدم. وكان هذا الإقرار منهم أساسا في غاية القوة لسعادة بنى آدم أفرادا وأسر ومجتمعات. وفى ذلك يقول ربنا وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

قال الطبرى رحمة الله عليه في تفسير هاتين الآيتين: " أى اذكر يا محمد إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض بذلك " (1). وقال ابن عباس " مسح الله ظهر آدم فاستخرج منها كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة وقررهم على ربوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموه " (2). وروى أحمد حدثنا حسين بن محمد، وحدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبی صلی

(1) ص52، 53 من القسم الرابع من كتاب صفوة التفسير - الطبعة الأولى - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني - الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

(2) نفس الصفحات من المرجع السابق.

الله عليه وسلم قال: **﴿إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنِعْمَانِ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذَرِيَّةٍ ذُرَّاهَا فَتَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ. ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا، قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ. قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ— (1)**. ومن أقوى الأدلة التي ساقها الجمهور دليلاً على أخذ الميثاق على الذرية - ما قاله الإمام أحمد: حدثني حجاج، حدثني شعبة، عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **﴿يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مَفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَلَّا تَشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَشْرِكَ بِي— (2)**. وفي مجال الإشهاد على ذرية آدم باعترافهم بالله رباً وإلهاً واحداً.

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَجَمَعَهُمْ يَوْمَئِذٍ جَمِيعًا مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَخَلَقَهُمْ ثُمَّ صَوَّرَهُمْ ثُمَّ اسْتَنْطَقَهُمْ فَتَكَلَّمُوا، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} الآية: قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ عَلَيْكُمُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، وَأَشْهَدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ، أَنْ لَا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا. اْعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي وَلَا رَبَّ غَيْرِي وَلَا تَشْرِكُوا بِي شَيْئًا، وَإِنِّي سَأَرْسِلُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا يَنْذِرُكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابِي. قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا. لَا**

(1) ص33 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبي عبد الله الأنصاري - قبلًا: عياناً.

(2) رواه أحمد في مسنده (3/ 127، 129 حلبى).

رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك، فأقروا يومئذ بالطاعة. ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب لو سويت بين عبادك؟ فقال: إني أحب أن أشكر" (1)الرواية.

وتم هذا الإقرار والإشهاد بين يدي الله تعالى على رأى من قال به ثم أعادهم إلى ظهر آدم، إلى أن تتاح لهم فرصة الخروج إلى الحياة الدنيا فيوفون بعهدهم وينفذون إقرارهم. ويجعلون الله تعالى القدير إلههم ومعبودهم الأوحد. ويلتمسون منه وحده العون في كل أمور حياتهم. فإذا فعلوا ذلك كانوا في قمة السعادة؛ لأنه سبحانه يكون ناصرهم ومؤيدهم وهاديهم إلى ما يوفر لهم التوفيق والسعادة والهناء في الدارين.

ويضم ابن كثير رأيه إلى رأى بعض العلماء الذين رأوا أن إشهاد الله على بنى آدم بأنه ربهم لا رب لهم غيره ولا إله لهم سواه - لم يَرِدْ إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو وهما موقوفان لا مرفوعان(2).

ومن جملة الأحاديث التي ذكرها في هذا الموضع أحاديث مرفوعة يتصل نسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالحديث المرفوع اصطلاحاً هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير(3) أو صفة.. وأما الحديث الموقوف فهو في الاصطلاح ما أضيف إلى الصحابي من قول أو فعل أو تقرير. ولا

(1) رواه الأئمة عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر ص34 من قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبي عبد الله الأنصارى.

(2) ص254، من ج2 من كتاب تفسير بن كثير.

(3) ص128، 129، 130 من كتاب تيسير مصطلح الحديث - للدكتور محمود الطحان.

أريد أن أخوض أكثر من ذلك في مصطلح الحديث، ولذلك نجده قد عبر عن رأى الذي رجحه بعض السلف والخلف بقوله: "ومن ثم قال قائلون من السلف ومن الخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما في حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وعياض بن حمار المجاشعى. ففي الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفطرة — الحديث وقد سبق ذكره. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله: إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم — (1) ..

وسواء كان الإشهاد قد وقع كما ورد في الأحاديث السابقة أو كان المقصود به فطر بنى آدم على التوحيد فإن الإشهاد بهذا المعنى أو ذاك، يعنى أن الله عز وجل قد اختار لبنى آدم طريق الأمان والسعادة في دنياهم وآخرتهم فيجب أن يتوارثوا هذا الطريق صغارا ويعملوا من أجل الأمان والسعادة كبارا عن طريق الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والأخذ بتعاليم الإسلام والتمسك بها. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ويقول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم: أوصيكم بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة، وإن كان عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور: فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار —

(1) ص 251 ج 2 من كتاب تفسير ابن كثير - اجتالتهم: حبستهم ومنعتهم.

(1) ...

* * *

الفصل السادس:

بداية التكاثر السعيد لبنى آدم عليه السلام

قضى آدم وحواء عليهما السلام في الجنة فترة هامة من حياتهما، تعتبر فترة إعداد واختبار وتعلم⁽¹⁾. عرف فيها كل منهما كيف يعيش على وجه الأرض التي قدر عليه أن يهبط إليها، مع أولادهما من البنين والبنات. يعرف كل منهم الخير والشر، والحسن والقبح، والصواب والخطأ، والصالح والأصلح وغير ذلك من المعايير الدنيوية المتباينة التي تنفعه في دنياه وآخرته. ويتخير أيا منها بإرادته الحرة التي سوف يحاسب عليها في الآخرة، حسب ما يقتضيه قول العلي الكبير سبحانه {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} ﴿٧﴾ [الزلزلة: ٧].

لم تكن هذه الفترة التي قضياها في الجنة إذن فترة إخصاب وجماع وإنجاب على الوجه الغالب ولم يكن أمر الجماع والإنجاب قد وضح لهما بعد. ولم تخطر فكرة الجماع والإنجاب في خلدتهما في هذا الوقت بدليل أن عين كل منهما لم تقع على عورة الآخر. وقد ستر الله جل جلاله عورتهما بنور رباني وضاء يحجب رؤية ما يكون خلفه⁽²⁾.

وقد اقتضت إرادة الله عز وجل ألا يرى كل منهما عورة الآخر، إلا بعد أن أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما في الجنة عن الأكل منها. فعندئذ وقعت عين كل منهما على عورة الآخر. وفزعا من هذا

(1) ص161 من كتاب الإنسان في القرآن الكريم - للدكتور السعيد عاشور.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير الآية 22 من سورة الأعراف ص198 من الجزء الثاني.

الأمر وأخذا يقطفان من ورق الجنة ليخفيا ما ظهر من سوءاتهما. وهنا عاتبهما ربهما الكريم على عصيانهما له سبحانه، وطاعتهما لعدوه إبليس الذي زين لهما الأكل من هذه الشجرة ليهبطا معه إلى الأرض. وأحس كل منهما بالذنب فطلبا من الله العفو والمغفرة والتوبة. فتاب الله عليهما. وأمرهما بالهبوط إلى الأرض حتى يستطيعا بحرية تامة أن يمارسا ما يحلو لهما من الشهوات، وأولها شهوة البطن، وأن يمارسا الأفعال المتنوعة بإرادتهما التي منحها جل شأنه لهما في الدنيا، دار العمل والابتلاء والاختبار. وبعد انقضاء أجلهما ينتقلان إلى الدار الآخرة وأولها حياة البرزخ⁽¹⁾. انتظارا للبعث والنشور والحساب ويحدث كل ذلك لذريتهما من البنين والبنات إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وحتى تتم إرادة الله الواحد الأحد في تعمير الأرض واستعمارها بالبشر وغيرهم من أدوات التعمير والإعمار - كان لابد أن يعرف آدم عليه السلام الجماع، ليجامع حواء، حتى تنجب أولادا وبنات يساهمون في عمارة الكون. ومن المؤكد أن آدم عليه السلام تعلم الجماع وكيفيةه عن طريق الإلهام من الله تعالى. فهو سبحانه مصدر كل علم يتعلمه آدم وحواء. ولا يشترط لذلك أن ينزل إليه ملك يعلمه طريقة الجماع، ثم يعود إليه بعد ممارسته له حتى يطمئن إلى تلك الممارسة، كما ورد في بعض الآثار التي أنكرها العلماء⁽²⁾. وعلى أية حال، فقد جامع آدم زوجته حواء. وقد اقتضت إرادة الخالق العظيم أن تلد حواء في كل بطن ذكرا وأنثى. ولم يكن الذكر يتزوج

(1) حياة البرزخ: حياة القبر

(2) ومن ذلك حديث سعيد بن ميسرة الذي أنكره العلماء ص21 من قصص الأنبياء - لابن كثير تحقيق أبي عبد الله الأنصاري.

الأنثى التي ولدت معه في ذات البطن. " وكان يُزَوَّجُ الذكرُ مِنْ هذا البطن الأنثى من البطن الآخر. فلما أراد آدم عليه السلام أن يزوج قابيل أخت هابيل، ويزوج هابيل أخت قابيل⁽¹⁾، رضى هابيل، وأبى قابيل، لأن توأمته كانت أجمل. فقال لهما آدم: قَرَّبَا قربانا فَمِنْ أَيُّكُمَا تُفْبِّلُ تزوجها. وكان قابيل صاحب زرع فقرب أرذل ما عنده، وكان هابيل صاحب غنم فقرب أحسن كبش عنده. فَتُفْبِّلُ قربان هابيل، بأن نزلت نار فأكلته. فازداد قابيل حسدا وسخطا وتوعد هابيل بالقتل " (2). ففي أول زواج يتم على وجه الأرض حرص آدم عليه السلام أن يتم باختيار سليم سعيد من ولديه هابيل وقابيل كل لزوجته. فأشار عليهما بتقديم القربان عندما رفض قابيل الزواج من توأمة هابيل. ولا شك أنهما إن أطاعا أباهما آدم عليه السلام فإنهما يكونان بذلك قدوة حسنة، لبنى آدم جميعا. فسلوك آدم عليه السلام في الالتجاء إلى الله عز وجل، وحثه ولديه قابيل وهابيل على فعل ذلك - هو أحسن طريق يوصل أبناء آدم وبناته إلى الأمان والسعادة، في كل ما يعترضهم من مشاكل وصعاب.. وإذن فالأولى والمضمون للسعادة بين أفراد الأسرة يتمثل في اللجوء إلى الله العلى القدير، والتماس العون منه لاختيار الزوجة المناسبة. ويمكن أن يتم ذلك الآن عن طريق الاستشارة كما ورد في السنة النبوية الكريمة.

وتقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل من قابيل. فغضب قابيل أشد الغضب وتوعد أخاه هابيل بالقتل، كما سبق، وكانت حجته أن أباه آدم دعا الله تعالى أن يتقبل قربان هابيل ولم يدعه سبحانه بتقبل

(1) هابيل وقابيل هما أول من أنجبهما الأبوان آدم وحواء. وكانت مع كل توأمة له ولدت معه من ذات البطن.

(2) الكشف 484/1 والقرطبي 134/6، وانظر أيضا ص 17 من كتاب صفوة التفسير - القسم الثالث - الطبعة الأولى - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.

قربان قابيل⁽¹⁾. وعندما رد هابيل على حجة أخيه بأن الله يتقبل ممن يتقيه، ولا يتقبل ممن يعصيه - اعتقد قابيل عند ذلك أن أخاه هابيل يتهمه بالعصيان فازداد غضبه، وأصر على قتل أخيه عندما تحين الفرصة.. وفي أول استجابة من بنى آدم لنزغة الشيطان الرجيم على وجه الأرض - قتل قابيل هابيل، ناسيا أن السعادة كل السعادة تكون بطاعته لأبيه آدم الذي وجهه من أول الأمر الوجهة الصحيحة التي يرضى عنها الله عز وجل. وهى الزواج من توأمة أخيه هابيل. وكان على قابيل أن يفعل ذلك وخصوصا بعد أن تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل قربانه. ولو فعل قابيل ذلك لأحس بالسعادة الحقيقية. لكنه لم يدرك أن السعادة تكون بطاعة الله والوالد، ولا تكون بالقتل وسفك الدماء. وقد ندم قابيل على فعلته. وأحس بأنه من الخاسرين حيث لم يطع الله ولم يطع أباه.

ويقول ربنا العظيم في هذا الشأن: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبِلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلْتِجُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ } [المائدة: ٢٧ - ٣١]..

ولم يشعر قابيل بالسعادة رغم تزوجه من البنت الأجمل وهى توأمة. وذلك لأنه لم يدرك أن الجمال الجسدى ليس هو المصدر الوحيد للسعادة. بل لابد من القناعة والرضا بما قدر الله وقسم له

(1) ص36 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى.

ولأخيه.

وقد " ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعُلقت ساقه إلى فخذه، وجُعِل وجهه إلى الشمس كيما دارت؛ تنكيلا به وتعجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه " (1). وما قاله مجاهد رضى الله عنه يعتبر تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم، والخيانة والكذب، وإنَّ أعجل الطاعة ثوابا لصلَّة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة، فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم إذا تواصلوا** — (2).

وقد ورد في السنة النبوية الكريمة ما يشعر بأن قابيل شريك لكل قاتل يقتل غيره ظلما، ومن ذلك قول الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية ووکیع قالوا: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل** — (3) ...

وتوالت ذرية آدم وحواء، عليهما السلام، بعد قابيل وهابيل وأختيهما، من البنين والبنات. وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم: أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدا في عشرين بطنًا " قاله ابن إسحاق وسماهم والله تعالى أعلم.. وقيل مائة وعشرين بطنًا في كل واحد ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته (فليما)، وآخرهم عبد

(1) ص39 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تعليق أبي عبد الله الأنصاري.
(2) رواه الطبراني ص131 من كتاب مختار الأحاديث النبوية، للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمي.
(3) ص38 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق أبي عبد الله الأنصاري.

المغيث وأخته (أم المغيث). وذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمئة ألف نسمة " والله أعلم⁽¹⁾... وكان كل هذا الإنجاب - كما سبقت الإشارة - على أساس سماوى يضمن السعادة لكل زوجين ولكل أسرة تنشأ في هذا الإطار..

* * *

(1) ص40من المصدر السابق.

الفصل السابع:

مراحل خلق الإنسان والاهتمام بها

اهتم القرآن الكريم، كما اهتمت السنة النبوية المطهرة، بمراحل خلق الإنسان وتوضيحها. فذلك يؤدي حتما إلى زيادة الإيمان بالله الخالق العظيم سبحانه. وينبه إلى وجوب حسن الاستعداد والتتبع الدائم لهذه المراحل.

ففي القرآن الكريم تشير الآيات المباركة في أكثر من سورة إلى هذه المراحل والاهتمام الإلهي بها. ففي سورة (المؤمنون) نجد الإشارة إلى أن هذا الإنسان من ذرية آدم وسلالته. وآدم مخلوق من طين، وكذلك ذريته يدخل في تركيبها تراب الأرض. كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.. وتشير آيات هذه السورة الكريمة إلى أن هذا " الإنسان كان أول ما كان نطفة من المنى، تقذف وتراق في الرحم، وتستقر فيه. ثم صارت النطفة علقة، أي قطعة من الدم المتجمد تشبه العلقة أي الدودة تعلق بجدار الرحم. ثم تحولت العلقة إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة لا شكل فيها ولا تخطيط، يتبين فيها ما يشبه آثار المضغ. وفي طور المضغة " تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته أي يتحول من مضغة غير مخلقة إلى مضغة مخلقة. ويأتي بعد ذلك طور تحول المضغة إلى عظام. وفيه تقدر له مفاصل أعضائه وعظامه وعروقه وعصبه. ويشق له سمع وبصر وفم. وينفتح حلقه بعد أن كان رتقا أي مغلقا. ويركب فيه اللسان. ثم تكسى العظام لحما. ويربط بعضها إلى بعض بأحكم رباط وأقواه. وهو الأسر، الذي قال الله تعالى فيه: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَلَهُمْ تَبْدِيلًا} (٢٨)

[الإنسان: ٢٨]. ثم تنفخ فيه الروح " (1).

فعن أطوار خلق الإنسان يقول ربنا عز وجل: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) [المؤمنون: ١٢ - ١٤]. وعن هذه الأطوار جاء فيما رواه البخارى ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إِنْ أَحَدَكُمْ يَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِي أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحُ»** (2).

ومن خلال ما عرضنا من آيات قرآنية ومن أحاديث نبوية نلمس بوضوح آثار رحمة الله سبحانه وتعالى في مرور المني بهذه المراحل المتعاقبة حتى يصير بشرا سويا بعناية الله عز وجل وتقديره وحكمته. فهو الذي خلق فسوى، وقدر هذا الإنسان حتى خرج في أحسن تقويم إلى عالم الوجود الدنيوى..

وفى الأسر، أى الرباط المحكم الذي يربط أوصال الإنسان بعضها ببعض، والذي يدل على بديع صنع الخالق الكريم - روى الإمام أحمد في مسنده: حدثنا روح بن عبادة. حدثنا هلال. حدثنا ثابت عن صفوان بن محرز قال: " كان نبي الله داود عليه السلام إذا ذكر عذاب الله تخلعت أوصاله لا يمسكها إلا الأسر. فإذا ذكر رحمة الله

(1) ص5، 7 من كتاب تنوير الأذهان بذكر أطوار خلق الإنسان - لابن قيم الجوزية - تحقيق أبو أسامة الطحاوى بتصرف واختصار.

(2) ص37، 38 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ سيد الهاشمى - حرف الألف.

رجعت " (1). وهذا تصديق لحديث شريف آخر رواه ابن عساكر عن ابن عمر: " كان الناس يعودون داود يظنون أن به مرضا وما به إلا شدة الخوف من الله " (2). فشدة خوف هذا النبي الكريم من الله عز وجل كانت تؤدي إلى تخلع أوصاله بعضها من بعض ولولا الأسر لتركت أماكنها تماما..

وبهذا تتجلى بوضوح عظمة الخالق البارئ المصور في الاهتمام التام بتتبع مراحل خلق الإنسان ورعايتها. خصوصا مرحلة النطفة التي يتعلق بها قدر كبير من سعادة الأفراد والأسر المسلمة...

* * *

(1) ص7 من كتاب تنوير الأذهان بذكر أطوار خلق الإنسان - لابن قيم الجوزية.
(2) ص110 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ سيد الهاشمي - حرف الكاف.

الفصل الثامن:

تخير النطفة

إن المتتبع لسور وآيات القرآن الكريم يلاحظ أن الله عز وجل قد خلق النوع الإنساني على أربعة أضرب⁽¹⁾. أحدها: لا من ذكر ولا من أنثى كآدم عليه السلام. والثاني: من ذكر بلا أنثى كحواء عليها السلام. والثالث: من أنثى بلا ذكر كالمسيح عليه السلام. والرابع: من ذكر وأنثى كسائر النوع. والضرب الرابع أى خلق الإنسان من ذكر وأنثى هو موضوع حديث هذا الفصل. ومراحل خلق هذا الإنسان معروفة. وقد سبق توضيحها. وضحاها القرآن الكريم. ووضحتها السنة النبوية الشريفة..

وفى إشارة إلى المرحلة الأولى من مراحل خلق الإنسان - يقول الحق تبارك وتعالى: {يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ} الآية [الحج: ٥]. فالمرحلة الأولى من مراحل خلق الإنسان هى خلقه من تراب الأرض أسوة بأبيه آدم عليه السلام. والفارق بينهما، أن الله الخالق العظيم، خلق آدم بيده من تراب الأرض فلم يكن به منى. أما بنو آدم ففى خلقهم يخلط المنى بتراب الأرض. فيأخذ الملك الموكل بهذا الأمر من قبل الخالق جل وعلا، من التراب الذي يدفن في بقعته هذا الإنسان فيعجن به نطفته. وفى القرآن الكريم ما يدل على ذلك؛ حيث يقول المولى الكريم: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: ٥٥]. وسوف نلقى الضوء على تفسير الآية بعد قليل. وفى سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ما

(1) أضرب: أنواع.

يدل أيضا على ذلك. حيث يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: **ما من مولود إلا وقد دُرَّ عليه من تراب حفرته—(1)**. وقد روى مرة عن ابن مسعود أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة من الرحم فيضعها على كفه، ثم يقول: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال مخلقة، قال يا رب ما الرزق؟ ما الأثر؟ ما الأجل؟ فيقول أنظر في أم الكتاب، فينظر في اللوح المحفوظ، فيجد فيه رزقه، وأثره، وأجله، وعمله، ويأخذ التراب الذي يدفن في بقلته ويعجن به نطفته. فذلك قوله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْتَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ} [طه: ٥٥] (2) الآية.. والمقصود بكلمة الأثر في الرواية السابقة - رواية مرة عن ابن مسعود - التراب الذي يؤخذ فيعجن به ماؤه.

وقد وضع هذا المعنى في رواية أخرى عن علقمة عن عبد الله ق

" إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها الملك بكفه، فقال: أي رب أمخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفها الأرحام دما. وإن قال مخلقة، قال: أي رب أذكر أم أنثى؟ أشقى، أم سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأى أرض تموت؟ فيقول: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد هذه النطفة فيها، فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله، فتخلق، فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، فإذا جاء أجلها ماتت فدفت في ذلك المكان، فالأثر هو التراب الذي يؤخذ فيعجن به ماؤه " (3). ومن ذلك يتبين أن ذرية آدم من لدن هابيل ولده الأكبر إلى يوم الدين هي

(1) رواه أبو نعيم عن أبي هريرة ص95 من كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة تأليف القرطبي سنة 671هـ - الطبعة الثانية 1978م - حفرته: أي قبره.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(3) ص95، 96 من المرجع السابق.

الأخرى - خلقت وتخلق من تراب الأرض في المرحلة الأولى من خلق الإنسان. وليس آدم وحده هو الذي خلق من ترابها. ويؤيد ذلك أيضا ما أضافه الأستاذ الدكتور السعيد عاشور في كتابه "الإنسان في القرآن الكريم" وقد سبقت الإشارة إليه. وهو أن عناصر تكوين الإنسان هي نفسها عناصر تكوين الأرض وطينها..

ويقابلُ هذا التكريم الذي حظى به الإنسان في خلقه، منذُ تَكُونُ نطفته التي خلطت بتراب الأرض، تكريم آخر للنطفة أوجبه الإسلام على المسلمين والمسلمات إذا أرادوا الزواج. فعليهم أن يختاروا الوعاء الصالح للنطفة؛ لأنها تعد أمانة في أعناقهم، وعليهم أن يضعوها في موضعها اللائق بها. فقد صورها الخالق العظيم في أحسن صورة وهيئة. يقول ربنا العظيم: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [التغابن: ٣]. ويقول الحكيم العليم سبحانه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]. ومن ثم يجب على الإنسان إن أراد الزواج أن يحافظ على هذه النطفة ويضعها في موضع مصون مختار باتقان؛ ليحظى الفرد والأسرة والمجتمع المسلم. ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يحث المسلمين والمسلمات على تخير الأوعية الصالحة للنطف المسلمة. فيقول ربنا الكريم: {الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِينِ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِينِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ} [النور: ٢٦] الآية، فسنة الله عز وجل في خلقه من البشر أن يقترن الطيبون بالطيبات، وأن يرتبط الخبيثون بالخبيثات. فيلجأ الطبيب إلى الطيبة ويلجأ الخبيث إلى الخبيثة. فالزاني مثلا لا يقترن إلا بزانية أو مشركة، فكلاهما خبيث. وكذلك الزانية لا يتزوجها إلا زان أو مشرك لأن كلاهما خبيث. وصدق الله العظيم حيث يقول: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ

ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ [النور: ٣].

وفي مجال السنة النبوية الكريمة يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: **تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ، وَانْكَحُوا الْأَكْفَاءَ وَأَنْكَحُوا إِلَيْهِمْ** — (1). ويقول الهادي البشير صلى الله عليه وسلم: **تَزَوَّجُوا فِي الْحَجَرِ الصَّالِحِ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَاسٌ** — (2). ويقول صلى الله عليه وسلم: **خَيْرُ نِسَائِكُمُ الْعَفِيفَةُ الْغُلَمَةُ، عَفِيفَةٌ فِي فَرْجِهَا غُلَمَةٌ عَلَى زَوْجِهَا** — (3). وحدثت السنة النبوية أيضاً على تجنب الزواج من البيئة غير الصالحة لذلك ومن النساء غير الصالحات. وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ — قَالُوا وَمَا خَضِرَاءُ الدَّمَنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَنْبِتِ السَّوِّءِ** — (4). ففي النصوص السابقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة والتي أشرنا إليها - ما يشير إلى وجوب تخير البيئة الصالحة والبيت المعروف بشرف العرض والطيب والأخلاق الكريمة.. كما يجب التأكد من السلامة العامة للجسم، حيث تنتقل صفات الأبوين العقلية والخلقية والجسمية وحتى الأخلاقية إلى الطفل.. وقد سبق الإسلام العلم الحديث في بيان ذلك والمطالبة به. وأشارت إليه نصوص إسلامية كثيرة، قبل أن يصل إليه علم الوراثة الحديث بأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان. ومن ذلك -

(1) رواه ابن ماجه بسنده عن عائشة ص375 - من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور وزير الأوقاف السابق.

(2) أخرجه ابن عدى عن أنس ص53 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد لعبد العزيز الشناوى 1994م.

(3) رواه الديلمى عن أنس ص74 حرف الخاء من مختار الأحاديث النبوية للهاشمى - الغلطة: التي تهوى جماع زوجها.

(4) رواه الدارقطنى في الأفراد والديلمى عن أبى سعيد الخدرى والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبى سعيد الخدرى ص68، 69 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى - تحقيق محمد عثمان الخشت يونيو 1984م. فالمرأة سيئة الخلق والسلوك تكون كالبهيمة التي تربي في المذبلة وإن كانت حسنة المظهر.

علاوة على ما سبق: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **تَخَيَّرُوا لِنَظْفِكُمْ فَإِنَّ النِّسَاءَ يَلْدُنَّ أَشْبَاهَ إِخْوَانِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ** — (1). وفي حديث أنس بن مالك الثابت في الصحيحين البخاري ومسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم: **لَمْ يَرْضَ اللَّهُ عَنْهَا: ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا أو سبق يكون منه الشبه** — (2). وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة: **إذا علا ماءها ماء الرجل، أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها، أشبه أعمامه** — (3).

وحتى في الذكورة والأنوثة قد يمكن تحديد نوع المولود ذكرا كان أم أنثى بعلو ماء أحد الزوجين. فقد دلت بعض الآثار الإسلامية على أنه إذا علا ماء الرجل ماء الأنثى كان المولود ذكرا بإذن الله. وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان المولود أنثى بإذن الله. فقد ورد في حديث مسلم عن ثوبان أن حبرا من أحبار اليهود قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أردت أن أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: **أيُنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟** قال: **أسمع بأذني.** قال: **جئتُك أسألك عن الولد، قال: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر. فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله. وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله.** فقال لليهودي: **لقد صدقت وإنك لنبي.** ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **قد سألتني عن الذي سألتني عنه ومالي**

(1) رواه ابن عدي وابن عساكر عن عائشة ص53 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوي.

(2) رواه أنس في الصحيحين ص193 من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - لابن قيم الجوزية.

(3) نفس الصفحة من المصدر السابق.

علم بشيء منه حتى أتاني الله عز وجل به — (1).

وقد تقتضى مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يعلو ماء الرجل ولا يكون المولود ذكرا أو يعلو ماء الزوجة ولا يكون المولود أنثى. فتبقى إذن مشيئة الله تعالى هي الغالبة. ورغم ذلك لم يتوصل العلم إلى إمكان معرفة جنس المولود إلا في العصر الحديث في المرحلة الأخيرة من الحمل. فالإسلام سابق للعلم الحديث في هذا المجال أيضا كما وضحا. يقول الأستاذ الدكتور السعيد عاشور في كتابه " الإنسان في القرآن الكريم " (2): جنس الجنين يتحدد على ثلاثة مستويات: مستوى الغيب ومستوى الصبغيات ومستوى الأنسجة. وعن مستوى الغيب يقول: " قدر الله أمر المخلوقات قبل تمام الخلق في اللوح المحفوظ، ثم قدرها في عالم الذر أى قبل مولد الإنسان ". وعن مستوى الصبغيات يقول: " قدر الله تعالى نوع جنس الجنين في الحيوان المنوى الذي يلتقى بالبويضة الأنثوية لتلقيحها. فإذا التقى حيوان منوى يحمل شارة الذكورة " y " بالبويضة التي تحمل دائما شارة الأنوثة " x " - فإن الجنين سيكون بمشيئة الله تعالى ذكرا. أما إذا التقى حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة " x " بالبويضة التي تحمل دائما شارة الأنوثة " x " - فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله تعالى ". وعن مستوى الأنسجة يقول الدكتور السعيد عاشور: " يبدأ في نهاية الأسبوع الرحمتى العاشر نمو خصية الذكر قبل نمو بويضة الأنثى - من الحدبة التناسلية الواقعة بجوار الكلى في المنطقة المحددة بين الصلب (منتصف العمود الفقري) والترائب (أسفل

(1) ص36، 37 من كتاب تنوير الأذهان بذكر أطوار خلق الإنسان - لابن قيم الجوزية.
(2) ص95 من كتاب الإنسان في القرآن الكريم - للأستاذ السعيد عاشور - أستاذ الهندسة الصناعية والإدارية - بكلية هندسة المنصورة.

الضلوع الصدرية) مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾} [الطارق: ٥ - ٧]. ثم يقول: "وتبدأ الأعضاء التناسلية الظاهرة ببرعم صغير يلتصق في الذكر مكونا كيس الصفن، أو يبقى مشقوقا في الأنثى" (1). ولا يكشف ذلك إلا طبيب حاذق وقد لا يستطيع وقد وضحنا سابقا أن الإسلام قد سبق العلم الحديث - كما هو واضح في النص العلمى السابق - في إمكانية معرفة جنس الجنين. ومع ذلك يبقى الأمر مرهونا بمشيئة الله عز وجل. فيصبح تكهن العلم الحديث بذلك نوعا من العلم المتقدم الذي قد يحصل وقد لا يحصل. وفى ذلك يقول المولى العظيم سبحانه: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَزُوجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثَاءً يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الشورى: ٤٩ - ٥٠]..

والمهم في هذا الأمر كما قدمنا هو الاهتمام بهذه النطف ووضعها في وعائها الصالح اللائق بها. وهذا حق الأجيال الناشئة من لدن هابيل إلى يوم الدين. وهو أيضا واجب الأبوين في كل أسرة على مستوى العالم الإسلامى كله حتى تكون الأسرة المسلمة سعيدة والمجتمع الإسلامى أسعد وأوفق.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن انتقال الأمراض الخطيرة والعيوب الخلقية المؤثرة من الأبوين إلى الأبناء عن طريق الوراثة - وارد ومحتمل. وخصوصا إذا كان هناك اتجاه للزواج من الأقارب مع وجود شبهة في احتمال انتقال مرض خطير أو عيب خلقى منفر. وتحذرنا كتب السنة النبوية المباركة من الاتجاه إلى الزواج من الأقارب في هذه الحالة. فالقربة كما ثبت واقعا - قد تسهم في نقل

(1) نفس الصفحة من المرجع السابق.

هذا المرض أو العيب الخلقى الخطير إلى الذرية القادمة. ولذلك ورد نهى عمر بن الخطاب لبنى السائب وتحذيرهم من الزواج بالأقارب خشية انتقال الأمراض والعيوب الخلقية الخطيرة - بعد أن رأى أجسامهم واهية ضعيفة سقيمة. فقد روى ابن أبي مليكة عن عمر بن الخطاب قوله لهؤلاء القوم: " يا بنى السائب إنكم قد أضويتم فانكحوا في النزاع " (1).

ففى هذا الأثر نهى عن الزواج من الأقارب بسبب ما عندهم من مرض يتوقع انتقاله إلى الذرية.. ويؤيد احتمال انتقال المرض من الأبوين إلى الأبناء بالزواج من الأقارب عن طريق الوراثة - ما قاله العلامة أبو حامد الغزالي في كتابه " الزواج الإسلامى السعيد ". فقد قال:

" إن الوراثة تتم عن طريق الصفات الوراثية بما فيها الاستعداد المرضى والعيوب الأنزيمية. وتحمل الجينات هذه الصفات الوراثية في الخلايا الحية. وإذا وُجدَ العيبُ الخلقى الذي تحمله إحدى جينات الأب مثلاً وتزوج سيدة لا تحمل مثل هذا العيب - فإن انتقال الصفة للأبناء يكون مخففاً وضعيفاً. أما إذا كانت الزوجة تحمل مثل هذا العيب لوجود قرابة للزوج غالباً - فإن انتقال العيب إلى الأبناء يتضاعف باستمرار. وكلما كانت درجة القرابة بين الزوجين أكثر كانت الاحتمالات أكبر " (2). فهذا النص يوضح بجلاء أن احتمال انتقال المرض أو العيب

(1) ذكره الزبيدي عن إبراهيم الحربي في الغريب وعن أبي نعيم في فضل النفقة على البنات. انظر الزبيدي على الأحياء 349/5 - أضويتم: ضعفتم وأصابكم العلل - النزاع: الغرائب. وانظر ص 284 من كتاب السنة في الزواج - للدكتور الأحمدي أبو النور.

(2) ص 59 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت.

الخلقى من إحدى جينات الأب الغير متزوج من قريبة تكون أقل بكثير مما إذا كان هذا الأب متزوجا من قريبة له تحمل هذا العيب أو المرض بسبب قرابتها له..

ومن هنا يجب التحرى بدقة عند الاختيار. كما يجب تجنب الاختيار من الأقارب إذا كانت هناك شبهة في احتمال مرض أو وجود عيب خلقى خطير يخشى انتقاله في حالة الزواج من الأقارب. وتلك مسؤولية الزوجين حتى لا ينتج عن هذا الزواج جيل مريض من الأبناء والبنات أو يحمل عيوباً خلقية لا يمكن تجنبها أو تقبلها. فالغاية من الزواج إنتاج جيل صالح خال من العيوب الخلقية والأمراض الخطيرة حتى لا تحرم الأسر والأفراد المسلمة من السعادة التي هي الغاية من الزواج وسوف. نلقى مزيداً من الإيضاح لهذه المسألة في حديثنا عن الزواج من الأقارب إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب الثاني: ركائز وأسس الاختيار الصحيح للزوجين في الإسلام

الباب الثاني

ركائز وأسس الاختيار
الصحيح للزوجين
في الإسلام

الباب الثاني: ركائز وأسس الاختيار الصحيح للزوجين في الإسلام

إن ما سبق من الحديث عن خلق آدم وحواء عليهما السلام، وذريتهما، وعن مراحل هذا الخلق وتطورها، وخصوصا مرحلة النطفة وتخيرها ووجوب الحفاظ عليها والاهتمام بها - ينقلنا إلى الحديث عن الركائز والأسس الإسلامية الهامة التي يجب أن يُبنى عليها الاختيار الصحيح لكل من الزوج والزوجة. وقد اهتم الإسلام - قرآنا وسنة - باختيار كل من الزوجين للآخر، اختيارا صحيحا، يؤدي إلى سعادة الطرفين، والأخذ بيدهما لبناء أسرة سعيدة على عدد من الأسس الشرعية. كالاختيار على أساس الدين والأخلاق الفاضلة، وعلى أساس الأصل والشرف، وعلى أساس تجنب الزواج من الأقارب إن أمكن وخصوصا في حالة الاشتباه في وجود مرض أو عيب خلقى، وعلى أساس تفضيل البكر، وتفضيل المرأة الولود، وعلى أساس الكفاءة بين الزوجين، وعلى أساس الجمال المقترن بالتدين والأخلاق الكريمة، وعلى غيرها من الركائز والأسس التي لا بد من توافرها لقيام أسرة إسلامية سعيدة في مجتمع إسلامي سعيد..

* * *

الفصل الأول:

الاختيار على أساس الدين والأخلاق الفاضلة

يعتبر الاختيار على أساس الدين والأخلاق الفاضلة هو أول وأهم الركائز والأسس. إذ يترتب على النجاح والتوفيق فيه، نجاح وتوفيق في اختيار بقية الأسس والركائز لأن كل ما بعده من الأسس مدعوم به ومرتّب عليه. وقد وضّح القرآن الكريم، كما وضّحت السنة النبوية المباركة هذا الاختيار وأهميته وكيفيته.

وإذا بدأنا بالقرآن الكريم، نجد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. فقد نهى الله جل جلاله المؤمنين، وهو الأعلّم بما ينفعهم وما يضرهم، عن التزوج من المشركات حتى لو أعجبهم حسنهن الفاتن. لأنهن من قوم يدعون إلى النار ولا يدينون دين الحق الذي يدعو إلى الجنة. فهن - وهن على الشرك - يتصرفن تبعاً لأهوائهن في كل الأمور والأحوال. والهوى هو النفس، والنفس أمارة بالسوء إلا من رحم الله. فلا يجوز الاقتران بهن والتزوج منهن إلا إذا آمن بالله رب العالمين. كما نهى الله عز وجل نساء وبنات المؤمنين عن التزوج من رجال وشباب المشركين إلا إذا آمنوا. فالأمة المؤمنة خير للمؤمن حتى لو أعجبته المشركة بجمالها. والعبد المؤمن خير للمؤمن حتى لو أعجبها المشرك برجولته أو شبابه، لأن المشركين - وهم على الشرك - بعيدون دائماً عن الحق ويجندون

أنفسهم ومن تبعهم لخدمة الشيطان وحزبه. يدعونهم إلى الرذائل ويصرفونهم عن المكرمات والأعمال الصالحة التي تنفعهم في دينهم ودنياهم. فسيكونون إذن بطبيعة أحوالهم الشريكة شرا مستطيرا على زوجاتهم من المسلمات، يجذبونهن دائما إلى طريق الضلال والخسران.

ونجد أيضا قول ربنا عز وجل: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم: ٢١]. فقد تضمنت هذه الآية الكريمة أهم أهداف الزواج السعيد الناتج عن اختيار موفق على أساس الدين والأخلاق الكريمة. فالسكن والمودة والرحمة كلها أمور لا يمكن أن تتحقق لو لم تتوفر لها عقيدة إسلامية صلبة وأخلاق إسلامية عالية، تؤدي إلى الإيمان بالله القادر على كل شيء وتستمد منه العون على توفر الأمن والسعادة لكل من الطرفين. يقول الحكيم العليم سبحانه: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا } [الكهف: ٤٦]. ويقول أصدق القائلين جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [المنافقون: ٩]. ويقول المولى الكريم سبحانه: {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ } [الأنعام: ٨٢]. فهذا الاختيار وهذه الركيزة القائمة على اختيار كل من الزوجين للآخر على أساس الدين والأخلاق الحميدة - هبة من الله الكريم يهبها من يشاء من عباده الصالحين؛ ليجعل حياتهم في الدنيا مع قصرها سعيدة هنيئة مملوءة بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام. فالمؤمنون أحق بالأمن والسعادة من الكفار والمشركين، ما لم يخلطوا إيمانهم بشرك. والأمن يعنى أول ما يعنى الاستقرار والسعادة. واستنادا إلى هذه

الركيزة ومن زاوية الأخلاق الكريمة التي ينبغى أن يتمتع بها الرجل والمرأة أو البنت المقبلان على الزواج - يمتنع أن يتزوج الزانى الذي سمح لنفسه بانتهاك أعراض المسلمات من النساء والبنات الفضليات، وكذلك يمتنع على المرأة أو البنت الزانية التي سمحت لنفسها بتلويث عرضها وعرض أسرتها أن تتزوج بالرجال الأفاضل.. يقول الحق تبارك وتعالى: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٣].

فإذا انتقلنا إلى السنة النبوية الكريمة الحبيبة إلى نفوس المسلمين والمسلمات - نجدها قد وضحت وفصلت هذا الأساس تفصيلا مُعِيناً على حسن الاختيار موصلاً إلى السعادة المستهدفة.. ومن ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم موجهاً الخطاب إلى آباء البنات وأولياء أمورهن حيث قال: **♂ إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** — (1). فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يحذر الآباء وأولياء أمور البنات من التراخي والتردد إذا تقدم لبناتهم من يرضون عن دينه وخلقه. فالواجب عليهم في هذه الحالة أن يوافقوا ويباركوا هذا العرض بالزواج ما داموا قد تثبتوا من تمسك المتقدم بأداب الدين الإسلامى وتعاليمه ومن تحليه بالأخلاق الكريمة. إذ أن التردد والتراخي من العديد من آباء البنات وأولياء أمورهن في هذه الحالة - قد يؤدى إلى إحداث فتنة وفساد بين الشباب والفتيات على نطاق واسع. وهذا ما لا يرضاه الإسلام.. ومن ذلك أيضاً قول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم مخاطباً المقبلين على الزواج من الشباب والرجال ومن

(1) رواه الترمذى بسنده عن أبى حاتم المزنى. ص 61 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

يساعدهم في الاختيار: ١- تنكح المرأة لأربع: لما لها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك — (1). فهذا الحديث الشريف يحث الشباب وكل من يريدون اختيار زوجاتهم على التمسك بذات الدين أى المتدينة فهى وحدها - بدينها وأخلاقها الكريمة - القادرة على إقامة وتكوين أسرة صالحة سعيدة. ولا يمنع الإسلام أن يكون مع الدين والأخلاق الفاضلة حسب أو جمال أو مال أو أن تجتمع كلها. ولكن يبقى أن يكون الدين والأخلاق الفاضلة هما الأساس في الاختيار...

ولا شك أن الزوج المتمسك بدينه الإسلامى، والحريص على تنفيذ ما به من التزامات نافعة في مجال حقوق وواجبات الأزواج والزوجات، وكذلك الزوجة أو المتجهة إلى الزواج والمتمسكة بدينها الإسلامى وما به من التزامات وتوجيهات نافعة للأزواج والزوجات - لابد أن يكونا من ذوى ذوات الأخلاق الكريمة. ويبشر الله عز وجل هذين الصنفين من الرجال والنساء ممن يتمسكون بدينهم ويتصفون بأخلاق إسلامية عالية - إذا تزوجوا أو اتجهوا إلى الزواج - بالفوز والفلاح في الدارين. فيقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥].

(1) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ص61 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى - حرف التاء - تربت يداك: أى التصقت بالتراب كناية عن الفقر الذي يلحق به إذا تزوج من غير ذات الدين وترك المتدينة.

والواضح من تفسير هذه الآية الكريمة أن هذا الأجر العظيم الذي ثبت لكل من اتصف بالصفات الكريمة الواردة في الآية - لا يختص فقط بالآخرة، وإنما يشمل الدنيا أيضا. فيكون من شأن هؤلاء المتخلفين بتلك الأخلاق العالية الرفيعة - التوفيق في كل مراحل ومجريات حياتهم الدنيا، ماداموا ملتزمين بتلك الأخلاق الفاضلة التي توصل إلى رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وينطبق ذلك على الرجال والنساء على حد سواء..

وتحذرنّا كتب السنة من غير الفضليات من النساء والبنات، ومن الارتباط بهن بزواج أو غيره. وذلك لعدم التزامهن بما توجبه الأخلاق الفاضلة ومبادئ الدين والتوجيهات الإسلامية - في التعامل مع أزواجهن. وقد حُكِيَ أن السائح الأزدي لقي إلياس عليه السلام في سياحته، فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل - وهو البعد والانصراف عن الزواج والنساء، ثم قال: " لا تنكح أربعا: المختلعة، والمبارية، والعاهرة، والناشر " (1) وبالنظر في المعنى المراد من تلك الأربعة التي نهى إلياس عليه السلام السائح الأزدي عن الزواج منهن - نجد أنهن من ذوات الأخلاق الوضيعة، التي لا يرضى عنها الإسلام ولا يقرها بل يحذر منها.. فالمختلعة هي التي تطلب خلع نفسها من الارتباط بزوجها في كل وقت بلا سبب موجب لذلك الخلع شرعا. فالخلاف بين الزوجين متوقع ولا يكون الخلاص منه بالخلع بلا ضرر واضح بَيِّن.. والمبارية هي التي تستعرض لزوجها غيرها ممن تعرفه من النساء، وتفخر بهن أمامه، وتتخذهن أمثلة للكمال الأنثوى. وتذكر له ما يمتلك من متع الدنيا الزائلة لتشتري منها

(1) ص62 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - للشيخ أبى حامد الغزالى - تحقيق محمد عثمان الخشت يونيو 1984م.

النصيب الأكبر؛ مما ينفر منها زوجها الصالح التقى.. والعاهرة هي الفاسقة، التي تخرج بأقوالها وأفعالها الخبيثة عن طاعة الله تعالى ورسوله الكريم. كما أنها عادة تكون معروفة ومشهورة بخيل وخذن، عكس ما تفعله النساء الفضليات العفيفات من ملك اليمين اللاتي يقول الله عز وجل فيهن: {فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} [النساء: ٢٥] الآية.. يقول ابن عباس: " والخذن هو الصديق للمرأة يزنى بها سرا " (1).. أما الناشز فهي التي تنكر حق زوجها وتتعالى عليه دائما بالقول والفعل. وتتمرد عليه ولا تطيعه. ولا تنفذ ما أمرتها به الشريعة الإسلامية تجاهه. ومن ذلك العرض يتضح أن الأربعة التي تحدث عنهن إلياس عليه السلام يتصفن بالأخلاق المنفرة الوضيعة التي لا تراعى فيها حقوق الزوج التي حث عليها الإسلام. ومن ثم فقد نهى السائح الأزدي عن الارتباط بأيهن كزوجة. وفي ضرورة التمسك بحسن خلق الزوجة ينهى بعض العرب عن الزواج من ست من النساء فيقول: " ولا تنكحوا من النساء ستا: لا أئانة، ولا مئانة، ولا حئانة، ولا تنكحوا حدّاقة ولا برّاقة ولا شدّاقة " (2). وتلك الأصناف الست من النساء لا يتصفن بأخلاق حميدة: فالأئانة، كثيرة الأنين والشكوى تدعى المرض وتعصب رأسها كثيرا حتى تظهر بمظهر المريضة لمن لا يعرفها. وربما تشتكى زوجها لمن لا يعرفه ولا يقدره. والمئانة، تمن على زوجها

(1) ص 91 من القسم الثاني من كتاب صفوة التفسير الطبعة الأولى، الدكتور محمد على الصابوني، تفسير الآية 25 من سورة النساء.

(2) ص 61 من كتاب الزواج الإسلامي السعيد - للشيخ أبي حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت 1984م وص 53 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السعيد الشرقاوى - الطبعة الثانية، يوليو 1986م.

دائما فتذكره بأنها فعلت من أجله الكثير، ولا تذكر شيئا من فضائله وأفضاله عليها. والحنانة، تحن إلى زوج جديد، تريد التغيير، ولا تقنع بالزوج الذي جعله الله تعالى من نصيبها رغم صلاحه. وقد تحن إلى ولدها من زوج آخر فتثير غضب الزوج الصالح الحالى. والحدّاقة، تتطلع ببصرها إلى كل شيء وتشتهى تملكه، ولا تقنع بما وفره لها زوجها الصالح، الذي قد لا يستطيع بإمكانياته أن يوفر لها كل ما تشتئيه، فهى كالمبارية السابق ذكرها.. والبرّاقة، تقضى نهارها في تزيين وجهها حتى يلفت نظر المتطلع إليها، ويكون له بريق يجذب إليها الرجال. أما الشدّاقة، فهى كثيرة الكلام بغير حق أو فائدة، متشككة في كل شيء وتحاول أن تجعل غيرها يشك في كل شيء. وهى بذلك لا تقبل شيئا ولا تثق في أحد، وتكون مصدر قلق لمن تتزوجه..

والرجل أيضا إذا اتصف بإحدى الصفات العشر السابقة، فإنه يكون غير مرغوب فيه من النساء الصالحات. والصفة الغالبة على الرجال غير المتمسكين بتعاليم الإسلام وغير المتمتعين بالأخلاق الكريمة - هى الفسوق. فإذا كانت الفاسقة غير مرغوب فيها لما يغلب عليها من عدم التمسك بالدين وعدم التخلق بالأخلاق الفاضلة، فكذلك الرجل الفاسق يكون غير مرغوب فيه من النساء. فالولى أو الأب الذي يزوج ابنته من رجل فاسق يكون في مرتبة القاطع لرحمها؛ ذلك لأن الولى أو الأب يغلب عليهما شرعا وواقعا العمل لمصلحة ابنتهما وعدم تعريضها لحياة شقية عن طريق الزواج برجل لا يحب الارتباط والعمل بمبادئ الدين الإسلامى المحافظ على حقوق وواجبات الزوج والزوجة، ولا يتمتع بأخلاق حميدة. فهو إذن فاسق. وسوف يحاول أن يجعل امرأته فاسقة. وهكذا يكون الولى أو الأب

الذي يفعل ذلك، قد حول ابنته إلى امرأة فاسقة. وتلك جريمة كبرى في حق الابنة. فالإسلام يدعو إلى تكريم النساء والبنات. والبنات أمانة في عنق الآباء ومن يرعاهن من أقرب الأقارب. وقد نبه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فقال: **من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها** — (1).

وهكذا تحرص السنة النبوية الكريمة كما يحرص القرآن الكريم على بيان أن الاختيار الصحيح الموصول إلى السعادة - يكون دائماً على أساس الدين والأخلاق الفاضلة الكريمة، سواء بالنسبة للزوج أو الزوجة. وهذا التمسك بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف والأخلاق العالية الرفيعة في الاختيار - يسهل الوصول والتنعم بكل ما يوصل إلى السعادة، ويعنى أن النظر في بقية الركائز والأسس الموصلة إلى السعادة في الزواج - يكون أيضاً من زاوية دينية وعلى أساس من الأخلاق الإسلامية الرفيعة؛ حتى ينعم الطرفان بالاختيار الناجح الصحيح ويسعدان به...

* * *

(1) ضعفه البعض وصححه البعض ووصفه البعض بأنه موضوع. ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ورواه في الثقات من قول الشعبي بإسناد صحيح. ص70 من كتاب الزواج الإسلامي السعيد - لأبي حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت - يونيو 1984م.

الفصل الثانى:

الاختيار على أساس الأصل والشرف

يخبرنا رب العزة سبحانه في القرآن الكريم، أن أساس المفاضلة بين الناس، الذي يرضيه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لعباد الله في كل مكان وزمان - هو التقوى. فيقول جل شأنه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣]. فالتقوى هى أساس التفاضل والتفضيل بين الناس جميعا ذكورا وإناثا. والأكرم في الميزان السماوى هو الأكثر تقوى، كما أشار القرآن الكريم. وفى توضيح للتعقيد والمتقنين، يقول جل جلاله:

{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِ الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُوكَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ
الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧].

وكما تشير الآية الكريمة، فإن أعمال هؤلاء الأبرار المتقين تنحصر في الإيمان بالله سبحانه وتعالى، واليوم الآخر والملائكة والكتب المنزلة على الرسل الكرام وآخرها القرآن الكريم المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك الإيمان بالرسل الكرام جميعا. وتشمل التقوى كذلك إنفاق المال رغم حبه على الأقارب وأصحاب الحقوق كاليتامى والمساكين وابن السبيل الذي انتهى ماله وهو في السفر، والسائلين المعونة من غيرهم، وفى شراء الرقاب

وعتقها - وكان ذلك في أوائل قيام الدولة الإسلامية - وتشمل أعمال المتقين كذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الفقر والمرض، والصبر أيضا على القتال في سبيل الله.. ولا شك أن المتقين المتصفين بهذه الصفات الحميدة يعرفون مالهم عند زوجاتهم، وما عليهم نحو تلك الزوجات وهم الأقدر على تنفيذ ذلك..

وتواصل السنة النبوية المباركة بيان ذلك للراغبين والراغبات في الزواج من المسلمين والمسلمات - فتوجه كلا الطرفين إلى الاختيار على أساس الأصل الكريم، الخالي من العيوب الخلقية، وعلى أساس من الشرف النظيف والبيئة النظيفة. فيقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **تجدون الناس معادن فخيركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا** — (1). الحديث.

ويتضح من الحديث الشريف أنه حتى في حث السنة على ارتباط الرجل المسلم أو المرأة المسلمة بصاحب الشرف والأصل الكريم - فإنها تشترط أن يتوفر في ذلك التفقه في الدين. وذلك يعنى تواجد القدرة على الفهم في اختيار ذات الأصل الطيب والشرف المصون. وفى هذا المجال تحذرننا السنة النبوية المطهرة من اختيار المرأة الجميلة التي تعيش في منبت سيئ. وسوء المنبت يعنى سوء الأصل. ويتضح هذا التحذير من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إياكم وخضراء الدمن** — قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: **المرأة الحسناء في المنبت السوء** — (2).

(1) رواه البخارى ومسلم ص59 - حرف التاء من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه الدارقطنى والديلمى عن أبى سعيد ص52 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى - وقد سبق شرحه وتوضيحه في الفصل الثامن من الباب الأول.

ويشمل التفقه المطلوب أيضا أموراً هامة: كالقدرة على اختيار الأيسر حالاً، والخالي من العيوب الخلقية والخلقية والنقائص الفاضحة التي لا يمكن مداراتها أو التستر عليها. وذلك من حق كلا الطرفين؛ عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: **«تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس»** (1). وعملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»** (2) الحديث.. وذلك ينبه المسلمين المقبلين على الزواج إلى وجوب الاختيار الأمثل الخالي من العيوب الخلقية والصفات المذمومة..

وفى كتب السنة النبوية الكريمة ما يُدْكَرُ بموقف المرأة التي زوجها أبوها دون أن يستأذنها - من ابن عمها ليرفع بها خسيسته كما قالت. فقد روى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: " جاءت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته. قال: فجعل الأمر إليها. فقالت: قد أجزت ما صنع أبى لكنى أردت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء " (3).. فالمرأة أو البنت التي يزوجها أبوها أو وليها من أصل خسيس - لها أن ترفض هذا الزواج. وهذا حق شرعى لها. وليس المقصود بالخسة الفقر. فالفقر ليس خسة وإنما هو ابتلاء من الله عز وجل للإنسان. والصابر في الابتلاء ينال خير الجزاء. وإنما المقصود بالخسة تواجد بعض الصفات الخلقية والخلقية السيئة في الإنسان

(1) رواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس ص96 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت.

(2) رواه مسلم عن أبى هريرة ص42 من كتاب: من كنوز السنة - للمرحوم الدكتور محمد على الصابونى ط3.

(3) أخرجه ابن ماجه 602/1 - 603 بإسناد صحيح كما يقول صاحب الزوائد. ص139 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور الأحمدي أبو النور.

وهي صفات تبعد صاحبها عادة عن دائرة الاختيار الموفق، لما فيها من بعد عن التقوى أو عن بعض الصفات الصالحة التي تفضل في الاختيار. لكن هذه المرأة التي ورد ذكرها في حديث أبي بريدة عن أبيه ركزت على أن أباهما لم يستأمرها في هذا الزواج. وأحست بضعف موقفها من اتهام الرجل بأنه خسيس فوافقت أباهما بعد أن واجهته في عدم استئذانها. وأجازت ما صنع.

والقصد إلى الغنى والسعى إليه بالزواج من امرأة غنية أمر مشروع لكنه مشروط بتوفر الأساس الديني والأخلاق الكريمة عند المرأة المختارة، فالمرأة الغنية المتمسكة بدينها الإسلامي يرشدها دينها كما ترشدها أخلاقها الكريمة إلى طريق السعادة مع زوجها، فهما يقللان من تكبرها على زوجها بسبب غناها، ويجعلان مالها سبباً لسعادتها مع زوجها، بدلاً من أن يكون سبباً لشقائهما، فيكون مالها عنصراً من عناصر القوة التي تقوى به رابطة الأسرة وليس عنصر ضعف أو هدم لبيت الزوجية..

فالزوج في ظل الشريعة الإسلامية هو المطالب بالنفقة على بيت الزوجية، وليست الزوجة. وهكذا تطمئن الزوجة المسلمة ذات الأخلاق الحميدة، في ظل شريعة الإسلام وتعاليمها الرشيدة السمحة - إلى أن زوجها المسلم لم يتزوجها طمعا في مالها. فهو مطالب بالإنفاق عليها وعلى بيت الزوجية مهما كثر مال زوجته وتعددت عناصر ذمتها المالية. وبذلك يحل التعاون والتسامح والاتفاق محل التنازع والتعالى والاختلاف، فتسعد الأسرة المسلمة الناشئة.. وفي القرآن الكريم يقول ربنا العظيم: {وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ} [النور: ٣٢]. ففي الآية الكريمة أمر من الله عز وجل للمؤمنين بأن

يزوجوا من لا زوج له من الرجال والنساء والشباب والشابات من أحرار رجالهم ونسائهم، وأن يُنكحوا أهل التقوى والصلاح من عبادهم وجواريتهم. وعلى الآباء والأولياء عدم الخوف من فقر أزواج بناتهم. فالله تبارك وتعالى قد تكفل بأن يُغنيهم من فضله بعد إتمام الزواج. وهذا أمر مشاهد ومحسوس دائما في الحياة العملية. فكم من فقير تزوج امرأة متدينة ذات أخلاق رفيعة غنية أو فقيرة - أغناه الله من فضله بعد الزواج منها.. وفى السنة النبوية المباركة نجد قول عائشة رضي الله عنها: " تزوجوا النساء فإنهن يأتينكم بالمال " (1).

بمعنى أن الزواج عادة يكون سببا في زيادة رزق الزوج بعد أن كان فقيرا وهو أعزب. ونجد أيضا قول أبى بكر الصديق رضي الله عنه: " أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} (2). ونجد كذلك قول عمر رضي الله عنه: " ما رأيتُ مثلَ مَنْ يجلسُ أيّما بعد هذه الآية: {وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ} التمسوا الغنى في الباءة " (3). فعمر أيضا ينهى القادرين على الزواج وباءته - عن الإحجام عنه بعد أن تكفل الله عز وجل بأن يغنى المتزوجين الفقراء. وخلاصة الأمر في هذا الموضوع أن الزواج في حد ذاته ليس مانعا من الغنى ولا سببا في الفقر.

ومن أمثلة التفقه المطلوب في اختيار الزوج الصالح والزوجة

(1) أخرجه ابن أبى شيبة والحاكم والبزار عن عائشة. ص86 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور الأحمدي أبو النور.

(2) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بكر الصديق. نفس الصفحة من المرجع السابق.

(3) عن عمر في المصنف لابن أبى شيبة. نفس الصفحة من المرجع السابق. والباءة تكاليف ومصاريف ومسئوليات الزواج.

الصالحة، على أساس الأصل الطيب والشرف المصون، تحذير النبي صلى الله عليه وسلم ونهيه لزيد بن حارثة حتى لا يتزوج من خمس من النسوة التي ذكرهن في الحديث الشريف إذ وجد صلى الله عليه وسلم في كل من تلك الخمس ما يتعارض مع الأصل الطيب أو الشرف المصون. فقد "سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة يوماً: ^١تزوجت يا زيد؟ — قال أبو أسامة: لا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ^٢تزوج تزدد عفة إلى عفتك. ولا تزوج خمسة: شهيرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيذرة ولا لفوتا —. قال زيد بن حارثة: يا رسول الله لا أدري مما قلت. وأنا بإحداهن جاهل. قال النبي صلى الله عليه وسلم: ^٣ألستم عرباً؟ أما الشهيرة فالطويلة المهزولة، وأما اللهبرة فالزرقاء البذية، وأما النهبرة فالقصيرة الذميمة، وأما الهيذرة فالعجوز المدبرة، وأما اللفوت فهي ذات الولد من غيرك — (1).

وبالنظر في معنى هذا الحديث الشريف وفي تعريفه للأنواع الخمسة المشار إليها - نجد عيوباً خلقية وخلقية تقف حجر عثرة في إدخال السعادة على طرفي هذا الزواج الناشئ وعلى عش زوجيتهما. فالشهبيرة وهي الطويلة المهزولة تكون عرضة لسخرية ضعاف الإيمان؛ مما يشعرها وزوجها بالخجل من الناس والبعد عن التعامل معهم.

هذا بالإضافة إلى احتمال أن يكون هذا الهزال نتيجة مرض خطير لم تخبر به الزوجة أو وليها زوجها. فيكون ذلك الزواج خطراً

(1) ص 57 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى. والمفردات اللغوية الموجودة بالحديث الشريف موضحة في المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التعليم عام 1993م من مجمع اللغة العربية.

على الزوج وعلى ما قد ينتج عن هذا الزواج من ذرية يتسرب إليها الهزال بالوراثة. فتكون الأسرة كلها هزيلة مريضة وضعيفة وهذا شيء لا يرضى به الإسلام ولا يشجع عليه..

واللهبرة وهى الزرقاء البذيئة: فالزرقاء تكون عادة مصابة بزراق الأطراف، وهى زرقاء تصيب اليدين والقدمين. ومن ناحية أخرى فإن الزراق يعنى شدة التوتر الداخلى في العين ويشمل ذلك أيضا الزراق المعوى، وهو مرض يميزه زرقاء في اللون واضطراب شديد في الأمعاء. والبذية عادة: خارجة الصدر، داخلية البطن.. ولهذا كله يحق للصادق المصدق أن يحذر زيدا وغيره من المسلمين من الزواج من الزرقاء البذية؛ حتى لا تُخرج ذرية مثلها زرقاء بذية فتكون الأسرة في خطر كبير قد يتعدها إلى غيرها من الأسر في المجتمع الإسلامى.. والنهبرة وهى القصيرة الدميمة: جمعت مع قصر قامتها قبح المنظر. فتكون الحياة الزوجية معها مهددة بالحر ج والفشل، خلافا للقصيرة التي تحظى بقدر معقول من الجمال، يعوض عنها عيب القصر ويشجع على الارتباط بها كزوجة.. والهيبرة وهى العجوز المدبرة التي ذهب شبابها ولم يعد لها رغبة في الجماع، علاوة على كبر سنها الذي يعنى أنها لا تنجب في غالب الأحوال، اللهم إلا إذا أراد الله، فالارتباط بها كزوجة يهدد الحياة الزوجية بالفشل والانهاء، حيث يكون رباط الزوجية ضعيفا هشا، إلا إذا كان الزوج مثلها فلا بأس من الارتباط حينئذ لرجحان الكفتين..

وأما اللفوت وهى الثيب التي أنجبت من الغير فإنها تكون دائما متعلقة بذريتها من هذا الغير. ويحدث ذلك عادة مع عدم احتياجها إلى تلك الذرية احتياجا شديدا. وعادة ما يثير ذلك غضب زوجها

الحالي. كما أنها لا تكون عادة في نضارة المرأة البكر. فالبكر أعذب فاهاً وأنتق رحماً وأرضى باليسر الذي يقدمه لها زوجها. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك في قوله: **عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً وأتخن أقبالاً وأرضى باليسر من العمل** — (1).

ومن هذا الحديث الشريف يتضح أن البكر حديثها أعذب من الثيب حيث يجذب إليها من يسمعها. ورحمها أكثر نفصاً من رحم الثيب - وهذا يعنى تمام الاستعداد للحمل. كما أن فرجها أغلظ وأصلب من فرج الثيب مما يعنى غاية الإشباع في الجماع. والبكر دائماً أكثر رضا باليسر من الرزق الذي يقدمه إليها زوجها على عكس الثيب غالباً.. فالزواج من اللفوت، وهى الثيب، لا يكون إلا لحاجة شرعية؛ كأن يكون الراغب فيها عنده أولاد أو بنات من زوجة أخرى ماتت أو طلقت طلاقاً بائناً. فهو يحتاج إليها لتساعده في تربية أولاده وبناته من غيرها. فمثل هذه الظروف هى التي ترغب في الزواج من الثيب. والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ينبه المسلمين والمسلمات إلى أن الزواج من هذه المرأة لغير الظروف المذكورة، أمر يهدد الحياة الزوجية التي تهدف إلى الاستقرار والسعادة لما ذكرناه من أسباب.

وإذا أضفنا إلى ما سبق ذكره في هذا المجال مثالا آخر للتفقه المطلوب في اختيار المرأة أو البنت المتدينة ذات الأخلاق الكريمة وهو ما ذكره إلياس عليه السلام للسائح الأزدي (2) - من وجوب

(1) أخرجه أبو نعيم في الطب وابن السني عن ابن عمر ص56 - من الزوجة المسلمة والبيت السعيد - عبد العزيز الشناوى.

(2) ذكرت في مجال الاختيار على أساس الدين والأخلاق الفاضلة في الفصل الأول من هذا الباب.

تجنب أربع من النسوة في الاختيار للزواج وهى: المختلعة والمبارية والعاهرة والناشز - لوجدنا أن السنة النبوية المباركة ومن قبلها القرآن الكريم ينبهان إلى وجوب حسن الاختيار، بالزواج من المتدينة ذات الأخلاق الكريمة ومن صاحبة الأصل الطيب والشرف العظيم. حيث يستمر الزواج الموفق ويؤتى ثماره تقدما للفرد والأسرة والمجتمع الإسلامى. وهو ما تحرص عليه الشريعة الإسلامية وتتمسك به...

* * *

الفصل الثالث:

اختيار الغرباء والبعد عن الأقارب

ومن الركائز والأسس الهامة التي يستند إليها الاختيار الصحيح، من أجل الوصول إلى السعادة الأسرية في الإسلام - مبدأ الاغتراب في الزواج. وهو مبدأ جدير بالاعتبار. فالاغتراب هنا يعنى أن تكون الذرية الناتجة عن الزواج من الغريبات - ذرية قوية تتمتع بصفات وراثية جيدة جسمية وعقلية. وهى صفات مكتسبة جديدة على الأسرة. علاوة على ما يكتسب من أسرة الزوج من صفات مقبولة. وكلها صفات ينبغى أن تكون خالية من العيوب الخلقية والخلقية والأمراض والعاهات الخطيرة التي قد تنتج عن الزواج من القريبات المريضات أو التي يمكن أن ينتقل إليها المرض عن طريق الوراثة أو الحاملات لخطر انتقال عاهة أو عيب خلقى عن طريق الوراثة أيضاً. ويضاف إلى ذلك خلو هذا الزواج بالأبعاد من التخاصم والتشاحن بين الزوجين وأسرتهما. فعادة ما تكون الخلافات بين الغرباء المتزوجين سطحية يتم تسويتها بسهولة، على عكس ما إذا كان بين الزوجين قرابة. فالواقع يشير إلى أن صلة القرابة تضخم الخلافات فيسهل فيها التخاصم والتشاحن. حيث يلقي كلا من الطرفين باللوم على الطرف الآخر، ويتهمة بأنه لم يراع صلة القرابة بينهما. فلا نجد تنازلاً بين الطرفين عن واجب متصل بصلة القرابة. ومن هنا تنشأ بين الطرفين خصومات ومقاطعات لا يتم تجنبها عادة. على عكس ما إذا كان هناك اغتراب بين الأسرتين.

ولو اتجهنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أن الله العلى القدير قد

حرم الزواج من القرابة اللصيقة.

وفى هذا المجال، يقول ربنا عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ وَأُمّهَتْ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٣ - ٢٤] الآية.

فالمحرمات من القرابة اللصيقة تنحصر فيما يلى حسب نص الآيتين الكريمتين: محرمات من النسب: وهى الأم ومعهما فى ذلك الجدة لأب أو لأم، والابنة ومعهما فى ذلك بنات الأولاد وإن نزلن، والأخت شقيقة أو لأب أو لأم، والعمة ومعهما فى ذلك أخت الجد، والخالة، وبنات الأخ وبنات الأخت ويدخل معهما أولادهما. ومحرمات من الرضاع: وهى الأم المرضع، والأخت من الرضاعة، ولم تشر الآيتين إلى بقية المحرمات من الرضاعة وهن سبعة كالمحرمات من النسب. ومحرمات من المصاهرة: وهى: أم الزوجة سواء دخل بابنتها أو لم يدخل، وابنة الزوجة من رجل آخر والتى تربت فى حجر زوجها الحالى الذى دخل بها، وزوجة الإبن الذى ولد من صلب أبيه أى ليس ولدا بالتبنى... ويحرم كذلك الجمع بين الأختين لزوج واحد، والمرأة المتزوجة..

ويؤخذ من الآيتين كذلك أن تحريم الجمع بين القريبتين ينحصر

في: ما بين الأختين، وما بين المرأة وعمتها أو خالتها.. على أن المشاهد والمعمول به في الواقع بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كراهة الجمع بين القريبتين على الإطلاق. والملاحظ كذلك أن هذه الكراهة قد شاعت وانتشرت في معظم القبائل العربية تقريبا(1)..

وقد خاضت كتب السنة النبوية المباركة في هذه المسألة وأشبعتها شرحا وتفصيلا. ويجب أن يفهم من أول الأمر أن السنة المطهرة لم تحرم الزواج من الأقارب اللهم إلا القرابة اللصيقة التي سبق الحديث عنها في آيتي سورة النساء والتي سبق لنا توضيحها..

لكن السنة النبوية المطهرة تحدثت عن استحسان الزواج من الأبعاد. فإذا أردنا ذرية نجبية سليمة فعلينا أن نأخذ بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: **هَاجِرُوا تَوَرَّثُوا أَبْنَاءَكُمْ مَجْدًا** (2). فالمتزوج أو المتزوجة من الغرباء والغريبات كالمهاجر الذي يريد الوصول إلى أسباب المجد ليلصقها بأولاده وأحفاده. وعلينا أيضا أن نأخذ بقوله صلى الله عليه وسلم: **الناكح في قومه كالמעشب في داره** (3). فإذا أراد المسلم أن يُكسِبَ ذريته المزيد من الصفات الحسنة فعليه أن يبتعد عن الأقارب في اختيار زوجته، وكذلك المرأة المسلمة. أما من يتزوج من أقاربه فإنه لن يضيف جديدا من الصفات الحميدة المكتسبة عن طريق الوراثة إلى ذريته؛ فهو يقتنع بما في أسرته من الصفات التي تنتقل إلى ذريته حتى لو لم تكن محمودة.

(1) نوقشت هذه الفكرة في كتاب الأسرة والمجتمع - للدكتور على عبد الواحد وافي - فيما بين ص33، 41.

(2) أخرجه الخطيب عن عائشة ص54 - من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوي.

(3) رواه الطبراني في الكبير عن طلحة. نفس الصفحة من المرجع السابق.

والذى يؤكد العقل والمنطق حسب ما وضعناه سابقا - أن انتقال الصفات الخلقية والخلقية السيئة إذا كانت موجودة في أسرته فإنها لن تنتقل إلى نسله من زوجته الغربية عنه إلا بنسبة قليلة جدا. بالإضافة إلى أن فرص التباعد والتشاحن تقل أيضا في الزواج من الأبعد عنه في الزواج من الأقارب. وتأييدا لحقيقة انتقال الصفات الخلقية والخلقية السيئة بنسبة قليلة جدا مع الاغتراب في الزواج - نجد ابن أبى مليكة يروى عن عمر رضى الله عنه قوله لبنى السائب: " يا بنى السائب إنكم قد أضويتم فانكحوا في النزائى " (1).

ففى هذا الأثر تحذير من عمر بن الخطاب رضى الله عنه من منطلق مسؤوليته كخليفة للمسلمين لبنى السائب من الزواج من قريباتهم حتى لا ينتج نسل ضاو. إذ المحتمل أن يكون هذا الإضواء ناتجا عن مرض أصاب الزوجة أو أحد أقاربها في الأسرة. فاللجوء إلى الزواج من الأبعد يقلل من احتمال وقوع هذا الإضواء.. وقد لا يقتصر الأمر على ذلك. فقد تنتقل عاهة مستديمة أو خلق قبيح اتصف به أحد أفراد العائلة عن طريق الوراثة إلى الزوجة القريبة.. ومن هنا نجد عمر رضى الله عنه ينصح هؤلاء القوم بأن يتوجهوا إلى الغرباء فيتزوجوا منهم حتى يكتسبوا صفات وراثية أفضل من صفاتهم، وفى الوقت ذاته تكون جديدة عليهم. فلا تنتقل أمراضهم وعاهاتهم بل وميولهم، من الضغائن والأحقاد، والأخلاق غير السوية إلى نسلهم من الأبناء والأحفاد..

وسبق أن تحدثنا عن تحذير السنة النبوية الكريمة من الزواج من الأقارب مخافة قطيعة الرحم. نظرا لما يكون بين الأقارب من

(1) ص384 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور. أضويتم: نحفتم وضعفتم - النزائى: الغرائب.

حساسيات في التعامل وعدم تنازل الأقارب من الرحم الواحد عن بعض الحقوق البسيطة في تعاملهم بعضهم مع بعض. وفي هذا الإطار يروى أبو داود في المراسيل عن عيسى بن طلحة قوله: " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على قرابتها مخافة القطيعة " (1) ..

وتحذر بعض كتب السنة من الزواج من القرابة القريبة لأنه يقلل الشهوة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لَا تَنْكَحُوا الْقُرَابَةَ الْقَرِيبَةَ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَخْلُقُ ضَاوِيَا** — (2) أى نحيفا. وذلك لتأثيرها في تضاعف عيب الشهوة أى تقليلها. **" فالشهوة تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللمس. وإنما يقوى الإحساس بالأمر الجديد الغريب. أما المعهود الذي دام النظر إليه مدّة فإنه يَضْعُفُ الحِسُّ عن تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة "** (3) ..

وقلة الشهوة المنبعثة من الزواج بالقرابة القريبة - لها أصل في علم النفس والاجتماع. فمن الحقائق الثابتة في علم النفس والاجتماع أنه: **" إذا كان الأقارب متجاورين يكثر بينهم الاتصال والاختلاط ويشيع بينهم الحياء، غلب عليهم بعد ذلك في الحياة الزوجية طابع الفتور في وقت الحاجة إلى الإشباع والنشاط "** (4) ..

(1) منهج السنّة في الزواج - للأحمدي أبو النور ص385.

(2) ص69 من كتاب الزواج الإسلامي السعيد - لأبي حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت.

(3) ص69 نفس الصفحة من المرجع السابق. - القرابة القريبة ليست هي القرابة للصيقة التي بينها. بل تكون في أولاد وبنات العم والخال والعمة والخالة.

(4) ص386 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور. وكتاب

ويعتقد الكثيرون أن الزواج من الأقارب يضعف الذرية ويجعلها ضاوية على مر الأيام. وذلك استنادا إلى أن الأمراض والعلل الموجودة في الأسرة تنتقل إلى الذرية عن طريق الوراثة كما سبق أن وضحنا بخلاف الزواج من الأبعد. ويزيد هذا الأمر توضيحا ما قاله الشيخ أبو حامد الغزالي: " إن الوراثة تتم عن طريق الصفات الوراثية بما فيها الاستعداد المرضى والعيوب الأنزيمية. وتحمل الجينات هذه الصفات الوراثية في الخلايا الحية. وإذا وجد العيب الخلقى الذي تحمله إحدى جينات الأب مثلاً وتزوج سيدة لا تحمل مثل هذا العيب، فإن انتقال الصفة إلى الأبناء يكون مخففا وضعيفا. أما إذا كانت الزوجة تحمل مثل هذا العيب - لوجود قرابة للزوج غالبا - فإن انتقال العيب إلى الأبناء يتضاعف باستمرار (أى يزيد) وكلما كانت درجة القرابة بين الزوجين أكثر كانت الاحتمالات أكبر " (1) ...

ومن أحدث ما توصل إليه العلم الحديث في هذا الشأن ما أعلنته د. سامية التمتامى أستاذ الوراثة البشرية ورئيس الجمعية القومية للوراثة البشرية بالمركز القومى للبحوث: وهو أن خطورة زواج الأقارب تكمن في تماثل الجينات في الأقارب التي تزيد طبقا لزيادة درجة القرابة سواء كانت القرابة من ناحية الأم أو الأب. وذلك بسبب انتقال الجينات مناصفة من جيل الجدود للأباء ثم الأبناء طبقا لقوانين الوراثة المندلية المعروفة. وإذا كانت الجينات المتماثلة تسبب أمراضا وراثية متنحية فإن كلا من الزوجين يحمل المرض ولا

الأسرة والمجتمع - للدكتور على عبد الواحد وافى من ص33 إلى ص41، وكتاب سيكولوجية الجنس - للدكتور يوسف مراد - طبعة دار المعارف - سلسلة اقرأ.
(1) ص59 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - للشيخ أبى حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت.

تظهر عليه أى أعراض. لكن تكون نسبة حدوث هذا المرض 25% في كل طفل من أطفالهم. وهذه الأمراض الوراثية تُعدُّ بالآلاف وتصيب مختلف أعضاء الجسم وأجهزته. وهى أمراض خطيرة تسبب الإعاقة مثل التخلف العقلى والتشوهات المتعددة والأمراض العصبية إلخ(1)..

وهكذا نجد أكثر من دليل على انتقال الأمراض والعلل التي تكون في الزوج المصاب إلى الذرية عن طريق زوجته القريبة له والتي تحمل نفس العلل والأمراض.. ومن هنا ندرك المسؤولية الكبرى الملقاة على عاتق المسلم وقت اختياره لزوجته.. فالواجب في هذه الحالة التأكد من خلو الزوج والزوجة من الأمراض والعلل التي تنتقل بالوراثة حتى لا تنتقل إلى النسل، فيخلق ضاويًا ضعيفًا هزيلًا. وهذا لا يقبله الإسلام ولا يرضى عنه..

والمتتبع لمضار الزواج من الأقارب يجد أنها ليست ظاهرة عامة. فالواقع يشير إلى نجاح الكثير من حالات الزواج بين الأقارب، كما يشير إلى إنجاب ذرية قوية سليمة في كثير من هذه الحالات، وأن الذي يجب أن يحذر منه المقبل على الزواج من قرابته سـواء مـن الرجـال أو النساء - هو الابتعاد عن هذا الارتباط وعدم إمضائه - إذا تيقن أو توقع حدوث أحد الأضرار المشار إليها سابقًا: كالمرض الخطير أو العيب الخلقى الواضح الذي لا يمكن تجنبه بناءً على الدلائل والقرائن المتوفرة لديه. وهذا الضرر المتيقن أو المتوقع من الزواج بالقرابة القريبة لوجود مرض أو عيب أو توقع حدوثه على المدى القريب أو البعيد - تشير إليه كل النصوص التي أوردناها.. أما

(1) الأهرام الأسبوعي بتاريخ 10 أبريل عام 2009 الصفحة الثانية.

الحالات التي ينتفى فيها وجود المرض أو العيب، وتوقع حدوثهما - فلا بأس فيها من الارتباط بالأقارب والزواج منهم ومنهن، وخصوصا إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك؛ كالمحافظة على صلة الرحم والمحافظة على سلامة الاختيار، إذا لم يكن متأكدا منه في حالات الرغبة من الاقتران بالأبعد.

ويكفي في الاستدلال على صحة الاختيار من القرابة بعيدة أو قريبة - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شجع على الزواج من الأقارب في مثل هذه الظروف وباركه. ويتضح ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم: **«من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلا.. ومن تزوجها لما لها لم يزد الله إلا فقرا.. ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة.. ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه، بارك الله له فيها وبارك لها فيه»** (1).. فهذا الحديث الشريف يبين فضل الزواج من الأقارب.

وهو لا يتعارض مع الأحاديث الأخرى التي لا تشجع على هذا الزواج بل هو مكمل لها. لا سيما بعد أن عرفنا أنه إذا كان العيب أو المرض في القريب أو القرية ظاهرا ومنفرا ومعيرا ويترتب على إمضاء الزواج من صاحبه أو صاحبتة خطر على النسل وعلى الأسرة في الحاضر والمستقبل - فينبغي تجنبه. أما إذا لم يوجد عيب أو مرض، أو وجد ولكنه لا يمثل خطرا متوقعا على النسل أو الأسرة، وكانت هناك حاجة لإمضاء هذا الزواج - وقد سبق مناقشة ذلك - فيمكن إمضاء هذا الزواج على بركة الله عز وجل ولا حرج في ذلك على

(1) رواه أنس بن مالك ورواه الطبراني في الأوسط ورواه أبو نعيم في الحلية. هامش ص361 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

الإطلاق... فالأمر إذن يتطلب أن يخضع اختيار الزوج أو الزوجة من البداية للأساس الأول الذي سبق الحديث عنه وهو الدين والأخلاق الكريمة والأصل الطيب..

هذا وقد تأكد لنا من خلال سور وآيات القرآن الكريم إباحة الزواج من الأقارب كما أباحتها السنة النبوية إذا لم يترتب عليه مرض أو عيب خلقى ينتقل إلى النسل عن طريق الوراثة.. ففي سورة الأحزاب نجد من الآيات الكريمة ما يشير إلى أن الله جل جلاله قد أحل لنبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أن يتزوج من بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته. ولو كان هناك خطر عام أو خاص من جراء الارتباط بالزواج من ذوى القرابة من النساء - وهى هنا قرابة قريبة - ما أحل الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم الزواج منهن، وما أحل لأحد من أمته صلى الله عليه وسلم ذلك الزواج. أما إذا تُوقَّع المرض أو العلة فلا بأس من الامتناع عن الزواج منهن كما سبق بيانه. وفى هذا يقول أصدق القائلين سبحانه: { يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَائِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الأحزاب: ٥٠]..

ويؤكد هذه الحقيقة أيضا الدكتور محمد الأحمدى أبو النور وزير الأوقاف السابق في كتابه: منهج السنة في الزواج⁽¹⁾. وهو يؤيد ما قاله وقلناه بموقف أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها. عندما أرسلت

(1) ص 269 من المصدر السابق.

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مصرحة له بأساس رغبتها في الزواج منه.

فقد كان مما قالت له لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني قد رغبت فيك لقرابتك مني، وشرfk في قومك وأمانتك عندهم، وحسن خلقك وصدقك في حديثك " (1). فقد جعلت رضى الله عنها في المقدمة من أسباب رغبتها في الزواج من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن هناك قرابة تربطها به.. ولو كان النهى عن الزواج من الأقارب عاما لترتب على ذلك أن تنتشر قطيعة الرحم على نطاق واسع بين الأسر المسلمة بحجة منع الزواج من الأقارب في الشريعة الإسلامية، وهذا عكس ما تأمر به الشريعة الإسلامية الغراء، وتحث عليه، من صلة الرحم والاهتمام بها. وفي ذلك يقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : **«من أحب أن يُيسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه»** (2).. ويقول صلى الله عليه وسلم : **«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة - من قطيعة الرحم، والخيانة والكذب، وإن أعجل الطاعة ثوابا لصلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة، فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم، إذا تواصلوا»** (3). وهكذا يتضح لك يا أخى المسلم أن الزواج من القرابة غير اللصيقة مباح إلا في حالة التأكد من وجود مرض خطير أو عيب خلقى ظاهر يخشى انتقاله عن طريق الوراثة إلى الذرية.. والله

(1) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(2) رواه البخارى ص137 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي - ينسأ له في أثره: أى يزداد له فيه وقد عرفنا أن الأثر هو قبضة التراب التي يدخلها الملك في رحم أمه والتي تدخل في خلقه بخلطها بالمني.

(3) رواه الطبرانى ص131 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمي - حرف الميم.

الهادى إلى سواء السبيل...

* * *

الفصل الرابع :

تفضيل البكر في الاختيار

البكر هي العذراء التي لم يسبق لها الزواج ولم تقض بكارتها بعد. ويعتبر اختيارها للزواج من الركائز والأسس الهامة المؤدية إلى السعادة الأسرية. إذ أن كل صفاتها محببة إلى النفس.. وقد ورد تفضيل الزواج من البكر في القرآن الكريم. فيقول ربنا عز وجل: {إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾} [الواقعة: ٣٥ - ٣٨]. فقد أنشأ الله تعالى نساء الجنة بعد البعث نشأة جديدة. وقد أفاض العلماء في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين؛ فقال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل: " ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن من فـي الجنة خلقاً آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا. فالعجوز ترجع شابة، والقبيحة ترجع جميلة " (1).. وقال ابن عباس: يعنى الأدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقاً آخر " (2). فقد جعلهن الله عذراوات، كلما جامعهن أزواجهن وجدوهن أبكارا لم تقض بكارتهن. وهذا من بعض أفضال الله جل جلاله على عباده وإمائه الصالحين والصالحات في الجنة. فتكريما للصالحات من النساء جعلهن ربهن العظيم عُرُباً أى متحبيبات إلى أزواجهن عاشقات لهم. قال مجاهد: " هن العاشقات المتحبيبات اللواتى تشتهين أزواجهن " (3). وهن كذلك

(1) التسهيل لعلوم التنزيل ص 64 من القسم 17 من صفوة التفاسير - لمحمد على الصابوني - الطبعة الأولى.

(2) تفسير الخازن 18/4.

(3) تفسير الألوسي 143/27.

مستويات في السن مع أزواجهن في سن ثلاث وثلاثين. فعن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: {إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً} (٣٥) فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) فقال: يا أم سلمة: هن اللواتي قبضن في الدنيا عجائز، شُمطًا، عُمُشًا، رُمُصًا، جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء — (1). وقد جعلهن الله العلى الكبير متعة لأصحاب اليمين جزاء حفظهن لفروجهن في الدنيا، بالإضافة إلى ما أعده سبحانه لهم ولهن في الآخرة من ألوان النعيم الأخروي (2)..

والبكر بطبيعتها محبة للأنس والألفة والتعلق بأول إنسان ارتبطت به وصارت في عصمته، دون سواه. وهذه أمور لا توجد عادة عند المرأة الثيب في زواجها الثاني؛ لأن من طباع البكر أنها تأنس وتتعود على أول مألوف لديها. فهي تحب زوجها وتألفه ويصير وُدّها له مؤشرا على ذلك. مما يجعل للحياة الزوجية مذاقا حلوا وسعادة مؤكدة (3). ومن أجل ذلك رغب الإسلام بشقيه القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة - في الزواج من الفتاة البكر.

وإذا كان القرآن الكريم قد أشار إلى تفضيل البكر في الزواج وفى الارتباط بها في الآخرة أكثر من الثيب - وقد لمسنا ذلك في آيتى سورة الواقعة الكريمتين اللتين فصلنا القول فيهما في أول

(1) تفسير القرطبي 210/17.

(2) وانظر أيضا في تفسير الآيتين ص 64 من القسم 17 من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ الدكتور محمد على الصابوني - ط أولى - شمطا: مختلطا سواد شعرهن ببياضه - عمشا: ضعاف البصر مع سيلان دمع أعينهن في أكثر الأوقات - رمصا: يجتمع في أمواق أعينهن وسخ أبيض.

(3) ص 58 بتصرف من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السعيد الشرقاوى - الطبعة الثانية.

الفصل - فمن الأولى أن يتمسك من يريد الزواج في الدنيا بالبكر.

ونجد نفس الاهتمام بالبكر في السنة النبوية المطهرة، والحث على تفضيلها في الزواج. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **عليكم بأبكار النساء فإنهن أعذب أفواه وأنتق أرحاما وأقل خباً وأرضى باليسير** — (1). وقد ورد الحديث ذاته بلفظ "عليكم بالأبكار" (2). وقد أورد هذا الحديث الشريف عدة صفات للأبكار، تحبب في الزواج منهن وتفضيلهن على الثيبات. فالأبكار طيبات الكلام، وهن أكثر استعدادا للإخصاب والحمل؛ لأنهن لم يلدن من قبل. ومن صفاتهن الطيبة كذلك أنهن بطبيعتهن أكثر بعدا عن المكر والخديعة في التعامل مع أزواجهن دون غيرهن من النسوة. وهن أيضا يرضين دائما باليسير من الرزق والخدمات التي يقدمها لهن أزواجهن. وهن أيضا يتميزن بالأخلاق العزيزة الفاضلة التي منحهن إياها الله العزيز الحكيم. حيث يتوفر لهن بتدينهن التحلى بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وما يأمر به من أخلاق حميدة.

ويتضح ذلك من خلال حديث شريف للنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: **عليكم بالجوارى الشباب فإنهن أطيب أفواه وأعز أخلاقا، وأفتح أرحاما ألم تعلموا أنى مكاثر** — (3). فالأبكار عادة صغار في السن. ويجد أزواجهن يسرا وسهولة في التعامل معهن وتوجيههن الوجهة الشرعية التي يريدونها. وإذا ظهرت بينهم وبينهن في الأفق مشكلة طارئة فسرعان ما يجد الطرفان لها حلا. ويساعدهما على

(1) أخرجه ابن ماجه عن عويم بن ساعدة ص372 - من كتاب منهج السنة في الزواج - للأحمدى أبو النور.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(3) رواه سعيد بن منصور من طريق الود بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن مكحول ص94- من كتاب منهج السنة في الزواج.

ذلك التزامهما المتبادل بقواعد الدين الإسلامى ومبادئه وتوجيهاته، والأخلاق الكريمة التي يتمتعان بها. فتكون روح التفاهم البناء هي المسيطرة دائما على هذا الكيان الأسرى الصغير مع تواجد حسن النية بين طرفيه..

وقد لفتت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها أنظار الرجال والشباب إلى أهمية الزواج من البكر: فقد سألت رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: قلت يا رسول الله.. أرأيت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها - في أيتها كنت تترتع بعيرك؟ قال: في التي لم يرتع منها— . قالت: فأنا هية(1).. فالشجرة التي لم يرتع منها شجرة بكر. وهى في الرعى محببة إلى النفس ومفضلة عن التي ارتعى منها. تماما كالمرأة التي لم تفض بكارتها بعد. فهى أفضل للشباب المقبلين على الزواج. فأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها توجه الشباب المسلم إلى أن البكر أطيب على النفس في الزواج من الثيب التي سبق لها الزواج. والملاحظ أنها رضى الله عنها كانت البكر الوحيدة بين أمهات المؤمنين، رضى الله عنهن جميعا..

والإسلام رغم اتجاهه إلى تفضيل البكر في الزواج - لا يمنع من الارتباط بالثيب واتخاذها زوجة. وخصوصا إذا كانت هناك حاجة شرعية لإمضاء هذا الزواج. كأن يكون الشاب أو الرجل المقبل على الزواج له بنات من زوجة أخرى، وماتت أو طلقت طلاقا بائنا، أو يكون له أخوات صغيرات أو في سن المراهقة، وهو عائلهم الوحيد، فهؤلاء البنات أو الأخوات تحتجن إلى من ترعاهن وتصلح

(1) رواه البخارى بسنده عن عائشة ص366، 367 - من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

من شأنهن فالإسلام في هذه الأحوال لا يمنع المسلم من الزواج من الثيب بل يحسنه ويحث عليه؛ لما لها من خبرة سابقة في تربية البنات والتعامل معهن وتحقيق مطالبهن. ويتضح ذلك من قصة زواج جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. ففي الحوار الذي دار بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يؤيد ذلك حيث سأل النبي صلى الله عليه وسلم يوم ما بعد أن رأى تغيراً في وجهه أو أثر صفرة كما ورد في إحدى الروايات: **﴿أتزوجت يا جابر—؟﴾** قال نعم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿بكراً أم ثيباً—؟﴾** قال جابر بل ثيباً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك وتضاجعها وتضاجعك—؟﴾** قال جابر: إن أبى قتل يوم أحد وترك لى تسع بنات. فلى تسع أخوات فلم أحب أن يجمع إليهن خرقاء مثلهن. وقلت امرأة تقوم عليهن وتمشطهن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿صدقت— (1)﴾**. فتصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر دليل على رضاه عن اختياره الثيب زوجة له نتيجة للظروف الاجتماعية التي كان يمر بها جابر رضي الله عنه وقت اختياره...

ولقد تكرر زواج النبي صلى الله عليه وسلم من الثيب لكن ذلك كان لظروف اجتماعية وسياسية، كلها شرعية وتحقق أهدافاً إسلامية كتأليف قلوب غير المسلمين وتشجيعهم على الدخول في الإسلام، وعلى البقاء فيه بعد تركهم عقيدة الشرك. وكإقرار لغرض إنساني اجتماعي يشجع عليه الإسلام. فزواجه صلى الله عليه وسلم من أم

(1) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب المغازي، والترمذي. 286/7. واقرأ ص 368 من كتاب منهج السنة في الزواج - المرجع السابق - خرقاء: لا تحسن تدبير أمورها في كل الأحوال.

سلمة رضى الله عنها كان لغرض إنسانى اجتماعى بعد أن مات زوجها بعد هجرته إلى المدينة لاحقا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك كان زواجه صلى الله عليه وسلم من أم حبيبة ومن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حَيٍّ - لغرض إنسانى واجتماعى نبيل، وتأليفا لقلوب غير المسلمين الداخلين في الإسلام من اليهود والنصارى وتشجيعا لهم على البقاء في الإسلام بعد خروجهم من دائرة الشرك...

وهكذا يقتدى المسلمون برسول الله صلى الله عليه وسلم، رسول الإنسانية كلها، حين يضرب لهم المثل تلو المثل في حب الإسلام ومبادئه والتمسك به والتكيف مع الظروف الاجتماعية التي تمر بالمسلمين وبالمجتمع الإسلامى. وقد حذوا حذوه في التزوج من الثيب إذا كانت هناك ظروف تستدعى ذلك وإلا فالأفضلية للبكر كما سبق توضيحه...

والإسلام بتفضيله للبكر والارتباط بها كزوجة لا يغلق الطريق أمام الثيب. فطريق الزواج مفتوح أمامها على أوسع نطاق.. فهناك الكثيرون من الرجال الذين فقدوا زوجاتهم بموت أو طلاق. ولا ينفعهم إلا الزواج من الثيب. وإذا كان القرآن الكريم قد دعا إلى الارتباط بالبكر وعدد صفاتها الحميدة - فإنه تحدث عن الثيب وقدمها على البكر في قوله تعالى: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ تَنَبَّتٍ عِيدَاتٍ سَيِّحَتٍ ثِيْبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحریم: ٥]. وذلك لدورهن في استقرار كثير من بيوت الرجال الذين فقدوا زوجاتهم نتيجة لظروف اجتماعية خارجة عن إرادتهم.

وخلاصة القول أن من أتاحت له فرصة الزواج من البكر فقد سار على منهج الإسلام. ومن فضل الثيب لظروف اجتماعية

مشروعة - كالتى ذكرنا سابقا أمثلة منها، فقد سار كذلك على النهج الإسلامى الصحيح. والله الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

الفصل الخامس:

تفضيل المرأة الولود في الزواج

جعل الله سبحانه وتعالى المال والبنون زينة للحياة الدنيا. يقول عز وجل: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦]. وليس لهذه الزينة الدنيوية إلا طريق واحد هو اللجوء إلى الله تعالى وطاعته. فهو طريق آمن يجعل هذه الزينة نافعة في دارى الدنيا والآخرة. فالطاعة الدائمة لله رب العالمين ولرسوله الأمين صلى الله عليه وسلم والاستغفار الدائم من الذنوب هما خير السبل الموصلة إلى المال والبنين. ولذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان نوح عليه السلام: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} ⑩ {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} ⑪ {وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} ⑫ [نوح: ١٠ - ١٢]. فالعليم الخبير سبحانه خالق النفوس الإنسانية، يعلم أن هذه النفوس تميل دائما إلى الولد. ولذلك دلها سبحانه وتعالى على أفضل الطرق المؤدية إلى الفوز بهذا الشطر من الزينة الدنيوية وهو الولد بل بالشطرين معا - المال والبنون.

وهذا الطريق هو طاعة الله القادر على كل شيء والإكثار من الاستغفار فالنفس الإنسانية تخطئ بالليل والنهار وربها الخالق العظيم يغفر الذنوب جميعا وفى لفظة كريمة يلقي مزيدا من الضوء على هذه الفكرة، الإمام زين العابدين محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فقد وضح رضى الله عنه أحد الجوانب المطلوبة لإنجاب الولد، الذي تتطلع إليه أفئدة كثير من الناس. فقد أتاه رضى الله عنه رجل يسأله النصيحة لإنجاب الولد، فقال له: أَكْثَرُ مِنْ

الاستغفار. ففرح الرجل بالنصيحة وانصرف. لكنه سأل نفسه في الطريق: لقد طلبت منه نصيحة لإنجاب الولد فدلني على كثرة الاستغفار. فما هي العلاقة بين الاستغفار وإنجاب الولد؟! ولما عجز عن إدراك هذه العلاقة والإجابة عن السؤال الذي طرحه على نفسه - عاد إلى شيخه الناصح ليستفسر منه عن تلك العلاقة. فأجابه الشيخ الناصح بقوله: يَا هَذَا أَلَمْ تَقْرَأْ قوله تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِزِّلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: ١٠ - ١٢]. فانصرف الرجل وهو سعيد بما سمع من شيخه (1).

وإذا كان الإسلام قد دل المسلم على طريق التمتع بزيينة الحياة الدنيا - فقد بين الله في نفس الوقت أن زينة الحياة الدنيا - المال والبنون - سلاح ذو حدين فهو عادة يجلب النفع والخير لكنه قد يجلب الشر إذا لم يحسن الإنسان استخدامه. فقد ينصرف المسلم ضعيف الإيمان بهذه الزينة عن ذكر الله الخالق الرازق وينسى الطريق إليه سبحانه وينشغل بماله وبنيه عن طاعة الله عز وجل والاستغفار الدائم له. وهنا يحذرنا المولى الكريم من هذا الانشغال والانصراف عن ذكر الله وطاعته واستغفاره. فيقول جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ

وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩]. ويقول أصدق القائلين سبحانه: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: ١٥]. وهذا تحذير للمسلمين والمسلمات من الانشغال بهذه الفتنة عن ذكر الله عز وجل.

وكما أشار القرآن الكريم إلى أهمية الولد في حياة الإنسان -

(1) نقلا عن الشيخ إبراهيم جلهوم، إمام مسجد السيدة زينب بالقاهرة رحمه الله.

كذلك أشارت السنة النبوية الكريمة إلى ذلك. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **الولد ثمرة القلب، وإنه من ریحان الجنة** — (1). ويشير صلى الله عليه وسلم إلى بعض فضل الولد على والده في الدنيا فيقول صلى الله عليه وسلم: **لا يدع أحدكم طلب الولد، فإن الرجل إذا مات وليس له ولد انقطع اسمه** — (2). وهناك أقوال أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر وردت في كتب السنة النبوية المباركة. ورغم هذا لم تغفل السنة الكريمة عن ذكر فضل البنات على أبويها والحث على عدم كراهية إنجاب البنات ونبذ هذه الفكرة الجاهلية. ومما ورد في ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: **من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهذا، وضم أصبعيه** — (3). وقوله صلى الله عليه وسلم: **من كانت له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وعلى ضراهن دخل الجنة** —. وفي رواية: فقال يا رسول الله وانتنتين؟ قال: **واثنتين** —، قال يا رسول الله وواحدة؟ قال: **واحدة** — (4). وقوله صلى الله عليه وسلم: **من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن، وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجابا من النار** — (5)...

وهكذا نجد كثيرا من الأحاديث النبوية الشريفة تحدثت عن فضل

(1) رواه الترمذی ص156، من كتاب مختار الأحاديث النبوية، حرف الواو، للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمی.

(2) رواه أحمد بسند حسن 145/16، من الفتح الرباني. والبيهقي في السنن 81/7 - 82 ص90 - من كتاب منهج السنة في الزواج.

(3) ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك ص16، من تحفة المودود بأحكام المولود - لابن القيم الجوزية.

(4) ص17 من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - لابن قيم الجوزية.

(5) رواه الإمام أحمد في مسنده ص18 - من كتاب تحفة المودود - جدته: ماله وثروته. ويقال كلما جدد له ولأسرته الثياب جدد لبناته.

إنجاب البنات وتربيتهن والإحسان إليهن والصبر عليهن وأثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جزاء ذلك هو الفوز بالجنة ونعيمها والنجاة من النار ولهيبها وذلك هو الفوز المبين.

ولكل ما سبق حرصت السنة النبوية الكريمة على التنبيه إلى فضل وتفضيل المرأة الولود في الزواج. ومن ذلك ما ورد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالبائة وينهى عن التبتل نهيا شديدا ويقول: ^١تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثركم الأنبياء يوم القيامة — ⁽¹⁾. ويقول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن أيضا: ^٢لا تتزوجوا عجوزا ولا عاقرا فإنى مكاثركم الأمم — ⁽²⁾.

فهنا نهى من رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين والمسلمات عن أن يزوجوا أبناءهم عجوزا أو عاقرا. فالعجوز لا تلد عادة والعاقرة جربت ولم تلد. والاستثناء الوحيد هنا أن تتدخل إرادة الله فتكتب لهما أو لإحدهما الإنجاب. ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ^٣خير نسائكم العفيفة الغلمة، عفيفة في فرجها غلمة على زوجها — ⁽³⁾.

وتعرف الناس على المرأة الولود لاصعوبة فيه على الإطلاق. فالمرأة الولود تُعرف أولاً بسلامتها العامة من الأمراض والعلل. وتعرف كذلك بأحوال أمها وأخواتها وعماتها وخالاتها اللاتى يتصفن

(1) رواه الإمام أحمد وأبو حاتم في صحيحه. ص10 من كتاب تحفة المودود بأحكام

المولود - لابن قيم الجوزية. والتبتل: الإقبال على العبادة والبعد عن الزواج.

(2) رواه الطبرانى في الكبير والحاكم في مستدركه ص54 - من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى - العاقر: التي لا تلد أى العقيم.

(3) رواه الديلمى عن أنس - الغلمة: شديدة الشوق إلى جماع زوجها دائما. ص74 من كتاب مختار الأحاديث النبوية

بهذه الصفة. وقد قطع الطب شوطا كبيرا في هذا المجال. فيمكن الرجوع إلى الأطباء المتخصصين لمعرفة المرأة الولود. وخصوصا إذا دعت الحاجة إلى ذلك. فقد تبدو البنت أو المرأة سليمة من الأمراض والعلل، وكذلك قريباتها، ومع ذلك لا تنجب. وعادة ما يكون السبب في ذلك علة في الرحم أو البويضة أو نحو ذلك من الأمور المتصلة بعدم الإنجاب. ويعالج الطب الآن الكثير من هذه الأحوال. واللجوء إلى الطب هنا واجب حتمى وشرعى. حتى تنتفى تهمة الإهمال عن الزوج والزوجة في هذا المجال الحيوى لسعادة الأسرة.

هذا بالإضافة إلى تجنب الزواج من القرابة القريبة أو البعيدة إذا كان هناك مرض خطير لا يمكن إغفاله عند المرأة المرشحة للزواج من قريبها، أو عند الرجل المرشح للزواج من قريبته، أو وجدت شبهة مرض خطير عند أحد الطرفين أو أقاربه يمكن أن ينتقل عن طريق الوراثة كما سبق توضيحه. ويجب كذلك تجنب أصحاب العاهات والعلل والأمراض المتصلة بالإنجاب من الأقارب ذكورا أو إناثا. فالكثرة الضعيفة المهددة دائما بالأمراض والعلل، تكون عبئا على الأسرة المسلمة والمجتمع الإسلامى. وهنا تكون أهمية الاختيار وتبرز أسسه. فيختار الزوج المناسب القادر على الكسب وعلى رفع مستوى الدخل والإنتاج لأسرته الناشئة وبالتالي رفع مستوى الأمن لها من كافة الوجوه. فإذا حدث ذلك وحسن الاختيار - أحست الأسرة الوليدة فعلا بالسعادة المرجوة في ظل كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم...

ومع السلامة العقلية والجسمية وفي ظل هذه السلامة العقلية والجسمية للزوجين يبقى الأمل قائما في ثمرة هذا الزواج وهى

الذرية الصالحة التي يأمل الطرفان في الوصول إليها. فهي هدف أساسي تسعى إليه كل أسرة يكتب لها التكون والبقاء. وصدق ربنا العظيم حيث يقول في صفة من صفات عباد الرحمن {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِيَةٍ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤].. وهذا التكاثر القوي هو الذي يستحق أن يباهى به رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره من الرسل والأمم يوم القيامة. فالواجب إذن أن تجعل الأسر الناشئة هذا التكاثر ذا قوة وسعادة. فالكثرة هنا تكون محمودة. ويحذرنا الإسلام من الكثرة المذمومة التي لا قوة فيها ولا سعادة. ويصور لنا القرآن الكريم هذه الكثرة المذمومة في الغرور الذي أصاب المسلمين قبل غزوة حنين. يقول جل شأنه: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] الآية. إذ لما أعجب المسلمون بكثرتهم في هذا اليوم وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة، وكانوا اثني عشر ألفا ولم يتجاوز عدد عدوهم أربعة آلاف - ضاقت عليهم الأرض رغم اتساعها لشدة خوفهم من عدوهم رغم قلة عدده وعُدده لأنهم كانوا كثرة ضعيفة مشغولة عن الجهاد بمتاع الدنيا فولوا أدبارهم هاربين منهزمين.. قيل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ فقال البراء: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان أخذ بلجامها يقودها - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول: **أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب**— ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجهه المشركين وقال: **أشأهت الوجوه**— ففروا، فما بقى أحد إلا

ويمسح القذى عن عينيه (1). وقال البراء شاهداً على شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورباطة جأشه في ساعات الشدة والخوف: " كنا والله إذا حمى البأس نتقى برسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن الشجاع منا الذي يحاذيه " (2)..

فهذا الموقف المتخاذل الذي وقفه المسلمون في حنين كان بسبب غرورهم. فقد رهبوا عدوهم وخافوا منه رغم كثرة عددهم وقلة عدده. وقد أوصلهم إلى ذلك غرورهم بكثرة عددهم. ولو كان هؤلاء المشتركون من المسلمين في حنين كثرة قوية ما رهبوا عدوهم القليل في عدده.. وقد صور القرآن الكريم في موقف آخر هذا التكاثر الضعيف في الأموال والأولاد بالغيث الذي يعجب الكفار نباته ثم يهيج فيروه مصفراً، ثم يكون حطاماً، لا قيمة له. فهو تكاثر هش لا يفيد الأسرة ولا المجتمع الإسلامي، بل يكون عبئاً ثقيلاً عليه. وهو يشغل الإنسان عن طاعة الله ورسوله، بالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة، فهو يفاخر غيره من الناس في حطام الحياة الدنيا الفانية. وقد امتد هذا التفاخر بين الناس مؤخراً إلى القبور التي يدفنون فيها بعد موتهم. كما قال الشاعر:

أرى أهل القبور إذا أميتوا :: بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وفخرا :: على الفقراء حتى في القبور
وقد قال ابن عباس رضي الله عنه في هذا التفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد: " يجمع المال في سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلمات بعضها فوق بعض

(1) الطبري 1/103. واقرأ القسم الخامس من كتاب صفوة التفاسير ص 14 - تفسير سورة التوبة - للشيخ المرحوم محمد على الصابوني - الطبعة الأولى.
(2) نفس الصفحة من المرجع السابق.

" (1). وذلك هو حال الدنيا ومتاعها الزائل الذي يغتر به وينصرف إليه كثير من الناس، تاركين العمل من أجل الآخرة الباقية في الجزاء والثواب.. تلك الكثرة المنغمسة في الشهوات والملذات كثرة ضعيفة ضائعة لا يرجى من ورائها خير ويقول ربنا عز وجل في ذلك: { أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرْدَهُ مُصْفًى ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ } [الحديد: ٢٠].

فالكثرة المطلوبة هي القوة في إيمانها وسلامة أجسامها وعقولها وعلمها وأخلاقها وعملها الصالح. فإذا كانت كذلك فهي الكثرة المستحقة لأن يباهى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره من الرسل والأمم يوم القيامة.. وقد دعانا القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة إلى الكثرة القوية. وحذرنا كلاهما من الكثرة الضعيفة التي يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيها: **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** — قالوا: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: **لا أنتم يومئذ كثير.. ولكنكم غثاء كغثاء السيل** — (2). فقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين وقت أن تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها بأنهم كثرة ضعيفة كغثاء السيل لا تقوى على ما يصادفها من تيارات القوة التي تجرفها في طريقها غير مكثرثة بكثرتها.

(1) التفسير الكبير للرازي 233/29. وانظر ص 82 من القسم السابع عشر من كتاب صفوة التفاسير - الطبعة الأولى.

(2) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن ثوبان 133/4. وانظر منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور ص 504. غثاء السيل: ما يتركه السيل من شوائب ومواد لا قيمة لها ولا تقوى على مقاومة تيار السيل.

وفى هذا السياق وفيما يتصل أيضا بالذرية وجعلها ذرية قوية نافعة - نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن وطء الزوجة المرضع التي قد تحمل فتضيف ثقلا وعبئا جديدا إلى طاقتها المرهقة بالرضاع. وقد لا يكون في إمكانها أن تتحمل هذا العبء فينشأ نسلها ضعيفا هزيلا. فيزيد إلى ضعف الأسرة والمجتمع ضعفا جديدا. وسيأتى الحديث مفصلا عن الغيل الذي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين والمسلمات منه. حتى لا يكون النسل ضاويا هشا لا حول له ولا قوة...

* * *

الفصل السادس: تفضيل واختيار المرأة الجميلة

مقدمة⁽¹⁾:

الجمال غالبا مبهر للنفس الإنسانية. فهى متعلقة به، وتعبر عنه بكل أنواع التعبير الممكنة. ويتنوع الجمال؛ فقد يكون ماديا، وقد يكون معنويا. فالجمال المادى يتضح في الألوان والأشكال الطبيعية والصناعية. فالطبيعة تحمل الكثير من ألوان الجمال وأشكاله. وقد عبر الإنسان كثيرا عن جمال الطبيعة، وخصوصا الشعراء العرب الذين جعلوا الشعر ديوانا لهم. فقد كانوا يعبرون عن كل شيء هام في حياتهم بالشعر. فهذا شاعر عربى من شعراء العصر العباسى يصف جمال الربيع وأثره على الورود والرياحين، وعلى الإنسان نفسه صاحب الحس المرفه الذى عبر عن ذلك. يقول البحرى:

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكا :: من الحسن حق كاد أن يتكلما
وقد نبه النوروز في غسق الدجى :: أوائل ورد كن بالأمس نوما
وأما الجمال المعنوى فيختلف من شخص لآخر، فما يراه هذا جميلا، قد لا يراه الآخر كذلك، وما يراه الآخر قبيحا، قد يراه غيره جميلا، وهكذا. فمعيار هذا الجمال المعنوى يختلف من إنسان لآخر. وقد يقنع إنسا بجمال مرئى، ويقنع آخر بجمال مسموع؛ فقد كان الشعراء القدامى من العرب يصفون الجمال المرئى عند المرأة. فمنهم من يصف عينها، ومنهم من يصف ريقها، ومنهم من يصف

(1) أمثلتها وشواهدا مأخوذة من كتاب تحفة الطلاب في تاريخ الأداب. الطبعة الثانية 1932م من ص45 إلى ص198.

خاصرها. فهذا جرير، على سبيل المثال، يقول واصفا محبوبته ومركزا قوله في عينيها:

إن العيون التي في طرفها حور⁽¹⁾ :: قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له :: وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا⁽²⁾
وإذا كانت العين والنظر هما الطريق المعتاد إلى الإعجاب المتبادل بين الرجال والنساء - فإن البعض يعشق بالأذن، فيبرز ما يوضحه الصوت من محاسن صاحبة الصوت، ويميز محبوبه على أخرى بصوتها وطريقتها المسموعة في الكلام، ويفضلها على غيرها. فهذا بشار بن برد يقول:

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة :: والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم :: الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
وعلى ذلك يمكن للأذن أن تؤدي نفس الدور الذي تقوم به العين في مجال تمييز المحبوب، ومن تهواه، وما تهواه. ومن هنا اعتبر علماء الإسلام سماع الأغاني النسائية الخليعة ولهجة بعض النساء والبنات الخارجة عن حدود أدب الحديث - من مقدمات الزنى⁽³⁾ ومحرم مثله..

ولم ينفرد الغزل الفاحش في ساحة الشعر. فقد وجد إلى جانبه الغزل العذري العفيف الخالي من الإثارة ووصف جوانب الجمال عند المرأة. وقد شكل هذا الغزل العذري مرحلة انتقال بين ظهور الغزل وانتقاله وبين فتوره وانحساره. وهذا أبو نواس يقول في

(1) إنسان العين: ناظرها أى سوادها الذي تتم الرؤية به.

(2) الحور: شدة بياض العين في شدة سوادها.

(3) وردت كلمة الزنى في القرآن الكريم بالمد بالياء حسب القاعدة اللغوية. لكنها وردت في كثير من كتب الحديث بالمد بالألف. واحتراما لنقل النصوص من كتب الحديث نكتبها فيها كما سجلتها تلك الكتب. ونكتبها في أسلوبنا نحن بالمد بالياء حسب القاعدة اللغوية.

محبوبته قولا خاليا من الألفاظ الفاضحة:

وذا تُ خـد مُـورَدٌ :: فَضُّ ية المتجـرد

ومن ذلك أيضا قول ذى الرمة الشاعر المضرى الذي وجد الجمال يكمن في الاستتار فقال في محبوبته:

تَمَامُ الحَجِّ أن تقف المطايا :: على خرقاء واضعة اللثام⁽¹⁾
وفى قوله دعوة إلى التستر وعدم السفور. فمحبوبته المفضلة تضع اللثام على وجهها لتستره عن أعين الناظرين. ونجد هذا الشاعر نفسه عندما يحس بقرب وفاته يرجع إلى ربه ويسأله سبحانه أن يزحزحه عن النار فيقول:

يا قابض الروح عن نفسى إذا حضرت :: وغافر الذنب زحزحنى عن النار
ومن تلك المقدمة ندرك أن الإسلام قد بدأ يتغلغل بتعاليمه في نفوس العرب المسلمين. فإذا بهم في النهاية يعرضون عن هذا الغزل الفاضح بل يتركون الغزل بكافة أشكاله وينصرفون إلى أغراض أخرى كثيرة، كانت أنفع لهم ولغيرهم من الناس. ووجدنا كثيرا من الشعراء الذين عاصروا بداية الإسلام يتأثرون بتعاليمه النافعة وينعكس تأثرهم بها على شعرهم. كما فعل ذو الرمة السابق ذكره فقد اقتبس من القرآن الكريم ما جمل به شعره، فقوله في بيته السابق: " زحزحنى عن النار " - متأثر بقوله تعالى: {فَمَنْ زُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥] الآية. بل إن كثيرا من الشعراء قد انصرفوا عن الشعر وخصوصا بعد أن اقتنعوا بصـدق الله عز وجل في وصف الشعراء بقوله تعالى: {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ

(1) الحج: القصد - خرقاء: غير ماهرة في السفور فهي تضع اللثام على وجهها. والمتجرد: الجسم.

﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾} [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧]. وبذلك حلت قوة إيمان المؤمن والتزامه بتعاليم الدين الإسلامي وتوجيهاته - محل التأثير بالشعر وشطحاته التي قد تبعد الإنسان عن الإيمان بالله ورسوله وعن الأخلاق الفاضلة التي يجب التحلى بها وبعد أن كان الشاعر يوجه نظراته الفاحصة النافذة إلى المرأة فيصف كل مواطن الجمال فيها - أصبح كثير من الناس يلتمسون نصائح وإرشادات الإسلام في هذا المجال بعد الاقتناع برسالة الإسلام العادلة النافعة..

وقد حذر الإسلام - قرآنا وسنة - من تتبع النساء والبنات بالنظرات. ووضع لأتباعه من الشباب وغيرهم برنامجا مباركا لتجنب الزنى ومقدماته التي أولها النظرة النافذة. والمرجو أن يسير كل مسلم ومسلمة حسب هذا البرنامج وتوجيهاته، حتى ينجو الجميع من هذا الخطر المدمر، خطر الوقوع في الزنى والبعد عن تعاليم الإسلام وإرشاداته.

ففى القرآن الكريم يحذرنا ربنا وخالقنا جل شأنه من تتابع النظر إلى النساء والبنات. فإذا كانت النظرة الأولى تأتى في الغالب عفوا - فإن النظرة الثانية وما بعدها تدل على الإصرار على المخالفة والسير في بداية طريق الخطيئة. والأولى أن يغض المؤمن بصره، وتغض المؤمنة بصرها. وفى هذا يقول ربنا الكريم: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ

مَنْهَا وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْمَرْنَ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ

ءَابَائِهِمْ أَوْ ءَآبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ التَّبِيعِينَ
غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذِّكَاءِ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا
يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ [النور: ٣٠ - ٣١]. فبالإضافة إلى الأمر
الموجه إلى النساء بغض البصر وعدم إبداء زينتهن للرجال إلا
الظاهر منها فقط - أمرهن العزيز الكريم بإلقاء خمرهن - وهى
أغطية رءوسهن - على صدورهن لئلا يبدو شيء من النحر والصدر
فيطمع الذي في قلبه مرض. فعن عائشة رضى الله عنها: أنها قالت:
" يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمْرَهُنَّ عَلَى
جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاخترمن بها " (1). قال المفسرون: " كانت
المرأة في الجاهلية - كما هى اليوم في الجاهلية الحديثة - تمر بين
الرجال مكشوفة الصدر، وبادية النحر، حاسرة الذراعين، وربما
أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغرى الرجال، وكن يسدلن
الخمر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية، فأمرت
المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطيها ويدفعن عنهن شر
الأشرار " (2).

وقد لاحظنا ولاحظتم معنا في الآيتين الكريمتين السابقتين أن أمر
النساء بحفظ فروجهن مسبق بأمر بغض البصر من الرجال والنساء
على حد سواء. وبالإضافة إلى ذلك أمر النساء المؤمنات بالألا يبدن
زينتهن الخفية إلا لمحارمهن المذكورين في الآية الثانية وهم اثنا

(1) أخرجه البخارى ص17 من القسم العاشر من كتاب صفوة التفاسير - تفسير سورة النور
- المروط: جمع مرط وهو كساء من خز أو صوف أو كتان تتلفع به المرأة.

(2) نفس الصفحة من المرجع السابق. النحر: أسفل الرقبة من الأمام - حاسرة: مكشوفة -
ذوائب الشعر: الشعر المحاذي للأذنين - يسدلن: يلقون.

عشر محرماً. وهؤلاء المحارم المصرح لهم بجواز النظر إلى زينة المرأة الخافية عن النظر وليس إلى شيء من عورتها كما قد يظن البعض - هم: الأزواج، وآباء الزوجات، وآباء الأزواج، وأبناء الزوجات، وأبناء الأزواج، وإخوة الزوجات، وأبنائهن، وأبناء أخوات الزوجات، ونسائهن المسلمات وليست المشركات، وما ملكت أيمانهن من الإماء المشركات لأنهن إماءهن، والخُدَّام غير أولى الميل والشهوة والحاجة إلى النساء كالبه والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً. قال مجاهد: هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهتم إلا بطنه، والأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حد الشهوة ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم⁽¹⁾.. ويقول الرحمن الرحيم سبحانه: ﴿لَتَأْتِيَ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وفي الآية الكريمة أمر لنساء المؤمنين أن يلبسن الجلباب الواسع (العباءة) الذي يستر محاسنهن وزينتهن ويميزهن عن نساء الجاهلية.

روى الطبري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: "أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبيدين عينا واحدة" (2).. وكانت البغايا في الجاهلية تلبسن الثياب القصيرة الضيقة المبينة لمفاتن أجسادهن فينجذب إليهن أمثالهن من الشباب والرجال الذين يميلون إلى فعل الفاحشة. فلما جاء الإسلام حذر المسلمات من ذلك، وأمر

(1) نفس الصفحة من المرجع السابق.

(2) ص72 من القسم12 من كتاب صفوة التفاسير - سورة الأحزاب - للشيخ المرحوم محمد علي الصابوني بتصرف.

المسلمين ألا تخرج نساؤهم وبناتهم إلى الشوارع والطرق بـهذه الصورة الخبيثة المـزريّة، حتّى لا يقعن في قبضة الشيطان وأعدائه المزينين للزنى⁽¹⁾..

وقد حرم الله الزنى بكافة صورته وأشكاله كما حرم مقدماته، ومن أهم هذه المقدمات النظرة النافذة التي تتكرر من التعساء وتوقعهم في دائرة الخطر. فهذه النظرة محظورة لأنها عادة ما يتبعها ابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء. وهذا اللقاء غير الشرعى يمثل خطورة قصوى على مستقبل الرجل والمرأة والشاب والفتاة. فتلك النظرة المشار إليها محظورة كالقبلة وكالاستغراق في التفكير في المحاسن المرئية للمرأة أو البنات، وكتمنى أو تخيل الجماع بين الناظر والمنظورة وكسماع صوت الأنثى الخليع والاستمتاع به وبطريقتها الخليعة في الكلام وكاقتناء الصور العارية للنساء والفتيات التي تنشرها بعض الصحف الأجنبية وبعض المجلات الخليعة. فاقتناء كل ذلك من مقدمات الزنى.

وقد حرمه الإسلام كما حرم الزنى. وقد ورد هذا التحريم في قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢]. فالاقتراب من الزنى يكون بفعل مقدماته التي تحدثنا عنها وهى محرمة بتحريمه...

وفى مجال السنة النبوية المباركة نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الشباب والشابات المسلمين والمسلمات من مقدمات الزنى للابتعاد عنها كخطوة هامة على طريق الامتناع عن الزنى، فيقول صلى الله عليه وسلم: [♂]إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حُظَّهُ مِنَ الزَّانَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ. فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى

(1) نفس الصفحة من المصدر السابق.

وتشتهى، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه — (1). وبالقياص يمكن القول: وزنى الأذن السماع.

ويرسم لنا الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم طريق النجاة من هذا الخطر الداهم فينبه من لا يملك بآفة الزواج إلى الطريق المفيد، فيقول صلى الله عليه وسلم: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر - وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء — (2).. ونظرا لأن المتزوج نفسه قد يقع في هذا الخطأ الممقوت - نجد الرسول صلى الله عليه وسلم الحريص على سلامة أمته من هذا الزلل - يتابع إرشاد المسلمين المتزوجين إلى الطريق المنجى من هذا المنزلق الخطير، فيقول صلى الله عليه وسلم: إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله، فإن البضع واحد ومعها مثل الذي معها — (3) وفي رواية أخرى يقول النبي صلى الله عليه وسلم: إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه — (4). وقد روى جابر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة، فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج وقال صلى الله عليه وسلم: إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها — (5). ويكمل لنا الرسول الإنسان صلى الله عليه

(1) أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ في كتاب الاستئذان - باب زنا الجوارح دون الفرج ص225 من ج3 من صحيح البخارى.

(2) رواه الجماعة حرف الباء ص160 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي - الباءة: مصاريق الزواج ومستلزماته ومسؤولياته - وجاء: حافظ.

(3) رواه الخطيب عن عمر ص13، من مختار الأحاديث النبوية.

(4) رواه مسلم ص23 من المصدر السابق.

(5) رواه مسلم والترمذى واللفظ له وقال حسن صحيح ص33، من كتاب الزواج الإسلامى

وسلم طريق السلامة من الافتتان بالنظر إلى النساء فيقول صلى الله عليه وسلم: **♂ ما من مسلم ينظر إلى امرأة أول رمقة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه — (1)**.

كما يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء اللاتى يلفتن أنظار الرجال والشباب بتبرجهن وملابسهن الفاضحة فيقعون في شباك الخطيئة فيفتن الرجال والشباب ويفتن بهم. ويكون مصير هؤلاء وأولئك إلى النار وبئس المصير، فيقول صلى الله عليه وسلم: **♂ صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس. ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات. رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة. لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا — (2)**..

وفى رواية: **♂ وإن ريحها يوجد من مسيرة خمسمائة سنة — (3)**. كما حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنف من النساء تبدو إحداهن جميلة لكن منبتها منبت سوء نشأت وتربت في بيت سوء. وقد سبق أن ذكرنا حديثه صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن. **♂ إياكم وخضرء الدمن —**، قالوا وما خضرء الدمن يا رسول الله؟ قال: **♂ المرأة الحسناء في المنبت السوء —**..

ولاحتياط والحذر من مقدمات الزنى المؤدية إليه - يحذر صلوات الله وسلامه عليه المسلمين والمسلمات من عدة أمور تُدخلُ فاعلها في محيط مقدمات الزنى. وذلك حتى يحتاط المسلمون جميعاً

السعيد - لأبى حامد الغزالي تحقيق محمد عثمان الخشت - يونيو 1984م.

(1) رواه أحمد ص34، من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

(2) رواه أحمد عن أبى هريرة ص90 - حرف الصاد - من كتاب مختار الأحاديث النبوية - البخت: النياق.

(3) موطأ مالك ص569 - الشعبية.

من خطر هذا الداء العضال. ومما ورد في ذلك: " نهى صلى الله عليه وسلم أن تُكلمَ النساءُ إلا بإذن أزواجهن " (1). حتى لا يتدخل الشيطان بين الرجل والمرأة إذا رآهما منفردين.. كما يحذر المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلمين والمسلمات من أن يتمطى الرجل عند نساء غير زوجته منعا لتدخل الشيطان الرجيم. وقد ورد نهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك فيما رواه الدارقطني عن أبي هريرة: " نهى صلى الله عليه وسلم أن يتمطى الرجل في الصلاة، أو عند النساء إلا عند امرأته " (2). ومن هذا القبيل تحذير النبي صلى الله عليه وسلم لعامة المسلمين من الجلوس في الطرقات وتصويب النظر إلى الرائحات والغاديات في قوله صلى الله عليه وسلم: **«إياكم والجلوس على الطرقات»**، قالوا: ما لنا بد. إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: **«فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها»**، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: **«غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر»** (3)..

وهذا البرنامج الإسلامي المتكامل للقرآن الكريم والسنة النبوية المباركة والذي تحدثنا عنه وأوردنا الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الالتزام به - يشكل حازما منيعا للمسلم والمسلمة عن الوقوع في الزنى نتيجة النظر والتعمق والتفكير فيما وراء جمال المرأة ومفاتنها. وهو في الوقت نفسه مساهمة إيجابية لإشاعة جو السعادة والاستقرار في الأسرة المسلمة، لو اتبعت التوجيهات السابقة ونفذتها كما أمر الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(1) رواه الطبراني ص34 - من مختار الأحاديث النبوية.

(2) ص154 من مختار الأحاديث النبوية.

(3) رواه البخاري ص52، 53 - من مختار الأحاديث.

وبعد كل التوجيهات والتحذيرات الواردة في نطاق البرنامج الإسلامى في الكتاب والسنة لعدم التورط في الزنى، بالوقوع في مقدماته المحرمة مثله، نقول: إن اختيار المرأة الجميلة للزواج، لا بأس به، إذا اقترن جمال المرأة بالتزامها بمبادئ الدين الإسلامى وتوجيهاته السامية بالإضافة إلى أخلاقها الحميدة المقتبسة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وإذن فجمال المرأة وحده لا يكفى لتكوين أسرة سعيدة. لأنه سينتهى، شأنه شأن كل المتع في الحياة الدنيا. فلا بد مع الجمال من التحلى بمبادئ الدين الإسلامى الحنيف وتوجيهاته في شتى الميادين، ولا بد كذلك من التزين بالأخلاق الحميدة التي يدعو إليها الإسلام. وهذا هو ما يعرف بالجمال المعنوى، جمال الروح.

والنفس المسلمة تتأثر بجمال المبادئ الإسلامية فتأخذ بما فيها من توجيهات وإرشادات، تحد من الشهوة وتوجهها توجيهها صحيحا ينفع ولا يضر. وبهذا يتم التفاعل بين الجمال الخلقى والجمال الخلقى. فالمرأة المتمسكة بمبادئ الإسلام وتوجيهاته - سيكون إسلامها وإيمانها وأخلاقها الحميدة والتزامها بما تدعو إليه هذه التوجيهات والمبادئ - حافزا لها على الاعتدال في أقوالها وأفعالها وأدائها لوظيفتها كزوجة مسلمة وربة بيت مسلم. فهي راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته. تؤدى حق زوجها وحقوق أولادها وبناتها خير الأداء. ولهذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم: ♂ إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز — (1). أى أنه لا بأس بجمال المرأة الزوجة مع تمسكها بدينها الإسلامى الذي يوجه

(1) أخرجه الشيرازى في الألقاب عن ابن عباس عن أبى سعيد الخدرى ص63، من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى.

أقوالها وأفعالها وجهة إسلامية نافعة. كما يشير الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أمر هام في هذا المجال، وهو ألا يفضل جمال المرأة على دينها لأن الزواج لو قام على ذلك كان تصرفاً دنيوياً لا نصيب فيه من العمل من أجل الدار الآخرة. حيث يكون تصرف الزوجة حينئذ غير مأمون، وذلك لاحتمال عدم التزامها بالدين الإسلامي وتوجيهاته وأخلاقياته. فالالتزام بمبادئ الدين الإسلامي يزن تصرفات الزوجة ويجعلها دائماً نافعة غير ضارة. ولهذا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **لَا يُخْتَارُ حَسَنُ وَجْهِ الْمَرْأَةِ عَلَى حَسَنِ دِينِهَا** — (1). أى يجب أن يتم اختيار الزوجة بحيث لا يتفوق على تدينها وأخلاقها الحميدة جمال ولا غنى ولا حسب ولا غير ذلك من الأمور المفضلة دنيوياً.. وفى حسن الوجه والجمال المادى مع الالتزام بالدين والأخلاق الفاضلة يقول الشيخ أبو حامد الغزالي: " إذا كانت المرأة حسناً خيرة الأخلاق محبة لزوجها قاصرة الطرف عليه، فهي على صورة الحور العين سوداء الحدقة والشعر كبيرة العين بيضاء اللون. فإن الله وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة (2)، في قوله تعالى: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [الرحمن: ٧٠]، وفى قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} [الرحمن: ٥٦]، وفى قوله تعالى: {عُرُبًا أَتْرَابًا} [الواقعة: ٣٧].. فالحور العين نساء صالحات كريمات الأخلاق، حسان الوجوه. وهن نساء قصرن النظر بأعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم كما هو حال المخدرات العفائف. وهن متحبيات لأزواجهن عاشقات لهم، يشتهينهم دائماً. وهن كذلك مستويات في السن.. فإذا عثر زوج سعيد على زوجة تجتمع فيها هذه

(1) رواه الديلمى عن عباده بن الصامت. نفس الصفحة من المصدر السابق.

(2) انظر ص 65 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - للشيخ أبى حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت - يونيو 1984م.

الصفات أو غالبيتها - فلا شك أنه سَيُكُونُ أسرة سعيدة معها.. وإذا فضل المقبل على الزواج المال والحسب على الدين - فإن النتيجة ستكون فشلاً وضياعاً وتعاسة. وإذن فالنتيجة الحتمية للزواج من امرأة يزيد مالها وحسبها وجمالها على دينها - هي الفقر والذل والدناءة. لأن الدين قوام الحياة الزوجية وقوام سعادتها وبقائها حتى الأجل المحدود عند الله تبارك وتعالى.

ومن أجل ذلك يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه النتيجة العكسية غير المطلوبة، فيقول صلى الله عليه وسلم: **لَا تَزُوجُوا النِّسَاءَ لِحَسَنِهِنَّ، فَعَسَى حَسَنُهُنَّ أَنْ يَرْدِيَهُنَّ، وَلَا تَزُوجُوهُنَّ لَأَمْوَالِهِنَّ، فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تَطْغِيَهُنَّ وَلَكِنْ تَزُوجُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ، وَلَأُمَّةٌ سَوْدَاءُ ذَاتِ دِينٍ أَفْضَلُ — (1).** ويقول صلى الله عليه وسلم أيضاً: **لَا تَزُوجْ امْرَأَةً لِعَزْهَافِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا ذُلًّا. وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا فَقْرًا، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِحَسْبِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا دِنَاءَةً، وَمَنْ تَزَوَّجْ امْرَأَةً لَمْ يَرُدَّ بِهَا إِلَّا أَنْ يَغْضُضَ بَصَرَهُ، أَوْ يَحْصَنَ فَرْجَهُ، أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ بَارِكَ اللهُ لَهُ فِيهَا وَبَارَكَ لَهَا فِيهِ — (2).** هذا ويجب أن يؤخذ في الاعتبار أن المرأة فضلت الرجل وفاقت عليه في اللذة والحياء. فاللذة عندها أكبر، والحياء عندها أكثر. وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **فَضَّلْتُ الْمَرْأَةَ عَلَى الرَّجُلِ بِتِسْعَةٍ وَتَسْعِينَ جُزْءًا مِنَ اللَّذَّةِ، وَلَكِنْ اللهُ أَلْقَى عَلَيْهِنَ الْحَيَاءَ — (3).** والمرأة المسلمة تستغل هذا الحياء وتستفيد منه في الحفاظ على زوجها وأولادها وبناتها والأسرة الإسلامية التي ترعاها. فهي تتخذ

(1) رواه البيهقي في السنن ص362 - من منهج السنة في الزواج ابن حجر عن ابن ماجه في السنن.

(2) رواه ابن حبان من حديث أنس وله شاهد من رواية ابن ماجه. ص66، 67 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(3) رواه البيهقي عن أبي هريرة ص103 - من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

زوجها حائلاً دون وقوعها في حبائل الشيطان الرجيم، كما يتخذها زوجها حائلاً دون وقوعه فيما حرمه الله عز وجل نتيجة النظرة غير الشرعية وما يترتب عليها من آثام.. وهكذا يكون حياء الزوجين سبباً من أسباب سعادتهما في حياتهما الزوجية وفي تكوين أسرة سعيدة تضم أبناء سعداء وبنات سعيدات. وتكون بذلك قدوة لغيرها من الأسر المسلمة...

* * *

الفصل السابع: مراعاة الكفاءة بين الزوجين

يقصد بالكفاءة من الناحية اللغوية المماثلة والمشابهة. وهى عند فقهاء المالكية - المذهب الذي نميل إليه - تتمثل في ثلاثة أمور: الحال، والدين، والحرية⁽¹⁾.. والمماثلة في الحال تعنى وتقتضى السلامة من العيوب التي من شأنها وجوب رد الزواج بعد اكتشافها. فلا يقصد بالحال إذن الحسب والنسب كما قد يتبادر إلى فهم البعض⁽²⁾.. ويراد بالدين التدين أى التمسك بتعاليم الدين الإسلامى وإرشاداته. والمماثلة فيه تفيد منع المشهورين بالفسوق - كالزناة وشاربى الخمر - من الزواج بالمؤمنات الصالحات.. أما المماثلة في الحرية فهى تعنى أن تتزوج الحرة حراً لا عبداً⁽³⁾..

ففى ظل الكفاءة الإسلامية بين الزوجين في الحال يجب التأكد من سلامة الطرفين من العيوب الخلقية والخلقية الخطيرة وكذلك الأمراض الخطيرة التي قد يقصد أحد الطرفين إخفاءها إلى أن يتم الزواج. وقد تحدثنا سابقاً عن هذه العيوب والأمراض وخصوصاً في الزواج من الأقارب.

وفى ظل الكفاءة الإسلامية بين الزوجين في التدين، لا يجوز للأب أو الولي جبر البكر على الزواج من فاسق لاحتمال أن يجرها إلى الفسوق لقوة شخصيته وطريقته المقنعة في الحوار مثلاً.. وقد

(1) من ص 399، ص 400، من الجزء الثالث من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك.

(2) ص 400 من المصدر السابق مع التصرف.

(3) ص 400 من المصدر السابق بتصريف.

ورد " من زوج ابنته من فاسق فقد قطع رحمها " (1). ولم ينسب كثير من العلماء هذا الأثر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتبروه موضوعا. ومع ذلك نجده يصب في إطار الهدف الإسلامى الذي يبنى الزواج على أسس سليمة في الاختيار.. وقد أجاز البعض زواج المرأة من الفاسق على أمل أن تعيده إلى الاستقامة على طريق الإيمان لكن هذا الأمل قد يصطدم بقوة شخصية الرجل وإصراره على المضى في طريق الفسوق. بل ربما يجرها هو إلى طريق الفسوق.

وفى ظل الكفاءة بين الزوجين في الحرية دعا الإسلام إلى الزواج من الحرائر، كجزء من الدعوة إلى التخلص من العبودية وتجارة الرقيق التي كانت منتشرة في أوائل ظهور الإسلام، وإلى المساواة بين الناس جميعا، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح. وفى ذلك يقول النبی صلى الله عليه وسلم: **«من أراد أن يلقى الله طاهرا فليتزوج الحرائر»** (2). ذلك لأن الزواج من الإماء يجعل الأولاد أرقاء.

والأولى أن يسلك المسلمون مسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم: فالأمة تُشتري وتُعتق ثم يتزوجها مُعتقها بعد أن تكون قد تحررت من الرق، واقتنعت بالإسلام ومبادئه النافعة فأُسلمت. والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها: زواج النبی صلى الله عليه وسلم من جويرية بنت الحارث التي جاءت تسأله فكاكها من الأسر فأعانها على كتابتها وتزوجها بعد أن أسلمت وصارت حرة. ومنها أيضا

(1) رواه ابن حبان في الضعفاء عن أنس ص 324 0 من كتاب منهج السنة في الزواج.
(2) رواه ابن ماجه بسنده عن أنس بن مالك 598/1 - 599 - ص 363، من منهج السنة في الزواج.

بريرة التي اشترتها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وأعتقتها فصارت حرة ورفضت استمرار زواجها من مغيث الذي كان عبدا لم يعتق بعد. وستذكر قصتها بعد قليل..

وكان نظام العبودية سائدا عندما بدأ الإسلام في الظهور في القرن الأول الهجري. وكان برنامج الإسلام لإنهاء نظام العبودية والقصد إلى المساواة بين الناس جميعا - يمنع زواج الحرة بالعبد، إلا بموافقتها وموافقة وليها. فالعبد الذي يتزوج الحرة بغير علمها تكون عبوديته عيبا يجيز رد الزواج. وكان الناس يعاملون المولى معاملة العبد، مع وضوح الفارق بينهما، إذ المولى متبنى أما العبد فمسلوب الحرية.. وفي ظل النظام الإسلامي كان " للزوجة والولى ترك الحرية والرضا بعدمها والتزويج بفاسق أو معيوب شريطة أن يرضا معا (أى الزوجة والولى) بذلك. فإن لم يرضا معا فالقول لمن امتنع منهما، وعلى الحاكم منع من رضى " (1). وكما سبق أن أوردنا: لا يجوز للأب جبر البكر على الزواج من فاسق أو ذى عيب وإن تزوجها أحد منهم بعلم الأب فللزوجة والولى رد الزواج وفسخه (2).. وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة إذا لم ترض بالزواج من ذى عيب يوجب رد الزواج كما مر.

وكمثال واضح لرد الزواج لاختلاف الحال والحرية بين الزوجين، أى لعدم توافر السلامة من العيوب - التي توجب رد الزواج - ومنها عيب العبودية - إذا لم يتوافر الشرط السابق، وهو رضا الزوج
والولى - زواج بريرة جارية عتبة بن أبى لهب من أحد عبيد

(1) ص400 من ج3 من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك.

(2) نفس الصفحة من المرجع السابق.

المغيرة. والجارية، في نظام الجوارى في ذلك الوقت، كانت تتبع سيدها وتآتمر بأمره. لذلك وافقت بريرة على رغبة سيدها عتبة وتزوجت من مغيث وهى كارهة لهذا الزواج؛ لأن مغيث عبد من عبيد المغيرة. لكن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أشفقت على بريرة التي أكرهت على الزواج من مغيث، ولو كان أمرها بيدها ما رضيت به، فاشتريتها وأعتقتها. وهنا قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿ملكك نفسك فاختارى﴾**. وانقلب الحال فأصبحت بريرة حرة متزوجة من عبد، مما يتيح لها قبول الزواج أو رفضه. وسار خلفها مغيث يحاول استعطافها في ذلة وهوان، حتى لا تتركه، وكانت لا تهتم به أوحى تلتفت إليه. مما أثار عجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه: **﴿ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له﴾**. ثم نصحتها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: **﴿اتق الله فإنه زوجك وأبو ولدك﴾**. فقالت عند ذلك: أتأمرنى؟ قال: **﴿لا وإننا أنا شافع﴾**، قالت: إذن فلا حاجة لى إليه(1)..

ويعتقد البعض أن مبدأ الكفاءة بين الزوجين يكون في الدين والمال والحسب والنسب. والحقيقة أن ذلك يصح بالنسبة للدين. فلا بد للزوجين من قاعدة دينية إسلامية صلبة يبنيان عليها بيت الزوجية الجديد. لكنه لا يصح بالنسبة للمال والحسب والنسب والمركز الاجتماعي. فمبادئ الإسلام وتعاليمه وتوجيهاته في الزواج تحصر الكفاءة في أمرين اثنين يجب توفرهما: أولهما التدين وينتج عنه: التعقل والرزانة وسلامة الفكر والتصرف. والثانى: حرية كل من الزوج والزوجة في اختيار رفيقه وهى حق لكل منهما. وتتيح تلك

(1) المبسوط 99/5، ص407، من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور. مع كثير من التصرف في أسلوب سرد القصة.

الحرية لأى منهما، التنازل عن مظهر أو آخر يكون معمولاً به في عرف أو تقليد، ولا يترتب عليه إخلال بحق من حقوق الطرفين أو واجب يجب على أحد منهما. وفي هذه الحالة يجب أن يحظى ذلك التنازل برضا الطرفين. وبذلك تنحصر الكفاءة في الزواج الإسلامى في أمرين هامين: أحدهما الخبرة والكفاءة العلمية لدى الطرفين. وكل ذلك يتبع التدين مع الالتزام بالأخلاق الإسلامية الكريمة. والآخر القدرة على تحمل أعباء الزواج ومنها القدرة المالية بطبيعة الحال. مع مراعاة أن مسئولية الإنفاق على الزوجة وبيت الزوجية تقع أساساً على الزوج. فهو المطالب شرعاً به مهما كبرت الذمة المالية للزوجة. وكذلك مع مراعاة أنه لا مانع في الإسلام من تعاون الزوجة مع زوجها في تذليل العقبات المالية للأسرة إذا رغب الزوج في مساهمتها فيها بناء على رغبتها في ذلك⁽¹⁾.

والإسلام يرفض أن يكون الحسب أو النسب أو الغنى أساساً للكفاءة بين الزوجين. لأن الإسلام لا ينظر إلى الدنيا فقط بل إلى الآخرة أيضاً. فالحسب عند أهل الدنيا هو المال، لكنه عند أهل الآخرة يعنى الأخلاق الكريمة. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **كُرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه** —⁽²⁾. وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: **كُرم المال والكرم التقوى** —⁽³⁾. ولا تعارض بين الحديثين الشريفين. فمال المؤمن هو حسبه أى أخلاقه الكريمة. فهو غنى به. وكرم المؤمن يتمثل في تقواه وإقباله على خالقه ورازقه سبحانه.

(1) بتصرف من ص378 إلى ص383 من المرجع السابق.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک 163/2 من حديث أبى هريرة ص383 - من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور الأحمدي أبو النور.

(3) من حديث سمره بن جندب. نفس الصفحة من المرجع السابق.

وإذن فلن يقع ضرر على المرأة المسلمة إذا ارتبطت وتزوجت بمسلم فقير أو صاحب حرفة لا تجلب له شهرة، أو تزوجت من رجل متواضع نسبه غير مشهور. وأن كل ذلك لا يؤثر في الكفاءة بين الزوجين ولا ينقص منها ما دام التدين والتمسك بمبادئ الدين الإسلامي وأخلاقياته موجودا.. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة. ومن ذلك أن "ضباعة" بنت الزبير بن عبد المطلب الهاشمية وبنت عم النبي صلى الله عليه وسلم تزوجت بالمقداد بن الأسود، ولو كان الإسلام يعتبر الكفاءة في النسب ضرورية لما وافقت ضباعة ولا وليها على الزواج من المقداد لأنها تفوقه في النسب⁽¹⁾ وهى بنت عم النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق القول.. ومن ذلك أيضا ما ورد في شأن بنى بياضة أصحاب المركز الاجتماعى المرموق، الذين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يُنكحوا أبا هند ويُنكحوا إليه مع أنه مولى متبنى منهم، ولما اعترضوا أنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣]. قال الزهري: نزلت في أبى هند خاصة⁽²⁾.. فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ^١يابنى بياضة.. أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه— قال: وكان حجاما⁽³⁾.. فحرفة أبى هند المتواضعة وهى الحجامة ووضعها الاجتماعى وهو أنه من موالى بنى بياضة كل ذلك لم ينقص من كفاءته في الزواج من بنات بنى بياضة مع مكانتهم الرفيعة في المجتمع..

(1) ص380 من المصدر السابق يتصرف.

(2) نفس الصفحة 38 من المصدر السابق

(3) أخرجه أبو داود في السنن

وتمشيا مع المبدأين اللذين اعتبرهما الإسلام لازميين للكفاءة بين الزوجين - وقد أشرنا إليهما سابقا - نقول: إن الاختلاف بين الزوجين في درجات السلم التعليمى اختلافا واضحا، كأن يحمل أحدهما مؤهلا عاليا أو متوسطا، ولا يحمل الآخر أى مؤهل بل هو أمى - يجب النظر إليه أو الاهتمام به لأنه من ركائز الإيمان الذي يفضل العلم على الجهل، وخصوصا عند تكوين أسرة مسلمة. فمما لا شك فيه، أن كلا الطرفين يجب أن يكون على علم بالقرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة، وعلى الأخص بالقدر اللازم منهما والذي يساعد الزوجين في إدارة شئون أسرتهما الناشئة بحكمة واقتدار.. فمن الملاحظ أن هناك مسائل فقهية تهم الزوجة مثلا في حالتى الحيض والنفاس. فإذا لم تكن الزوجة على علم بذلك وجب على الزوج أن يتعلم ذلك ويعلمها ما يلزم من هذه الأمور. والأفضل أن يكون كلاهما على علم به، فذلك أسلم وأوفق وأفضل وهناك أيضا مسائل خاصة بالإنفاق وغيره من إدارة شئون الأسرة.. ويجب الطرفان معالجتهما بينهما دون تدخل من قريب أو بعيد. وذلك يستلزم العلم بهذه المسائل حتى لا يكون هناك لبس أو حرج في تعاملهما مع هذه الأمور. وإذا فالكفاءة في هذه الناحية التعليمية واجبة. وإذا حالت ظروف القاهرة بين الزوجين وبين تحقيق هذه الكفاءة فلا أقل من أن يتعلم الزوج باعتباره هو المسئول الأول عن هذا الكيان الأسرى الناشئ ثم يعلم زوجته ما يلزمها من هذه الأمور ويكون إرشاده لها عن دراية وعلم.. والأمر الهام هنا هو أنه لا يجوز التكافؤ بينهما في الجهل لأن الجهل بهذه الأمور التي تهم الحياة الزوجية يعرض الأسرة الناشئة لانتكاسة خطيرة، وقد يؤدى إلى تدميرها. وهى نتيجة لا يقبلها الإسلام ولا يرضاها..

وكمثال واضح للتكافؤ التام والناجح بين الزوجين المسلمين - نذكر زواج النبي صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها. حيث توفر العنصران الأساسيان للتكافؤ في شخصية رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وفي شخصيتها رضى الله عنها. فقد توافر العلم النافع الذي ينهض بالحياة الزوجية وينميها ويجعلها مستقرة ثابتة سعيدة. وذلك بفضل الإيمان الكامل القوى الذي يحث على العلم والتعلم. وتواجدت أيضا الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة التي جمعت بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبين أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها. كما توفرت القدرة على بقاء الزواج. حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتغل بالتجارة ويربح منها. وقد أبدت السيدة خديجة رضى الله عنها استعدادها للتعاون في ظل زواجها بمحمد صلى الله عليه وسلم على إنشاء بيت مؤمن تقى سعيد.

وكمثال لعدم التكافؤ بين الزوجين نذكر زواج زيد بن حارثة خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه ومتبناه، من زينب بنت جحش رضى الله عنها. وقد تربى زيد بعد موت أبيه وهو صغير في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ينهل من علمه وثقافته كلما كان ذلك مباحا له، لكنه في نظر الناس مولى، والمولى عندهم قريب من العبد. وكان الآباء حينئذ لا يرحبون ولا يوافقون على زواج المولى من حرة، رغم أنه ليس عبدا. ولهذا لجأت الحرة زينب رضى الله عنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راغبة في إعفائها من الزواج من زيد بعد أن خطبها له رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكن الرسول الكريم الذي لا ينطق عن الهوى أفهمها أن هذا الزواج بأمر من الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم

لحكمة ربانية سامية تستخلص منه. فأذعنت زينب رضى الله عنها لأمر الله تعالى ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، الذي أيده وحى السماء بنزول قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن عباس قال: "خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة، فاستنكفت منه وكرهت وأبت فنزلت الآية: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} الآية فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته" .. وفى رواية "فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قریش. فلما نزلت الآية جاء أخوها فقال: يا رسول الله مرنى بما شئت. قال: ١ فزوجها من زيد—، فرضى وزوجها" (1). وكان امتناع زينب في الرواية الأولى دالا على الأنفة والكبر وكرهية الارتباط بل رفضه لا لشيء إلا لأنه مولى. ويستدل من الرواية الثانية أن زينب امتنعت كما امتنع أخوها لمكانته ومكانة أخته الاجتماعية حيث لم يكن مألوفاً ولا مرغوباً فيه أن تتزوج الحرة ذات المكانة العالية في قومها من مولى من موالى قومها. فالمولى عندهم شبيه بالعبد. ولذلك رأت زينب كما رأى أخوها أن زيدا ليس كفئاً لها.. لكن الإسلام لا يعترف بالطبقية. فطبقات المجتمع الإسلامى كلها في كفة واحدة ولا مفاضلة بين فرد وآخر فيه إلا بالتقوى. وإذن لا فضل لزینب الحرة على زيد الذي كان من سبى الجاهلية فاشتترته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ووهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه

(1) البحر المحيط 233/7، ص61 من القسم 12 من كتاب صفوة التفاسير.

وتبناه⁽¹⁾. وبذلك صار حرا مثلها. وكما قلنا رضيت زينب رضى الله عنها بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لها وخصوصا بعد أن نزل القرآن الكريم مؤيدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن. واتضح أن الحكمة الإلهية التي من أجلها تم هذا الزواج هي إبطال ظاهرة التبنى..

وكما سبق بيانه أذعنت زينب لأمر الله ورسوله لكنها في واقع الأمر وقفت من زيد موقفا متعنتا حيث لم تكن في قرارة نفسها مقتنعة بكفائه لها. وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو زينب ويعرض على الرسول الكريم أن يطلقها. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يمسك عليه زوجته وأن يتقى الله فيها كزوجة له ⁽²⁾. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحيم بأمرته أخفى عن زيد رضى الله عنه أن الله تعالى أخبره صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون زوجة له بعد زيد. فقد خشى صلى الله عليه وسلم أن يقول الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج امرأة متبنيه. وكان الناس في هذا الوقت يعتبرون المتبنى ابنا. مما لا يتيح لمتبنيه أن يتزوج من امرأته بعد طلاقها منه. ومن أجل ذلك نزلت الآية التالية لتبيح زواج المتبنى من زوجة متبناه بعد طلاقها منه، حيث

يقول ربنا العظيم: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ

(1) نفس الصفحة من كتاب صفوة التفاسير مع التصرف.

(2) ص59 بتصرف من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السعيد الشرقاوى - 1986م.

فِي أَزْوَاجٍ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا { [الأحزاب: ٣٧]..
فقد بينت الآية الكريمة سبب إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن زيد أن زينب ستكون زوجة له بعد طلاقها من زيد.. وقد أجازت
الآية الكريمة بذلك للناس أن يتزوج المسلم بامرأة متبنيه بعد أن
يطلقها؛ حتى تبطل ظاهرة التبني التي كانوا بسببها يُورثون الابن
المتبنى ويلحقونه بأبناء مولاه الذي تبناه..

وقد قال المفسرون في مسألة تزويج زينب من رسول الله صلى
الله عليه وسلم بعد طلاقها من زيد: " إن الذي تولى تزويجها هو الله
جل في علاه، فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله صلى الله
عليه وسلم بلا إذن ولا عقد ولا مهر ولا شهود. وكان ذلك
خصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ". أما بقية الناس فلا بد
من الإذن والعقد والمهر والشهود. وقد روى البخاري عن أنس بن
مالك رضى الله عنه قال: " كانت زينب تفخر على أزواج النبی
صلى الله عليه وسلم وتقول: ١ زوجكن أهاليكن، وزوجني ربي من فوق
سبع سموات — (1) ..

وهكذا كان زواج النبی صلى الله عليه وسلم من زينب بنت
جحش رضى الله عنها بعد طلاقها من زيد بن حارثة وهو متبنى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال ظاهرة التبني بعد أن كان
المسلمون في ذلك الوقت يُلحقون المتبنى بأبناء متبنيه، ويجعلون له
نصيباً من ميراث من تبناه كما سبق القول. وقد عمدت الشريعة
الإسلامية إلى إبطال هذا التصرف غير الشرعى. ونبه القرآن الكريم
إلى وجوب أن يدعو المسلمون هؤلاء المتبنين بأسماء آبائهم

(1) ص63 من القسم 12 من كتاب صفوة التفاسير - الطبعة الأولى - للمرحوم الشيخ محمد
على الصابوني.

الحقيقيين.

ويقول الله تعالى في ذلك: { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمُ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤ } أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥ } [الأحزاب: ٤ - ٥]..

فاللجوء إلى الإسلام قرآنا وسنة يعفى المسلمين من الحرج في مثل هذه الأمور. وقد سوى الإسلام بين المسلمين جميعا لا فضل لأحد منهم على أحد، إلا بالتقوى والعمل الصالح. وقد سبق أن ذكرنا في ذلك قول الحق تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { [الحجرات: ١٣]. وهذه التعاليم الإسلامية الموجودة في القرآن الكريم وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخاصة بالكفاءة بين الزوجين - تساعد المسلمين والمسلمات المتمسكين والمتمسكات بتعاليم الدين الإسلامي وآدابه وإرشاداته، على تحرى الكفاءة في الاختيار للأزواج والزوجات، بكل أبعادها في إطار شرعى مطلوب...

* * *

الباب الثالث: أسس أخرى لازمة لإتمام الزواج وإضفاء الشرعية والسعادة
عليه

الباب الثالث

أسس أخرى لازمة لإتمام
الزواج وإضفاء الشرعية
والسعادة عليه

الباب الثالث:

أسس أخرى لازمة لإتمام الزواج وإضفاء الشرعية والسعادة عليه

وهناك ركائز أخرى وعناصر وأسس هامة تعتبر امتدادا للأسس الاختيار ومتممة لها، حتى يتم الزواج بطريقه شرعية تسعد الأسرة الناشئة عنه، وتسعد المرتبطين بها، والمتعاملين معها، بل تسعد المجتمع الإسلامي كله، وتعفيه من المشاكل التي ينغمس فيها من لا يلتزم بهذه الأسس والركائز.. ويلزم الحديث عن هذه الأسس وإلقاء الضوء عليها، باعتبارها مشاركة في تواجد السعادة الأبدية المنشودة للأفراد والأسر والمجتمعات الإسلامية، من خلال الزواج الشرعى.

* * *

الفصل الأول:

الخطبة

الخطبة من أهم الأسس التي يقوم عليها الزواج الشرعى. وهى تؤدى إلى السعادة في الزواج ومباركته أو يفترض أن تؤدى إليها. وهى الخطوة الثانية بعد الاختيار الصحيح الناجح..

تعريفها:

وهى باختصار ما يحدث من المتقدم للزواج من طلب له واستعطاف بالقول أو الفعل. ويقترن هذا الطلب عادة بحسن النية والاعتناع التام. ويمكن أن نعرفها تعريفا عاما فنقول: هي طلب النكاح. ويكون من المتقدم إلى والد البنت البكر أو الثيب أو وليهما مع منح الفرصة للوالد أو الولي، لكي يبحث أمر المتقدم وأحواله ومدى كفاءته، ثم يبدى الرأى للمتقدم بعد ذلك. فهى إذن تمهيد وتواعد متبادل بالارتباط بين رجل وامرأة أو من يمثلها على إتمام الزواج في المستقبل في حالة التوافق بين الطرفين⁽¹⁾..

أحوالها وآدابها:

وتتم الخطبة بالتصريح في حالة التقدم للبكر وبطريق التلويح والتلميح والتعريض في حالة التقدم للثيب؛ وهى من فقدت زوجها بموت أو طلاق أو نحو ذلك. حيث تكون هناك موانع شرعية من التصريح بالخطبة؛ كإيذاء شعور المتوفى عنها زوجها وشعور أهلها. أو لكونها في عدة لم تنته بعد. وتشترك معها المطلقة في ذلك. ففى

(1) بتصرف من ص 401 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور - وزير الأوقاف السابق.

مثل هذه المواقف يمتنع شرعا التصريح بالخطبة حفاظا على علاقات الود والتآلف بين الأفراد والأسر في المجتمعات الإسلامية، ويجوز التلويح والتعريض والتلميح بها تلافياً للإحراج. وقد مثل ابن عباس للخطبة بالتعريض فقال: " كقول الرجل: وددت لو أن الله يسر لي امرأة صالحة، وإن النساء لمن حاجتى " (1).

فهناك إذن آداب شرعية للخطبة ينبغي التمسك بها، حتى تؤدي الغرض المنشود منها، وهو المساهمة بقدر من السعادة والهناء للأسرتين المتواعدتين بالارتباط، للرجل والمرأة أو البنت المتواعدين به..

وقد ورد في القرآن الكريم آيات تبين أحوال الخطبة وأوقاتها وآدابها بالنسبة للمطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن. أما الأبقار فليس هناك وقت معين لخطبتهن. فالتقدم لخطبتهن لا يخضع لوقت معين. فخطبتهن متاحة في أى وقت.

ومن الآيات المشار إليها سابقا، قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّاتُ يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا} الآية [البقرة: ٢٢٨]

وقوله جل شأنه: {الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ} الآية [البقرة: ٢٢٩] وقوله سبحانه {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٣٠]. وقول المولى جل شأنه: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا

(1) ص 137 من القسم الأول من كتاب صفوة التفاسير - الطبعة الأولى - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني - في تفسير سورة البقرة - الآية 235.

بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ { [البقرة: ٢٣٢]. وقول أصدق القائلين سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يُمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. وقول الحق جل وعلا: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا فَوَلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٣٥]..

وكما سبق أن عرفنا فالخطبة تكون بالتصريح في حالات الأبكار اللائي لم يسبق لهن الزواج. أما المطلقات فقد أشارت الآيات الكريمة السابقة إلى أن الخطبة لا تكون لهن بالتصريح إلا بعد انتهاء العدة. وعدة المطلقات الحرائر المدخول بهن ثلاثة أطهار على قول الشافعي ومالك أو ثلاث حيض على قول أبي حنيفة وأحمد^(١).. حتى يمكن تبرئة الرحم من الحمل وحتى لا تتوالد الضغائن والأحقاد بين الخاطب بالتصريح وعائلته وبين المطلقة وعائلتها. وإن كان هناك حمل فيجب أن تعلن الحامل ذلك ولا تخفيه، فالشريعة الإسلامية تلزمها بذلك. وتنتهي عدة الحامل بوضع حملها. وبعد الوضع من الممكن أن تكون خطبتها بالتصريح والإعلان، شأنها شأن المطلقة التي انتهت عدتها دون حمل. وأما المطلقة مرتان فإن طلقت الثالثة فلا تحل لمن طلقها إلا إذا تزوجت غيره ودخل بها هذا الغير ثم طلقها وانتهت عدتها منه. وهنا أيضاً تكون خطبتها تصريحية ومعلنة. وكان الناس يلجأون إلى تطويل زمن العدة حتى تلجأ

(١) ص ١٣١ من القسم الأول من كتاب صفوة التفاسير - الطبعة الأولى - للأستاذ الشيخ المرحوم محمد على الصابوني.

المطلقات طلاقاً رجعيّاً إلى طلب الخلع وتتنازلن عن كل حقوقهن. وربما تدفع المطلقة لمطلقها قدراً من المال حتى يطلقها. ونهي الإسلام هؤلاء الناس عن هذا الفعل المشين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُمْ ضِرَارًا لِّعَعْدُوْا﴾ [البقرة: ٢٣١] الآية، فقد أمر الإسلام أزواجهن بمراجعتهن من غير إضرار ولا أذى. أو تركهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن⁽¹⁾. فإذا انقضت عدتهن على هذا النحو الشرعي فمن حق راغبي الزواج من المسلمين خطبتن بالتصريح والإعلان. وإذا رغبت المطلقة طلاقاً رجعيّاً بعد انتهاء عدتها العودة إلى زوجها، فلا يمنعها الإسلام من ذلك. فقد تكون أحوالهما قد تعدلت في فترة الطلاق ورغبا ورغبة حقيقية في استئناف حياتهما الزوجية بعد أن ندم كل منهما على المفارقة والطلاق. وأما المتوفي عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام. فإذا انقضت هذه العدة، فمن حق راغب الزواج منها أن يتقدم لخطبتها بالتصريح والإعلان.

وتكون الخطبة بالتلميح والتعريض دون تصريح أو إعلان في حالة المطلقة طلاقاً رجعيّاً أو المتوفي عنها زوجها أو الحامل بعد الطلاق، في فترة العدة؛ لأن التصريح بطلبها حينئذ للزواج يولد العداوة والبغضاء بين المتقدم لخطبتها وأسرته من جانب وبينها وأسرته من جانب آخر. وقد يتصالح الزوجان في حالة الطلاق الرجعي أو بعد الطلاق من الثاني وانتهاء العدة، فتتضخم المقاطعة والخصام والعداوة بين أسرتيهما وأسرة المتقدم لخطبتها صراحة أيام العدة. ولذلك أظهر الإسلام الرضى عن الخطبة بالتعريض والتلميح في فترة العدة منعاً لشيوع العداوة والبغضاء بين الأسر في المجتمع

(1) ص 134 من المصدر السابق.

الإسلامي. فالأولى لراغب الزواج من المطلقة أن ينتظر حتى تنتهي عِدَّتِهَا. وإذا كـــــــان لـــــــابـــــــد أن يُعْرِفَهَا رَغْبَتَهُ فِي الزَّوْجِ مِنْهَا قَبْلَ انْتِهَاءِ الْعِدَّةِ فَلْيَكُنْ ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ وَالتَّمْلِيحِ وَالتَّعْرِيزِ. وَقَدْ وَضَحَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} [الآية [البقرة: ٢٣٥]]. فَقَدْ نَهَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَنْ مَوَاعِدَةِ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ فِي السِّرِّ بِالزَّوْجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَجْرِي إِلَى مَا لَا تَحْمَدُ عَقِبَاهُ، وَيَعْرِضُ النِّسَاءَ لِلْقِيلِ وَالْقَالَ شَكًّا فِي الْعَرَضِ وَالشَّرَفِ. وَهُوَ شَيْءٌ لَا يَرْضَاهُ الْإِسْلَامُ لِأَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ وَنِسَائِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَذَلِكَ حَرَصًا عَلَى عَدَمِ تَعْكِيرِ صَفْوَةِ الْحَيَاةِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْأَسْرِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ وَالنَّأْيِ عَنِ الْفِرْقَةِ وَالْخِلَافِ بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضٌ. وَكُلُّ ذَلِكَ وَاضِحٌ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي أَثْبَتْنَاهَا فِي الصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ (1). وَنُضِيفُ هُنَا إِلَى مَا سَبَقَ حَالَةَ الْمَرْأَةِ الَّتِي طَلَقَهَا زَوْجُهَا دُونَ أَنْ يَمْسَهَا أَيْ يَجَامِعَهَا ودون أن يفرض عليها فريضة. فَهِيَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا عِدَّةَ لَهَا. وَذَلِكَ بِمَوْجِبِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا} [الآية [الأحزاب: ٤٩]]، وَأَيْضًا بِمَوْجِبِ

قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسَعِ قَدَرِهِ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرِهِ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} (١٣٦)

(1) من ص 131 إلى ص 138 من القسم الأول من كتاب صفوة التفسير - للأستاذ الشيخ المرحوم محمد على الصابوني - الطبعة الأولى.

[البقرة: ٢٣٦].

وما يهمننا الآن هو أنه ما دامت المرأة طُلقَت وليس لها عدة فمن الممكن أن يخطبها للزواج من يرغب فيها بالتصريح والإعلان كذلك.

وهكذا يفصل القرآن الكريم أحوال الخطبة: متى تكون بالتصريح، ومتى تكون بالتلميح والتعريض. وذلك لرفع الحرج عن الأفراد والأسر في المجتمعات الإسلامية، حتى ينعم الجميع بالسعادة في ظل زواج شرعي إسلامي يؤدي إلى الترابط والتلاحم ويبتعد عن الفرقة والخلاف والتناحر.

في السنة النبوية:

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن آداب الخطبة في ظل الوفاة والطلاق والحمل - فإن السنة النبوية الكريمة لم تغفل عن ذلك وأكملت الحديث عن آداب أخرى للخطبة لا بد أن نعرض لها بإيجاز واف مع ذكر أمثلة وأدلة. وفي مقدمة ما أشارت إليه السنة النبوية المباركة من آداب في مجال الخطبة ألا يخطب الرجل على خطبة أخيه. فإذا علم المسلم أن البنت أو المرأة التي يرغب في نكاحها قد تقدم إلى أسرتها مسلم آخر لخطبتها فعليه أن ينتظر حتى يأخذ المتقدم الأول قراره، إما بالمضى في طريق الزواج منها أو تركها. فإذا تأكد أن أخاه المسلم المتقدم قد ترك، فله أن يتقدم حينئذ - ولو تقدم الثاني قبل أو بعد موافقة الأول على الارتباط بهذه الفتاة أو المرأة - فإن ذلك يوغر صدر المتقدم الأول وعائلته ويترتب على ذلك أن تتوتر العلاقات بين أفراد وأسر المجتمعات الإسلامية. ولهذا ينبه النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلمين والمسلمات إلى ذلك فيقول صلى الله عليه وسلم: **لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَخْطُبَ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ**

حتى يترك، ولا يبيع على بيع أخيه حتى يترك — (1). ويقول صلى الله عليه وسلم: ^١ لا يخطب الرجل على خطبة الرجل حتى ينكح أو يترك — (2). ويقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: ^٢ إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك — (3).

فإذا لم يعلم المتقدم الثاني برأي المخطوبة في المتقدم الأول، ولم يخبره أحد بذلك ممن يعينهم الأمر - فمن الممكن حينئذ أن يتقدم الثاني، ولا يعتبر في هذه الحالة خاطباً على خطبة أخيه. ومن أمثلة ذلك: " ما حدث لفاطمة بنت قيس، حيث خطبت لمعاوية بن أبي سفيان وأبي الجهم في وقت واحد. وقد جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تستشيره في الزواج بواحد منهما. ولم يعترض الرسول صلى الله عليه وسلم على تعدد خطبتها. وأشار عليها بالزواج من أسامة بن زيد وهو يقول: " أما معاوية فرجل ترب لا مال له، وأما أبو الجهم فرجل ضراب للنساء، ولكن أسامة " فقالت بيدها هكذا: أسامة أسامة - تشير إلى أنها غير راغبة فيه. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ^٣ طاعة الله وطاعة رسوله خير لك —. فتزوجته فاغتبطت به " (4) .. والواضح من نص هذا الحديث أن فاطمة بنت قيس لم تخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رضاها بواحد منهما وإلا ما أشار عليها بغير الذي أخبرته صلى الله عليه وسلم

(1) أخرجه أحمد عن عتبة بن عامر ص 88 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبدالعزيز الشناوي.

(2) رواه أبو داود ص 89 من المصدر السابق.

(3) رواة البخاري في كتاب النكاح عن أبي هريرة. ورواه مالك والشافعي وأحمد ص 404 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمد أبو النور.

(4) أخرجه مالك في الموطأ والشافعي في الرسالة، ومسلم في كتاب الطلاق والترمذي في السنن وابن ماجه والنسائي وأبو داود ص 405، من كتاب منهج السنة في الزواج.

بالرضى عنه. وهذا رأى العلماء والفقهاء..

ومن الآداب الهامة التي أظهر الإسلام حرصه عليها في مجال الخطبة - وجوب احترام رأي المرأة أو البنت المخطوبة، في من تقدم إلى خطبتها فلا يحجب رأيها ما دامت مميزة رشيدة صالحة. فليس معقولاً أو مقبولاً أن تهمل الأسرة رأى ابنتها فيمن تقدم لخطبتها وتضرب برأيها فيه عرض الحائط. وولى المرأة أو البنت مطالب بسماع رأيها فيمن تقدم إليها. فقد تكون متأكدة - بطريقة أو بأخرى - من عيب في الرجل المتقدم لها، لا يمكن السكوت عليه. أو من إصابته بمرض خطير لا يمكن تغافله. وحينئذ يكون من الظلم لها أن ترتبط بعلاقة أبدية مع إنسان تعرف له عيباً أو مرضاً خطيراً لا يمكن تحمله أو التغاضى عنه. والإسلام يعطيها حق الرفض أو القبول لتكون العلاقة بين الزوجين حال الزواج علاقة قوية تؤدي إلى السعادة المنتظرة بين الطرفين.

ومن آداب الخطبة ما ذكر في كتب السنة بشأن خطبة الثيب والبكر، من الاستئذان، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: **الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تُستأذن في نفسها وإذنها صماتها**—⁽¹⁾.. وفي رواية عنه صلى الله عليه وسلم: **الأيّم أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأذن في نفسها وإذنها صماتها**—⁽²⁾.. ويجب أن يكون معلوماً أن زواج البكر أو الثيب لا يصح إلا بوجود الولي. لكن الحديثين الشريفين بينا أن الثيب لها أن تختار بحرية وأن وليها لا يجبرها على أحد لا تريده. أما البكر فإن سكنت فإن سكوتها يعتبر

(1) رواه يحيى بن يحيى عن مالك ص 127 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

(2) رواه مالك عن عبد الله بن الفضل عن نافع عن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس ص 325 من موطأ مالك - طبعة الشعب. والأيّم: معناها الثيب أى التي سبق زواجها.

إنذاً لوليها أو أبيها بزواجها من المتقدم.. وقد تُقدّم البكر على البكاء في هذا المقام. والبكاء الخفيف قد يعبر عن فرحتها ورضاها بالخاطب المتقدم وحزنها على قرب مفارقة أهلها. أما البكاء الشديد حال عرض الخاطب عليها أو عرضها عليه فهو شيء غامض ينبغي التثبت من سببه. فقد يكون هذا البكاء الشديد رفضاً مُقنعاً من البكر للمتقدم لخطبتها نتيجة إحساس منها بالضغط عليها من أبيها أو وليها. وربما لو شرح لها أبوها أو وليها سبب قبوله لهذا الخاطب - ينشرح صدرها وتكف عن البكاء. بل ربما تصارحه هي بسبب بكائها إن كان رفضاً للمتقدم نتيجة خوف من عيب أو مرض عرفته عن هذا المتقدم لخطبتها، وهنا يمكن للأب أو الولي تدارك الأمر قبل الارتباط الرسمي. فاحترام رأى البنت أو المرأة فيمن يتقدم خطيباً لها وشريكا لحياتها في المستقبل، قبل الارتباط به، وعدم إهمال حقها في الاختيار - واجب شرعى ينبغي الحرص عليه.. ومن أشهر الأدلة على ذلك ردّ الرسول صلى الله عليه وسلم زواج الخنساء بنت خدام الأنصارية من ابن عمها، لأن أباهما زوجها منه دون رضاها، وأهدر حقها في الاختيار. وقد روى هذه الواقعة صاحب المبسوط فقال: " قالت الخنساء: إن أبى زوجنى من ابن أخيه وأنا كارهة، فقال صلى الله عليه وسلم: **أَجِيزِى مَا صَنَعَ أَبُوكَ—**، فقالت: مالى رغبة فيما صنع أبى.. فقال صلى الله عليه وسلم: **أَذْهِبِى فَلَانِكَاحِ لَهْ، أَنْكَحِى مَنْ شِئْتَ—**، فقالت: أجزت ما صنع أبى، ولكنى أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم شيء. قال صاحب المبسوط: ولم ينكر عليه الصلاة والسلام مقالتها " (1).. ويستدل من ذلك على

(1) المبسوط 2/5 وانظر ص 407 من كتاب - منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

أنه ليس للأب أو الولي إجبار ابنته على الزواج ممن لا ترغب في الزواج منه. وعليه أن يقنعها برأيه أو يقتنع هو برأيها.

ولقد وصل الحد في هذا الأمر إلى انتزاع الزوجة ممن لا تحبه ولا تميل إليه بعد زواجها منه، وتزويجها ممن تميل إليه وخصوصا إذا كانت مميزة وأهلا للاختيار. وإلا لما اعتدُّ برأيها ولى أو حاكم لصغر سنها مثلا. وقد روت كتب السنة قصة زواج عبد الله بن عمر رضى الله عنه من ابنة عثمان بن مظعون وانتزاعها منه بعد الزواج ليتزوجها المغيرة بن شعبة. ويروى عبد الله بن عمر نفسه هذه القصة فيقول: "توفى عثمان ابن مظعون، وترك ابنة له من خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص. قال: وأوصى إلى أخيه قدامة بن مظعون، قال عبد الله: وهما خالاي. قال: فخطبتُ إلى قدامة بن مظعون فزوجنيها، ودخل المغيرة ابن شعبة إلى أمها فأرغبها في المال، فحطت إليه، وحطت الجارية إلى هوى أمها، فأبيا، حتى ارتفع أمرهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال قدامة بن مظعون: يا رسول الله.. ابنة أخي، أوصى بها إلى فزوجتها ابن عمتها عبد الله بن عمر، فلم أقصر بها في الصلاح ولا في الكفاءة، ولكنها امرأة، وإنما حطت إلى هوى أمها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي يتيمة ولا تنكح إلا بإذنها— قال فانئزعت والله منى بعد أن ملكتها، فزوجوها المغيرة بن شعبة " (1).

ومن الآداب الهامة المتصلة بالخطبة، والتي يجب مراعاتها حتى تتجلى السعادة على الزوج والزوجة وأسرتيهما وعلى المجتمع الإسلامي - أدب النظر إلى المخطوبة. وهي مسألة في غاية الأهمية

(1) رواه أحمد في المسند والدارقطني في السنن والحاكم في المستدرک والبيهقي في السنن الكبرى والهيثمى في مجمع الزوائد ص137، من منهج السنة في الزواج.

للمخطوبة والخاطب. فتجاوز الحد فيها قد يترتب عليه حزازات نفسية بل عداوات بين الأفراد والأسر المسلمة ذات الصلة. وإذا عرضنا الأحاديث المجيزة للنظر إلى المخطوبة، والتي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجدنا أنها تحت الخاطب على النظر إلى مخطوبته، وتحت أهل المخطوبة على السماح والرضا بالنظر إليها، اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمخطوبة - في الواقع وفي عرف الناس - هي من وقع عليها اختيار الخاطب لتكون زوجة له. فله حينئذ أن ينظر إليها حتى يطمئن إلى الزواج منها ويقبل عليه بنفس راضية.. فهذا صحابي جليل هو محمد ابن سلمة الأنصاري جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره أنه يريد أن يتزوج امرأة من الأنصار. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أنظرت إليها؟ قال محمد بن سلمة: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا ألقى الله في قلب امرئ خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها⁽¹⁾. وهذا المغيرة بن شعبة الثقفي رضى الله عنه يقول: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له امرأة أخطبها فقال: اذهب فانظر إليها، فإنه أجد أن يؤدم بينكما⁽²⁾. قال: فأتيت امرأة من الأنصار فخطبتها إلى أبيها، وأخبرتهما بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانما كرها ذلك، قال: فسمعت ذلك المرأة وهي في خدرها، فقالت: إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تنتظر فانظر، وإلا فإنني أنشدك - كأنما عظمت ذلك عليه، قال: فنظرت إليها فتزوجتها فذكرت عن موافقتها⁽²⁾. ومن هذا القبيل

(2) أخرجه ابن ماجه وأحمد وابن عساكر عن محمد بن سلمة ص69، من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - عبد العزيز الشناوى.

(2) أخرجه أحمد وسعيد بن منصور والدارمى والترمذى وابن ماجه والبيهقى وابن حبان من حديث المغيرة بن شعبة - يؤدم: يصلح ويؤلف ص 410 - من كتاب منهج السنة في

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا خُطِبَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، إِذَا كَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا لَخُطْبَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْلَمُ ذَلِكَ— (1)﴾**.. ومنه أيضاً قول أبي هريرة رضى الله عنه فيما رواه قال: خطب رجل امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿هل نظرت إليها؟— قال: لا. قال: فإذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً— (2)﴾**.. قيل في عينيها صفر، وقيل كان في عينيها زرقة.. ومنه كذلك: قول جابر فيما رواه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا خُطِبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ مِنْهَا مَا يَدْعُو إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ— قال: فخطبت جارية من بنى سلمة، فكنت أختبئ لها تحت الكرب حتى رأيت منها ما دعاني إلى نِكَاحِهَا فتزوجتها " (3)﴾**.

والملاحظ في كل الروايات السابقة في شأن النظر إلى المخطوبة - أنها جميعاً تشير إلى أن النظر يكون دوره في الخطبة وبعد الخطبة. وذلك يعنى أن النظر يكون بعد اختيار الخاطب لخطيبته. فالمرأة التي يقع عليها اختياره ويسوقه قلبه إلى خطبتها هي التي يحق له رؤيتها..

ويخلط كثير من الناس بين الرؤية قبل وأثناء الاختيار، والرؤية للخطبة أو بعدها. فالرؤية بعد الخطبة ومن أجل تدعيمها، شرعية ومطلوبة. أما الرؤية للاختيار فهي شيء آخر يمكن تطبيقها عن

الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(1) أخرجه أحمد والبزار والطبراني من حديث أبي حميد الساعدي ص410 من المرجع السابق.

(2) رواه أحمد ومسلم والنسائي. نفس الصفحة من المرجع السابق.

(3) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي والبزار وعبد الرزاق - الكرب: أصول السعف ص409 من المرجع السابق.

طريق النساء المبعوثات من قبل من يختار إلى أهل البنت أو المرأة.. حيث يضع من يريد الاختيار ابنة فلان وابنة فلان وابنة فلان أمامه على طاولة البحث ليختار منهن من تناسبه. وتلك مرحلة سابقة لمرحلة الخطبة.

وفى إمكان من يريد الاختيار أن يفعل كما فعل جابر بن عبد الله رضى الله عنه، فيلتمس رؤيتها بأى طريقة غير محرجة له ولها ولأهلها وأهلها - وإن كان جابر قد فعل ذلك من أجل تثبيت خطبته لا من أجل اختيارها ابتداءً. فالإسلام لا يعطى المسلم حق طلب الرؤية للبنت من أبيها أو وليها ولأكثر من واحدة لينظر إليهن ويختار منهن واحدة فيخطبها. ويمكن في هذه الحالة أن يبعث من قريباته من يثق في رأيها ورؤيتها إلى أم البنت أو المرأة التي يريد أن يتعرف عليها. أما أن يقوم هو نفسه بهذه المهمة بقصد اختيار واحدة منهن ويأتى إليها في صحبة أمه وأبيه - فالإسلام لا يعطيه هذا الحق لأنهن أجنبيات عنه. فلن يستطيع التأمل فيهن والكشف عن بعض نواحي الجمال فيهن إلا خلسة. لأن ذلك من حق الخاطب فقط.. وزيارة الشاب في وقت الاختيار لمن يريد أن يتثبت من اختيارها حتى يتثنى له خطبتها ثم الانصراف عنها واختيار غيرها يوقع في نفوس المسلمين وأسرهم التشاحن والخصام وهذا مخالف لتعاليم الإسلام ومبادئه الداعية إلى التآلف والتحاب ونبذ الخلاف والفرقة بين المسلمين. فليبحث من يريد الاختيار عن بديل عنه في الرؤية المبدئية. ويستحسن أن يكون هذا البديل من النساء حتى لا يسبب حرجاً لأسرة البنت أو المرأة. فإذا وقع في قلبه اختيارها وخطبتها بعد البحث عن هويتها وأحوالها - فهنا تكون الرؤية مباحة وشرعية حيث يحق له أن يرى منها ما يدعو به إلى نكاحها.. وقد أيدنى في هذا

الرأى كثير من العلماء⁽¹⁾. وأيدنى الواقع الملموس وتعاليم الإسلام بشأن وجوب المحافظة على بنات المسلمين، ومن أجل ذلك يجب التفريق بين من يريد الرؤية للاختيار ومن يريد لها للخطبة. وقد أباح الإسلام بصفة عامة النظر إلى الوجه والكفين. والوجه مجمع المحاسن. ويستطيع الخاطب من خلال النظر إليه أن يكون فكرة عن نواحي الجمال في المخطوبة. والكفان وأسفل الساقين إلى القدمين مباح أن ينظر إليها الخاطب فهما ليسا من العورة المغلظة. وكذلك المظهر العام للمرأة أو البنت يمكن أن يتبين منه للخاطب ما يدعوه إلى نكاحها. وفي كل هذه الاحوال لا يلزم أن يذهب من يريد الاختيار إلى منزل من يتلمس أخبارها بنفسه وبصحبة أبيه وأمه.

ويمكن أن يتحين الباحث في هذا المجال فرصة خروج البنت إلى الشارع فيتعرف ويتثبت مما يريده عن بعد، دون إيذاء للبنت أو أهلها، إذا تراجع عن اختيارها. أو يبعث إليها من يثق برأيها من قرابته من النساء دون إيذاء للبنت وأهلها كما سبق توضيحه. ولظروف معينة أباح عمر بن الخطاب رضى الله عنه رؤية منطقة أسفل الساق. وذلك إذا كانت البنت صغيرة ووافق أبوها على زواجها ورضى الخاطب وإن كانت المخطوبة لا تعلم ذلك. وكان يراها لأول مرة مثلاً. ومن السياق السابق يتبين أن هذه الحالة أقرب إلى الزواج منها إلى الخطبة، ومن قبيل اختصار خطوتين في خطوة وهذا جائز بموافقة الطرفين. وإن كانت البنت نفسها لا تعلم ذلك لصغر سنها. ويتبين ذلك من قصة زواج أم كلثوم ابنة على بن أبى طالب وابنة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خطب عمر

(1) ومنهم الأستاذ عثمان السعيد الشرقاوى في كتابه الإسلام والحياة الزوجية في معرض حديثه عن النظر إلى المخطوبة.

بن الخطاب أم كلثوم إلى أبيها على بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه. فقال له على: إنها صغيرة. فقال له عمر زوجنيها يا أبا الحسن، فإنى أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد. فقال له على: أنا أبعثها إليك، فإن رغبتها فقد زوجتكها، فبعثها إليه ببرد، وقال لها: قولى له: هذا البرد الذي قلت لك، فقالت ذلك لعمر، فقال قولى له: قد رضيت رضى الله عنك، وكشف عن ساقها، فقالت أتفعل هذا؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك. ثم خرجت حتى جاءت أباه، فأخبرته الخبر، وقالت: أرسلتني إلى شيخ سوء، فقال: يا بنية إنه زوجك " (1). وتضيف لنا هذه الرواية فائدة مؤداها أن رؤية المخطوبة قد تتعدى الوجه والكفين، إذا كان هناك داع مقبول شرعا لرؤية غيرهما، عدا المحرمات، وذلك حتى تطمئن نفس الخاطب قبل الدخول على من يتزوجها وحتى يتزوج هذا الزواج بالسعادة المرجوة. والدواعى في زواج عمر من أم كلثوم كانت موجودة وقد ذكرناها من قبل. وكما قلنا سابقا إن هذه الواقعة كانت أقرب إلى الزواج منها إلى الخطبة. فقد تواجد الإيجاب من على رضى الله عنه والقبول من عمر رضى الله عنه. وسبق أن قلنا أيضا إن كشف عمر عن ساقها كان لصغر سنها حتى تطمئن نفسه إلى الزواج منها قبل الدخول عليها(2).

وهذا الحق الواضح الصريح للخاطب والمخطوبة في نظر كل منهما للآخر بعد اختياره زوجا وفى فترة الخطبة أى قبل الدخول - يجب أن يكون مصحوبا - من وجهة النظر الإسلامية بالصراحة والوضوح من الطرفين والابتعاد عن الغش والتدليس في هذا

(1) ص411 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الاحمدى أبو النور.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق بتصرف.

المجال. فالنظر والتأمل من كل منهما لصاحبه ما شرع إلا ليكون الزواج قائماً على أساس سليم. فإذا كان هناك عيب في المخطوبة حُجب عن الخاطب أثناء النظر فينبغي التنبيه إليه. وكذلك العيب المحجوب عن المخطوبة والموجود في خطيبها. وإلا فإن الخطبة حينئذ قد يشوبها الغش والخداع. وهذا شيء يرفضه الإسلام. فقد تجمل المرأة شعرها للخطاب حتى لا يرى عيوبه. وهنا ينبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الخطاب إلى أن يسأل عن شعرها كما يسأل عن جمالها، فيقول صلى الله عليه وسلم: **إِذَا خُطِبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ فَلْيَسْأَلْ عَنْ شَعْرِهَا كَمَا يَسْأَلُ عَنْ جَمَالِهَا، فَإِنَّ الشَّعْرَ أَحَدُ الْجَمَالَيْنِ — (1)**، وكذلك الأمر بالنسبة للرجل. فقد يجمل شعره لخطيبته حتى لا ترى عيوبه. ولهذا ينبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى وجوب صدق الخطاب في نقل جوانب صورته العامة إلى مخطوبته. والشعر من تلك الجوانب. ولهذا ينبه صلى الله عليه وسلم صراحة إلى هذا الجانب فيقول: **إِذَا خُطِبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ وَهُوَ يَخْضِبُ بِالسَّوَادِ فَلْيَعْلَمْهَا أَنَّهُ يَخْضِبُ — (2)**. وليس الأمر مقصوراً على الشعر فهناك عيوب أخرى قد تخفى على الخطاب أو المخطوبة. ومن ذلك أن مسروح بن سندر الحمصي (أبا الأسود)، تزوج امرأة وهو خصي، وأخبر عمر بن الخطاب بذلك دون أن يخبر من تزوجها. فأمره عمر رضى الله عنه بأن يخبرها بذلك ويخبرها " (3). ومن ذلك أيضاً أن امرأة قصيرة من بنى إسرائيل كانت تمشي مع امرأتين طويلتين. فاتخذت

(1) أخرجه الديلمي عن علي صـ 71 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.. والسؤال هنا ناتج عن شك في أمر الشعر، إذ ربما يكون باروكة أو نحو ذلك مثلاً.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(3) صـ 71 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

رجلين من خشب وخاتما من ذهب مغلق مطبق وحشته بالمسك، ومرت بصاحبتيها فلم تعرفاه⁽¹⁾. وقد تلبس العوراء عدسة تدارى بها عورها، أو تضع الصلعاء باروكة تدارى صلعتها. وقد يلجأ الرجال والنساء إلى غير ذلك من الحيل التي تخفى عيوباً خلقية. وقد يخفى الرجل أو المرأة مرضاً خطيراً عن المخطوبة أو الخاطب، وكل ذلك ممنوع شرعاً. وعلى كل طرف أن يبذل طاقته في معرفة محاسن وعيوب صاحبه. وليعلم الطرفان ومن وراءهما أن الحديث صراحة عن العيوب والعلل غير الظاهرة والتنبيه إليها أثناء الخطبة وقبل الدخول أفضل بكثير من حجبها عن الطرف الآخر ليفاجأ بها بعد الزواج. حيث يحدث ذلك رد فعل عكسي في غالب الأحوال. مما قد يعصف بالحياة الزوجية وهي في مهدها.

ومن الآداب الهامة التي يجب التنبيه إليها في هذا المجال ما نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من خطورة الانفراد بالمرأة الأجنبية والخلو بها ومن المعروف أن المرأة أو البنت في حال خطبتها تكون أجنبية شرعاً عن خطيبها. وهما - الخاطب والمخطوبة - معنيان بتحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم من خطورة الخلو، ولو كانت بحجة الخطبة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **ما اختل رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما**. ويقول صلى الله عليه وسلم: **لا يخلو رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما**⁽²⁾. وننبه هنا إلى خطورة رغبة الخاطب في أن ينفرد بمخطوبته في كثير من الأحيان حتى لو كان هذا الانفراد في الشارع. فهذه الرغبة بعيدة عن روح

(1) ص72 من نفس المرجع السابق.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع باب كراهية الدخول على المغيبات 474/3 والمني في الترغيب والترهيب 66/2 ص417، من منهج السنة في الزواج.

الإسلام وحرصه على المحافظة - إلى أقصى درجة - على كل من الطرفين، حتى يتم بينهما عقد الزواج..

وفي الشوارع العامة والمنتزهات نرى كل يوم، ما يبرأ منه كل إنسان مسلم حر، بحجة الخطوبة فهما مخطوبان، وهما في الشارع. يقول أحدهم إذا ضبطت متلبسا بفعل غير لائق: إنها خطيبتى. والإسلام لم يبيح للخاطب أن ينفرد بخطيبته ولو في الشارع العام، ولا أن يفعل معها فعلا خارجا عن حدود الأدب الإسلامى، كأن يقبلها أو يضع يده على كتفها أو يحوط خصرها بذراعه أو يشبك أصابعها في أصابعه إلى غير ذلك مما نراه يحدث في الشوارع العامة. بل إن الإسلام لم يبيح ذلك حتى للمتزوجين - في الشوارع فكيف يبيحه للخاطبين والمخطوبات؟! ومن أجل وضع حد لهذا التسبب اللاأخلاقى واللاشرعى - نرى ألا تطول فترة الخطوبة أكثر من اللازم حتى لا تتولد المشاكل وينشأ وينتشر القيل والقال. وأن يلتزم كل من الخاطب والمخطوبة بآداب الإسلام وتعاليمه في الخطبة كما تحدثنا عنها، وأن يدرس كل منهما الآخر تحت سمع وبصر العائلتين. ولا مانع شرعا من الفحص الطبى، بل هو مطلوب، وحبذا لو اتفقا عليه قبل الدخول، ليتأكدا من سلامتهما الخلقية ومن الأمراض الخطيرة الوراثية وغيرها، كما تأكدا من سلامتهما الأخلاقية.

وبهذا المنهج الإسلامى الواضح الذي تحدثنا عنه تفصيلا والمخصص لمرحلة الخطبة - يحرص الإسلام على بناء الحياة الزوجية على أسس شرعية سليمة، بدلا من الضياع الذي ينشأ عن عدم الالتزام بتلك الآداب التي فصلناها. ومما لاشك فيه، أن التزام الأسر والأفراد في المجتمع الإسلامى بتلك الآداب التي أشرنا إليها - يجعل الرجل يقدم على الزواج من مخطوبته التي اختارها وانشرح

صدره لها بخطبتها وتأكد من سلامتها الخلقية والخلقية ومن كفاءتها له. فهو مطالب بتنفيذ زواجه منها فوراً وبدون تباطؤ وكذلك المرأة أو البنت التي ترضى بمخطوبها الذي وافقت عليه بعد تأكدها من سلامته الخلقية والخلقية ومن كفاءته لها. ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا خُطِبَ إِلَيْكُمْ مِنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخَلْقَهُ فَزَوْجُوهُ، إِنْ لَا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾** (1). وصدق المصطفى صلى الله عليه وسلم. فلو تكرر الرفض في هذه الحالة حيث لا مبرر له، فلا شك أن ذلك يحدث في الأسر الإسلامية وفي المجتمع الإسلامي حالة من الفوضى وعدم الاستقرار. فتسوء العلاقة بين أفراد وأسر المجتمع الإسلامي، نتيجة لعدم الأخذ بتعاليم الإسلام الواضحة السمة وتطبيقها حتى يعيش الأفراد والأسر في المجتمع الإسلامي في سعادة وبهجة دائمة واستقرار تام..

* * *

(1) أخرجه الترمذى عن أبى حاتم المذنى وعن أبى هريرة وأخرجه ابن ماجة عن أبى هريرة ص413، من كتاب منهج السنة في الزواج.

الفصل الثاني:

عقد القران

تعريفه وأركانه وصحته :

جاء في التعريف الشرعي لعقد القران أنه: عقد لحل تمتع بأنثى غير محرم، ومجوسية، وأمة كتابية، بصيغة لقادر، محتاج أو راج نَسْلاً. وأركانه ثلاثة: ولى ومحل وصيغة.. وصحته بصداق وبشهادة عدلين غير الولى وإن بعد العقد. فيفسخ إن دخلا بلاه (أى بلا إيشهاد)⁽¹⁾.

فهو عقد يحتوى على عهد مشدد مؤكد مأخوذ على الرجل لصالح المرأة في حالة ارتباطهما بالزواج حسب الشريعة الإسلامية. لكن المرأة في هذه الحالة مطالبة بالتعاون التام مع زوجها لتسيير دفة الحياة الزوجية عن طريق طاعتها الإيجابية لزوجها، أى في الأمور النافعة شرعا والتي لا إثم فيها عملا بقوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢] الآية.. ولهذا فهو ميثاق غليظ يوافق عليه الزوج كما توافق عليه الزوجة بإيجاب وقبول من الزوج وولى الزوجة. ففي ظل تعاليم الشريعة الإسلامية كلاهما مطالب بتنفيذ ما قطعه على نفسه تجاه الآخر. ولكل منهما حقوق وواجبات، يوجب الإسلام عليه مراعاتها والقيام بها خلال حياته مع الآخر، فهو التزام أبدى لا ينتهى إلا بانتهاء حياته.. ومن هنا وصفه

(1) من ص332 حتى ص337 من متن الجزء الثانى من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك، تأليف العلامة أبى البركات أحمد الدردير، حاشية الصاوى.

القرآن الكريم بأنـه ميثاق غـليظ،
 في قول الله تبارك وتعالى: {وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ
 وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتِنًا وَإِنَّمَا
 مِيثَاقُكُمْ ۝٢٠} وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ، وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ
 مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝٢١} [النساء: ٢٠ - ٢١]. وقد أشار القرآن الكريم
 إلى أخذ هذا الميثاق من الزوج للزوجة، وذلك نظرا لما للزوج من
 قوامة شرعية على زوجته. ومن هنا كان هو المسؤول الأول عن
 تسيير هذه الحياة الزوجية تسييرا صحيحا..

الميثاق الغليظ:

وفي تفسير هذا الميثاق الغليظ وأهميته - أثبت ابن كثير رضى
 الله عنه آراء كثيرة لعلماء المسلمين⁽¹⁾؛ فقد روى عن ابن عباس
 ومجاهد وسعيد بن جبير أن المراد بذلك هو عقد النكاح.. وقال سفيان
 الثوري عن حبيب بن ثابت عن ابن عباس قال: {فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
 تَسْرِيحُ بِإِحْسَنِ} [البقرة: ٢٢٩] وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة
 ومجاهد وأبي العالية وحسن وقتادة ويحيى بن كثير والضحاك
 والسدي نحو ذلك.. وقد روى عن قتادة ما يؤيد قول ابن عباس
 السابق: أن الميثاق هو ما أخذه الله للنساء على الرجال بقوله
 تعالى: {فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنِ} [البقرة: ٢٢٩] وكان ذلك يؤخذ
 عند عقد النكاح؛ فيقال: الله عليك لتمسكن بمعروف أولتسرحن
 بإحسان " (2) ..

(1) تفسير القرآن العظيم - لابن كثير، الجزء الأول. تفسير سورة النساء، الآية 21
 ص434.

(2) ص88 من القسم الثاني من كتاب صفوة التفاسير - سورة النساء - للمرحوم الشيخ محمد
 على الصابوني - الطبعة الأولى.

ونستأنف ما ذكره ابن كثير في تفسيره حول الميثاق الغليظ. ففي صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيها: **وَاسْتَوْصُوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله** —. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس هو قوله: **وَاسْتَوْصُوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله** —. فإن كلمة الله هي التشهد في الخطبة (خطبة النكاح). وقد روى البخاري بسنده عن عقبة بن عامر الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **أَحَقُّ مَا أُوفِيَتْ مِنَ الشَّرْطِ أَنْ تَوْفُوا بِهِ: مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ** — (1) ..

وفى ظل هذا الميثاق الغليظ تبدأ مباشرة الحياة الزوجية بين الزوج وزوجته بما فيها من متعة مشروعة. وفى كل طرف بما اتفق عليه مع صاحبه في معية كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وينفذ كل طرف منهما واجبه نحو الآخر قبل أن يطالبه بحقوقه عليه. فهذا العقد المشدد مسئولية مشتركة. يؤدي كل طرف منهما نصيبه منها دون تعدٍّ، حتى في حالة الخلاف ووصوله إلى نقطة الفراق لا قدر الله. فلا يستولى الزوج مثلاً على مؤخر الصداق الواجب عليه نحو زوجته؛ لأنه شرعاً مطالب بسداده إذا طلبته الزوجة أو حدث طلاق - لا قدر الله. وذلك عملاً بقوله تعالى: **{فَإِمْسَاكُكُمْ مَعْرُوفٌ أَوْ تَسْرِيحُكُمْ بِإِحْسَنٍ}** [البقرة: ٢٢٩]. فليس من الإحسان المطلوب من الزوج استيلائه على حقها أو بعض حقها في حالة الطلاق. أو حتى في حالة استمرارية الحياة الزوجية بينهما.

(1) ص37 من الجزء الثالث من كتاب صحيح البخاري، عناية الدكتور محمد تامر - وص674 من صحيح مسلم - باب الوفاء بالشروط في النكاح - طبعة حسب المعجم المفهرس.

وبمثل هذه الروح من التمسك بتعاليم الإسلام تحافظ الزوجة على حقوق زوجها وتساعده وتتعاون معه على تنفيذ ما ورد بميثاقها الغليظ، والالتزام بذلك طوال حياتها الزوجية معه. فالنساء شقائق الرجال كما قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. والزوج والزوجة شقان لجسد الحياة الزوجية، التي لا يمكن أن تستقيم وتسعد بشق واحد من هذين الشقين..

ومن المميزات البارزة لهذا الميثاق الغليظ أنه يتمتع بشهادة واسعة النطاق. فكل من حضر عقد القران، واستمع إلى خطبة النكاح، وحضر حفل الزفاف الشرعى، وكل من حضر وليمة العرس، وتزيين العروس، وتوصيلها إلى بيت الزوجية وإيناسها هناك، كل هؤلاء شهود على هذا العقد الشرعى المقدس..

ومن مميزاته كذلك أنه يبنى على التأييد لا على التأييت. " فإن دُكرَ وقتُ للنكاح ينتهى بعده في العقد - فسخ العقد بلا طلاق لأنه مُجمَع على منعه " (1). فهو عقد مؤبد إذا حُدِّدَ بوقتٍ يصير باطلا غير شرعى. وهناك صور متعددة للزواج المؤقت الباطل غير الشرعى، نذكر منها:

زواج المتعة: وهو صورة من صور الزنى كما يقول العلماء.. فعن الزهرى عن سالم عن أبيه قال: سئل ابن عمر عن متعة النساء فقال: " لا نعلمه إلا السفاح " (2).. وأخرج ابن أبى شيبه عن ابن أبى ذئب أن

(1) صد387 من متن الجزء الثانى من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - تأليف أبى البركات أحمد الدردير - حاشية الصاوى.

(2) أخرجه ابن أبى شيبه في المصنف (3 - 2 - 207أب) والسفاح هو الزنى صد187 من منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

عبد الله بن الزبير خطب فقال: " ألا وإن المتعة هي الزنى " (1) وعن هشام ابن عروة: أن عروة كان يئهى عن نكاح المتعة ويقول: " هي الزنى الصريح " (2). وقد روى مسلم عن ابن أبى عمرة: أنها كانت رخصة في أول الإسلام لمن اضطر إليها: كالميتة والدم ولحم الخنزير، ثم أحكم الله الدين ونهى عنها " (3).. ودليل تحريمها المؤبد، ماروى من حديث الربيع بن سبرة عن أبيه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما بين الركن والباب وهو يقول: يا أيها الناس إني قد أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده شىء منهن فليُحِلْ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتوهن شيئا— (4)..

ومنها أيضا: نكاح الأخدان: وقد نهى عنه القرآن الكريم، في قوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَيَتِيكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} الآية [النساء: ٢٥]. فقد أمر الله عز وجل غير ذوى السعة وغير ذوى الهوى - على رأى ربيعة، وغير القادرين على الزواج من الحرائر العفائف - بأن يتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتى يملكهن المؤمنون. قال ابن عباس وغيره من المفسرين: فليُنكح من إماء المؤمنين ثم نبه إلى أن السيّد هو ولى أمّته، لا تُزوّج إلا بإذنه. ونبه سبحانه كذلك إلى وجوب دفع مهورهن بالمعروف، عن طيب خاطر دون بخس أو استهانة. فهن عفائف عن

(1) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(3) صحيح مسلم الطبعة المرقمة من المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ص 668.

(4) رواه أبو بكر بن أبى شعبة 207/1/3، ومسلم في كتاب النكاح - باب نكاح المتعة ص 667.

الزنى. وهن غير مسافحات، يَمْنَعَنَّ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ مِنْ اقْتِرَافِهَا مَعَهُنَّ. وَلَا هُنَّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَخْدَانِ⁽¹⁾.. وَالْأَخْدَانُ هُمُ الْأَصْدِقَاءُ. وَهُمْ مَا يَصْطَفِيهِ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَلِيلَاتِ الْعَشِيقَاتِ. وَمَا تَصْطَفِيهِ الْمَرْأَةُ لِنَفْسِهَا مِنَ الْأَخْلَاءِ وَالْعَشَاقِ⁽²⁾. وَلَيْسَ إِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ..

ومنها كذلك: نكاح الاستبضاع: حيث يبحث الرجل والمرأة (الزوجان) عن بضع غير بضع الزوج لأنه لا ينتج نسلا. وذلك يؤدي إلى ضياع الأنساب، وحقوق النسل الناتج عن هذا الزواج غير الشرعي⁽³⁾.

ومنها أيضا نكاح الاستلحاق: وهو صورة مزرية للنكاح غير الشرعي. حيث يدخل الرهط (من ثلاثة فأكثر) على المرأة وبعد أن تحمل وتتجب تجمع الرهط وتخبرهم بأنها حملت منهم وأنجبت. ثم تلحق نسلها بما شاءت من الرهط، دون إعطائه فرصة للمعارضة⁽⁴⁾..

ومنها كذلك: نكاح البغايا: وهن اللاتي يتصيدهن الرجال الحمق فيجامعوهن فيحملن. فإذا حملت إحداهن من الجمع الذين دخلوا عليها، ووضعت حملها، جُمِعُوا لها، ودعوا لها القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطته ودعى ابنه لا يمتنع عن ذلك " ⁽⁵⁾.. وهو شبيه بنكاح الاستلحاق.

(1) ابن كثير مع التصرف من ص 451 الجزء الأول.

(2) قاله ابن عباس وأبو هريرة ومجاهد والشعبي والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم ص 221 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

(3) ص 42 بتصرف من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد لعبد العزيز الشناوى.

(4) من ص 40 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى. وقد تحدث عنه تحت عنوان تعدد الأزواج.

(5) ص 223 من كتاب منهج السنة في الزواج - القافة: الاتباع - التاطته: أى ادعته ولدا له.

ومن ذلك أيضا: نكاح اللقاح الصناعي: فتحقن المرأة بموافقته
وموافقة زوجها بماء رجل آخر معروف بالإنجاب للذكور ويتكرر
الحقن إلى خمس مرات إلى أن تحمل. وقد يشترك أكثر من رجل
فتحقن بمائهن إلى أن تحمل⁽¹⁾.. فكل الأنكحة التي ذكرنا صورا منها
غير شرعية، وينتج عنها ضياع الأنساب وضياع حقوق النسل الناتج
عن هذا العبث الشيطاني. علاوة على ما يحسه فاعلوها وفاعلاتها من
ندم وما يجنونونه من شقاء في العيش جزاء ما اقترفوا من الإثم.
والأولى بالجميع أن يسيروا في الطريق الصحيح طريق الميثاق
الغليظ. طريق الشريعة الإسلامية السمحاء..

ونظرا لتحريم المتعة وغيرها من صور النكاح غير الشرعية
تحريما مؤبدا، ولاحترام عقد النكاح وتنفيذه تنفيذا دقيقا في إطار الشرعية
الممنوحة له - لجأ حكام المسلمين بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه
إلى تقصير مدة الغزو لأقل فترة ممكنة. مراعاة لظروف أفراد جيش
الغزو وبعدهم عن زوجاتهم وعائلاتهم. وكان المسلمون الغازون
يتركون أسرهم ويسافرون في الغزو لأزمان طويلة. وقد راعى عمر بن
الخطاب رضي الله عنه طاقة الزوجة وقدرتها على تحمل فراق زوجها
والحد الأقصى لهذا التحمل. وكان الإسلام قد تمكن من نفوس المؤمنين
والمؤمنات، وكان تمسكهم ونسأؤهم بتعاليم دينهم ومبادئه يعصمهم من
الزلل، رجالا ونساءً. ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه موقف رائع
وحوار مشهور مع امرأة غاب عنها زوجها فترة من الزمن لتجنيدته في
الغزو.

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر
الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس في الموطأ عن عبد الله بن

(1) ص223 من المصدر السابق مع التصرف.

دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:
تطاول هذا الليل واسود جانبه :: وأرقني ألا ضجيع ألاعبه
فوالله لولا الله أنى أراقبه :: لحرك من هذا السرير جوانبه
فسأل عمر ابنته حفصه رضى الله عنها كم أكثر ما تصبر المرأة
عن زوجها؟ فقالت ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس
أحدا من الجيوش أكثر من ذلك⁽¹⁾.

وفى تفصيل لما قالته المرأة قال محمد بن إسحاق عن السائب بن
جبير مولى ابن عباس وكان قد أدرك أصحاب النبي صلى الله عليه
وسلم قال: ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف
بالمدينة وكان يفعل ذلك كثيرا إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلفة
بابها تقول:

تطاول هذا الليل وازور جانبه :: وأرقني ألا ضجيع ألاعبه
ألاعبه طورا وطورا كأنما :: بدا قمرا في ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه :: لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شيء غيره :: لنقض من هذا السرير جوانبه
ولكننى أخشى رقيبا موكلا :: بأنفاسنا لا يفتر الدهر كاتبه
مخافة ربى والحياء يصدنى :: وإكرام بعلى أن تنال مراكبه⁽²⁾

فسأل عمر عنها ف قيل له هى فلانة فقال لها أمير المؤمنين عمر:
مالك؟ فقالت: أغزيت زوجى منذ أشهر، وقد اشتقت إليه فقال لها
الفاروق رضى الله عنه: أردت سوءاً؟ فقالت معاذ الله. فقال عمر:
فأمسكى عليك نفسك فإنما هو البريد إليه وبعث عمر إلى زوجها
فأقفله (أى أعاده) من الغزو.. ودخل عمر إلى ابنته أم المؤمنين

(1) ص 254 من الجزء الأول من كتاب تفسير القرآن العظيم - لابن كثير.

(2) نفس الصفحة من المرجع السابق

حفصة رضى الله عنها، فقال لها: يا بنية: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت حفصة: سبحان الله. مثلك يسأل مثلى عن هذا؟ فقال عمر: لولا أنى أريد النظر إلى المسلمين ما سألتك. فخفضت حفصة رأسها واستحييت. فقال لها عمر: فإن الله لا يستحي من الحق. فأشارت أم المؤمنين حفصة بيدها.. خمسة أشهر ستة أشهر.. فَوَقَّتَ الفاروق للناس في مغازيهم ستة أشهر. يسIRON شهرًا، ويقيمون أربعة، ويسIRON راجعين شهرًا " (1).

وبذلك أسهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه في إسعاد الزوجين، ومساعدتهما في الإبقاء على روح وهيبة الميثاق الغليظ. وتنفيذ ما شرع الله به من اتصال جنسى بين الزوجين. وفى هذا تدعيم وإسعاد لبيت الزوجية الذي أُسِّسَ بناءً على هذا الميثاق الشرعى الغليظ...

* * *

(1) رواه عبد الرزاق في الجامع ص114، ص115 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

الفصل الثالث:

ما يصاحب العقد

وتستمر الشريعة الإسلامية في بيان ما يُسعد الزوجين وأسرتهما والمجتمع الإسلامي كله. فليس عقد الزواج وحده هو الذي يسعد الزوجين، بل هناك ما يصاحب هذا العقد الشرعي المغلظ ويدعمه ويبرز مواطن الفرح والسعادة به. فهناك خطبة النكاح، والولاية في الزواج، والإشهاد عليه، والصّدّاق، والدف والغناء المباح. وكل هذه الأمور تشيع البهجة والفرح والسعادة، وتبارك هذا الميثاق الغليظ الذي تم بين الزوجين. ولا بد أن نشير هنا بإيجاز إلى كل من هذه الأمور التي تصاحب العقد وتوجد معه جوا من السعادة والهناء والاستقرار والاطمئنان

أولاً: خطبة النكاح:

تسبق خطبة النكاح خطبة الخطبة. وصفتهما واحدة وفيهما يبين الغرض من الخطبة. وكلاهما مندوب. وفي ذلك يقول الإمام مالك رضي الله عنه: "وُئِدْبَ خُطْبَةُ بَخِطْبَةٍ وَعَقْدٌ" (1).

وخطبة النكاح هي كلمة موجزة تصاحب العقد وتكون مقدمة له. وهي في الإسلام مندوبة لم ترق إلى مرتبة الوجوب.. ودليل ندبها وعدم وجوبها: ما رواه أبو داود من حديث رجل من بنى سليم: "خُطِبْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَامَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

(1) ص338 من الجزء الثاني من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - تأليف أبي البركات أحمد الدردير - حاشية الصاوي.

فأنكحني من غير أن يتشهد " (1). والمقصود بالتشهد هنا ما يقال في مقدمة خطبة النكاح: من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فلو كانت كلمة التشهد واجبة في هذا الموضع لتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم... وصفتها: أولاً: التشهد: ويشتمل على حمد الله واستغفاره. وطلب الهداية منه سبحانه، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. ثانياً: ذكر ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل تدل على وجوب تقوى الله تعالى وطاعته وصلة الأرحام والصدق في القول. وقد أشار العلامة الشيخ أحمد الصاوي في حاشيته على كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك (2) - إلى الآيات التي تقال في هذه المناسبة، من مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] الآية.. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].. ثالثاً: ذكر الحاجة وهي هنا بناء الزواج على من خطبها مع ذكر اسمها واسم أبيها، ويشمل ذلك الإيجاب والقبول من ولي الزوجة والزوج أو من ينوب عنه. رابعاً: كلمة تتعلق بكل من الزوج والزوجة ومميزاتهما وصفاتهما الحميدة. ومن الأفضل أن يذكر ذلك ولي الزوجة حتى لا يكون الزوج مزكياً لنفسه حسب رأى من يقول ذلك. وإن لم يتيسر فليقلها من ينوب عن الزوج في حالة غيابه. أو يلحقها حينئذ الزوج إن كان حاضراً. فبدأ بذكر محاسن الزوجة ثم يعبر عن ترحيبه ورضاه بهذا الارتباط الشرعي ويعبر عن تمنيه أن يكون ارتباطاً سعيداً موفقاً.. خامساً:

(1) رواه أبو داود في سننه 322/2.

(2) هامش ص 338 من كتاب الشرح الصغير السابق ذكره - الجزء الثاني.

يعبر كل من ولى الزوجة وولى الزوج أو من ينوب عنه في حالة غيابه عن مشاعرهما الطيبة لهذا الارتباط بين طرفين متكافئين في الدين والأخلاق الكريمة.. هذا ويندب أيضا تقليل الخطبة لأكبر قدر ممكن حتى لا يسأم الحاضرون في حالة تكثيرها⁽¹⁾، وخصوصا إذا لم يكن هناك داع للتكثير..

وكمثال واضح ومشهور لخطبة النكاح - نذكر ما ورد في زواج أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان. فقد قال الزبير بن بكار، حدثني محمد بن الحسن، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن زهير عن إسماعيل بن عمر أن أم حبيبة بنت أبي سفيان قالت: " ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي - جارية يقال لها أبرهة - كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فاستأذنت على فأذنت لها، فقالت: إن الملك يقول لك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أن أزوجه، فقلت: بشرك الله بالخير، وقالت الجارية: يقول لك الملك: وگلى من يزوجهك، قالت فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته.. فلما أن كان من العشى - أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن كان هناك من المسلمين أن يحضروا، وخطب النجاشي، وقال: " الحمد لله الملك القدوس المؤمن العزيز الجبار. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم.. أما بعد فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان. فأجبت إلى مادعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أصدقها أربعمئة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. فتكلم خالد بن سعيد فقال: الحمد لله.. أحمده وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين

(1) نفس الصفحة من المصدر السابق ذكره.

الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.. أما بعد.. فقد أجبت ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم " ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها " (1).. وكان ذلك سنة ست من الهجرة وقيل سنة سبع منها..

والملاحظ والمعلوم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحتج إلى تعريف في هذه الخطبة. فجميع المسلمين يعرفونه ويطمئنون إليه ويصدقونه في كل ما يقوله ويباركون له كل ما يفعله. وكذلك أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب لم تكن أيضا في حاجة إلى من يعرفها. ومن أجل ذلك جاءت خطبة النكاح في هذا المقام قليلة في ألفاظها كثيرة في معانيها. فزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من إحدى نساء المسلمين شرف كبير لها ولأسرتها، تسعى إليه كل نساء المسلمين في ذاك الزمن وتتمناه...

ونسوق للقارئ الكريم مثالا آخر تتضح فيه قلة خطبة النكاح إلى درجة أكثر من سابقه. وقد حدث هذا في زواج محمد صلى الله عليه وسلم من خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضى الله عنها. حيث قام أبو طالب في مجلس العقد، فخطب خطبة النكاح وكان فيها: " أما بعد فإن محمدا مما لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا. وإن كان المال قل، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة. له في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك. فقال عمرو بن أسد - عم خديجة -: هذا الفحل لا يقرع أنفه "

(1) البداية والنهاية 1043/4 - 144. وانظر ص121، ص122 من كتاب منهج السنن في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

ومن الملاحظ أن كلمات أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت قليلة في هذا المقام الذي لا يحتاج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعريف. وكانت كلمات عمها ووليها في هذا الزواج المبارك، أقل، لأن خديجة رضى الله عنها كانت لها مكانة معروفة مرموقة في قومها وكانت أشهر من أن تعرف.

وهكذا نجد خطبة النكاح على هذا النحو الذي ذكرناه ومثلنا له - ذات أثر كبير في تثبيت دعائم النكاح، وصبغه بصبغة الشرعية. من خلال إعلانه والإشهاد عليه بحضور ولى الزوجة، وولى الزوج أو من ينوب عنه إن كان غائبا لم يحضر مجلس العقد. فهي إذن بشر وفرح ونور وسعادة وسرور، ينطبع على هذا الزواج، فيسعد به طرفاه (الزوج والزوجة) وأسرتهما سعادة غامرة....

ثانياً: الولاية في الزواج:

لقد أحل الله الفروج في إطار الميثاق الغليظ وهو عقد النكاح الشرعى. وحتى يصطبغ هذا العقد بالصبغة الشرعية، كان لابد أن يحضر ولى الزوجة مجلس عقد النكاح ويعلن موافقته عليه، فنجد قوله تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسْعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٣٢].. ونجد أيضاً قوله عز وجل: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَبَيِّنَآيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [البقرة: ٢٢١].. ففي آية سورة

(1) ص45 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى - لا يقرع أنفه أى لا يرفض له طلب.

النور، نجد الرجال هم المأمورون بتزويج الأيامي من الأحرار، والأيم هي من فقدت زوجها من النساء، ومن فقد زوجته من الرجال، والرجال مأمورون أيضا بتزويج الصالحين من عبيدهم وإمائهم.. وفي آية سورة البقرة، نجد كذلك أن الرجال المؤمنين منهيون عن تزويج أنفسهم من النساء المشركات إلا إذا آمن وأعلن إيمانهن. فالأمة المؤمنة خير من المشركة الحرة ولو أعجب بها من أعجب. والرجال المؤمنون أيضا منهيون عن أن ينكحوا بناتهم للمشركين، إلا أن يؤمنوا ويعلنوا إيمانهم. فالعبد المؤمن خير من الحر المشرك ولو أعجب به من أعجب، فالمؤمن يدعو إلى الجنة، والمشرك يدعو إلى النار. والإنسان العاقل لا يعمل إلا ما فيه مصلحته ومصلحة أولاده وبناته في الدنيا والآخرة وفي إطار الشريعة الإسلامية..

وإذن فلا بد من تواجد الرجل كولى للمرأة أو البنت في مجلس عقد زواجها وموافقة وإذنه فيه على الزواج. وليس للمرأة أو البنت أن تزوج نفسها ولا أن تزوج غيرها من بنات جنسها مستغنية عن تواجد وليها أو ولي غيرها في مجلس العقد وإذنه وموافقة على هذا الزواج.. ولا يظن أحد أن الثيب معفاة من تواجد وليها وموافقة على زواجها في مجلس العقد عليها، لأن الثيب والبكر في هذا الحكم سواء. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ♂ الأيم أحق بنفسها من وليها — الحديث - يثبت للثيب حقها في اختيار من تريد الزواج منه، دون موافقة الولي على اختيارها. أما بعد الاختيار. فلا بد من وجود وليها في مجلس العقد ليعلن موافقة على زواجها ممن اختارته. وقد ورد ذلك في صحيح ابن حبان. وعَقَّبَ عليه بقوله: قوله صلى الله عليه وسلم: ♂ الأيم أحق بنفسها — أراد أحق بنفسها من وليها بأن تختار من الأزواج ما شاءت فتقول: أرضى فلانا ولا أرضى فلانا.

لا أنَّ عقدَ النكاح جائزٌ دون الأولياء⁽¹⁾. وقد ورد في شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك لحديث ابن عباس " الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها ". أنه لما صح قوله صلى الله عليه وسلم: **لا نكاح إلا بولي** — مع غيره من الأحاديث الدالة على اشتراط الولى، تعين أنَّ المراد: أن الأيم أحق بالرضا دون العقد وأن حق الولى في العقد. ودل أفعل التفضيل المقتضى المشاركة على أن لوليها حقاً أكد، وحقها أن لا يتم ذلك إلا برضاها " ⁽²⁾..

ولم ينفرد القرآن الكريم بتوضيح ذلك. فقد جاء في السنة النبوية المباركة بالإضافة إلى الحديث الذي سبق نقاشه الآن " الأيم أحق بنفسها " الحديث - ما يؤيد ذلك. ومنه قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل. فنكاحها باطل. فأنكحها باطل، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له، فإن أصابها فلها المهر بما استحلت من فرجها** — ⁽³⁾. فهذا الحديث النبوى الشريف، يؤكد أن زواج المرأة سواء كانت ثيباً أم بكراً بدون إذن وليها - يكون باطلاً. وإن جامعها في هذه الحالة فيكون من حقها المهر، بسبب استمتاعه بها على هذا النحو، وإن اختلفوا فالسلطان وليهم، يحكم بينهم بحكم الله عز وجل.. ومن هذا القبيل أيضاً ما ثبت عن أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، أنها حضرت زواج رجل من بنى

(1) صحيح ابن حبان (280/2/6) - هامش ص130 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) ص126 من الجزء الثالث من شرح الزرقاني على موطأ مالك.

(3) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه والدارسى والحاكم وأبو عوانة وابن خزيمة وابن حبان من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ ص101 - من منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور..

أخيها. فضربت بين الرجال والنساء بستر، وتكلمت عن الزواج ومشروعيته ومكانته في الإسلام، فيما يعرف بخطبة النكاح، حتى إذا لم يبق إلا أن تعقد، فأمرت رجلاً فأُنكح.. وفي ذلك أخرج عبد الرازق في المصنف عن عائشة رضى الله عنها: أنها أنكحت رجلاً من بنى أخيها. فضربت بينهم بستر ثم تكلمت حتى إذا لم يبق إلا العقد. ثم أمرت رجلاً فأُنكح، ثم قالت: " ليس إلى النساء نكاح " (1). فهذا تأكيد من أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، بأن المرأة ليس من حقها أن تزوج نفسها أو غيرها.. ومن ذلك أيضاً، قول النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: **لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها** — (2). فهذه الرواية أيضاً توضح أن المرأة لا تستقل بعقد زواجها أو زواج غيرها.. وأنه لا بد من حضور الولي إلى مجلس العقد وإعلان موافقته.. بل إن الشريعة الإسلامية تعتبر تزويج المرأة أو البنت لنفسها بغير حضور وليها مجلس العقد وإذنه لها بالزواج يعتبر نوعاً من الزنى.

فالمسألة هامة وتداعياتها خطيرة تمس شرف المرأة أو البنت وشرف عائلتها وأثر ذلك على علاقتها بسائر المسلمين والمسلمات، وعلى عائلتها وعائلة من اعتدى عليها بهذا الشكل وأثر ذلك أيضاً على المجتمع الإسلامى. ولكل ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم محذراً المرأة أو البنت وعائلتها والعائلة التي تريد الارتباط بها بهذا الشكل غير الشرعى: **أيها امرأة! زوجت نفسك من غير إذن وليّ فهى زانية** — (3). ولما كانت مسألة حضور ولي المرأة أو البنت مجلس

(1) التعليق المغنى على الدار قطنى 226/3. ص 101 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) أخرجه الدارقطنى في السنن 227/3 - 228 عن أبى هريرة.

(3) أخرجه الخطيب عن معاذ بن جبل ص 92 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد -

عقد نكاحها وإعلان موافقته على الزواج في هذا المجلس - قد تتعذر لظروف ما. فهنا يجوز لولى الأمر الحاكم أو من ينوب عنه. أن يكون هو الولي في هذه الحالة عن زواج البنت أو المرأة يَحْضُر العقد أو يُنِيب من يحضر عنه حتى يتم الزواج بطريقة شرعية لا عدوان فيها على شرف البنت وعائلتها والعائلة التي تريد الارتباط معها. ومن هنا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **لَا نِكَاحَ إِلَّا بِإِذْنِ وَلِيٍّ أَوْ سُلْطَانٍ** — (1).

ولذا يعتبر حضور ولى المرأة أو البنت مجلس العقد عليها وموافقته على زواجها - عند الفقهاء - أحد أركان عقد الزواج الذي لا يـ _____
إلا به (2).

وقد سار على هذا النهج النبوى الشريف في وجوب حضور ولى المرأة مجلس عقد زواجها - صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعون، والمسلمون من بعدهم. ومن أقوال الصحابة في ذلك: " لا تنكح المرأة إلا بإذن وليها أو ذى الرأى من أهلها أو السلطان " (3). ومن أقوال التابعين في ذلك: ما جاء عن إبراهيم النخعى: " لا نكاح إلا بولى أو سلطان " (4).

وما استحدث في هذا الزمن من جعل المرأة مأذونة شرعية يجب

لعبد العزيز الشناوى..

- (1) ص 101 من كتاب منهج السنة في الزواج للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.
- (2) ص 335 من الجزء الثالث من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - تأليف أبى البركات أحمد الدردير - حاشية الصاوى..
- (3) رواه سعد بن المسيب عن عمر بن الخطاب. ورواه مالك في الموطأ ص 325. طبعة الشعب.
- (4) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبه ص 112 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

ألا يُخيف أحداً، لأنها تفعل ما يفعله المأذون الشرعى. حيث تكون مهمتها توثيق الزواج الذي لا يتم شرعا إلا بحضور ولى المرأة أو البنت مجلس العقد وإعلان موافقته على الزواج كما قدمنا. فكونُ المأذون رجلا أو امرأة لا يغير شيئا من الشرعية التي يتمتع بها الولى في هذه الحالة..

وليكن معلوما أن وجوب تواجد الولى عن الزوجة في مجلس العقد وإذنه وموافقته وإضفاء روح الشرعية على الزواج - ليس معناه أن ولى المرأة أو البنت يملك أن يكرها على الزواج من رجل تكرهه أو لا تريده لعلّة شرعية تعلنها، أيا كانت اجتماعية أو نفسية. فمبادئ الإسلام وتعاليمه تلزم الولى بالتشاور مع من يتولى أمر زواجها في علّة رفضها. فإما أن تقنعه بصحة ماتبديده من علّة للرفض، أو يقنعه هو بأن العلّة التي تبديدها لا أساس لها من الصحة وعليه فليس لها أن تعترض.. وقد سبق أن عرضنا سبب رفض الخنساء بنت خزام الأنصارية لابن عمها بسبب أن أباهما وهو وليها يريد أن يزوجهما من ابن أخيه ليرفع بها خسيسته. ويبدو أنها كانت تراه فقيرا لا يناسبها. ولما طلب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجيز ما صنع أبوها، رفضت في أول الأمر، فأعطاهما الرسول صلى الله عليه وسلم الحق والحرية في اختيار من يناسبها. فعادت وأعلنت أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها أجازت ما صنع أبوها بعد أن عرفت منه صلى الله عليه وسلم أن لها الحق في اختيار من تشاء دون إكراه..

ومن جهة أخرى يجب ألا يكون للولى هدف شخصى يسعى إلى تحقيقه من وراء هذا الزواج، أو طمع في كسب مادي يريد الوصول إليه من خلال إتمام هذا الزواج.

كما يجب ألا تكون المرأة أو البنت معوقة التفكير أو جامدته. لا تستطيع تحقيق الأفضل لها. فإذا رأت أنها كذلك أو رأى وليها فيها ذلك - فليتنصرف بما فيه مصلحتها. فقد يكون اعتراضها محاولة لفرض رأيها وليس لمصلحة لها في الرفض أو الاعتراض. وربما يكون رأيها خطأ يؤدي إلى الإضرار بها. وهنا أيضا يتصرف وليها بفعل ما فيه مصلحتها وعليه أن يقنعها برأيه، وبأن ما يقوله وما يفعله من أجل مصلحتها التي هو أدري بها منها. ولا شك أنه ذو خبرة في هذا الأمر، ويعلم التصرف المؤدى إلى ما فيه مصلحتها بقوة إيمانه بالله عز وجل، وبحكم مسئوليته عمن يتولى أمرها. ونلمس ذلك أيضا في قصة زواج الخنساء التي اختار لها أبوها - وهو وليها - ابن عمها لعلمه أنه الأصلح لها. ومسألة قلة المال تدرك مع الاستعانة بالله تعالى والاستقامة على طريقه عز وجل، والسعى الحثيث من الزوج في تحسين دخله الذي ينبغي أن يمكنه من بقاء الزواج. وقد سارعت الخنساء إلى الاستجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتنعت بابن عمها وباختيار أبيها لها من يناسبها، فهو وليها وأقرب الناس إليها وأعرفهم بمصلحتها..

ولهذا نجد الولي الشرعي في الزواج عند جمهور الفقهاء هو الأب أو الأقرب ذو العصبة كالأخ أو الإبن، أو السلطان، أو من ينوب عنه⁽¹⁾.

والعقد لا يمضى بالأبعد مع وجود الأقرب إلا برضاه (أى رضا الأقرب)⁽²⁾.. وبعض الناس يرون في تقديم الأبعد في الولاية مع

(1) هذه الفقرة والتي قبلها مأخوذة بتصرف واختصار من الجزء الثالث من كتاب الفقه المالكي الشرح الصغير لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - تأليف أبي البركات أحمد الدردير - حاشية الصاوى من ص 351 إلى ص 366.

(2) ص 367 من نفس المرجع السابق.

وجود الأقرب - فخرا أمام الناس. فقد ينيب الأب وهو الأقرب أخاه (عم العروس) مع أنه أبعد منه، على سبيل الفخر، لمنزلة أخيه الكبيرة بين الناس. والمهم في هذه الحالة الرضا من الأقرب عن تقديم الأبعد. فالإسلام لا يمنع هذا، مادام الولي الشرعي قد رضى بهذا التقديم.

وإذا تباعد الأولياء فلا بأس أن يلي النكاح منهم - ذو الحال أو السن. ويقصد بذى الحال هنا ذو الصلاح وإن كان غيره أقرب منه.. والواجب عند ذلك أن تراعى أمور ثلاثة هي: الصلاح والدين والرأى⁽¹⁾. وذو الرأى هو الأكثر خبرة بهذه الأمور عادة بالإضافة إلى صلاحه وتمسكه بمبادئ الدين الإسلامي. كما يجوز أن ينيب الولي من هؤلاء الذين تتوفر فيهم الأمور الثلاثة السابقة - من يحضر عنه حال العقد إذا كان عنده عذر شرعي يمنعه من الحضور.

وهكذا نجد الولاية في الزواج بكل ما يقترن بها من نواح إنسانية وشرعية ونفسية - من شأنها أن تجعل الزواج سعيدا يرفرف عليه التوفيق الدائم، فيسعد به من يرتبط به من الأفراد والأسر. وهذا مقصد إسلامي رفيع، يجعل المجتمع الإسلامي أكثر سعادة واستقراراً من خلال الزواج الشرعي...

ثالثاً: الإشهاد على العقد:

يعتبر الإشهاد على عقد الزواج دعامة هامة للعقد تكون في مجلسه، وتساهم في إسعاد بيت الزوجية والأسرة المسلمة الوليدة، وبه يحس الزوج والزوجة بالسعادة الحقيقية. حيث يبعدان بهذا

(1) ص 368 من نفس المرجع.

الإشهاد الشرعى عن العبث في المجال الجنسى، الذي يضيع الطاقة الجنسية، ويصرفها في غير المفيد وغير الشرعى، حيث لا ولاية ولا إشهاد في العقد السرى أو العرفى كما يسميه البعض.. وبهذا الإشهاد أيضا يعترف المجتمع الإسلامى بهذه العلاقة اعترافا كاملا، من الناحية الشرعية والناحية القانونية. وكذلك يعترف المجتمع الإسلامى في ظله بما ينتج عن هذه العلاقة من ذرية ووراثة وحقوق وواجبات والتزامات، تنتج عن هذا الزواج الشرعى. فلن تكون هناك اعتراضات ولا منازعات من أى طرف مرتبط بهذه العلاقة الشرعية.. فالإشهاد على الزواج في حدود الشرعية الإسلامية يعتبر شرط صحة لعقد الزواج..

ولا يكون هذا الإشهاد شرعيا ولا صحيحا إلا بشهادة عدلين غير الولى.. فلا يصح بلا شهود ولا يصح بشهادة رجل وامرأتين على الأغلب: وقال أحمد وإسحاق: إنه يصح بشهادة رجل وامرأتين ويكون عند من قال به في حالة عدم وجود شاهدين عدلين من الرجال.. وكذلك لا يصح بشهادة عدلين أحدهما ولى المرأة، وإن كان البعض قد أجاز ذلك في حالة الضرورة. ولا يصح الزواج أيضا بشهادة امرأتين.. ومن باب أولى لا يصح بشهادة امرأة واحدة.. ولا يصح كذلك بشهادة فاسقين، ولا مستورى الحال.. ويفسخ الزواج بطلقة واحدة بائلة، إن دخلا بلاه. أى بلا إشهاد(1)..

ويقع المقبلان على الزواج (الزوج والزوجة) في خطأ كبير وخطير - إذا بنيا عش زواجهما على غير إشهاد شرعى. فتلك وسيلة

(1) يتصرف واختصار من ص335 إلى ص337 من الجزء الثالث من كتاب الفقه الإسلامى: الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك تأليف العلامة الدرديرى - حاشية الصاوى.

عدوانية شيطانية يلجأ إليها عادة ذئاب البشر الذين لا يهمهم في دنياهم إلا إشباع غرائزهم الجنسية فقط. فلا يهمهم ولاية ولا إسهاد. ولو كان ذلك التصرف المشين على حساب الفتيات الجاهلات الغافلات عن أحكام الشريعة الإسلامية التي تُؤمّنُ الراغبة والراغبات في الزواج. ولو كان ذلك أيضا على حساب أهالي هؤلاء الفتيات الذين يدّعون أنهم يتمتعون بقسط وافر من الحرية، وأنهم يمنحون هذه الحرية لأولادهم وبناتهم. ويقع هؤلاء الفتيات الجاهلات وأهاليهن في مأزق خطير ومروع نتيجة هذه الحرية المزعومة وخصوصا عندما يتصل الذئب البشري من عمله الفاضح المفضوح، وينكر علاقته بمن دنس شرفها وشوه كرامتها واعتدى على عرضها، وينكر زواجه منها بعد أن يتحايل على ضحيته وينتزع منها الورقة التي تدل على ارتباطه بها بلا ولاية ولا إسهاد، فيجردها من سلاحها الوحيد التي به تستطيع الدفاع عن نفسها عند افتضاح أمرها.. وينتج عن هذا الالتقاء الذي لا شرعية فيه ولا أخلاق - طفل بريء أو طفلة بريئة. تكون ضحية هذا العبث غير المسئول حيث يتكرر الأب لولده أو ابنته هاربا من العار وذل الفضيحة، ومن العدالة الشرعية التي ستواجهه عند انكشاف أمره.. ولا يخفى على أحد أن إصرار الزوج الجاهل على إخفاء زواجه من ضحيته وعدم الإسهاد على هذا الزواج بحجة واهية هي أنه لم يكمل استعداداته بعد لهذا الموقف - يجعل هذا الزواج قائما على غير أساس شرعى. وإذا مالت البنت البريئة إلى رأيه وصدقته ووافقته على سرية زواجهما وعدم الإسهاد عليه - فإن العلاقة السرية التي تقوم بينهما حينئذ تكون أقرب إلى الزنى منها إلى الزواج الشرعى.. والدليل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **الْبَغْيَا:**

اللاتي يُنكحن أنفسهن بغير بينة — (1). فالبيئة تشمل الإشهاد كما تشمل الولاية.. والعلاقة السرية تفتح الباب دائماً أمام القيل والقال، وسوء الظن والخوض في الأعراض أمام الناس. فهي تشوه صورة طرفي الزواج. وبذلك تتعرض سلامة وأمن وسعادة هذه الأسرة الإسلامية الناشئة للخطر، مما يؤثر بالسلب على المجتمع الإسلامي كله، إذا تكرر ذلك الفعل في كثير من الأسر الإسلامية الناشئة..

ومن أجل ذلك نهت الشريعة الإسلامية بحسم عن الزواج السري، الذي يحلو للبعض أن يسميه بالزواج العرفي، مع أن الفارق كبير بينهما: فالزواج السري لا وجود فيه للولى والشهود على نحو شرعى في مجلس العقد. وهذا بخلاف الزواج العرفي الصحيح، حيث يتواجد في مجلسه الولى والشهود لكن إعلانه يُؤخر لسبب أو لآخر، يكون عادة سبباً مقبولاً عقلاً وشرعاً.. كما أن الزواج السري الخالى من الولى والشهود في مجلس العقد - يكون خالياً من السكن والمودة والرحمة بين الزوجين تلك التي تتواجد في الزواج الشرعى المحصن شرعاً وقانوناً بحضور الولى مجلسه وبشهادة الرجلين العدلين. فالولاية والإشهاد يضيفان إلى الجو الأسرى السعيد الناتج عن هذا الارتباط الشرعى - سعادة دائمة، ملازمة للزوجين ولأسرتيهما طوال حياتهما. وبذلك يشعر الزوجان في بيتهما الناشئ الجديد - بالاطمئنان والاستقرار، اللذين يتولد عنهما في ظل الشريعة الإسلامية ومبادئها، السكن والمودة والرحمة. وينعم بذلك أيضاً من ينشأ عن هذا الارتباط الشرعى من ذرية تملأ بيت الزوجية سعادة وبهجة وألفاً واستقراراً ومحبة..

(1) أخرجه الترمذى عن ابن عباس ص101 من كتاب منهج السنة في الزواج. والبلغايا جمع بغى وهى الزانية. والبيئة هى حضور الشهود والولى.

وإذن فالسرية في الزواج على عكس الزواج الشرعى - تجعله في متناول أعين أهل الشر وألسنتهم. فيكون طرفا الزواج عرضة وهدف دائما للقذف. والقذف في هذا الزواج لا تحميه الشريعة الإسلامية. فهى لا تدافع عن المقذوف في هذه الحالة ولا تحاكم القاذف.. فالقاذف لأحد الزوجين المحصنين بالزواج الشرعى - يتعرض لإقامة الحد عليه إذا ثبت القذف عليه شرعا. لكن القاذف لأحد طرفى الزواج السرى - لا يقام عليه الحد شرعا. نظرا لمخالفته مبادئ وتعاليم الشريعة الإسلامية، في وجوب إعلان الزواج وبينته بحضور الولي مجلسه والإشهاد عليه.. وفى هذا المجال روى عن الحسن رضى الله عنه أن رجلا تزوج سرا. فقال له رجل: أراك تدخل على فلانة. إنك لتزنى بها. قال: فرفع ذلك إلى عمر رضى الله عنه، فقال: هى امرأتى، فلم يجلد عمر القاذف⁽¹⁾.. وروى أيضا عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل وما كان من نكاح على غير هذا فهو باطل، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له**⁽²⁾. وفى المقابل جلد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عبدا فى فرية ثمانين جلدة. فقد حدث مالك عن أبى الزناد أنه قال: " أدركت عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان والخلفاء هلم جرا، فما رأيت أحدا جلد عبدا فى فرية أكثر من أربعين " ⁽³⁾. وهكذا كان الخلفاء الراشدون ومن بعدهم يقتفون أثر النبى صلى الله عليه وسلم،

(1) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ص 159 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) أخرجه ابن حبان والدارقطنى عن طريق حفص بن غياث عن ابن جريج عن سليمان بن موسى، عن الزهري، عن عروة عن عائشة رضى الله عنها. ص160 من المصدر السابق.

(3) ص 151 من الجزء الرابع من شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك.

فينفذون شريعة الله عز وجل حتى في قذف العبيد لغيرهم، على خلاف في عدد مرات الجلد. فهناك من خصص آية الجلد {فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً} [النور: ٤]، على الأحرار ومنهم من طبقها على العبيد، على خلاف في عدد مرات الجلد كما سبق. ومنهم من جلد العبد أربعين، ومنهم من تمسك بالآية الكريمة فجلد العبد ثمانين. وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **الْبَغَايَا اللَّائِي يَنْكَحْنَ أَنْفُسَهُنَّ بَغِيرَ بَيْنَةٍ** — وقد سبقت الإشارة إلى هذا الحديث النبوى الشريف.. فالزواج في السر وهو ما يعرف الآن خطأ بالزواج العرفي، زواج غير شرعى، ولا يؤدي إلى ما يجب أن يتمتع به الزوجان من السكن والمودة والرحمة الموجودة في الزواج الشرعى. بل على العكس قد يجلب هذا الزواج السرى على طرفيه والمتصلين بهما قدرا كبيرا من الذل والعار. وينغص عليهما حياتهما الزوجية وكانا يستطيعان تلافي العار والخزي بالتزامهما بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. بحضور ولى الزوجة مجلس العقد والإشهاد على زواجهما حتى يكون شرعيا يتمتعان فيه بكل مزايا الزواج الشرعى، ويجنيان معا ثمرته سكنا ومودة ورحمة، وذرية صالحة..

وفى كيفية وقوع الإشهاد على الزواج - يقول كثير من العلماء ومنهم أكثر أهل الكوفة: إنه لا يجوز النكاح حتى يشهد الشاهدان معا عقدة النكاح.. ورأى بعض أهل المدينة أنه إذا شهد واحد بعد واحد فإنه جائز إذا أعلنوا ذلك(1)..

رابعا: الصداق

الصداق هو المهر الذي يعطى للمرأة في مقابل الارتباط بها

(1) ص 366 بتصرف من من الجزء الثالث من كتاب الفقه المالكى: الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك تأليف العلامة الدرديرى - حاشية الصاوى.

كزوجة، تنفيذا لأمر الله عز وجل حيث يقول: {وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا} [النساء: ٤]. وقد تعددت آراء المفسرين في النحلة: فقد قال ابن عباس: النحلة: المهر. وقالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: إنها فريضة. ومثلها قال: مقاتل وقتادة وابن جريج. وزاد الأخير: أنها فريضة مسماة. وقال ابن يزيد: النحلة في كلام العرب: الواجب(1) ..

فالصداق فريضة يجب على الرجل أداؤها للمرأة إذا تزوجها، ويكون طيب النفس بذلك، فإذا تنازلت عنه المرأة أو عن جزء منه بطيب نفس أو عن طيب خاطر منها لزوجها أو وليها أو غيرهما - فليأخذه حلالا طيبا.. وفى القديم: " كان الرجل إذا زوج ابنته أخذ صداقها دونها (أى لم يمكنها منه) فنهاهم الله عن ذلك. ونزل {وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً} (2) ..

وما صرح به بعض الفقهاء من أن الصداق يعطى للمرأة نظير الاستمتاع بها - ليس دقيقا. لأن ذلك ينطبق فقط على زواج المتعة، المحرم تحريما أبديا، وقد كان مباحا فترة من الزمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستمرار فترات الغزو وطولها أحيانا بسبب أسفار الغزو والإقامة في أماكنه فترة قد تطول وقد تقصر فيبعد الأزواج عن زوجاتهم فيحرم من من التمتع بهم. لكن الله عز وجل حرم زواج المتعة بعد ذلك تحريما أبديا كما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فالصداق إذن بالتعبير الأدق والأصح هو - كما ذكرنا سابقا - ما

(1) ص 427 من الجزء الأول من تفسير القرآن العظيم - لابن كثير.

(2) قاله هيثم عن سيار عن أبي صالح - رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. نفس الصفحة من المصدر السابق.

يعطيه الزوج للزوجة نظير ارتباطه بها كزوجة. وقد أشار الإمام محمد عبده - رحمه الله - إلى التجاوز من بعض الفقهاء في جعل الصداق نظير الاستمتاع بالزوجة فقال: "وينبغي أن يلاحظ في هذا العطاء معنى أعلى من المعنى الذي لاحظته الذين يسمون أنفسهم بالفقهاء، من أن الصداق والمهر بمعنى العوض عن البضع والثمن لها. كلا.. إن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من الصلة بين الإنسان وفرسه أو جاريته. ولذلك قال: "نحلة: فالذى ينبغي أن يلاحظ هو أن هذا العطاء آية من آيات المحبة وصله القربى، وتوثيق عرى المودة والرحمة. وأنه واجب حتم لا تخيير " (1).

وبذلك يضيف الشيخ محمد عبده - رحمه الله - معنى آخر من معانى النحلة. فهي علامة للمحبة وصله القربى الجديدة، وهى توثيق لصلات المودة والرحمة التي تكون بين الزوجين. فالصداق بهذا المعنى عوض عما يصيب المرأة المتزوجة حديثا في بيتها الجديد، وفى مستهل حياتها الزوجية، من وحشة تنشأ من تركها لأهلها وأسررتها التي تعودت العيش في أحضانها، لتعيش مع أليفها الجديد في بيتها الجديد، فيسعد بها وتسعد به. وكذلك هو عوض عن التعامل مع جيران جدد لا تعرف شيئا عنهم، حتى تتعود عليهم، فتكون بذلك أساسا جديدا بينها وبين زوجها وأسرتهما من المودة والرحمة.

ولا خلاف في أن الصداق ملك للزوجة فقط. بدليل أن الله جل ثناؤه نسبه إليهن في قوله تعالى "صدقاتهن". فليس لوالد الزوجة ولا وليها ولا حتى زوجها حق فيه، ولا في جزء منه، إلا أن يكون

(1) تفسير المنار 376/4 وأيضا من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي

أبو النور ص475، ص476.

عن طيب خاطر منها. فإذا طابت نفسها ورضيت بهبته أو هبة شيء منه لزوج أو ولى أو والد أو غيرهم - فهذا حق شرعى لها..

وفى هذا الإطار يحق للزوجة أن تجهز به أو ببعضه أثاث بيت الزوجية أو جزء منه، إذا طابت نفسها بذلك ورضيت به. وليس ذلك مفروضا عليها أو واجبا. ويكون ما تجهزه الزوجة بصدقها أو بشيء منه - ملكا خالصا لها، يستعمله معها زوجها بطيب نفس منها. ومن أجل ذلك نجد الأزواج يزيّدون في الصداق قدر استطاعتهم - دون مبالغة أو مغالاة - مشاركة منهم في تأسيس بيت الزوجية. وقد جرى العرف على أن يكون قدر كبير من هذا الصداق أمانة عند الزوج يستخدمه بالإضافة إلى ما يساهم به من مال في تجهيز بيت الزوجية وإعداده بما يلزمه، بموافقة الزوجة. وقد جرى العرف كذلك على اعتبار الشبكة جزءا من الصداق يدفع مقدما على هيئة ذهب أو فضة أو نحوهما ويكون في قبضتها ولا يعطى للزوج. ويعتبر من مقدم الصداق..

وقد عدّ كثير من الفقهاء - الصداق من أركان الزواج. فلا يصح اشتراط إسقاطه، ولا يشترط تسميته عند العقد⁽¹⁾. ويكتفى بالإشارة إلى هذه التسمية. ولذلك يقال في العقد عند الحنفية "على الصداق المسمى بيننا"، دون تسمية له بذكر مقداره. وعادة ما يهتم الطرفان بذكر المؤخر من الصداق. تكملة لحق الزوجة فيه وتأكيدا وثبوتة إذا حدث خلاف - لا قدر الله بين الزوجين.

أما الجزء الحال من الصداق أو المقدم فيجوز تسميته في العقد لغرض شرعى كالتألف والتحابب بين طبقات المجتمع. وقد فعل ذلك

(1) ص428 من الجرد الثانى من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - تأليف العلامة الدرديرى - حاشية الصاوى.

النجاشي رضى الله عنه بتكليف من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أرسل صلى الله عليه وسلم إليه ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان. حيث قال النجاشي في مجلس العقد: " وقد أصدقها أربعمائة دينار " ثم سكب الدنانير بين يدي القوم⁽¹⁾..

وقد ترك الإسلام تحديد الصداق للزوج والأسرة، حيث تختلف ظروف الحياة بين الأفراد والأسر، حتى لا يكون هذا التحديد عائقا دون إتمام الزواج لمن لا يملك حده، ولا سيما إذا توافرت الكفاءة والثقة بين الزوجين وأسرتهما. وذلك دون مبالغة وغلو. وأقل الصداق كما قال الإمام مالك رضى الله عنه - ربع دينار ذهباً شرعياً أو ثلاثة دراهم فضة خالصة أو مقوم بهما من كل متحول شرعاً من عرض أو حيوان أو عقار طاهر منتفع به مقدور على تسليمه معلوم قدراً وصنفًا وأجلًا، على تفصيل في كل ما مر. ولا حد لأكثره.

وقال بعض العلماء: لا حد لأكثره ولا حد لأقله⁽²⁾ وذلك تمشياً مع تعاليم الإسلام. أما مذهب جمهور العلماء من السلف والخلف فهو جوازه بما قل أو كثر.. وعامة المحدثين على ما عليه الجمهور⁽³⁾. وهناك حديث نبوي شريف يفيد هذا المعنى سنعرض له في ختام الحديث عن الصداق - إن شاء الله.. وقد ورد في كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك أن الدرهم سبعة أعشار الدينار وأن وزن الدينار الذي كان سائداً في عهد رسول الله

(1) قاله الزبير بن بكار: حدثه به محمد بن الحسن عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن زهير عن إسماعيل بن عمرو عن أم حبيبة بنت أبي سفيان - ص 122 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

(2) ص 428، ص 429 من الجزء الثاني من كتاب الشرح الصغير.

(3) انظر النووى على مسلم 212/9 وانظر منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور هامش ص 479.

صلى الله عليه وسلم أربعة جرائم وربع من الذهب، وأن وزن الجنيه المصرى ذهباً جرامان وخمسة آلاف وخمسمائة وسبعة وثمانون من عشرة آلاف من الجرام⁽¹⁾.. وهكذا نرى ونلمس عظمة الإسلام في تخفيف عبء الصداق عن كاهل شباب المسلمين ورجالهم ونسائهم وبناتهم حتى لا يمثل عقبة في طريق الزواج والاستقرار العائلى والفردى للمسلمين والمسلمات..

ومن الأمثلة الشهيرة للصداق بمنفعة - ما ورد في البخارى من حديث سهل بن سعد الساعدي: أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله! جئت لأهب لك نفسى. فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعد النظر إليها وصوبه، ثم طأطأ رأسه؛ فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست. ثم قام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله! إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها. فقال: **هل عندك من شيء؟** — قال: لا، والله يا رسول الله. قال: **اذهب إلى أمك فانظر هل تجد شيئاً** — فذهب ثم رجع؛ فقال: لا، والله يا رسول الله، ما وجدت شيئاً. قال: **انظر ولو خاتماً من حديد** — فذهب ثم رجع؛ فقال: لا، والله يا رسول الله، ولا خاتماً من حديد، ولكن هذا إزارى - قال سهل: ما له رداء - فلها نصفه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما تصنع بإزارك إن لبستته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبستته لم يكن عليك شيء** —. فجلس الرجل حتى طال مجلسه. ثم قام، فرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم مولياً فأمر به فدُعِيَ، قال: **ما معك من القرآن؟** — قال: معى سورة كذا وسورة كذا وسورة

(1) هامش ص 620 من الجزء الأول من كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - تأليف العلامة الدربرى - حاشية الصاوى.

كذا، عدها، فقال: ﴿أَتَقْرَأُ مِنْ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ؟﴾ — قال: نعم! قال: ﴿إِذْهَبْ فَقَدْ مَلَكَتْكِهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ — (1) وهكذا نجد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم يقبل من الرجل أن يكون صداقه لهذه المرأة تعليمها ما يحفظ من سور القرآن الكريم لتنتفع بها في دنياها وآخرتها..

ومن الأمثلة المشهورة للصدّاق بمنفعة كعمل يقوم به الزوج لأبيها مثلاً ويعود عليها هذا العمل بنفع مباشر - ما ورد في قصة زواج موسى عليه السلام من ابنة شعيب عليه السلام. وهى التي جاءت لتبلغه دعوة أبيها له لمكافأته على ما صنع معها ومع أختها من سقيه لهما رغم الزحام.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَوَلَّىٰ أَحَدُهُمَا تَمْشَىٰ عَلَىٰ اسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَبَىٰ يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَعْجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمْلِكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥ - ٢٨].

وفى هذا يقول النبی صلی الله عليه وسلم: ﴿إِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آجَرَ نَفْسَهُ بَعْفَةً فَرَجَهُ وَطَعْمَةً بَطْنَهُ﴾ — (2). وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان موسى عليه السلام فقيراً لا مال له..

(1) أخرجه البخارى فى 66 من كتاب فضائل القرآن - باب القراءة عن ظهر قلب. الجزء الثالث ص 13، 14 - من البخارى - عناية الدكتور محمد تامر.

(2) رواه ابن أبي حاتم عن أبى زرة عن صفوان عن الوليد عن عبد الله بن لهيعة عن الحارث ابن يزيد الحضرمي عن على بن رباح اللخمي الذي سمعه من عتبة بن المنذر السلمى صاحب رسول الله ﷺ هامش ص 365 من الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - في تفسير الآيتين 27 و 28 من سورة القصص.

ومن الأمثلة المشهورة كذلك للصدّاق بمنفعة - ما روى من قصة زواج أبى طلحة رضى الله عنه من أم سليم رضى الله عنها. وكانت مسلمة وهو كافر. حيث قالت له حين خطبها: " والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد. ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لى أن أتزوجك. فإن تسلم فذاك مهرى، وما أسالك غيره، فأسلم فكان ذلك مهرها، قال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم سليم (الإسلام). فدخل بها فولدت له " (1). وهكذا كان الدخول في الإسلام وممارسة أعمال المسلمين صدّاقا لما فيه من منفعة كبرى للزوج حيث خرج من دائرة الكفر وللزوجة التي اشترطت عليه أن يترك الكفر ويدخل في الإسلام حتى تتزوجه بأكرم منفعة وأعز صدّاق، فيكونان بذلك أسرة كريمة تتمتع بالسكن والمودة والرحمة في ظل تعاليم الإسلام.

وقد يكون الصدّاق القائم على المنفعة - إعتاق المرأة وتزويجها. وكان ذلك يحدث كثيرا في أوائل عهد الناس بالإسلام ضمن تشجيعه لتحرير الإماء والعبيد.

وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صفية بنت حيى بعد انتصار المسلمين في غزوة حنين: حين جاءه دحية الكلبي وقال: يا رسول الله! أعطنى جارية من السبي. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: اذهب فخذ جارية—. فأخذ صفية بنت حيى. فجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبى الله! أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة والنضير؟ لا تصلح إلا لك. قال: ادعوه بها— فلما نظر إليها صلى الله عليه وسلم قال: خذ جارية من السبي غيرها—.

(1) رواه النسائى في كتاب النكاح - باب التزويج على الإسلام 86/2 - 87. وانظر ص 479 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

قال: فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها. فقال له ثابت: يا أبا حمزة! ما صداقها؟ قال: " نَفْسُهَا " أعتقها وتزوجها(1)..
..

ويجب عدم المغالاة في المهور؛ حتى لا ينفّر الشباب والرجال من الزواج فيكون ذلك خطراً على الإسلام والمسلمين. حيث تقع الفتن ويكثر الفساد. وفي هذا الإطار روى عن عمر رضى الله عنه قوله: " ألا لا تغالوا صدقة النساء. فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبي الله صلى الله عليه وسلم، وما علمت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من ثنتي عشر أوقية " (2) .. وقد روى البيهقي أنه صلى الله عليه وسلم جعل صداق ابنته فاطمة درعاً كان أعطاها لعلّى رضى الله عنه(3).

وروى ابن قتيبة أن هذا الدرع كان ثمنه ثلاثمائة درهم. وأنها بيعت بأربعمائة وثمانين درهماً(4) .. وقد سبق أن ذكرنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أعطى ملء كفيه طعاماً أو سويقاً فقد استحل — (5) ..

وهكذا يُهَوَّنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشباب والرجال من مريد الزواج - أمر الصداق. حتى يصلح أمر

(1) عن حديث أنس. أخرجه البخارى في 8 - كتاب الصلاة 12 - باب ما يذكر في الغزو ص 89 من الجزء الأول من صحيح البخارى - عناية الدكتور محمد تامر.

(2) أخرجه الترمذى في كتاب النكاح باب ما جاء في مهر النساء. ص 477 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

(3) رواه البيهقى في سننه 234/7.

(4) 70/4 وانظر ص 479 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

(5) رواه أبو داود في سننه 236/2 والدارقطنى في سننه 234/3 والبيهقى في سننه 238/7.

المجتمع الإسلامي بصلاح شبابه وفتيانه ورجاله ونسائه ودرءاً للفتنة الناتجة عن عدم إتمام هذا الأمر. فجزى الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عن المسلمين والمسلمات وشبابهم وفتياتهم ونسائهم، خير الجزاء...

خامساً: الدف والغناء المباح في العرس:

سبق أن عرفنا أن الزواج الشرعي لا بد من الإعلان عنه، وأن من وسائل إعلانه تواجد الولي والشهود في مجلس العقد، وكذلك الميثاق الغليظ وتوثيقه يعتبران من وسائل إعلانه. ويصاحب العقد ويكون في معيته حتى يتم البناء بالزفاف - الدف والغناء المباح. وهما أيضاً من وسائل إعلان الزواج حتى يكون شرعياً مقبولاً في المجتمع الإسلامي.

والدف آلة طرب ينقر عليها باليد، أو بأصابع اليد، أو بعضاً أوبماً يشبه العصا مما خصص للضرب عليه⁽¹⁾.. ويعتبر من اللهو المباح شرعاً إذا ابتعد عن الأنغام الخليعة الداعية إلى الفجور. وقد أباحه النبي صلى الله عليه وسلم في العرس وأقره، ونبه إليه وشجعه. ما دامت أنغامه لا تتعارض مع نص شرعي من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وما كانت إباحته من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لأثره الفعال في إدخال البهجة والسعادة على العروسين وعلى بيتيها الجديد، وعلى أسرتيهما. حيث ينتج عن الضرب عليه أنغام تُدخل الفرحة والسعادة في نفوس الحاضرين، وخصوصاً العروسين. فتستبشر وجوه الحاضرين، ويسعد بيت الزوجية، وما يرتبط به من

(1) المعجم الوجيز للغة العربية عام 1993 حرف الدال.

بيوت.. ولذلك يقول نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم: **أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف** — (1) ..

وإذا كان عقد النكاح يستحب أن يكون في المسجد - فإن الضرب عليه بالدفوف يكون خارج المسجد، في موضع حفل الزفاف. وما يحدث الآن في داخل المساجد من زغاريد نسائية وجلبة وصياح وعلو لأصوات النساء والرجال والصبية والفتيات - كل هذا مخالف لتعاليم الإسلام. ولا تقره مبادئ وتوجيهات الشريعة الإسلامية.. وقد أعجبنى ما رأيته في أحد المساجد من تخصيص جزء من المسجد منعزل بعيد عن مكان الصلاة، لهذه المناسبة. وحبذا لو نفذ هذا في كافة المساجد المستعدة للاشتراك في هذه المناسبة.

أما الغناء المباح في هذه المناسبة، فيجب أن يكون خاليا من الأقوال والأفعال المنكرة، كالرقص المحرم الخارج عن حدود اللياقة والأدب وخصوصا الرقص النسائي الفاضح المفضوح. ويجب كذلك أن يخلو من الأغاني الخليعة التي تخلق جوا مناسبا لوساوس الشيطان، وتحريكه للشهوات الكامنة في النفوس. ويجب أيضا أن يخلو مجلس الزفاف والغناء المباح من شرب المسكرات التي تذهب العقل، وتزين الأفعال الفاحشة.

وعلى الرغم من أنه غناء مباح شرعا مصاحبا للدف، فيجب ألا يُعْطَلَ فيه ذكرُ الله عز وجل بأى طريقة كانت. ومن الجدير بالذكر ألا يتسع نطاق الدف والغناء عما ورد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد عد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من الغناء المباح

(1) رواه الترمذى عن عائشة - مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ أحمد الهاشمى - حرف الألف

والدف حدا فاصلا بين الحلال والحرام؛ فلا بد في العرس الإسلامى من الضرب على الدف ومن الغناء المباح بالطريقة الشرعية التي وردت في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما ذلك إلا لدورهما وأثرهما الواضح والفعال في إعلان الزواج وصبغه بالصفة الشرعية المنافية تماما للسرية التي تجعل الزواج باطلا غير شرعى.. وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **فصل ما بين الحلال والحرام الصوت بالدف— (1)**..

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: " لقد ضُرب بالدف وُعُئىَ على رأس عبد الرحمن بن عوف ليلة الملاك " (2) أى الزفاف. وفى رواية عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها في مسألة زفاف قريبتها إلى الأنصارى، قال لها النبى صلى الله عليه وسلم: **أهديتم إلى الفتاة؟—** قالت: نعم، قال: **أرسلتم معها من يغنى؟—** قالت: تقول ماذا في غنائها؟ قال: " تقول:

" **أتيناكم أتيناكم :: فحيوننا فحيوننا**كم
ولولا الحبة السمرا :: لم نحلل بواديكم " (3)
وفى رواية شريك لهذا الحديث الشريف للسيدة عائشة رضى الله عنها: فقال: **هل بعثتم معها بجارية تضرب بالدف وتغنى؟—** قالت: تقول ماذا؟ قال: تقول:
أتيناكم أتيناكم :: فحياننا وحيانكم

-
- (1) رواه الحاكم من حديث أبى بلج يحيى بن سليم عن محمد بن حاطب ص 174 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.
(2) رواه سعيد بن منصور في السنن ص 90 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السيد الشرقاوى - الطبعة الثانية 1986 م.
(3) رواه سعيد بن منصور في السنن ص 90 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السيد الشرقاوى - الطبعة الثانية 1986 م.

ولولا الـذهب الأـحمر :: ما حُلت بـواديكم
ولولا الحـنطة السـمراء :: ما سـمـنت عـذارىكم⁽¹⁾

فأين هذا القول من الأقوال التي تقال في عصرنا الحديث والتي
يندى لها جبين الإنسان المسلم. مثل قول القائل:

لا هـسـلم بـالمـكتوب :: ولا هـرضى أبـات مـغـلوب
إنه يتمرد على قضاء الله سبحانه وقدره. فاللهم إنا نبرأ إليك مما
يقول هؤلاء المحدثون، ومما تمارسه الراقصات من رقصات منافية
لتعاليم الإسلام.. وفي هذا المقام يجب أن نشير إلى شئ هام ورد عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفتدى به في القول والعمل فقد كان
الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ينبه إلى الأصلح إذا رأى أو سمع
شيئاً من الغناء يخالف مبادئ الإسلام وتعاليمه.

ومن ذلك ما روى عن الربيع بنت معوذ قالت: " جاء النبي صلى
الله عليه وسلم يدخل حين بُنيَ علىّ. فجلس على فراشي كمجلسك
منى⁽²⁾. فجعلت جويرات لنا يضربن بالدف، ويندبن من قُتل من
آبائي يوم بدر. إذ قالت؟ إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال
صلى الله عليه وسلم: ٭دعى هذه وقول بالذى كنت تقولين—⁽³⁾..
فالنبي ينبه الجارية بل يأمرها بأن تترك ما تقوله مما يخالف الكتاب
والسنة من علم النبي صلى الله عليه وسلم بما في الغد؛ لأن العلم بما
في الغد يعتبر من علم الغيب الذي يختص به الله سبحانه وتعالى
وحده. وقد جاءت رواية حماد بن سلمة لتؤكد عنه صلى الله عليه
وسلم ذلك.

(1) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ص 171 من كتاب منهج السنة في الزواج.

(2) تخاطب خالد بن زكوان الذي روى عنها الحديث.

(3) نفس الصفحة 171 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو
النور.

حيث أورد حماد في رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجارية قوله: ﴿لا يعلم ما في غد إلا الله— (1)﴾. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في هذا القول إلى علة المنع الشرعي لقول الجارية، لأن فيه تجاوزا لحق الله عز وجل في إخلاص العبادة له وعدم الإشراك به سبحانه..

وهكذا يجب أن نقف برسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن فلا نسمح في حفل العرس بالرقص الفاضح للنسوة ولا بالأغاني النسائية الخليعة التي تحرك العواطف الكامنة في النفوس، وتساعد على الفحش والفجور. ولا بشرب مسكر يحول العرس إلى مجلس شراب محرم. ولا بلهو لا يرضى عنه الإسلام، كما يحدث في عصرنا الحديث من اللهو غير الشرعي في الأفراح: من رقص نسائي خليع، وغناء نسائي فاجر يتنافى مع أبسط قواعد اللياقة والأدب، فضلا عن منافاته للأخلاق الإسلامية الكريمة ومبادئ الدين الإسلامي الحنيف، واختلاط الرجال بالنساء في حفلات الزواج مما ينذر بخطر كبير على الرجال والنساء والصيبة والبنات. فالواجب شرعا أن تخصص أماكن للرجال وأماكن أخرى بعيدة عنها للنساء حتى لا يختلط الحابل بالنابل.

ومما لا شك فيه أن الدف والغناء المباحين شرعا، يعتبران وسيلة هامة من وسائل إدخال البهجة والسعادة على الأسرة الوليدة، وعلى أسرتي العروسين. كما أن فيهما إعلانا شرعيا للزواج. وهذا مما يوفر الجو الشرعي الخالص والدافئ الذي يتولد فيه بين الزوجين، السكن والمودة والرحمة. وهى كما عرفنا سابقا من غايات الزواج الإسلامي الأساسية، والتي ينبغي إدراكها والوصول إليها بالطرق

(1) نفس الصفحة من المصدر السابق.

الشرعية....

* * *

الفصل الرابع: ما يكون بعد العقد

أولا: وليمة العرس:

تعريف الوليمة (□)؛ قال صاحب المحكم: هي طعام العرس والإملاك (أى الزوج). وعنده أنها قد تكون لغير العرس. وقال عياض في المشارق: هي طعام النكاح وقيل (الإملاك). وقيل أنها مخصصة لطعام العرس. وقال الشافعي رضى الله عنه وأصحابه: إنها تقع لكل دعوة سرور.. والمشهور أن استعمالها المطلق يكون في النكاح. أما في غيره فتقيد كأن نقول وليمة الختان أو نحو ذلك.

ويؤخذ مما سبق أن وليمة العرس هي التي يقيمها الزوج احتفالاً بزواجه وإعلاناً له وإشهاداً عليه. وأنه لا بد منها في العرس. وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، لما خطب على بن أبى طالب رضى الله عنه ابنته فاطمة رضى الله عنها إذ قال صلى الله عليه وسلم: **إنه لا بد للعرس من وليمة—**(2). **والحال في ذلك أن يكون كل حسب طاقته. لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها..**

ففى إقامة وليمة العرس اتباع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبذلك يشيع الزوج روح البهجة والفرحة والسعادة التي يشاركه فيها كل من يحضر الوليمة. ففى هذه المناسبة، يجتمع الكثيرون من أقارب بيتى العرس وجيرانهما من الفقراء والأغنياء

(1) ص 175 مع بعض التصرف من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

(2) أخرجه أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجه والترمذى ص116 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى..

على مائدة الطعام، ملبين دعوة الزوج إليها، احتفالاً ببית عرسه الجديد. ويتحدث جميع الحاضرين عن محاسن الزوجين ومحاسن أسرتيهما. فيتم بذلك إعلان الزواج على نطاق أوسع مما في بقية مراسم الزواج. فكل من حضر الوليمة يعتبر شاهداً على الزواج المبارك. ويدعو الحاضرون كلهم للزوجين بالبركة ويتمنون لهما التوفيق، ويستجيب الله عز وجل من الداعين المتقين. فتزداد الأسرتين ويزداد المجتمع الإسلامي بذلك ألفة ومودة وسعادة، ويؤكد نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ذلك مراراً. ومن ذلك ما روى عن أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة فقال: **ما هذا؟** — قال: **إنى تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب.** قال: **بارك الله لك.** **أولم بشاة—**، وفي رواية: **أولم ولو بشاة—** ⁽¹⁾..

حكمها: وهذا الأمر من النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف لا يعنى الوجوب، بل هو للاستحباب على الغالب. فهي سنة فضيلة⁽²⁾. وقد قال غالبية العلماء والفقهاء بذلك⁽³⁾. وقد ورد عن الإمام مالك: أن الوليمة هي طعام العرس مندوبة ككونها بعد البناء⁽⁴⁾. فهي عند المالكية من المندوبات، وقد قال بوجوبها بعض المالكية وبعض الشافعية وبعض الحنابلة ولكن يرى الأكثرون كما سبق: أنها سنة فضيلة..

(1) أخرجه البخارى في كتاب البيوع. باب ما جاء في قوله تعالى: **جُدُّ ثَّفَفٌ قُدُّ**
قَفَفٌ قُدُّ [الجمعة: ١٠]، الجزء الأول من البخارى عناية الدكتور محمد تامر.

(2) ص 177، ص 178 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(3) نفس الصفحتين المشار إليهما في المرجع السابق.

(4) ص 499 من الجزء الثاني من كتاب الشرح الصغير - تأليف الدرديري - حاشية الصاوي.

والمشهور والغالب أنها تكون مرة واحدة. وتكرر إذا كان فاعلها (الزوج) في سعة من العيش، ويغلب عليه الإيمان، فلا يعتمد فخرا أو مباهاة، ودعاه إلى تكرارها داع شرعي⁽¹⁾. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أولم مرة في يوم، كما حدث في وليمة زينب بنت جحش⁽²⁾. وروى أنه أولم مرة في ثلاثة أيام كما حدث في وليمة صفية بنت حيي⁽³⁾..

أهمية الوليمة: أما وقد عرفنا بعضا من أهمية وليمة العرس، فيجب أن نقف على برسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرص على إقامتها. فقد نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم جذورين يوم زفاف خديجة رضي الله عنها إليه. وأطعم منها الأهل والأقارب والفقراء.. ولكي يرغب صلى الله عليه وسلم في إقامة وليمة العرس قال صلى الله عليه وسلم: **♂ في طعام العرس مثقال من ربح الجنة — (4)**..

ومن السنة أن تكون الوليمة للأقارب والجيران والأصدقاء، الأغنياء منهم والفقراء، دون تمييز أو تفضيل لمدعوين مخصصين. إذ أن حضور الجميع يشهر أمر الزواج. والتمييز أيضا يجعل النية أكثر ميلا إلى السمعة والرياء. فإذا دعى الأغنياء دون الفقراء فإن في ذلك كسرا لقلوب الفقراء وتخلفهم عن الشهادة للعرس. وهو مخالف للغرض من وراء الوليمة شرعا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **♂ شر الطعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء، ويترك الفقراء، ومن ترك**

(1) رواه مسلم 1048/2. ص 179 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

(2) البخارى 387/7 بنفس الصفحة من كتاب منهج السنة في الزواج.

(3) أخرجه أحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجه ص116 - من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى..

(4) رواه الحارث عن عمر رضي الله عنهما ص 117 من المرجع السابق.

الدعوة فقد عصى الله ورسوله — (1). ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **بئس الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها الأغنياء، ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله — (2)** وذلك لأن الحضور في هذه المناسبة يدخل السرور والأمل على الزوجين، ويجعلهما وأسرتهما يأملون السعادة في هذا الزواج. ومن هنا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **إذا دعى أحدكم إلى وليمة عرس فليُجب — (3)**.

ومن جهة أخرى يجب ألا يقلل مسلم من أهمية وليمة العرس حتى لو كانت من رجل متوسط الحال أو فقير، يقيم الوليمة من أوسط الطعام حسب استطاعته. وربما لم يساعده أحد في الإعداد لها، مع أن المساعدة في هذا المجال واجبة، فهو يبذل جهده في إعدادها. ولكي يهون الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين هذا الأمر أجاز أن يهدى الغنى إلى الفقير حتى يقيم وليمة العرس. وقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. فقد دعا الناس إلى الإهداء لوليمة العرس لما أصبح ليلة بنائه على صفية بنت حيي، حيث كان راجعا والمسلمين من غزوة خيبر. فقد روى أنس ابن مالك رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال حينئذ: **من كان عنده فضل زاد فليأتنا به — قال: فجعل الرجل يجيء بفضل التمر، وفضل السويق حتى جعلوا من ذلك سوادا حيا (كوما شاخصا من التمر والسويق) فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس ويشربون من حياض إلى جنبهم من**

(1) أخرجه البخارى في كتاب النكاح - باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله: ص 41 من الجزء الثالث من صحيح البخارى - عناية الدكتور محمد تامر.

(2) رواه الشيخان: مختار الأحاديث النبوية - للشيخ سيد أحمد الهاشمي - حرف الباء ص 58.

(3) أخرجه مسلم وابن ماجه ص 12 من المرجع السابق.

ماء السماء. فكانت تلك وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. (1).
ومن هنا نعلم أنه يجب عدم الاستخفاف بالدعوة إلى وليمة العرس والتقليل من شأنها. بل يجب مساعدة الداعي إليها على القيام بها إذا لم يستطع وحده القيام بها. ولا يشترط أن يكون ذلك من طعام فاخر بدليل أن وليمة عرس أم المؤمنين صفية بنت حُيٍّ رضى الله عنها كانت فضل تمر وسويق. وقد ساعد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في إقامتها من هذه الفضول. فلنقتد إذن برسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر. ولقد ثبت عن مالك عن يحيى بن سعيد أنه قال: " لقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يولم بالوليمة ما فيها خبز ولا لحم " (2). فلنسلك إذن مسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستطيع كل مسلم أن يقيم وليمة عرسه دون حرج حسب استطاعته. فما أتانا الرسول صلى الله عليه وسلم من الأعمال الخيرة مهما قلت نأتيها وما نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأعمال التي لا تتماشى مع روح الشريعة الإسلامية ومبادئها - ننتهى عنه...

ثانياً: التهنئة والدعاء للعروسين:

من السنة المتوارثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، رضى الله عنهم - أن يهنئ الأقارب والجيران والأصدقاء الزوج والزوجة، بمناسبة إتمام زواجهما، ويدعون لهما

(1) أخرجه مسلم في كتاب النكاح - باب فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها ص 679 - الطبعة المرقمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث من صحيح مسلم - السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة (القمح) والشعير الحيس: خليط التمر والسمن والأقط (لبن رايب أو زبادى مجمد) يسوى كالثرید ويأكل.

(2) ص 161 من الجزء الثالث من شرح الزرقانى على موطأ مالك.

بالتوفيق والبركة. ويتمنون لهما ذرية طيبة صالحة مباركة. ويشمل ذلك أسرتى الزوجين. ويكون ذلك الدعاء بعد عقد القران الذي يعنى بداية الحياة الزوجية بين الزوجين.. وسنعرض بعد قليل لمناذج من المباركة والدعاء للعروسين وردت في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ومن الجدير بالذكر أن الناس كانوا في الجاهلية - ما قبل الإسلام - يتشاءمون من المرض ويسمون الملوغ والمريض سليما. وكذلك كانوا يتشاءمون من بعض الأزمان، كشهر صفر، ومن اتجاهات بعض الطيور، وينسبون المطر إلى منازل القمر فيقولون " مطرنا بنوء كذا " ويعتقدون في تأثير الشياطين والجن على بنى آدم. وفي ذلك

الله عز وجل: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦]. وكانوا يتأثرون كذلك بالسوانح والبوارح من الطير والظباء.. والسوانح هى التي توليك ميامنها، والبوارح هى التي توليك مياسرها.. كما كانوا يتأثرون بالناطح والنطيح، والقاعد والقعيد من الطير.. والناطح والنطيح ما جاء من أمامك، والقاعد والقعيد ما جاء من خلفك.. فكان ذلك يصددهم عن مقاصدهم، فلا يسافرون إذا كانوا عازمين على السفر، إذا اعترضهم ناطح ونطيح، أو اعترضتهم البوارح.. وهكذا. وكان ذلك تطيرا منهم وتشاؤما، بهذه الطيور والظباء.

فلما جاء الإسلام نبذ هذا المسلك. وأبطل هذا التطير، الذي كان يُمضى الإنسان منهم فينفذ ما أراد أو يردده فيمنعه مما عزم على فعله⁽¹⁾.. وقد عبر القرآن الكريم عن تطير أهل الجاهلية وتشاؤمهم

(1) يتصرف وإيجاز من ص319 إلى ص322 من كتاب فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد -

بقوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾}

[الأعراف: ١٣١].

فالأية الكريمة توضح مسلكهم غير الشرعى في التطير والتشاؤم وتوقع الشر أو الخير من حركات الطيور والظباء، وتوجههم الوجهة الإسلامية الصحيحة، وهى أن كل هذه الأمور تسير بمشيئة الله سبحانه وتعالى. وذلك حتى يتوجهوا إليه جل شأنه بالدعاء، ويطلبوا منه التوفيق، ويتركوا ما يتعلقون به من التطير والتشاؤم، الذي يتنافى مع توجيهات الإسلام وتعاليمه السمحة.. وكذلك كانت السنة النبوية الكريمة توجههم إلى ترك هذا المنهج التشاؤمى، والاتجاه إلى الله عز وجل ودعائه، وطلب المنفعة منه سبحانه. فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشدهم إلى السلوك الحسن في هذا المجال: ففى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومنا أناس يتطيرون"، قال: ^(١) ذلك شيء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم — ^(٢). فالأعرابي يتأذى ويتشائم ويأخذ بالطيرة، وهذا شيء يكون فى نفسه. فما يصيبه من وهم وخوف وشرك هو الذي يصدده، لما يراه وما يسمعه من التطير.. وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ^(٣) لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر — زاد مسلم: ^(٤) ولا نوء ولا غول — ^(٥). فكل هذا الذي أشار إليه الحديث النبوى الشريف لا وجود له فى حياة المسلم الذي يتمكن منه الإسلام والإيمان. فلا يعتقد

للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

(١) هامش ص 320 من المرجع السابق - فتح المجيد.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم ص 319 من المرجع السابق.

في تأثير عدوى ولا طيرة، ولا يخاف من تأثير هامة⁽¹⁾، ولا يتأثر بالنوء في حياته، فالمطر من الغيبيات، ينزله الله تعالى حيث شاء وأنى شاء. ولا تسيطر عليه أوهام تعلق بآهل الجاهلية لا وجود لها في حياته كالغول ونحوه.. وبقدر ما كان أهل الجاهلية يتشاءمون ويتطهرون كانوا يتفاءلون. والفأل من التطير لكنه أفضل منه. ففي التطير بغض وتوقع للشر أما الفأل ففيه أيضا توقع للشر إلى جانب أن فيه توقعا للخير بكلمة طيبة.

ومن هنا أعجب الفأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، من هذا الجانب الخير. فللبخاري ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل** — قالوا: وما الفأل؟ قال: **الكلمة الطيبة** — ⁽²⁾.. فالفأل إذن تطير يحمل في معناه توقع الشر وتوقع الخير. فإذا توقع منه الشر فهو تطير محرم. وإذا توقع منه الخير فهو فأل برجاء الخير من الله العلى القدير. ومن هنا أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم به.. ولأبى داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: **دُكرت الطيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أحسنها الفأل، ولا ترُدُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك** — ⁽³⁾.

ومن الفأل الدال على التطير ما كانوا يقولونه في مناسبة الزواج. فقد كانوا يتبادلون التهنة في مناسبتهم بقولهم " بالرفاء والبنين ". ومعنى قولهم: نريد زواجا مصحوبا بالوفاق لا خلاف فيه، وبالبنين

(1) الهامة شيء كالبومة.

(2) ص323 من فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد.

(3) ص324 من فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد.

لا بنات فيه. وكانوا يقولون ذلك من باب الفأل. وقد علمنا جانبى الفأل. ولو قالوا ذلك على سبيل الدعاء والتوجه به لله عز وجل لكان مقبولا من وجهة النظر الإسلامية، لكنهم كانوا يقولونه على سبيل الفأل كما ذكرنا. فيعترضون على الخلاف بين الزوجين، كما يعترضون على إنجاب البنات. وهذا المسلك منهم يدخل في باب التطير، ويعتبر تمردا على قضاء الله وقدره الذي هو جزء لا يتجزأ من الإيمان.

فلما جاء الإسلام أبدلهم تهنئة خيرا من تهنئتهم. لا اعتراض فيها على قضاء الله وقدره. فالمسلم يتوقع الخلاف بينه وبين زوجته لكنه يأخذ بأسباب منعه، باتباع تعاليم الإسلام في مجال حقوق وواجبات الزوجين. والمسلم يرضى بقضاء الله وقدره عليه بإنجاب البنات لكنه لا يتبرأ من ذلك ولا يتبرم منه، ويطلب من الله الولد. فربه عز وجل يهب لمن يشاء الإناث، ويهب لمن يشاء الذكور، ويهب لمن يشاء الذكور والإناث معا، ويقضى على من يشاء بالعقم وعدم الإنجاب فلا يعترض على قضاء الله تعالى. فهو العليم بأحوال خلقه، وما يناسبهم. وهو القدير على تسيير أحوالهم بما فيه صلاحهم حسب مشيئته سبحانه وتعالى.

ومن النهج الإسلامى الجديد في تهنئة العروسين والدعاء لهما، عن الحسن رضى الله عنه عن رجل من بنى تميم قال: كنا نقول في الجاهلية: " بالرفاء والبنين، فلما جاء الإسلام علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم قال: **قُولُوا بَارَكَ اللَّهُ لَكُمْ، وَبَارَكَ فِيكُمْ، وَبَارَكَ عَلَيْكُمْ** — (1). فالبركة من الله عز وجل للعروسين وفيهما وعليهما وكذلك على

(1) رواه بقى بن مخلد من طريق غالب عن الحسن عن رجل من بنى تميم ص165 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

أسرتهما وفيهما وعليهما.. وعن أنس رضى الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة قال: **ما هذا؟** — قال: **إنى تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب.** قال: **بارك الله لك، أوم ولو بشاة** — (1) فقد دعا له ولزوجته رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة وأمره أن يولم ولو بشاة حتى تتم البركة وتعم أسرتهما وأقاربهما وأصدقائهما وجيرانهما. وعن أبي هريرة رضى الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفا الإنسان إذا تزوج قال: **بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما على خير** — (2) أى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزوجته بالبركة واللقاء معها على خير وبلا شر أو خلاف.. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: " تزوجنى النبى صلى الله عليه وسلم، فأتتني أمى، فأدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر " (3) الرواية. ويفهم من الرواية أن نساء الأنصار اللاتي حضرن عرس السيدة عائشة رضى الله عنها - باركن لها الزواج وتمنين لها رضى الله عنها أن يكون زواجا على الخير والبركة والحوظ السعيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد في حديث حسن البصرى أن عقیل بن أبى طالب رضى الله عنه تزوج امرأة من بنى جشم، فدخل عليه القوم فقالوا: " بالرفاء والبنين ". فقال: " لا تفعلوا ذلك " قالوا: فما نقول يا أبا زيد؟ قال: "

(1) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه ص164 من كتاب منهج السنة في الزواج.

(2) أخرجه أحمد والدارمى والترمذى وأبوداود وابن ماجه والحاكم وابن حبان والبيهقى عن أبى هريرة ص من كتاب منهج السنة في الزواج 165 - رفا: هنا.

(3) ص167 من كتاب منهج السنة في الزواج للدكتور محمد الأحمدي أبو النور. - على خير طائر: أى على خير حظ.

قولوا بارك الله لكم وبارك عليكم، إنا كذلك نؤمر " (1) وهكذا يوجه عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه من هنا من المسلمين بتهنئة أهل الجاهلية إلى التهنئة الشرعية الإسلامية لكى يهنئوه بها، ويحذرهم من تهنئة أهل الجاهلية التي تُهى عنها المسلمون. ويلفت نظرهم؟ إلى أن المسلمين أمروا أن يتبعوا النهج الإسلامى في التهنئة بالزواج وهو الدعاء بالخير والبركة للعروسين وأن يجمع الله بينهما على خير..

ومما لا شك فيه أن تهنئة العروسين في مناسبة زواجهما بتهنئة الإسلام وهى الدعاء بالبركة لهما وعليهما، وأن يجمع الله بينهما على خير - تدخل البهجة والسرور والسعادة على العروسين وعلى بيت الزوجية الجديد. ومن ناحية أخرى فهى شهادة على الزواج من كل مهنى ومهنة. وكل هذا من مقاصد الشريعة الإسلامية السمحاء، يعود على الأسر الناشئة وعلى المجتمع الإسلامى كله بالخير والبركة والسعادة...

ثالثا: تزيين العروس ومرافقتها إلى بيت الزوجية وإيناسها (2)؛

ومن الركائز الهامة التي تُدخل البهجة والاطمئنان والسعادة على بيت الزوجية الوليد وعلى ركنيه الأساسيين - الزوج والزوجة - وأسرتهما، تزيين العروس ومرافقتها إلى بيت الزوجية وإيناسها. وفيهما أيضا شهادة أوسع من الشهادة المطلوبة شرعا في الزواج. ونتناولها بشيء من التفصيل.

1- تزيين العروس:

(1) رواه أحمد في المسند ص179 - المعارف.

(2) هذا العنوان مقتبس من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور الأحمدي أبو النور.

ومما يدخل البهجة والاطمئنان والسعادة على العروسين وأسرتهما، تزيين العروس وتجميلها في بيتها قبل أن تذهب إلى بيت زوجها. ويتضمن ذلك غسل شعرها وجسدها. وتنقية وتنظيف مواقع تجمع العرق من جسدها، وإزالة الشعر الزائد تحت الإبط وفيما بين الأرجل وقص الأظافر، ونحو ذلك مما يجمل المرأة. فتزداد جمالا في عين زوجها، وأعين الناظرين إليها من أهلها وأهل زوجها. وللعروس أن تستعين في تحقيق هذه الأمور بمن لها خبرة من النساء فيها.. ومن الطبيعي أن تكون المرأة أعرف من غيرها بهذه الأمور اللازمة. ونعتقد أن النساء ذوات الخبرة في هذا المجال تستطيعن تحقيق كل هذه الأمور الجمالية السابقة. وقد لا تحتجن إلى قص الزائد من شعر الرأس فتلففه وتصنعن منه شكلا جميلا دون قص أو صبغ أو كي أو نحو ذلك. وسوف نذكر إنشاء الله نموذجا اسلاميا لإتمام هذه الامور الجمالية بعد قليل..

أما الذهاب إلى ما يعرف الآن باسم الكوافير - فإنه يحمل من المخاطر والمخالفات الشرعية ما يجعل العروس في غنى عن الذهاب إليه. وخصوصا إذا كان العاملون فيه من الرجال وليسوا من النساء.. والعروس المؤمنة تدفع عن نفسها كثيرا من المخالفات التي تقع فيها الأخريات من بنات جنسها. ويجب أن يضع العروسان نصب أعينهما دائما - ما تفعله بعض النساء غير الملتزمات بتعاليم الشريعة الإسلامية. ولتحذر كل عروس مسلمة أن تقلد هؤلاء النسوة في شئ مما يفعله من أمور خارجة عن الإسلام وتعاليمه السمحة النافعة. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أفعال تقع من بعض النساء، كانت تفعلها نساء الجاهلية، وعندما جاء الإسلام أبطلها ومنعها؛ لما فيها من تجاوز هؤلاء النسوة الحد في الحفاظ على

كرامة المرأة وعرضها وشرفها ويفعل هذه الأمور الآن كثير من المترددات على الكوافير سواء في الأفراح أو في الحياة اليومية العامة.

فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نتف الحواجب وشعر الوجه ووصل الشعر. وفي وصل الشعر يقول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم: **لعن الله الواصلة والمستوصلة** — (1) فالواصلة هي التي ترغب في توصيل شعرها والإضافة إليه. والمستوصلة هي التي تفعل لها ذلك. فكل من الواصلة وهي من ترغب في زيادة شعرها بباروكة أو نحوها من وسائل الوصل والمستوصلة التي تعينها على فعل هذا الأمر، ملعونة من الله عز وجل ومن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين كما أن نتف شعر الوجه قد يزيده كثافة إذا أزيل بطريقة خاطئة. وفي صنع الوشم ونتف الحاجب يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله** — (2) فهؤلاء النسوة يحاولن تغيير الخلقة التي خلقهن الله تعالى عليها. فتصنع إحداهن الوشم أو تنتف حاجبها فتجعله رفيعا أو توسع بين أسنانها اعتقادا منها بأن ذلك يضيف عليها لونا من الجمال. وتعجز هذه المرأة وأمثالها عن إدراك قيمة الجمال الرباني الذي خلق

(1) رواه ابن ماجه ص 80 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوي.

(2) رواه أبو داود في الصفحة ذاتها من المصدر السابق: الواشمة هي التي تريد أن تصنع الوشم بغرز إبرة أو مسلة في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو نحو ذلك حتى يسيل منه الدم ثم تحشوه بالكحل أو النورة أى الحناء فيكون كالنقش في خدها أو معصمها أو كفها أو شفتها معتقدة أنه نوع من الجمال. والنامصة هي التي تبحث عن متمصصة تنتف لها حاجبها فترفعه. والمتفلجة هي التي تفلج أى تباعد ما بين أسنانها بمبرد ونحوه لتحديث فواصل بينها معتقدة أنه نوع من الجمال.

الله عليه النساء، فتحاول تغيير خلقتها إلى ما هو أقبح مما خلقها الله عليه. لذلك لعنها الله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم وأوضح لجنس البنات أن هذه ملعونة من الله ورسوله والمؤمنين حتى لا تحذو غيرها من النسوة حذوها. وكل هذه البدع التي أشرنا إليها تتم غالبا بفعل الكوافير حتى لو كان العامل فيه امرأة، أو بفعل بعض النسوة الجاهلات بالتوجيهات الإسلامية للمرأة في هذا الشأن..

وهناك أيضا أمور منعتها الشريعة الإسلامية وحذرت المرأة من فعلها. كأن تخرج إلى الشارع واضعة المساحيق على خدها وعينها ورمشها وشفتها، فتبدو كأنها عروسة المولد. فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفعل ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: **لعن الله القاشرة والمقشورة** — (1).. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: **مثل الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها** — (2)..

وبعد أن تأخذ العروس قسطا وافرا من النظافة بالطريقة التي أشرنا إليها في بداية الحديث - تلبس ملابسها الجديدة المخصصة لهذه المناسبة حسب العادات والتقاليد الشرعية المتبعة في الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم الذي تنتمي إليه.. ونتيجة للأمية الدينية في هذا الشأن - تلبس بعض البنات والنساء في مناسبة عرسهن ملابس خارجة عن الحدود الشرعية الإسلامية؛ لتبين أجزاء من جسدها.

(1) رواه الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها ص133 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى. والقاشرة هى التي تضع على وجهها أو وجه غيرها المساحيق ليصفو لونها كما تعتقد. والمقشورة هى التي يفعل لها ذلك. فكأنها تقشر وجهها وتغير جلدها.

(2) أخرجه الترمذى عن ميمونة بنت سعد ص133، ص134 من المرجع السابق. الرافلة: المبالغة.

كأن تلبس ملابس شفافة أو ضيقة أكثر من اللازم لتبين مفاتن جسدها، لكل من ينظر إليها. أو تلبس ملابس فضفاضة تظهر أجزاء من جسمها أو ملابس قصيرة تبين بعض عورتها.. ويتفنن صناع ملابس النساء الآن فيربحون في دنياهم ويخسرون في أخراهم. وقد أشار إلى هؤلاء النسوة النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر أصحابه المؤمنين من بعدهم أن هذا الصنف من النساء لم يظهر بعد في حياته صلى الله عليه وسلم لكنه سيظهر في الأزمنة اللاحقة. وهاهو ذا قد ظهر ونراه كل يوم في الشوارع والطرق. يقول النبي صلى الله عليه وسلم في شأن هؤلاء النسوة: **نساء كاسيات عاريات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**—⁽¹⁾. وفي رواية أخرى يحدد الرسول صلى الله عليه وسلم مدة هذه المسيرة فيقول صلى الله عليه وسلم: **وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة**—⁽²⁾..

وهكذا يشير النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الصنف من النساء الذي تظهر فيه إحداهن كأنها تلبس ملابس وهي في الحقيقة عارية تظهر أجزاء من عورتها لمن يريد أن ينظر ويأثم معها. فهي شريكة للناظر في الإثم. لأن النظر عادة يؤدي إلى أفعال شيطانية يفعلها الناظر المسرف على نفسه والذي لا يأخذ بتعاليم الإسلام في غض البصر. فهي في الحقيقة تجذب إليها من في قلبه مرض

(1) رواه أحمد عن أبي هريرة ص90 من مختار الأحاديث. مائلات: عن الطاعة. مميلات: للقلوب. رؤوسهن كأسنمة البخت: مغطاة بالخرق تشبه أسنمة الإبل. وأسنمة جمع سنام وهو الجزء المرتفع من ظهر الناقة.

(2) ص271 من شرح الزرقاني على موطأ مالك الجزء الرابع.

وتجعله يتطلع لفعل الفاحشة معها إذا هُيئت له الظروف المناسبة لذلك. فليتخذ العروسان مسلكا نافعا لهما ولكل عروسين. وليقتد كل منهما بما كان يفعله سلفنا الصالح رضى الله عنهم أجمعين. وليستعن العروسان بأهل الخبرة من النساء المؤمنات الصالحات. فأهل الخبرة منهن أفضل ألف مرة من الذهاب للكوافير، بكل ما فيه من محظورات ومساوئ.

ولنا في أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها مثالا أعلى يصلح تطبيقه في كل زمان ومكان في بيت العروس. بعيدا عن البدع المنتشرة عن طريق الكوافير الذي هو أصلا فكرة أجنبية دخلت بيوت المسلمين في غفلة من أهلها عن طريق التقليد الأعمى للغرب وللأجانب.. وتروى لنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كيف استعانت أمها - أم رومان - بذوات الخبرة من النساء في مجال تزيين العروس. فجمعتهن في بيتها وأسلمت إليهن عائشة رضى الله عنها فأصلحن من شأنها وأعددنّها لاستقبال زوجها في بيت الزوجية، بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها في هذا الشأن: " تزوجني النبي صلى الله عليه وسلم، وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمرق شعري، فوفى جميمة، فأنتنتى أُمى، أم رومان، وإنى لفى أرجوحة، ومعى صواحب لى، فصرخت بى فأثيتها لا أدرى ماتريد منى؛ فأخذت بيدي حتى أوقفتنى على باب الدار، وإنى لأنهج حتى سكن بعض نفسى، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهى ورأسى، ثم أدخلتني الدار فإذا بنسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأنى، فلم يرعنى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى،

فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين " (1).

ويدل هذا الحديث الكريم لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها على مدى حرص الصحابة وأمهات المؤمنين واهتمامهن بالعروس وإعدادها إعدادا تاما لزوجها وبيتها الجديد.. ولعل القارئ الكريم يلاحظ معنى ما يجمعه تعبير السيدة عائشة رضى الله عنها من العناصر الجمالية التي تحدثنا عنها في البداية مما هو مطلوب لتزيين العروس حيث تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: " فأصلحن من شأنى ". وهو تعبير يشمل كل ما يفعله النساء الصالحات لإصلاح شأن العروس قبل أن تزف إلى زوجها: من غسل وتنظيف وإزالة للشعر الزائد في أماكن تجمعه وقص الأظافر ونحو ذلك مما يلزم العروس في هذا اليوم قبل زفافها إلى زوجها بما في ذلك لبس الملابس المناسبة. وأن ذلك يحدث في بيت العروس فلا تخرج إلى كوافير أو غيره. وإنما يأتى إليها في بيتها ذوات الخبرة من النساء في هذا المجال ويعملن ما يلزمها مما لا يستطيع الكوافير أن يعملها لها خصوصا إذا كان رجلا..

وتزيين العروس على هذا النحو، من الاستعانة بذوات الخبرة من النساء في مجال تزيين العروس - يحى الأمل عند الزوجة الصالحة في بداية مرحلة الزواج، في حياة زوجية مليئة بالفرحة والسعادة والسرور، بعيدة عن بدع الأزمنة الحديثة التي ابتدعت ما يسمى بالكوافير الذي يهرع إليه كثير من الجهلة والأميين في أمور الدين

(1) ص 227 من الجزء الثانى من صحيح البخارى - عناية الدكتور محمد تامر. كتاب مناقب الأنصار - باب تزويج النبى ﷺ تزوجنى: أى عقد على - وعكت: أصابتني الحمى. تمرق: انتفت - وقى: كثر - جميمة موضع الشعر مما يلى الأذن أى كثر حتى وصل إلى الأذن أنهج: أتففس عاليا. على خير طائر: على خير حظ. لم يرعنى: لم يفاجئنى.

عامة وأمور إعداد العروس لزوجها وتزيينها له بصفة خاصة. ويعتبرون ذلك تقدماً وتطوراً للأحسن. وهم لا يدرون أن الأحسن هو ما كانت تفعله أمهات المؤمنين لِيُزَيَّنَ بنات المسلمين قبل زفافهن إلى بيوت أزواجهن لبدء مرحلة جديدة من السعادة الزوجية المنشودة. وفي ظل هذا الإعلان الزائد حتى على ما يطلبه الشارع من إشهاد على الزواج في مرحلة التزيين ومن قبلها عقد القران والوليمة. كل هذا إشهاد على الزواج على نحو أوسع مما هو مطلوب شرعاً. ومن شأن كل ذلك أن يضيف على هذا الزواج سعادة ما بعدها سعادة...

2 - مرافقة العروس إلى بيت الزوجية وإيناسها (□)؛

وانتقال العروس من بيتها إلى بيت زوجها أمر صعب وخصوصاً في الأيام الأولى لبدء الحياة الزوجية الجديدة. وعلى الأخص في الليلة الأولى من وصولها إلى بيتها الجديد. فليس من السهل على العروس أن تترك بيت أبيها وأمها، الذي نشأت فيه، وترتبت في أحضانه سنوات طويلة، في أمن واستقرار؛ تتركه عشية لتعيش في جنات بيت جديد في وجوهه، وفي عاداته وفي معتقداته، وفي سلوكياته. إنه أمر صعب على نفس كل عروس.. وحتى تطمئن نفسها وتستقر، وتأنس كما كانت تأنس في بيت أبيها، وترضى بالعيش الجديد في عش الزوجية - أوصى الإسلام بأن يصاحبها أهلها وصاحباتها المقربات إلى نفسها إلى بيت الزوجية، في الليلة الأولى لعرسها. وأن يفعل أهلها وصاحباتها المقربات إليها - كل ما من شأنه أن يزيل عنها هذا القدر الهائل من الاستحياء والاضطراب والقلق الذي يصاحبها ويصاحب مثيلاتها في الانتقال إلى بيت

(1) هذا العنوان كسابقه مقتبس من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور الأحمدي أبو النور.

الزوجية التي لم تألفه بعد.

وقد حرص على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين وتابعيهم بإحسان. ويجب أن يستمر هذا الحرص من التابعين وتابعيهم على مرافقة العروس إلى بيت زوجها لإيناسها، حتى يزول عنها الشعور بالغربة، وتتشجع على التعود على العيش في بيتها الجديد. وأول من طبق ومارس هذا الأمر الواجب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوجيه من ربه عز وجل. فقد أنزل سبحانه وتعالى من آياته الكريمة ما يثبت به بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حتى تقرأ أعينهن بعيشهن الجديد في رحاب بيت النبوة، ويرضين جميعاً بما آتاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم من متاع وحسن معاملة وتوجيه إلى الأفضل وحتى يبتعد عنهن الحزن والقلق. فتفسير أمورهن على ما يرام. وفي ذلك يقول ربنا الكريم سبحانه: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ شَأْنِ مَنْهِنَّ وَتُؤَيَّزُ إِلَيْكَ مِنْ شَأْنِ مَنْ أَنْعَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

فمرافقة العروس إذن إلى بيت زوجها فيه كثير من الفوائد: أولها أن تقرأ عين العروس وتطمئن إلى عشاها الجديد، وأن يبتعد عنها الخوف والقلق من هذه النقلة الشرعية التي ارتضاها ربنا عز وجل والمؤمنون، والتي ترضى فيها العروس، وتثق في كل ما قدمه لها زوجها في عشاها الجديد، من مال وأمتعة تلزم هذا العش المبارك، وسهولة في التعامل مع أفراد بيت زوجها، واحترام متبادل بينها وبين زوجها، ومن يهمله أمرهما في هذا البيت الجديد، ومن أمن وأمان في رحابه، وبهذه المرافقة تتأكد الألفة والأنس بالزوج وأهله،

وبين الزوجية في ليلة العرس، فيتبادل أهلها وأهل الزوج التهاني والألفة ويزول القلق والاضطراب شيئاً فشيئاً، فيبتعدان عن كل ما يعكر الصفو، فتسمع زوجها وتطيعه، ويغادر أهلها بين زوجها قبل أن تسأل عن حقوقها، وبذلك يتحقق الغرض من الزواج الشرعى وهو تمتع الزوجين بالسكن والمودة والرحمة، وتسير الأمور على ما يرام، كما في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الروم: ٢١]..

أما في رحاب السنة النبوية المباركة فنجد أكثر من دليل على وجوب مرافقة أهل العروس لها عند خروجها إلى بيت الزوجية وتطبيب نفسها ونفس زوجها، وخلق جسور من التفاهم والود والحب والتقدير بينهما في الليلة الأولى لعرسهما، مما يؤدي إلى تقبل كل من العروسين للآخر، وبدء حياة زوجية جديدة مليئة بالفرحة والسعادة. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة.

وقد سجل التاريخ الإسلامى مواقف هامة في ليلة بنائه صلى الله عليه وسلم بأمر المؤمنين عائشة رضى الله عنها، تشهد بالود والتآلف وتطبيع الزوجة على طاعة زوجها وإرضائه بكافة الوسائل الممكنة.. وقد شهدت أسماء بنت يزيد بن السكن - مرافقة وإيناس أم المؤمنين عائشة ليلة بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم بها.. وتقص أسماء رضى الله عنها ما حدث من إيناس الزوجة وتوجيهها في هذه الليلة المباركة فتقول رضى الله عنها: " إني قُيِّئْتُ عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جنَّته، فدعوته لجلوتها. فجاء فجلس إلى جنبها، فَأَتَى بِعُسٍّ لَبَنٍ، فشرب، ثم ناولها النبی صلى الله عليه وسلم، فخفضت رأسها واستحييت، قالت أسماء: فانتهرتها، وقلت لها: خذى

من يد النبي صلى الله عليه وسلم. قالت: فأخذتُ فشربت شيئاً، ثم قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: **أَعْطَى تَرْبِكَ—**. قالت أسماء: فقلت يا رسول الله.. بل خذه واشرب منه ثم ناولنيهِ من يدك، فأخذه، فشرب منه، ثم ناولنيهِ، قالت: فجلست ثم وضعته على ركبتي ثم طففت أديره وأتبعه بشفتي لأصيب منه شرب النبي صلى الله عليه وسلم. ثم قال لنسوة عندي: **نَاولنِهِنَّ—** فقلن: لا نشتهيهِ. فقال صلى الله عليه وسلم: **لَا تَجْمَعْنَ جَوْعًا وَكَذِبًا—** (1) ..

وقد وضح لنا من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها - أن مرافقة العروس ليلة العرس إلى بيت زوجها وإيناسها ومشاركة الحاضرين من أقارب العروسين وأهلها في ذلك كله - له تأثير كبير في تطويع العروس لزوجها ولبيتها الجديد، وفي تذليل العقبات التي تقف أمام هذا الإيناس في عاجله وآجله؛ كحياء العروس من زوجها في ليلة عرسها، وتنقية الجو المحيط بها من الحاسدات اللاتي قد تحضرن خصيصاً لتخويف العروس من بيتها الجديد، وإرشاد العروس ومساعدتها على أن تطيع زوجها، وغير ذلك من الأمور اللازمة في هذا المجال، للحفاظ على بيت الزوجية، وخصوصاً في بداية الحياة الزوجية الجديدة. وقد اشتمل حديث أسماء بنت يزيد على إشارات جديرة بالتسجيل والاعتبار في مرافقة العروس وإيناسها ليلة زفافها.

ومن ذلك: أن أسماء رضى الله عنها انتهرت أم المؤمنين عائشة

(1) أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا والمنذرى والطبرانى من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن ص167، ص168 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

قينت: زينت ومشطت - لجلوتها: أى للنظر إليها مجلوة ومكشوفة. عُسّ لبن: قدح كبير مملوء باللبن - فانتهرتها: عاتبتها بشدة. تترك: صديقتك. طففت: أخذت.

عندما استحييت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وترددت في أخذ عس اللبن من يده الشريفة وهو زوجها لِثُعْلَمَ عائشة رضى الله عنها أن الحياء من الزوج ينبغى ألا يصل إلى هذه الدرجة.. ومن ذلك أن أسماء رضى الله عنها توجه أم المؤمنين عائشة في بداية حياتها الزوجية إلى وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كرسول وكزوج.. وثمة توجيه آخر من أسماء لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهما ولكل عروس وزوجة. فقد طلبت أسماء من رسول الله صلى الله عليه وسلم - على سبيل البركة والشرف - أن يأخذ العس ويشرب منه ثم يناولها إياه. وذلك لتحظى أولاً بشرف الشرب من موضع فم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولتضرب مثلاً أعلى لكل عروس وزوجة. فلا غضاضة أبداً من أن تشرب الزوجة من موضع فم زوجها على إناء الشرب. فهذا أمر يعبر عن تقدير ومحبة الزوجة لزوجها، وعن ميلها النفسى إليه واعتزازها به، وولائها ورضاها عنه.. ولا مانع أبداً من أن يشرب الزوج من موضع فم عروسه أو زوجته على إناء الشرب لنفس الأسباب التي ذكرناها، وكذلك الأمر في الأكل.

وبهذا نجد في مرافقة أهل العروس لها في ليلة عرسها إلى بيت الزوجية وإيناس الحاضرين لها هناك، أهمية كبرى. حتى تتعود على الحياة مع الزوج وفي البيت الجديد. ونجد في ذلك كله سعادة للعروس ولزوجها ولعش الزوجية الجديد. حيث يأنس الزوج بعروسه وتأنس به. وتحس معه بالأمن والاستقرار والسعادة..

على أن الملاحظ والشائع بين المسلمين والمسلمات في المجتمع الإسلامى أن يحرص كثير من الآباء والأمهات على توجيه العروس قبل أن تخرج إلى بيت زوجها، ونصحها بما يلزمها من أمور

معنوية، تزيل عنها كل ما يعتريها من استحياء أو خوف أو تردد، في طاعة زوجها وإرضائه بكافة الطرق والوسائل الممكنة شرعا في التعامل معه. فالأم العاقلة المؤمنة تنصح ابنتها العروس قبل أن تخرج إلى بيت زوجها بكل ما يلزمها من نصائح تقربها من زوجها وتزيد من إيناسها به وببيتها الجديد. وذلك لتكون أكثر تمسكا وسعادة بزوجها وببيتها الجديد.. ومن هذا القبيل وصية أسماء بنت خزيمة امرأة عوف بن مسلم الشيباني لابنتها قبل زفافها. إذ قالت: " أى بنية إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، إلى أليف لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فكونى له أرضا يكن لك سماء، وكونى له مهادا يكن لك عمادا، وكونى له أمة يكن لك عبدا، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا: أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة وحسن الطاعة.. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.. وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة.. وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، فملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير.. وأما التاسعة والعاشر: فلا تعصين له أمرا، ولا تفشين له سرا، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفضيت سره لم تأمنى غدره.. ثم إياك والفرح بين يديه إن كان ترحا، أو الترح بين يديه إن كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير والأخرى من التكدير.. وكونى أشد ما تكونين له إعظاما يكن أشد ما يكون لك إكراما، وأشد ما تكونين له موافقة يكون أطول ما يكون لك مرافقة.. واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت،

والله يُخَيِّرُ لك " (1) ..

وبهذه الكلمات القليلة في عددها، الشاملة في معانيها، نصحت أسماء رضى الله عنها ابنتها ونبهتها إلى كل ما تحتاجه في حياتها الزوجية، مما يحفظ عليها زوجها وبيتها الجديد. حتى يحالفها التوفيق والسداد دائما في عش الزوجية، فيبادلها زوجها إحسانا بإحسان، وتقديرا بتقدير، واهتماما باهتمام، ووفاء بوفاء وحبًا بحب...

وكذلك الأب العاقل المؤمن، ينصح ابنته قبل أن تفارقه إلى بيت زوجها. ويدعو لها بالتوفيق والسداد في حياتها مع زوجها، فيسعدان معا في عشهما الهادئ الجديد.. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لابنته فاطمة الزهراء، لما زفت إلى عليّ بن أبي طالب رضى الله عنهما ليلة البناء بقوله صلى الله عليه وسلم: **اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما** — (2) .. وها هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، يوصي ابنته عند زواجها فيقول: " إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق. وإياك وكثرة العتب، فإنه يورث البغضاء. وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء " (3) .. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: " كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زفوا امرأة إلى زوجها، يأمرونها بخدمة الزوج ورعاية حقه " (4) ...

(1) من كتاب الإسلام والحياة الزوجية للأستاذ عثمان السيد الشرقاوى - الطبعة الثانية 1986م، التفقد: أى المراعاة - الاحتراس بماله: أى حراسته - الإرعاء: الرعاية. حشمة: القريبين منه المقربين إليه. أوغرت صدره: أثرت فيه تأثيرا سيئا. يخير لك: يختار لك الأصلح ويوفقك إلى اختياره. الترح: الغضب.

(2) أخرجه ابن سعد عن بريدة ص 103 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى.

(3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

(4) ص 104 من المصدر نفسه.

وهكذا نرى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين الأوائل، لا ييخلون بنصح بناتهم عند خروجهن إلى بيوت أزواجهن ليلة العرس، بما يجعلهن أقرب إلى التوفيق والسعادة في حياتهن الجديدة مع أزواجهن.. وهكذا يجب أن يحذو المسلمون والمسلمات في مشارق الأرض الإسلامية ومغاربها، حذو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته، والمسلمين والمسلمات الأوائل في نصح بناتهم في ليلة عرسهن، والدعاء لهن بالتوفيق والفلاح، حتى يكون طريق العروس وزوجها إلى السعادة والاستقرار ممهدا أمامها وأمام زوجها. كله أمان واستقرار ورضا ومحبة...

* * *

الباب الرابع

الحياة الزوجية الإسلامية
ومتطلباتها

الباب الرابع: الحياة الزوجية الإسلامية ومتطلباتها

إن البداية الأولى للأسرة تتكون من زوج وزوجة، جمعهما ميثاق غليظ، أوجب الإسلام الوفاء به. وفي ظله يَعْرِفُ كل منهما ما له وما عليه مسترشدا بتعاليم الشريعة الإسلامية بشقيها: القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة. فمن خلال هذه التعاليم يتعامل كل من الزوج والزوجة، ملتزما بما له من حقوق، وما عليه من واجبات. فيصلا إلى معا إلى الاستقرار والسكن والمودة والرحمة، وكلها توصل إلى السعادة المنشودة.

* * *

الفصل الأول:

دور الزوج في توفير السعادة لزوجته في بيت الزوجية

يتضح دور الزوج المسلم في تحقيق كل ما من شأنه إسعاد زوجته في بيت الزوجية، في حدود ما نصت عليه شريعة الإسلام. وفي مقدمة هذا الدور القيام بالإنفاق على بيت الزوجية، وتوفير احتياجاته والإنفاق على الزوجة، وتحقيق كل ما يجعلها تؤدي دورها بنجاح كزوجة مسلمة وراعية لبيت الزوجية..

في القرآن الكريم:

وفي القرآن الكريم وبيانه لدور الزوج في إسعاد زوجته وبيتها، يقول ربنا العظيم سبحانه: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ} [النساء: ٣٤] الآية. قال أبو السعود: " والتفضيل للرجال لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة. ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك " (1) من الوظائف الهامة والحيوية في الحياة الدنيا.. وقال ابن عباس وغير واحد: {فَأَلْصَقَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} يعني مطيعات لأزواجهن.. وقال السُّدِّي وغيره: {حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ} أى تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله (2).. فالزوجة مطالبة بطاعة زوجها فيما أمر والانتهاز عما نهى عنه بحكم قوامته وإمارته عليها..

(1) إرشاد العقل السليم 399/1. وانظر ص 95 من القسم الثاني من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.

(2) ص 466 من الجزء الأول - من تفسير ابن كثير للقرآن العظيم.

ومن ناحية أخرى يتأكد هذا الدور للرجل في إسعاد زوجته وبيت الزوجية في قوله تعالى: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [طه: ١١٧] وبيان ذلك أن أول أسرة في الوجود الإنساني تكونت من الزوجين آدم وحواء عليهما السلام. وقد سكنت الجنة. ووفر الله عز وجل لهما فيها كل وسائل العيش الرغد والراحة والسعادة. لكنه سبحانه حذرهما من طاعة عدوهما الشيطان الرجيم، الذي طرد من الجنة لرفضه السجود تكريماً لآدم، ولا شك أنه سيحاول الوقعة بهما ليهبطا معه إلى الأرض، وإذا حدث ذلك فسيشقى آدم وحده في سبيل تهيئة وسائل العيش والسعادة له ولزوجته حواء. فهو المسئول وحده عن توفير ما يلزمه ويلزم زوجته من طعام وشراب وملبس ومسكن. وإذن فسيشقى آدم كما سيشقى كل رجل في الحصول على مقومات الحياة السعيدة على وجه الأرض. فالرجل إذن راع وهو مسئول عن رعيته..

والدين الإسلامي يحث الرجل على العمل والكد في سبيل تحقيق الرزق في الأرض ومن الأرض. يقول أصدق القائلين سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥]. فقد ذلل الله سبحانه الأرض ليمشى عليها الرجال ويجوبون جنباتها وأقاليمها وجبالها بحثاً عن الرزق الحلال فسعى الزوج في الأخذ بأسباب الرزق له ولزوجته لا ينافي التوكل على الله بل يلزمه. ويقول ربنا الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُم رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: ١٧]. فقد أمر المؤمنون بأن يطلبوا الرزق من الله عز وجل، لأن غيره لا يملك شيئاً، وأن يشكروا الله تعالى على تفضله عليهم بالنعمة والأرزاق التي يأخذون بأسبابها ويتوكلون

فيها على الخالق الرازق سبحانه... والملاحظ أن الخطاب في الآيتين السابقتين موجه إلى الرجال للبحث عن الرزق والأخذ بأسبابه. فالرجل هو الجدير بذلك لما سبق ذكره من أسباب..

في السنة النبوية

فإذا انتقلنا إلى مجال السنة النبوية الكريمة - وجدنا الكثير من الأدلة التي توجب الكد والشقاء والتنقل في جنبات الأرض وفجاجها، على الرجل، من أجل الحصول على العيش الكريم والرزق الحلال بالأخذ بالأسباب والتوكل على الله.. فقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **لَوْ أَنْكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَوْرَحُ بَطَانًا** — (1).. فالطير تغدو وتروح لطلب الرزق مع توكلها على خالقها ورازقها الكريم فهي تغدو جائعة وتروح شبعانة البطون، وكذلك الرجال.. ومن هذا القبيل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ. وَإِنْ نَبَى اللَّهُ دَاوُدَ كَانِ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ** — (2). فهذا نبي الله داود عليه السلام الذي سخر له ربه الجبال والطير وألان له الحديد وشد ملكه - علمه ربه جل وعلا صنع الدروع ليتاجر فيها ويأكل من عمل يده. وعنه يقول سبحانه: **{وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} (٨٠)** [الأنبياء: ٧٩ - ٨٠]. ويقول عز وجل: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّْا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوِيٍّ مَعَهُ، وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ} (١٠)** **أَنْ أَعْمَلَ سَبْعَ نَجَاتٍ وَقَدَّرَ فِي**

(1) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن هبيرة ص 384 من الجزء الرابع من تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

(2) رواه البخارى عن المقدم ص 128 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمى..

السَّادِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ [سبأ: ١٠ - ١١].

ويقول المولى سبحانه: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ١٧ - ٢٠].
ورغم كل هذه النعم كان داود يأكل من عمل يده، شكرنا لنعم ربه التي أنعم بها سبحانه عليه...

وينبه رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعا إلى أن الجد والاجتهاد والهم في طلب المعيشة يكون سببا في مغفرة ذنوب لا يغفرها صوم ولا صلاة ولا حج ولا عمرة، فيقول صلى الله عليه وسلم: **إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة، ولا الصيام، ولا الحج، ولا العمرة، ولكن يكفرها الهموم في طلب المعيشة** — (1). وينبه صلى الله عليه وسلم كذلك إلى أن ما ينفقه الزوج على الأهل وبيت الزوجية أعظم أجرا مما ينفقه في سبيل الله، أو في فك رقبة، أو في التصديق على مسكين. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: **دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في فك رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك** — (2) ..

وينبغي ألا يتبرم المسلم أبدا ولا ييأس إذا ضاق رزقه. بل عليه أن يتنقل في جنبات الأرض ويحاول التقاط رزقه من هنا وهناك بالطريق الحلال. فإذا غير مكان إقامته من أجل البحث عن الرزق الحلال وظل رزقه قليلا - فلا ييأس من رحمة الله. فلعل الله سبحانه قد قدر له أن يكون من هذه الفئة المؤمنة الصادقة في إيمانها. يبذل الرجل منها جهده في الحصول على الرزق الحلال فيرزق قليلا

(1) رواه ابن عساکر ص 42 من المرجع السابق.

(2) رواه الديلمي عن أبي هريرة 188 من المصدر السابق.

فيرضى به، فيرضى الله عنه بالقليل من العمل. فيكون سعيدا برزقه القليل ويثاب على صبره ورضاه بقضاء الله وقدره، فيكتب عند الله ممن بات حاجا وأصبح غازيا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم في هؤلاء: ^١طوبى لمن بات حاجا وأصبح غازيا: رجل مستور ذو عيال، متعفف قانع باليسير من الدنيا، يدخل إليهم ضاحكا، ويخرج منهم ضاحكا، فالذى نفسى بيده، إنهم الحاجون الغازون في سبيل الله عز وجل — (1) ..

وفى تشجيع الزوج المؤمن وحته على الإنفاق على زوجته وبيته - يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: ^٢إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة — (2). فنفقة الزوج على زوجته وبيت الزوجية واجبة. ويجب أن تكون معتدلة لا ظلم فيها لأحد الطرفين. حيث يقول الله جل جلاله: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق: ٧] .. وإذا كان ذلك الإنفاق مطلوباً منه في حالة الطلاق - فهو أشد طلباً ووجوباً في حالة الاستقرار في الزواج. فالزوج المسلم من مهامه الأساسية تقديم كل خير وواجب لزوجته وبيت الزوجية التي يعيش معها فيه. وتشمل هذه النفقة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، وكل ما يلزم للحياة الزوجية الطبيعية اللائقة بهما معا. وكل ذلك بغير إسراف أو تقتير. يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: ^٣خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى. ما أكرم النساء إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم — (3).

(1) رواه الديلمي ص 93 من المرجع السابق.

(2) رواه مسلم والبخارى عن ابن مسعود. ص 152 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

(3) رواه ابن عساكر عن على ص 75 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ

وفى هذا الإطار الهام يذكر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بحقوق الزوجة على زوجها. إذ أن حصولها على هذه الحقوق الشرعية يجعلها تحس بالارتياح والسعادة والاستقرار، فتخلص لبيتها ولزوجها. وفى ذلك يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: **﴿حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يضرب الوجه، ولا يقبح، ولا يهجرها إلا في البيت﴾** (1). فالرسول صلى الله عليه وسلم يُذكر المسلمين الأزواج بطائفة من أهم حقوق الزوجة على زوجها، ومنها الإطعام والكسوة وحسن المعاملة لها حتى لو أخطأت أو نشزت. فله حينئذ أن يتبع معها السلوك الشرعى في معاملة الناشز. فلا يضرب وجهها ولا يقبحه إذا لم تُجد معها العظة. بل يهجرها في بيت الزوجية وخصوصا عند النوم، فلا ينام معها تحت غطاء واحد. وله أن يضربها إذا لم يُجد معها الهجر، ضربا غير مبرح ولا مؤذ، وسيأتى الحديث عن ذلك في حينه...

ومن حقوق الزوجة التي اهتم بها الإسلام - تعليم المرأة. فالواجب أن يعلمها الزوج، إذا لم يُعلمها أبواها، كل ما ينفعها في حياتها الزوجية، من الناحية الدينية والاجتماعية، والعلمية، والثقافية. حيث يقول الله تبارك وتعالى: **﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾** [التحريم: ٦]. وقد قال الضحاك في تفسير هذه الآية وكذلك مقاتل: " حق المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه " (2).. ويقول ربنا العظيم سبحانه مخاطبا أمهات المؤمنين زوجات رسول الله صلى الله

سيد أحمد الهاشمي.

(1) رواه الحاكم ص 67 من المرجع السابق.

(2) ص 377 من الجزء الرابع من تفسير القرآن العظيم لابن كثير - المكتبة القيمة.

عليه وسلم، وينسحب قوله تعالى على بقية نساء المسلمين: {وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْسَلْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} [الأحزاب: ٣٤]. ففي هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب دليل في غاية القوة على وجوب تعلم المرأة أحكام الكتاب والسنة وسائر العلوم الشرعية، وخصوصا ما يتصل منها بالجماع والطهارة والحيض والنفاس وحقوق الزوج، وغير ذلك من الأحكام والتعاليم اللازمة لنجاح الحياة الزوجية وسعادتها.. فالذين يعلمون البنين ويتركون البنات بغير تعليم، والذين يفرطون من الأزواج - بعد تفريط الآباء والأمهات - في تعليم زوجاتهم، مخطئون، ومسئولون أمام الله عز وجل، عن تفريطهم في أمانة تعليم المرأة.. " فالعلم الشرعي النافع يكسب البنت والمرأة، كما يكسب الرجل والإبن، أخلاقا كريمة، وآدبا رفيعة، يرتفع بها المتعلم والمتعلمة، درجات عالية من الكمال والشرف والسعادة. يقول ربنا الكريم سبحانه: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [الآية المجادلة: ١١].

والمرأة كالرجل أيضا في تعلم القراءة والكتابة، ومطالعة كتب الدين الإسلامي وكتب الأخلاق وقوانين الصحة وتدبير المنزل وتربية العيال ومبادئ الفنون والعلوم: من العقائد الصحيحة والتفاسير والسير وكتب الحديث والفقه " (١).. وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم - يسألون أم المؤمنين عائشة من وراء حجاب عما يشكل عليهم أمره من الأحاديث وتفسير آيات القرآن الكريم، وعن الأحكام، وأمور الحلال والحرام.. وكانت عائشة

(١) بتصرف من ص 28 من كتاب الاختلاط وما ينتج عنه من مساوئ الأخلاق - للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود - رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية - بدولة قطر.

رضى الله عنها تستدرك⁽¹⁾ على الصحابة كثيرا من القضايا وتخبرهم فيها بالأخبار الصحيحة شرعا.. وقد عدها العلماء من حفاظ الصحابة المكثرين من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانوا سبعة هم: ابن عباس، وابن عمر، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وعائشة، رضى الله عن الجميع. وكان المحدث لا يعتبر حافظا إلا إذا حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق الألف حديث " (2)...

وكذلك يعتبر التعليم الأكاديمي - وهو التدرج في سلم التعليم من المرحلة الابتدائية فالإعدادية فالثانوية فالجامعية فالدراسات العليا - يعتبر من حق المرأة كما هو من حق الرجل فهو يصلح النشء من الجنسين فيغذيهم بالأخلاق الحميدة والآداب الدينية والاجتماعية. وكذلك الإسلام بما يبيث من مبادئ وقيم وتعاليم نافعة - يعلم النشء ذكورا وإناثا الكثير من الفضائل: كالعفاف والستر والتواضع في المأكل والمشرب والملبس والمسكن. ويحذرهم من المغالاة في الكماليات والمهور، ومن الإسراف والتبذير. ويحثهم على الاقتصاد في النكاح وأموره كالنفقة وحسن التدبير والحرص على ود الأرحام والجيران وحسن معاشرة الزوج والإنسان بصفة عامة. وكلها أمور مطلوبة منهم قبل الزواج وبعده⁽³⁾..

لكن البنت المسلمة عليها أن تتمسك بالعلم النافع وهو الذي يؤدي إلى ما ذكرناه سابقا من فوائد لتعليم البنت. وعليها أيضا أن تترك العلم غير النافع كالرقص والغناء والتمثيل وغير ذلك مما لا ينفعها

(1) تستدرك: تحسم الأمر فيها.

(2) يتصرف من نفس الصفحة من المرجع السابق.

(3) يتصرف من ص 29 من كتاب الاختلاط وما ينتج عنه من مساوئ الأخلاق - للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود بدولة قطر.

قبل الزواج ولا بعده. ففيه مضیعة للوقت، وسیر فی طریق الشر، طریق الشیطان، وهو طریق غیر مأمون وربما تستحسنه البنت ضعیفة الإيمان، فیجعلها عرضة للافتتان والعصیان، وذلك عکس ما هو مطلوب من العلم والتعلم..

ومن حقوق الزوجة المسلمة على زوجها المسلم - أن یحسن عشرتها. وقد حث رسول الله صلى الله علیه وسلم الأزواج على أداء هذا الحق. وكتب الحديث والسیرة تذكر لنا كثيراً من الأمثلة الدالة على حسن عشرة رسول الله صلى الله علیه وسلم لزوجاته، أمهات المؤمنین. ومن ذلك ما ورد عن الأسود بن یزید قال: سألت عائشة رضی الله عنها: ما كان النبی صلى الله علیه وسلم یصنع فی البیت؟ قالت: " كان یكون فی مهنة أهله، فإذا سمع بالأذان خرج " (1). وكان صلى الله علیه وسلم یلاطف أهله ویلاطفونه ویداعبهم ویداعبونه " فإذا جاءت الصلاة انصرف عنا وكأنه لا یعرفنا ولا نعرفه " (2).. وقد روى عنه قوله صلى الله علیه وسلم: **إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِبْرَاهِيمَ أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَأَلْطَفَهُمْ بِأَهْلِهِ —** (3)..

ومن إحسان عشرة الزوج لزوجته أن ینزهها ولو مرة فی الأسبوع لتشعر بالسرور وتستریح من عناء العمل بالبیت. وأن یقدم إليها بعض الهدایا الرمزية فی المناسبات العديدة التي تمر بها. وأن یتعد عن أسباب الشقاق معها، والخطأ فی حقها، بقصد السيطرة لمجرد السيطرة وليس لسبب شرعی. وعليه أن یحترم شخصيتها،

(1) ص483 من کتاب منهج السنة فی الزواج - للدكتور محمد الأحمدی أبو النور، وقد رواه البخاری وأبو داود الطیالسی.

(2) من رواية أخرى عن عائشة رضی الله عنها.

(3) أخرجه الترمذی فی کتاب الإيمان وزيادته ونقصانه 9/5 ص465 من کتاب منهج السنة فی الزواج، للدكتور محمد الأحمدی أبو النور.

وأن يستمع إلى رأيها، وأن يستشيرها في إدارة شئون المنزل الخاصة به، وأن يأخذ برأيها إن كان صوابا وواقعا أكثر من غيره، وعليه أن يوزع اختصاصات بيت الزوجية بينه وبينها بالعدل وبحسب قدرة كل منهما وطاقته. وليعلم الزوج أن قوامته على زوجته حق له لا يتنافى مع كل هذه الحقوق التي ذكرناها للزوجة، والتي تحس فيها بأن زوجها يحافظ على آدميتها.

وليعلم كل من الزوج والزوجة المسلمين أن الزواج القائم على الاستبداد من جانب أحدهما يكثر فيه الشقاق والخلاف أما الزواج القائم على التعاون والشورى وتوزيع الاختصاصات توزيعا عادلا على الأساس الذي ذكرناه يقل فيه الشقاق والخلاف وبالتالي يقل فيه الشقاء وتحيط به السعادة من كل الجوانب⁽¹⁾. لأن ربنا عز وجل يقول: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: ٢٢٨].. وهذه الدرجة درجة تكليف لا تشریف⁽²⁾. وهو تكليف للزوج في مجال قوامته على الزوجة والإنفاق والإمرة عليها ووجوب الطاعة عليها له..

ومن إحسان عشرة الزوج لزوجته في الأمور الهامة، الأخذ برأيها الصحيح الذي يتمشى مع الشرع والعقل لإشعارها بأهميتها ودورها في حياة زوجها. ولقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا رائعا في هذا المجال. فقد استشار زوجته أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بعد صلح الحديبية. فقد ظن المسلمون بعد هذا الصلح أن شروطه فيها ظلم لهم. وعندما أراد المصطفى صلى الله عليه وسلم أن ينفذ أحد بنود هذا الصلح، وهو العودة دون عمرة في

(1) ص 457 بتصريف - من كتاب منهج السنة في الزواج.

(2) صفوة التفسير - الطبعة الأولى - القسم الأول ص 132.

هذا العام وقضائها في العام المقبل - أمر النبي صلى الله عليه وسلم من معه من المسلمين أن ينحروا ما ساقوا من الهدى، وأن يحلقوا، فلم يمتثل أحد منهم فدخل صلى الله عليه وسلم على أم سلمة رضي الله عنها يستشيرها في هذا الأمر الخطير. حيث لم يبادر المسلمون كعادتهم إلى طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت أم سلمة للرسول صلى الله عليه وسلم: "يا نبي الله.. أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا كلمة، حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك فيحلقك" فلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أشارت به عليه أم سلمة - ثاب المسلمون إلى بُدْنُهم، فنحروها، وانخرطوا في امتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعل بعضهم يحلق بعضا، بل كاد بعضهم يقتل بعضا ندماء، على ما فرط منهم، وكانت أم سلمة عاصما من فتنة " (1) ..

ومن إحسان العشرة أن يتعامل الزوج بحكمة مع زوجته إذا غارت عليه. وقد تغار الزوجة على زوجها ولكن الغيرة لها جانبان، يوضحهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الشريف: ٥ من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يكره. فأما ما يحب الله فالغيرة في الريبة، وأما ما يكره الله فالغيرة في غير ريبة — (2) .. فالغيرة في الريبة يوجد معها أمر مريب في موقف أحد الزوجين. والواجب كشف هذا الريب وتوضيحه، حتى يتبين موقف الزوجين تماما، وتعود الحياة الزوجية إلى طبيعتها شفافة واضحة، لا تدخل فيها للشيطان. أما الغيرة في

(1) البداية والنهاية 176/4 لابن كثير.

(2) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وأبو داود والنسائي وابن حبان عن جابر بن عتيك. ورواه أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر. ص79 من كتاب الزواج الإسلامي السعيد - للشيخ أبي حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت 1984م. وص474 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

غير ريبة، فهي من الشيطان، يصور لأحد الزوجين فعلا خياليا، ليزيل الصفاء بين الزوجين ويضخم الخلاف بينهما، حتى يوصل الحياة بينهما إلى باب المستحيل، أو قريبا منه، بغير سند واضح، ودليل بين. مع أن الواقع يقول: إنه لا ريبة ولا محل لها بين الزوجين. وهنا يكون دور الزوج المؤمن في إزالة هذا الغموض وإزاحة هذا العمل الشيطاني إلى خارج إطار الحياة الزوجية..

وعلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن، حتى يتمكنوا من درء خطر هذا النوع من الغيرة في غير ريبة لكي لا يعصف بالهدوء السائد في عش الزوجية. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين زوجاته أمهات المؤمنين في المبيت. وفي ليلة من ليالي أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ارتدى صلى الله عليه وسلم ثوبيه بعد أن خلعهما، وخرج من عند عائشة، فدخلت الغيرة إلى قلبها وظنت أنه ذاهب إلى زوجة أخرى من زوجاته، فخرجت وراءه، فإذا هو قد ذهب إلى البقيع. وعرفت منه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أن ربه أمره أن يستغفر لأهل البقيع والشهداء من المؤمنين والمؤمنات وهنا أدركت عائشة رضى الله عنها أنها أخطأت في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادت مسرعة إلى البيت حتى لا يراها النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية لها رضى الله عنها عن ذلك تقول: " فغرت عليه أن يكون أتى بعض نسائه، فجاء فرأى ما أصنع - وكانت تغير ملابسها وقلبها ينتفض من سرعتها في المشي حتى لا يدركها رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال: **أُغِرْتُ؟** — (1)

(1) ما بين الشريطين عبارة توضيحية مقتبسة من رواية أخرى لعائشة ص443 من صحيح مسلم - الطبعة المميزة والمرقمة برقم المعجم المفهرس.

فقلت: وهل مثلى لا يغار على مثلك؟ فقال: **لقد جاءك شيطانك** — قلت: أومع شيطان؟ قال: **نعم** — قلت: "ومعك؟" قال: **نعم** ولكن الله أعانى عليه فأسلم⁽¹⁾ الحديث وهكذا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد على عائشة ردا جميلا ويفهمها أن غيرتها هذه من عمل الشيطان، حيث لا ريبة في أمره صلى الله عليه وسلم معها. وكان الواجب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن تترك هذه الهواجس الشيطانية ولا تفكر فيها على نحو يعكر صفو حياتها مع حبيب الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فلتأخذ نساء المسلمين عبرة وعظة من موقف عائشة رضى الله عنها وغيرتها بهذه الطريقة على زوجها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - بحيث لا يتطرفن في غيرتهن على أزواجهن..

وكذلك الأزواج يجب عليهم أن يكونوا معتدلين في غيرتهم على زوجاتهم. فلا يغالون في إساءة الظنون بهن وخصوصا إذا كن طائعات لهم مؤديات لكل حقوقهم عليهن، ومنها طاعة أوامرهم واجتناب نواهيهم. ما دام الجميع على حق ملتزمين بتعاليم وتوجيهات شريعة الإسلام..

وقد تحاول الزوجة المسلمة المفاخرة بحسبها. والواجب على زوجها المسلم أن يحذرها من السير في هذا الاتجاه لأنه يبعدها عن الطريق الصحيح الذي يتمشى مع تعاليم الإسلام. فالأفضلية في الإسلام تكون بالتقوى لا بالحسب والنسب ولا بالجاه ولا بغير ذلك من أساليب التفاضل الغير متمشية مع المبادئ الإسلامية الفاضلة.. وحدث أن تفاخرت حفصة وعائشة رضى الله عنهما على صفية بنت

(1) ص 458، ص 459 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

حَيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وَهَنَ مِنْ أَمْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَتْ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ لَصْفِيَّةَ إِنَّ لَهُمَا الْفَخْرَ عَلَيْهَا فَهَمَا قَرَشِيَّتَانِ قَرِيبَتَانِ أَمَّا صَفِيَّةُ فَأُجْنَبِيَّةٌ دَخِيلَةٌ. فَوَجَّهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَفِيَّةَ إِلَى جَوَابِ يُسْكِتُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ وَيَجْعَلُهُمَا لَا تَقْدَمَانِ عَلَى مَفَاخِرَتِهَا مَرَّةً أُخْرَى. قَالَ الْمَصْطَقِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَصْفِيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ^١أَلَا قُلْتُ: وَكَيْفَ تَكُونَانِ خَيْرًا مِنِّي وَزَوْجِي مُحَمَّدٌ وَأَبِي هَارُونَ، وَعَمِي مُوسَى —؟(1) ..

ولو تتبعنا كتب الحديث والسيرة لوجدنا أن هناك مجالات كثيرة لأخطاء الزوجات يمكن للأزواج علاجها بالصبر وحسن التصرف.. فقد تتعرض الزوجة في صغرها قبل الزواج للإصابة بعقدة نفسية نتيجة لواقعة حدثت أمامها واختُزِنَتْ في عقلها الباطن. فإذا صادفها ما يشبهها في مرحلة النضوج وبعد الزواج فإنها تتذكرها فتضطرب في أقوالها وأفعالها مما ينعكس على بيت الزوجية واستقراره وسعادته. كما يحدث أحيانا في حوادث الاحتراق والغرق ونحو ذلك، مما يصادف بعض الزوجات، ويجعلها تتصرف بطريقة غير سوية.. ويمكن للأزواج معالجة هذه الأمور وأمثالها التي تنعكس بالسلب على تصرفات الزوجات - بالصبر وحسن التصرف واللجوء إلى الطب النفسي إذا اقتضى الأمر(2).

وقد تلجأ بعض الزوجات إلى تقليد أمهاتهن في التصرف في بعض أمور الحياة الزوجية الجديدة بطريقة قديمة قد لا تتناسب مع الحياة الزوجية الجديدة. فكل وقت أذان كما يقول المثل الشعبي. وما

(1) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة 1/ 643 ص 643 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) ص 465 من نفس المرجع السابق.

كان مناسبا في الماضي من تصريف النساء لبعض الأمور قد لا يتناسب الآن مع الحياة الزوجية الحالية. كطريقة طهى الطعام مثلا. فقد لا تتناسب الطرق القديمة مع الحياة العصرية الجديدة. وعلى الزوج في هذه الحالة أن يوجه زوجته إلى الطريقة الأفضل دون أن يشعرها بأنها تتمسك بتقليد أمها مثلا في طريقة الطهى. وهو بهذا التصرف يضرب عصفورين بحجر واحد. ففي الوقت الذي يوجه زوجته إلى فعل ما يحب من الطرق، فهو لا يشعرها بأنها تحرص على تقليد أمها في طريقته القديمة في طهى الطعام حتى لا تصاب بالحرج والضيق، وتتحسر على الأيام التي قضتها في بيت أمها وأبيها.

ومن الأهمية بمكان أن ننبه إلى أنه لا مفر من أن تقف أسرة الزوجة موقفا حياديا في هذه المسألة فلا تشجع ابنتها على موقفها، ولا تحاول التدخل بينها وبين زوجها لحمله على الموافقة على رأيها. بل يجب أن تحت ابنتها على طاعة زوجها واتباع الطريقة التي يحبها. ولتترك الخلاف للزوج وزوجته ينهيانه بطريقتهما الخاصة دون تدخل منها، في ساعة من ساعات الرضا. والملاحظ أن تدخل الأسرة بين ابنتهم وزوجها يلقي بظلال اليأس على مستقبل الحياة الزوجية لابنتهم، على عكس ما يشعرون ويقدررون..

وبالمثل يجب أن تأخذ أسرة الزوج موقفا حياديا فلا تشجع ولدها على معاملة زوجته بقسوة لمجرد خلافها معه في مسألة بسيطة، تحدث عادة في أسر كثيرة، ولا تحتاج منها أو من أسرة الزوجة إلى تصعيد الخلاف.. وهذا الحياد من أسرة كل من الطرفين يهون الأمر على الزوج وزوجته فيسعيان جاهدين إلى تصفية الخلاف وعودة حياتهما الأسرية إلى طبيعتها دافئة كما كانت قبل الخلاف، في أسرع

وقت ممكن..

ولكل زوجين صالحين وأسرتهما قدوة حسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المجال. حيث لم يتدخل النبي الكريم بين ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها وبين زوجها على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه. فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت فاطمة. فلم يجد عليا في البيت فقال: أين ابن عمك؟ — قالت: كان بينى وبينه شئ فغاضبني فخرج فلم يقل عندى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان: ^١انظر أين هو؟ — فجاء فقال: يارسول الله، هو في المسجد راقد، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه عنه ويقول: ^٢قم أبا تراب، قم أبا تراب — (1). وهكذا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدم التدخل بين على وبين زوجته فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم. مما جعل عليا يتغاضى عن خلافه معها بعد أن رأى لطف أبيها صلى الله عليه وسلم معه، وحرصه على استمرار الحياة الزوجية الطبيعية بينهما دون تدخل منه. ولم يلبث أن عاد على إلى بيته وكان شيئا لم يكن بينه وبين زوجته فاطمة رضى الله عنها..

ولكن قد تحدث ظروف خطيرة، تفرض على والد الزوجة أو من يحل محله، أن يتدخل بينها وبين زوجها تدخلا شرعيا لإبعاد خطر أو دفع فتنة تكاد تصيب الزوجة في دينها أو عرضها، وتعصف ببيت الزوجية، بسبب تصرف طائش من زوجها. وأوضح مثال لذلك، هو ما حدث من تدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين

(1) البخارى، عناية الدكتور محمد تامر الجزء الأول ص 101 فى كتاب الصلاة باب نوم الرجال فى المسجد عن سهل بن سعد.

ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها وبين زوجها على رضى الله عنه وكرم الله وجهه. وذلك عندما سيطرت فتنة الدنيا على على في لحظة من لحظات طيش أصابه، فخطب ابنة - عدو الله ورسوله والمؤمنين - أبى جهل على ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك خاف على ابنته فاطمة رضى الله عنها من أن تفتن في دينها، فأعلن أنه صلى الله عليه وسلم استؤذن في هذه الخطبة ولم يأذن. وإزاء هذا الموقف الحازم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ترك على خطبة ابنة أبى جهل. فعن المسور بن مخرمة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول: ^١إِنْ بَنَى هَاشِمُ بْنُ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ، عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ. فَلَا آذَنَ، ثُمَّ لَا آذَنَ، ثُمَّ لَا آذَنَ. إِلَّا أَنْ يَحِبَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَطْلُقَ ابْنَتِي وَيُنْكِحَ ابْنَتَهُمْ. فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي. يَرِيْنِي مَا رَأَيْتُهَا. وَيُؤْذِنِي مَا آذَاهَا— قال: فترك على الخطبة(1)..

وعلى الزوج حتى يسعد زوجته وتسعد به - أن يعلمها الصبر على الشدائد والصعاب التي تقابلها في حياتها الزوجية، ومحاولة التغلب عليها، دون اللجوء إلى أبويها كلما لاحت لها مشكلة أو صعوبة. وإذا أردنا القدوة الحسنة في هذا الأمر - فلنا أن نستفيد من موقف فاطمة رضى الله عنها وزوجها على، ومن تصرف النبي صلى الله عليه وسلم معهما في شكوى فاطمة من أثر الرحي وطلبها خادما يخفف عنها من هذا الأثر ويقضى حوائجها.. فقد أثر استعمال فاطمة للرحي فيها أثرا كبيرا لدرجة جعلها تعرض شكواها على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها. واتفقت فاطمة مع على

(1) صحيح مسلم. الطبعة المميزة والمرقمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ص 1224.

رضى الله عنهما على عرض هذا الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنهما لم يجرأ على إثارة هذه الشكوى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سنحت الفرصة بذلك، عندما جاء سبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهبت فاطمة رضى الله عنها إلى أبيها ولكنها لم تجده فأخبرت عائشة رضى الله عنها. وعندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلبهما، صرفهما عنه صرفاً حسناً ودلها على ما هو خير لهما منه. حيث ذهب إليهما وقال لهما: **ألا أعلمكما خيراً مما سألتانى؟ إذا أخذتما مضجعكما تكبرا أربعاً وثلاثين، وتسبحا ثلاثاً وثلاثين، وتحمداً ثلاثاً وثلاثين. فهو خير لكما من خادم—** (1). وقد استفاد كل من علي وفاطمة رضى الله عنهما من تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم معهما في هذا الأمر. واتضح لهما أن مشاكل بيت الزوجية يجب ألا تخرج منه إلا إذا عجز الزوجان عن حلها. وأن عليهما وعلى الزوجة خاصة أن تتحلى بالصبر وأن تبحث مع زوجها عن حل مناسب لمشاكلهما الخاصة ببيت الزوجية.

وليعلم كل زوج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بالنساء وهو على فراش الموت. فقد أوصى الأزواج بزوجاتهم في قوله صلى الله عليه وسلم: **أيها الناس: إن للنساء عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً. فعليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً، ولا يدخلن بيوتكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن**

(1) رواه البخارى من حديث على بن أبى طالب في 12 كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ - باب مناقب على بن أبى طالب ص194 من الجزء الثانى من صحيح البخارى - عناية الدكتور محمد تامر.

شيئاً، وإنما أخذتموهن بأمانة الله.. واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً — (1) ..

فإذا حفظت الزوجة فراش زوجها من أن يطأها أحد غيره، ولم تُدخل بيته أحداً يكرهه إلا بإذنه، وأطاعته فيما أمرها به؛ فلها منه رزقها وكسوتها بالمعروف. فهي في بيت زوجها كالأسيرة بحكم ما بينهما من ميثاق غليظ. فإذا لم تطعه، وفعلت ما يغضبه فله أن يهجرها في بيت الزوجية وأن يضربها ضرباً غير مبرح، لا يترك أثراً ولا يكسر عضواً ولا يسيل دماً حتى تنتهي عن عصيانها.

وفي وجوب معاملة الزوج لزوجته باللين والحسن. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد كان معروفاً بالشدة والخشونة: " ينبغي للرجل أن يكون في أهل بيته مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وُجدَ رجلاً " (2). ومن حسن معاملة الزوج لزوجته أن يجعلها تتجذب إليه وتميل نحوه. وأن يحرص دائماً على أن يكون شعورها نحوه حسناً. فيتزين لها كما تتزين له. وفي ذلك يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: [♂]اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم — (3). ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: " إنني لأحب أن أتزين لامرأتي كما تتزين لي. لأن الله تعالى يقول: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} الآية [البقرة: ٢٢٨] (4) ..

(1) ص106، ص107 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السيد الشرقاوى - الطبعة الثانية - عوان: أسرى.

(2) ص107 من المرجع السابق.

(3) رواه ابن عساكر عن علي ص25 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي.

(4) ص133 من القسم الأول من الطبعة الأولى - من كتاب صفوة التفسير - للدكتور

والخطأ من جانب الزوجة وارد فإذا تكرر عمداً أو بدون مبرر، فإنها تكون ناشزا ترفض طاعة زوجها والائتمار بأمره واجتناب نواهيه. وقد رسم الإسلام طريقاً شرعياً لعلاج نشوز الزوجة يتلخص في ثلاث نقاط سنذكرها تفصيلاً.. وعلينا في البداية أن نتذكر أن المرأة مخلوق ضعيف، مكن الله منها زوجها فجعله قيماً عليها. فعليه أن يعاملها دائماً بلطف ولين ما دامت تؤدي واجبها نحوه، بكل ما تستطيع من الطرق الشرعية. وعليه أيضاً أن يؤدي لها كل حقوقها ما دامت تجتهد في طاعته وتحسن معاملته.. فإذا نشزت فإنه لا يقبح وجهها ولا يسبها أو يشتمها كما يفعل كثير من الناس، وإنما عليه أن يتبع الطريق الشرعي في إعادتها إلى طريق الاستقامة على شرع الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.. وقد شرع الإسلام للزوج ثلاثة طرق لتأديب زوجته في حالة نشوزها.

وقد وردت هذه الطرق في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ۖ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤].

فليبدأ الزوج مع زوجته الناشز بالعظة فيوجهها ويعرفها أن من الخير لها ولزوجها وليبتهما أن تطيعه وتلتزم بتوجيهاته التي لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية. وعليه أن يقنعها بذلك بكل طرق الإقناع الممكنة لديه والتي يتميز بها. فإن كان يغلب عليها الإيمان والطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فستستجيب لعظة زوجها وتطيعه وتلتزم بتعاليمه في حدود الشريعة الإسلامية. على أنه في حالة عظة الناشز يجب ابتعاد الواعظ سواء كان زوجاً أو غيره، عن الألفاظ البذيئة والفاحشة التي تنفر الزوجة وأهلها من

سماع النصيحة. بل يجب أن تكون العظة بأسلوب مؤدب، يأخذ بالقلوب النافرة، فيشجعها على ترك العناد والعودة إلى طاعة الزوج. فإن لم ينفع معها أسلوب العظة فعليه أن يستعمل معها أسلوب الهجر استعمالاً شرعياً إسلامياً. فالهجر لا يكون إلا في بيت الزوجية. وأهم الهجر هجر الفراش. ولا يشترط للزوج أن يبحث عن مكان آخر أو بيت غير بيت الزوجية، لينام فيه، كما يفعل البعض. ومن الأهمية بمكان ألا يفعل ذلك في حضور الأولاد - إن وجدوا - حتى لا يحسوا بوجود خلاف بين أبيهم وأمهم، وهجر الفراش يتحقق بالانفراد بغطاء مستقل على نفس الفراش ويتحقق كذلك بإدارة الزوج ظهره لزوجته مع تمكنه من التحكم في نفسه. وعن هجر المرأة في مضجعها قال ابن عباس: "الهجر ألا يجامعها ولا يضاجعها على فراشها، ويوليها ظهره".. وزاد آخرون منهم السدى والضحاك وابن عباس أيضاً في رواية "ولا يكلمها" (1). والزوجة المسلمة التي تتمتع بالحياء يؤثر فيها هذا الأسلوب أكثر مما يؤثر فيها السب والشتم والضرب، وتقبيح الوجه، وتوجيه كل الألفاظ الجارحة الخارجة عن نطاق الأخلاق الإسلامية لها..

وحتى يثمر أسلوب الهجر كما شرعه الإسلام يجب أن يتحكم الزوج في عاطفته الجنسية وأن يتجنب جماع زوجته في فترة الهجر، وألا يضعف أمام إغراءاتها له لأن جماع الزوج لزوجته في هذه الحالة يعنى أنه راض عن تصرفاتها. فلا معنى ولا شرعية للهجر إذن.. فإن استجابت الزوجة للعلاج بالهجر، فبها ونعمت، وإلا فعليه أن ينتقل للأسلوب الثالث من أساليب العلاج الإسلامى للزوجة

(1) تفسير سورة النساء في كتاب صفوة التفاسير - للشيخ محمد على الصابوني - الطبعة الأولى.

الناشز، ألا وهو الضرب غير المبرح، وهو " الذي لا يترك أثرا ولا يكسر عظاما ولا يسهل دما" (1). إذ المقصود من الضرب هنا أن تشعر الزوجة بخطئها فتعترف به وتتجنبه. أما الأسلوب الوحشي في الضرب والذي يلجأ إليه البعض لعلاج الزوجة الناشز - فغير وارد في الشريعة الإسلامية وهو مناف لتوجيهاتها وتعاليمها المقتبسة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المباركة. حيث يتنافى مع السكن والموودة والرحمة التي من المفترض أن تسود بيت الزوجية. حيث يقول المولى عز وجل: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الروم: ٢١]. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يضرب الرجل زوجته ضربا مبرحا ثم يجامعها آخر اليوم. وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: [♂]أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ثم يجامعها في آخر اليوم - (2) ويقول صلى الله عليه وسلم: [♂]لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم - (3). وحتى يثمر أسلوب الضرب على الزوج أيضا أن يتجنب جماع زوجته في فترة الأخذ بهذا الأسلوب. وقد رأينا تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك.

فجماع الزوج لزوجته في فترة الهجر أو الضرب يضيع الأثر المرجو منهما. فهجر الزوج لزوجته أو لجوؤه إلى ضربها يعنى أنها أخطأت ولم تتراجع، بل أصرت على خطئها، وعلى مخالفة زوجها بغير وجه حق، وجماعه لها يعنى أنه راض عن تصرفاتها الخاطئة.

(1) ص 39 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت 1984م.

(2) البخارى 192/20.

(3) صحيح البخارى - عناية د. محمد تامر - الجزء الثالث ص 47.

وهذا التناقض بين الأمرين يعنى أن الزوج غير موفق في سلوكه مع امرأته الناشز، وأنه لا يريد إصلاح نشوزها حسب ما أمرته به الشريعة الإسلامية.. ولا يعنى ذلك أننا نشجع أسلوب الهجر أو الضرب، فلا شك أن كلا الأمرين يترك أثرا سلبيا عميقا في نفس كل من الزوج والزوجة يُخشَى معه على بيت الزوجية، لكن إيمانهما الكامل بمبادئ الإسلام وتوجيهاته في هذا الشأن يمنع هذا الخطر عن بيت الزوجية الناشئ مادام الغرض هو الإصلاح وما دامت النوايا حسنة. وليت العظة تكفى في هذا المجال حتى لا يلجأ الزوج إلى الهجر أو الضرب..

وليعلم المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل الأسلوبين الأول والثانى من سبل علاج النشوز مع زوجاته أمهات المؤمنين رضى الله عنهن.. وقد مر بنا كيف عالج النبي صلى الله عليه وسلم بالعظة ظاهرة الغيرة عند أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وعرفها بأن غيرتها عمل شيطانى ينبغى الابتعاد عنه وتجنبه حيث كانت هذه الغيرة غير من غير ريبة.. وقد استجابت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لنصائح رسول الله صلى الله عليه وسلم لها بترك الغيرة من غير ريبة لأنها من عمل الشيطان. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يلحظ تأثرها بذلك من تغير لهجتها معه في الحديث. وكان من علامات قبولها نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن، أنها قالت له عندما عرفها بذلك: " أجل والله يا رسول الله ما أهرج إلا اسمك " (1). وقد عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم نشوز زوجاته أيضا بالهجر. " إذ أرسل صلى

(1) من حديث للسيدة عائشة - أخرجه البخارى في كتاب النكاح - باب غيرة النساء ص141 من الجزء الثالث من كتاب اللؤلؤ والمرجان تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

الله عليه وسلم إلى أم المؤمنين زينب رضى الله عنها هدية فردتها عليه. فقالت له التي هو في بيتها: لقد أقمتك إذ ردت عليك هديتك. فقال صلى الله عليه وسلم: **أنتن أهون على الله من أن تقمئتنى** — ثم غضب عليهن كلهن شهرا إلى أن عاد إليهن ⁽¹⁾. وفي الصحيحين من حديث عمر رضى الله عنه: **" أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن "** ⁽²⁾. وفي رواية من حديث جابر: **" ثم اعتزلهن شهرا "** ⁽³⁾..

وقد بدأ نشوز أمهات المؤمنين زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بطلب زيادة النفقة وسعة العيش بعدما رأوا ترف الفرنجة وتنعمهم.. على أنه يلاحظ في الضرب أن يتجنب الزوج ضرب الوجه؛ لأنه محل كرامة الإنسان سواء كان رجلا أو امرأة. حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه** — ⁽⁴⁾. فتجنب ضرب الوجه مطلوب أيا كان المضروب. هذا وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يضرب أحدا من زوجاته قط ⁽⁵⁾. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في علاج نشوز الزوجة باللين: **إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة. فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج. وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها** — ⁽⁶⁾..

(1) ذكره ابن الجوزى في الوفاء - أقمتك أى أذلتك وأصغرتك.

(2) ص 90 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى - تحقيق محمد عثمان الخشت - موجدته: غضبه.

(3) ص 91 من المرجع السابق.

(4) رواه البخارى ص 14 من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

(5) ص 90 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى.

(6) رواه أبو هريرة ص 709 من صحيح مسلم - الطبعة المميزة والمرقمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

وإذا لم تُفدْ هذه الوسائل الثلاث في معالجة الخلاف القائم بين الزوجين. وكان للزوج دور في تضخيمه واستفحاله - فهناك وسيلة أخرى وأخيرة وهى التحكيم. فيختار أقارب الزوج وجيرانهما من أهل الخير حكما من أهل الزوج يرضى به، وحكما من أهل الزوجة ترضى به. فيحاول الحكمان التوفيق بين الزوجين. وسينجحان في هذه المهمة ما دام هدفهما الإصلاح بينهما. وفى هذا يقول أصدق القائلين سبحانه: { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا } [النساء: ٣٥]. وقد يتطلب الأمر حكما واحدا وإرساله إلى الزوج إذا كان النشوز منه. وفى هذا المجال بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه حكما إلى زوجين فعاد ولم يُصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال: إن الله تعالى يقول: {إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا} فعاد الرجل، وأحسن النية، وتلطف بهما فأصلح بينهما(1)...

ومن قبيل محافظة الزوج على زوجته وحسن معاملته لها - أن يكف بصره عن النظر إلى غيرها، عملا بقوله تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠] فذلك يجعلها تقصر طرفها عليه، عملا بقوله تعالى: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} الآية [النور: ٣١]. فيتبادلان الصفاء والإخلاص في الدنيا، وتكون زوجة له في الجنة بإيمانهما وإخلاصهما معا في الدنيا وموتهما على الصلاح والإيمان. فتقصر طرفها عليه أيضا في الآخرة. يقول الله عز وجل فيها وفى أمثالها من الزوجات

(1) ص 90 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى - الدرة: الآلة الذي يضرب بها - علاه: ضربه - .

الصالحات: {فَهِنَّ قَصِرَتْ الْطَّرْفُ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبَلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦]. وعلى الزوج في سبيل الحفاظ على زوجته - أن يأوى إليها إذا أعجبتة امرأة في الطريق. فبهذا أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال أمته وكان صلى الله عليه وسلم قدوتهم في هذا المجال. فقد روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج وقال: **إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِصُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبْتَهُ فَلَیَاتُ أَهْلَهُ، فَإِنْ مَعَهَا مِثْلُ الَّذِي مَعَهَا—** ⁽¹⁾ وفى رواية عن جابر أيضا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة. فأتى امرأته زينب، وهى تمعس منيئة لها. فقضى حاجته. ثم خرج إلى أصحابه فقال: **إِنَّ الْمَرْأَةَ تَقْبَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، وَتَدْبُرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ— أَحَدَكُمْ امْرَأَةً فَلَیَاتُ أَهْلَهُ فَإِنْ ذَلِكَ يَرِدُ مَا فِي نَفْسِهِ—** ⁽²⁾.

وفى رواية: **إِنَّ الْبُضْعَ وَاحِدٌ وَمَعَهَا مِثْلُ الَّذِي مَعَهَا—** ⁽³⁾..

وكخطوة أساسية في محافظة الزوج على زوجته وإسعادها - يجب عليه أن يدعم علاقته الجنسية معها، ولا يتركها للظروف لتحل ما ينشأ بينهما من مشاكل جنسية. فقد يحرص الطرفان في مواجهة هذه المشاكل للبحث عن حل لها، فتبقى معلقة وتحدث شرخا قابلا للاتساع في العلاقة بينهما. ولا يفوتنا في هذا المقام أن ننبه إلى عدة أمور هامة لها علاقة بهذه المسألة الهامة: وأول هذه الأمور أن يتنبه

(1) رواه مسلم والترمذى واللفظ له.

(2) ص664 من صحيح مسلم الطبعة المميزة والمرقمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث. تمعس منيئة: تمص قطعة من المنى وهو مادة صمغية حلوة تفرزها بعض الأشجار.

(3) رواه الخطيب عن عمر ص13 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم سيد أحمد الهاشمي.

الزوج دائما إلى مداعبة زوجته قبل أن يواقعها. وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم: ^١ لا يقمن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، ليكن بينهما رسول— قيل: وما الرسول؟ قال: ^٢ القبله والكلام— (1) فالقبله تعبر عن الرغبة في الجماع والكلام يعبر عن الميل العاطفى والقلبى، وكلاهما يصب في تيسير عملية الجماع.

ويرى بعض الباحثين في هذا الأمر أن تعادل الميل بين الجانبين أى الزوج والزوجة، وتوفير الاستقرار الطبيعى والنفسى المعبر بهما عن الرغبة في العملية الجنسية. كل هذا يؤدى إلى التوافق العام والشامل بين الزوجين في كل نواحي الحياة الزوجية(2) ..

فاقتتران البدن بالبدن، بعيدا عن العاطفة وتبادل الانسجام والوحدة الروحية والذهنية بين الزوجين، ليس هو المطلوب الوحيد للحياة الجنسية السعيدة. ومن أجل ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم: ^٣ ثلاث من العجز عند الرجل، أن يلقي من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه، والثانى أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته، والثالث أن يقارب الرجل زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه— (3) .. وثانى هذه الأمور الهامة في المجال الجنسى: أن يمارس الرجل الجنس مع زوجته بلا إفراط أو تفريط. فالإفراط معناه الإكثار من الجماع والتفريط معناه التقليل منه. وكلا الأمرين منفر، ويؤدى إلى تناقص الجاذبية، وبرودة الحياة

(1) رواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك، وص93 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السعيد الشرقاوى - الطبعة الثانية 1986م، ص135 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى، طبعة أولى 1966، وطبعة ثانية1977م.

(2) بتصرف من ص134 من كتاب الاسلام والحياة الزوجية - عثمان السعيد الشرقاوى.

(3) ص135 من المرجع السابق.

الزوجية بين الزوجين وهى التي من المفروض أن تكون دائمة الدفء والحيوية.

وثالثها: أنه ينبغي أن يتصل الرجل بزوجه اتصالا جنسيا مرة واحدة في الأسبوع على الأقل ومرتان على الأكثر. ففي المرة يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: **♂** **أيعجز أحدكم أن يجامع امرأته كل جمعة فإن له أجرين، أجر غسله، وأجر غسل امرأته** — (1) وفي المرتين: جاء في كتاب النصوص —
الكافية للشيخ زروق ما نصه: " وحققا أن الذي يقضى لها به في كل جمعة مرتان " (2) ..

ورابعها: أن على الزوج أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين، لأن تحصينها من الفحشاء واجب عليه. فلا ينبغي أن يقلل عليها حتى تضرر ولا يكثر عليها حتى تمل (3) ..

وخامسها: أن على الزوج أن يعلم أن من المكروه أن يأتى امرأته دون أن تطيب نفسها بذلك. إذ أن ذلك قد يفسد عليها دينها وعقلها، وقد يجعلها تتشوق إلى غيره محدثة نفسها بالتغيير. كما يكره للزوج أيضا أن يأتى امرأته على غفلة، حيث يؤدي ذلك إلى نفس النتائج التي أشرنا إليها. وقد نهت الشريعة الإسلامية عن الطروق وكراهته وهو أن يدخل الرجل على أهله عند قدومه من سفر. فعن مالك بن أنس رضى الله عنه أنه قال: " كان النبی صلى الله عليه وسلم لا يطرق أهله، كان لا يدخل إلا غدوة أو عشية " (4) ..

(1) ص113م كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

(2) ص140من كتاب الزواج الإسلامى - لطارق إسماعيل كاخيا.

(3) ببعض التصرف من ص141 من المرجع السابق.

(4) أخرجه البخارى في كتاب العمرة - باب الدخول بالعشى ص355 من الجزء الأول من صحيح البخارى - عناية الدكتور محمد تامر.

وقد ورد في ذلك أيضا حديث جابر ابن عبد الله قال: قفلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة، فلما ذهبنا لندخل قال: **أَمْهَلُوا حَتَّى لَا تَدْخُلُوا الْبِلَادَ (أَيَ عِشَاءً) لَكِي تَمْتَشِطَ الشَّعْثَةُ، وَتَسْتَحِدَّ الْمَغِيبَةَ — (1)** ..

وسادسها: أنه معلوم جواز الجماع في كل الأوقات إلا المحرم منها وهو: وقت الصوم والحج والحيض والنفاس. يقول الله جل جلاله: **{نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}** [الآية [البقرة: ٢٢٣]. لكن السنة النبوية الكريمة أشارت إلى أفضلية الجماع يوم الجمعة وليلتها. تحقيقا لأحد التأويلين في قوله صلى الله عليه وسلم: **رحم الله من غسل واغتسل — (2)** والتأويل الثاني تغسيل الميت ثم الاغتسال بعده.

وقد يعتقد بعض الأزواج أن من الخير لهم مباحثتهم لزوجاتهم عن فراشهم والانشغال بالعبادة عن جماعهن. وهذا تضييع منهم لحق الزوجات في التمتع بأزواجهن. وللزوجة في هذه الحالة أن ترفع أمر زوجها هذا للحاكم إذا عجزت عن حل خلافها الجنسي مع زوجها المباعدها عن الفراش، وعن إقناعه بأنه مقصر معها في هذا الأمر. " فقد أتت امرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل. وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل. فقال عمر رضى الله عنه: نعم الرجل زوجك. فأعادت المرأة قولها، وأمير المؤمنين يكرر عليها الجواب. فقال علي بن أبي طالب وكان حاضرا: يا أمير المؤمنين هذه تشكو زوجها من مباحثته إياها عن فراشه. فنظر عمر

(1) أخرجه البخارى في كتاب النكاح - باب تزويج الثيبات ص22 من الجزء الأول من صحيح البخارى - عناية الدكتور محمد تامر قفلنا: رجعنا - الشعثة: ذات الشعر المتناثر - تستحد المغيبة: تأخذ من شعر عانتها بعد طول غياب زوجها.

(2) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى ص143 من كتاب الزواج الإسلامى - للأستاذ طارق إسماعيل كاخيا - طبعة أولى 1966م.

إلى المرأة، فنكست رأسها. فبعث إلى زوجها فجاء، فقال له على بن أبى طالب: إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع. فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهم ربك. فقال أمير المؤمنين: يا أبا الحسن والله ما أدرى مِنْ أَىِّ أَمْرِيكَ أعجب؟ أَمِنْ فهمك أمرهما؟ أم مِنْ حُكْمِكَ بينهما؟ " (1).. وكثير من النساء ممن يتمتعن بالحياء يحجمن عن ذكر ذلك التباعد بينهن وبين أزواجهن والذي يأتى من جانب الأزواج بحجة انشغالهم بعبادة الله عز وجل، ولا يعلمون أن عبادة الله لا تتعارض مع الوفاء بحق الزوجة في متعة الجماع كبقية حقوقها. فكانت الزوجات عادة لا تشتكين أزواجهن للحاكم من مباحثتهن إياهن عن فراشهم. لكن عمر بن الخطاب كان لا ينتظر حتى تأتى إليه الشكايات من تباعد أزواجهن عن جماعهن. فقد اكتشف هو نفسه إحدى هذه الشكايات، عندما كان يعس ذات ليلة فسمع صوت امرأة تعبر عن شكايتها من مباحدة الحاكم لزوجها عنها. وكانت هذه الشكاية أبياتا من الشعر قالتها الشاكية في عقر دارها فسمعها عمر واستدعاها وعرف قصتها. وكان ذلك سببا في تنظيم عمر رضى الله عنه مدة السفر للغزو وتقصيرها حتى لا يطول غياب الأزواج في الغزو عن زوجاتهم(2)..

ومن قبيل محافظة الزوج على زوجته - أن يصبر على أذاها إذا أحس منها بذلك. وليجعل الأزواج من رسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى لهم في هذا الأمر. فهو صلى الله عليه وسلم أحسن من

(1) رواه عبد الرزاق في الجامع ص113، ص114 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

(2) ص75، 76 من كتاب الزواج الإسلامى السعيد - للشيخ أبى حامد الغزالى - تحقيق محمد عثمان الخشت - يونيو 1984م، وقد مرت قصة عمر مع المرأة التي اشتاقت إلى زوجها وهو في الغزو في الصفحتين 152، 153 فارجع إليها.

صبر على أذية أزواجه أمهات المؤمنين. وقد مرت بنا أمثلة للصبر على هذا الأذى. ونذكر للقارئ الكريم مثلاً واضحاً لصبره صلى الله عليه وسلم على أذى وقع عليه من عائشة رضي الله عنها. فقد جرى بينه صلى الله عليه وسلم وبين عائشة أم المؤمنين كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً وشاهداً. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: **تَكَلِّمِينَ أَوْ أَتَكَلِّمِينَ؟** — فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً؛ فلطمتها أبوبكر حتى دمی فوها، وقال: يا عُدِيَّةَ نَفْسِهَا أَوْ يَقُولُ غَيْرَ الْحَقِّ؟! فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **لَمْ نَدْعِكَ لِهَذَا، وَلَا أَرَدْنَا مِنْكَ هَذَا** — (1). بل إن الرسول زاد على احتمال الأذى منها بمداعبتها والمزاح معها، وملاعبتها وقد ذكرنا سابقاً أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابقها وهذا نوع من الملاعبة والمزاح.

وعلى الزوج أن يكون معتدلاً في التعامل مع زوجته. فلا يوافقها ويتبع هواها إلى حد يفسد أخلاقها، ويسقط هيئته عندها. ولا يعارضها في كل شيء حتى يغلق باب التفاهم والمناقشة بينه وبينها.. وعلى الزوج كذلك ألا يفتح باباً أو ثغرة تدخل منها الزوجة إلى قول أو فعل المنكرات. بل عليه أن يتنمر إذا رأى أو سمع منها ما يخالف الشرع الإسلامي، وأن يظهر الاستياء وعدم الرضا عن ذلك. وفي هذا المجال قال الحسن رضي الله عنه: " والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار " (2) ومما لا شك فيه أنه رضي الله عنه يقصد من ذلك طاعتها في قول أو فعل منكر.. وقال

(1) ص 75، 76 من كتاب الزواج الإسلامي للسعيد للشيوخ أبي حامد الغزالي. استجارت: احتمت.

(2) ص 79 من نفس المرجع السابق.

عمر رضى الله عنه في ذلك: " خالفوا النساء فإن في مخالفتهن البركة " (1).. فهما (الحسن وعمر) رضى الله عنهما يريان - وهما على حق - أن من حق الرجل أن يكون تابعا لا متبوعا. وألا يتبع زوجته أو يجاريها ويوافق على قولها أو فعلها إذا ابتعد عن مبادئ وتعاليم الشريعة الإسلامية. وليعلم الزوج أن النساء بصفة عامة فيهن الميل إلى الشر، وفيهن الضعف. والرجل الزوج الكيس يتغلب على ناحية الشر في المرأة بالسياسة مرة وبالخشونة مرة أخرى حسب مقتضى الحال، كما أنه يتغلب على ضعفها بمعاملتها معاملة طيبة فيرحمها ولا يقسو عليها..

ومن محافظة الزوج على زوجته أن يعتدل في الغيرة عليها. وقد سبق أن أشرنا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ♂ إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل، وهى غيرة الرجل على أهله من غير رية — الحديث. وأشرنا كذلك إلى الغيرة المحمودة وغير المحمودة.. على أنه يجب أن يعلم كل زوج مسلم أن الإكثار من الغيرة على الزوجة يلقي حولها ظلالا من الشك فتلوكها السنة الناس. ومن أسوأ ما يمر بالزوج المسلم أن ترمى زوجته بالسوء بسبب غيخته عليها. فيجعلها ذلك في متناول السنة ضعاف الإيمان من الناس. بل والسنة السوء. وقد نَبَّهْنَا إلى أهمية هذه المسألة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وكـرم الله وجهه فقـال: " لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك " (2)...

ومن محافظة الرجل على زوجته أن يعتدل في الإنفاق عليها. فلا يشح في ذلك ولا يسرف. فالشح إفراط والإسراف تفريط. وأفضل

(1) ص79 من نفس المرجع السابق.

(2) ص85 من المصدر السابق.

تطبيق للاعتدال في الإنفاق هو الالتزام بقول الله عز وجل: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} [الإسراء: ٢٩]. وقد ورد أنه " كان لعلی رضى الله عنه أربع نسوة، فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحما بدرهم " (1) ..

ومن الأهمية بمكان أن يطعم الزوج زوجته ويكسوها وينفق عليها ويمدها وبيت الزوجية بكل ما يلزمهما من مال حلال. وعليه أن يبتعد عن المداخل المالية السيئة وألا يستسهلها من أجل إرضاء زوجته إن كانت دائما تشعره بالتقصير في الإنفاق. فاستسهال هذه المداخل المالية السيئة المحرمة جناية على زوجته يرتكبها في حقها وليس مراعاة لها وتحقيقا لمطالبها. وكانت النساء في عصر النبوة والخلفاء الراشدين والصحابه والتابعين - توصين أزواجهن بذلك. وفي هذا الإطار " هم رجل من السلف الصالحين بالسفر فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لِمَ ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة؟ فقالوا الزوجية: زوجة من عرفت أكلها وما عرفته رزاقا ولى رب رزاق. يذهب الأكال ويبقى الرزاق " (2). وهذا مثال للمفرط في حق زوجته وبيت الزوجية. فليس هذا التصرف من الزوج كما وصفته زوجته - من المروءة ولا من الرجولة ولا من الإسلام. فقد جعل الإسلام الزوج قيما على زوجته وبيته كما سبق القول. وليس من الإسلام في شيء أن يتوسع الرجل في الإنفاق على نفسه، وأن يمسك في الإنفاق على زوجته وأولاده وبناته وبيت الزوجية وكل من لهم حقوق عليه.

وما أروع توجيهه صلى الله عليه وسلم للمسلمين في هذا الشأن.

(1) ص86 من المصدر السابق.

(2) ص150 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - عبد العزيز الشناوى.

فقد روى عبد الله ابن عمر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت** — (1) ..

فالزوج مأمور من الله عز وجل ومن رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعاشر زوجته بالمعروف حتى لو كان يكرهها، وعليه أن يحاول جاهداً أن يجعلها طوع بنانه ورهن إشارته وتحت إمرته. وكلما أحاطها بالناية والرعاية كلما تخلصت من أنانيتها وتعاونت معه على إسعاد عاده وإسعادها وإسعاد عش الزوجية. يقول ربنا العظيم سبحانه: **{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}** [النساء: ١٩]. كما نهى الإسلام المؤمن عن أن يفرك زوجته؛ أى يكرهها بالكلية ويعاملها على هذا الأساس. فلا شك أنه سوف يجد فيها صفات حسنة كما يجد فيها صفات سيئة. وعلى الزوج المؤمن أن يتحمل ما يجده عند زوجته من صفات سيئة. وأن يحول انتباهها دائما إلى الصفات الحسنة والزوجة المؤمنة تتفاعل إيجابيا مع زوجها المؤمن فتحاول أن تتجه إلى الصفات الحسنة حتى يتعدل سلوكها فتفرض الصفات السيئة بالتدريج حتى تتصف بالحسن دائما وتبتعد عن القبيح من الأقوال والأفعال والصفات. وصدق الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إذ يقول: **لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضى منها خلقا آخر** — (2) ..

ومن ناحية أخرى على المؤمن أن يعلم أن البيت الإسلامى يقوم على الرعاية والتكافل كما يقوم على الحب. فليرعَ المؤمن زوجته

(1) مسند أحمد 81/11 وقرأ ص 184 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) رواه مسلم عن أبى هريرة 58/10 من النووى والبيهقى ص 499 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور. يفرك: يكره.

ويكفلها بعنايته، ويُحقق لها رغباتها التي لا تتعارض مع مبادئ الإسلام وتعاليمه؛ فربما يقوده ذلك إلى تبادل الحب بينهما، وخصوصاً وأن الإسلام ربط بينهما بميثاق غليظ تجب مراعاته من الطرفين. وإذا كان بعض الأزواج المؤمنين يتسلط عليهم الشيطان في لحظات غضب عارمة فيطلقون نساءهم المؤمنات بحجة أنهم يكرهونهن ويحرمون بناتهم من الميراث ويوزعونه على أبنائهم الذكور ويميزون بعض أبنائهم على بعض في قسمة الأموال والعروض - فإن الإسلام قد نهاهم عن فعل هذه الأمور التي تحرم الزوجين من السكن والمودة والرحمة التي يتمتع بها البيت الإسلامي⁽¹⁾.

وقد حدث في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن طلق غيلان ابن سلمة الثقفي نساءه وقسم ماله بين بنيه فبلغ ذلك عمر فقال: " إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك، فقفزه في نفسك، ولعلك ألا تمكث إلا قليلاً. وأيم الله، لثراجعن نساءك ولثرجعن مالك أو لأورثهن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم كما يرجم قبر أبى رغال " ⁽²⁾. وهكذا يمارس عمر بن الخطاب تشدده من أجل إحقاق الحق والعمل به وإبطال ما تبقي من أعمال الجاهلية من هضم حقوق المرأة وحرمان البنات من الميراث وعدم العدل في القسمة بين الأولاد وكل ذلك يزعزع أمن الأسرة الإسلامية ويهدد سعادتها على نحو لا يرضاه الإسلام. فانه سبحانه ولى التوفيق للزوج المسلم وزوجته المسلمة يهديهما إلى الاستقرار والسعادة المنشودة في ظل كتابه العزيز وسنة

(1) بتصرف من ص499 من منهج السنة في الزواج - للأحمدى أبو النور.

(2) رواه أحمد في المسند 277/6 - 380. وقرأ نفس الصفحة 499 من منهج السنة في الزواج. أبو رغال هو دليل أبرهة الحبشى إلى مكة المكرمة في حادث محاولة هدم الكعبة - مسند أحمد 13644.

نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم...

* * *

الفصل الثاني:

دور الزوجة المسلمة في إسعاد زوجها المسلم

لقد تبين لنا فيما سبق - أن للزوج المسلم دورا على جانب كبير من الأهمية، في إسعاد زوجته المسلمة. وأن أساس هذا الدور وقوامه، تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وأن ذلك ينعكس على بيت الزوجية فيحس الطرفان معه بالاستقرار في حياتهما الزوجية، كما يحسان بطعم جديد لها..

وكذلك الأمر بالنسبة للزوجة المسلمة. فإن دورها في إسعاد زوجها وبيتها الذي هو بيت الزوجية - في غاية الأهمية أيضا. وبصفة خاصة إذا أدته الزوجة كما ينبغي أن يكون. وحينئذ تزداد السعادة حلاوة. وربما يمتد شهر العسل ويستمر مع ذلك طوال حياتهما. فيجعلها كلها سعادة ربانية حلوة الطعم واضحة الأثر..

وأول بنود هذه السعادة المنشودة للزوج المسلم من قبل زوجته المسلمة - أن تتقوى الله سبحانه وتعالى، وتسعى إلى إرضاء زوجها وطاعته.. فتقواها الله جل جلاله تسلط لها الأضواء الكاشفة على طريق السعادة، فيظهر أمامها واضحا، ويجعلها تتصرف في كل أمور حياتها مع زوجها بما يوجبها عليها الشرع الإسلامي والعقل الإنساني المتأثر بهذا الشرع الرباني. وبهذا التوجه المتزن، تكون الزوجة المسلمة بعيدة عن أخطاء كثيرة تقع فيها الكثيرات من بنات جنسها، وبه تتطلع إلى الخير والصحة في كل تصرفاتها وسلوكياتها بعزيمة وإصرار. وكل ذلك يجعلها تحس مع زوجها بسعادة حقيقية مصدرها تقوى الله العلى القدير...

كما أن طاعتها لزوجها وحرصها على إرضائه تدخلها في دائرة الأمان والاستقرار - ما دامت ملتزمة بتقوى الله سبحانه وتعالى. فتحس بالمزيد من السعادة والهناء في حياتها الزوجية.

في القرآن الكريم

وفى القرآن الكريم منهج متكامل للزوجة المسلمة، يحتوى على الخطوط العريضة للتصرفات الصالحة والمقبولة في كل أمور حياتها مع زوجها، وفى بيتها الإسلامى الناشئ.. وتتضح بعض خطوط هذا البرنامج السماوى فى الآيات الكريمة التالية يقول الحق تبارك وتعالى مخاطباً زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمهات المؤمنين والقعدة الحسنة لبنات ونساء المسلمين جميعاً: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ

مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا تُوْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا
(٣١) يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ اِنْ اَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ
الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)
وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) { [الأحزاب: ٣١ - ٣٤]. وفيه ————— قول

عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ آدَنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٥٩﴾ [الأحزاب: ٥٩] ويقول أصدق القائلين سبحانه: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضَضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ

أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذَّيْبِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ [النور: ٣١]. ويقول المولى العظيم: {لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي
ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ
وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِبْرَأَةً اللَّهِ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} ﴿٥٥﴾
[الأحزاب: ٥٥] ويقول الحكيم العليم جل شأنه: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }
[الأحزاب: ٣٥]..

ومن خلال هذا البرنامج القرآنى الذي احتوته الآيات الكريمة
السابقة - نجد الله عز وجل يحدد طريق السعادة لزوجات رسوله
محمد صلى الله عليه وسلم ويرسمه بدقة حتى يسررن فيه ولا يحذن
عنه؛ فيصلن إلى الاستقرار والسعادة المنشودة في حياتهن الزوجية
مع زوجهن الأمين محمد صلى الله عليه وسلم. ومن الواجب أن
تقتدى بهن في ذلك سائر نساء المؤمنين في مشارق الأرض
ومغاربها.. فعلى الزوجة المسلمة في هذا الإطار الشرعى الإسلامى
- أن تطيع الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فأول ملامح طريق إسعاد الزوجة المسلمة لزوجها المسلم - هو
تقوى الله تعالى وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم..
وعليها أيضا أن تلتزم دائما بالعمل الصالح.. وعليها أن تقتدى في
ذلك بأمهات المؤمنين رضى الله عنهن جميعا؛ " حتى تأخذ أجرها
مرتين مثلهن؛ مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلب رضاء

زوجها بالقناعة وحسن المعاشرة " (1)، فيعد الله لها رزقا كريما في الجنة كزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم. " فهن في أعلى عليين ومنازلهن فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (2).

وعلى الزوجة المسلمة إذا أرادت أن تتقى الله تعالى في زوجها، أن تتجنب الرقة في الكلام مع الرجال، حتى لا يطمع فيها من كان في قلبه مرض كالفساد والريبة وحب محادثة النساء.

فإذا كلمت رجلا فليكن كلامها قولا حسنا لا ريبة فيه ولا تكسر. وقد قال ابن كثير رحمه الله في ذلك: " أى لا تخاطب الأجنبي كما تخاطب زوجها " (3) ..

وعلى الزوجة المسلمة إذا أرادت إسعاد زوجها أن تستقر في بيته فلا تخرج إلا لضرورة.. وعليها كذلك ألا تظهر زينتها ومحاسنها للأجانب كما كانت تفعل نساء الجاهلية. حيث كانت المرأة منهن تخرج إلى الأسواق لقضاء مصالحها، مظهرة محاسنها، كاشفة أجزاء من جسمها لا يليق بها كشفها. ومما كانت تظهره من ذلك، التمسك بالستر والتغنى

في المشية أى الدلال فيها. قال قتادة: " كانت لهن مشية فيها تكسر وتَعُجُج " (4) .. وبهذا التصرف المشين من هؤلاء النسوة الجاهلات

(1) ص58 من الجزء الثانى عشر من كتاب صفوة التفاسير - للشيخ المرحوم محمد على الصابونى - الطبعة الأولى سورة الأحزاب آية 31.

(2) ص452 من الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

(3) ص59 من القسم الثانى عشر من كتاب صفوة التفاسير الطبعة الأولى.

(4) تفسير الآية 59 من سورة الأحزاب من القسم الثانى عشر من المرجع السابق - والتعجج في المشية هو الدلال وبلهجتنا الدارجة الدلع والميوعة في المشى.

كان يتبع من تمشى هذه المشية نفوس وضيعة من الرجال الأشقياء والتعساء ليمارسوا معها الفاحشة. ولهذا نهى القرآن الكريم نساء المؤمنين من تقليد هؤلاء التعيسات في مشيتهن وسلوكهن.

وعلى الزوجة المسلمة كذلك إذا أرادت إسعاد زوجها المسلم - أن تقيم الصلوات الخمس وتحافظ عليها. وأن تخرج زكاة أموالها، وأن تطيع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما أمرا به وتنتهي عن كل ما نهيا عنه؛ لتتطهر من رجس وهواجس الشيطان الرجيم..

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تطلب من الزوجة المسلمة أن تحافظ على نفسها وعرضها وكرامتها خارج البيت - فإن كل ذلك مطلوب منها أيضا داخله. وذلك إذا دخل بيتها أجنبى فإذا خلت الدار من الأجانب، فلا مانع حينئذ من ترك الحجاب أمام محارمها من الرجال، وهم: أبوها، وأبنائها، وإخوانها، وأبناء إخوانها، وأبناء أخواتها، ونساء المؤمنين دون نساء الكفار؛ لأن النساء الكوافر لا يجدن غضاضة أوحرجا في أن يكشفن ويذعن أسرار المؤمنات اللاتي يدخلن بيوتهن، وكذلك تكشف الزوجة المسلمة في بيتها الحجاب عن ملك يمينها من العبيد لأنهم يخدمونها ويأتمرون بأوامرها. وقد قال القرطبي رحمه الله في سبب نزول آية الحجاب وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُّوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ لَكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الأحزاب: ٥٣]. قال القرطبي رحمه الله: "لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ونحن أيضا نكلمهن من

وراء حجاب؟ فنزلت الآية " (1). ويقصد القرطبي رحمه الله فنزل قوله تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءَ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ} الآية [الأحزاب: ٥٥].. وقد استنتجت آية المحارم نساء المؤمنين دون نساء الكفار لما سبق أن بيناه من كشف نساء الكفار لعورات وأسرار المؤمنات اللاتى يدخلن بيوتهن فيصفنهن لأزواجهن. وقد قال ابن عباس في بيان ذلك: " لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات. فلا يحل للمسلمة أن تبدى شيئاً منها لئلا تصفها لزوجها الكافر " (2)..

وعلى الزوجة المسلمة كذلك بعد تقوى الله في السر والعلن - أن تقرأ وتفهم آيات القرآن الكريم وسوره، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كانت تفعل أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أجمعين؛ لتزداد علماً بما هو مطلوب منها داخل بيت الزوجية وخارجه. وقد مر الحديث عن وجوب تعلم المرأة لتهيئة المناخ المناسب لسعادتها وسعادة زوجها في بيت الزوجية..

واستكمالاً للبرنامج القرآنى في حفاظ الزوجة المسلمة على زوجها المسلم - يوضح القرآن الكريم العديد من الصفات الكريمة التي يجب أن تتصف بها الزوجة المسلمة لتكون جديرة بزوجها وببيت زوجها المسلم. وهى صفات يشترك فيها الزوج المسلم مع زوجته المسلمة ليكون شريكاً لها في الأجر بقدر شراكتها في بيت الزوجية..

فالزوجة في الإطار الإسلامى مثل زوجها في الالتزام بمبادئ

(1) القرطبي 231/14. وانظر أيضاً تفسيرها في ص71 من القسم الثانى عشر من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للشيخ محمد على الصابونى.

(2) انظر حاشية الصاوى 287/3 وانظر ص71 من القسم الثانى عشر من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للشيخ محمد على الصابونى.

الإيمان والإسلام، وفي الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وفي الصدق في القول والفعل، مع النفس ومع الله ورسوله ومع الأقارب والجيران ومع الناس جميعاً، وفي الصبر على الطاعة والعبادة، والصبر على قضاء الله وقدره، وفي الخشوع لله عز وجل وحسن عبادته وطاعته، وفي إخراج زكاة المال وصدقة التطوع، وفي صوم رمضان وغيره من الأيام التي حبيب الإسلام الصيام فيها، مع استئذان زوجها فيما تصومه من غير الفريضة، وفي الامتناع عن فعل المعاصي والآثام وعن ممارسة الكبائر وبصفة خاصة الزنى ومقدماته، يقول تعالى: {وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} الآية [النور: ٣١]. وفي الإكثار من ذكر الله عز وجل والتمتع بفوائده. وهى بكل ذلك تشاركه في التمتع بالمغفرة والأجر العظيم من الله جل جلاله في الآخرة. علاوة على تمتعها في الدنيا بالعيش الكريم والسعادة في بيت الزوجية وإسعاد زوجها فيه وخارجه...

في السنة النبوية :

وفي السنة النبوية الكريمة أيضاً برنامج لاستكمال مظاهر التقوى عند الزوجة واهتمامها بزوجها وطاعتها له..

ومما ورد في إطار منهج السنة النبوية المباركة بشأن تقوى الزوجة المسلمة ومحافظةها على زوجها وبيتها - ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن: **يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ اتَّقِينَ اللَّهَ** والتمسْنَ مرضاة أزواجكن، فإن المرأة لو تعلم حق زوجها لم تزل قائمة **ماحضر غذاؤه وعشاؤه** — (2) ومن ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه

(1) كتبت هكذا في كتب الحديث خلافاً للقاعدة اللغوية.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية عن عليّ. وانظر ص 140، ص 141 من كتاب الزوجة

وسلم في طاعة المرأة لزوجها، وعدم خروجها من البيت إلا بإذنه: **﴿أَيُّهَا امْرَأَةُ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِهَا بِغَيْرِ إِذْنِ زَوْجِهَا كَانَتْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى تَرْجِعَ أَوْ يَرْضَى عَنْهَا زَوْجُهَا﴾** — (1) ..

ويدخل في هذا الإطار ما روته كتب السنة في محافظة الزوجة المسلمة على حقوق زوجها المسلم. فمن هذه الحقوق الواجبة للزوج على زوجته والتي يسعد بأدائها له ووفائها بها من أجل إسعاده - ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في إنفاق المرأة من مال زوجها: **﴿إِذَا أَنْفَقْتَ الْمَرْأَةَ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا غَيْرَ مَفْسُدةَ كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقْتَ وَلِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بِمَا اكْتَسَبَ وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ. لَا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَجْرِ بَعْضٍ شَيْئًا﴾** — (2) ..

والزوجة المسلمة المطيعة لزوجها المسلم والمؤدية لحقوقه، والذاكرة لفضله عليها، والتي لا تخونه في نفسها وماله - تكون مقربة عند الله في الجنة من منزلة الشهداء ويجعلها الله تعالى قرينة لزوجها في الجنة إذا كان صالح الدين والخلق في الدنيا. وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَمْرَةِ أَطَاعَتْ زَوْجَهَا وَأَدَّتْ حَقَّ زَوْجِهَا وَتَذَكَّرَتْ حَسَنَتَهُ وَلَا تَخُونَهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ إِلَّا كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ. فَإِنْ كَانَ زَوْجُهَا مُؤْمِنًا حَسَنَ الْخُلُقِ فَهِيَ زَوْجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ وَإِلَّا زَوْجُهَا اللَّهُ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾** — (3) ..

والزوجة المسلمة الحريصة على إسعاد زوجها وطاعته تسلم

المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

(1) رواه الخطيب ص 50 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي.
(2) رواه الشيخان عن عائشة ص 11 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي.

(3) رواه الطبراني في الكبير عن ميمونة ص 149 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى.

نفسها إليه إذا أرادها حتى لو كانت راكبة على ظهر جمل يسير في الصحراء. فتسعده وتسعد بسعاده. ولا تصوم يوما من غير الفريضة إلا بعد أن تستأذنه. فإن لم يأذن لها لم يصح صومها وكانت أثمة غير مطيعة له. ولا تهجر فراشه لأن الله عز وجل أثبت حق الهجر للزوج حال نشوز زوجته ولم يثبتها لها وقد رأينا سابقا أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها نفت أن تكون قد مارست هجرا لزوجها محمد صلى الله عليه وسلم وقالت له: " أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك " .. وعليها أن تبر بقسمه إذا أقسم عليها أن تفعل شيئا، إلا أن يأمرها بشئ مخالف للشرعية الإسلامية فعندئذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق جل وعلا. فطاعة الزوجة لزوجها واجبة في إطار تعاليم الشريعة الإسلامية وتوجيهاتها، حتى لو أمرها بفعل فيه ظلم لها. فعليها طاعته والتفاهم معه في رفع الظلم عنها. وسيترجع عن ظلمه لها إن كان قوى الإيمان.

وعليها في إطار الشرع الإسلامى ألا توطئ فراشه من يكره. بل عليها ألا تُدْخِلَ بيته هذا الذي يكرهه، لأن ذلك يعتبر خيانة لا يرضى عنها الله ورسوله والمؤمنون. وهناك من الأحاديث النبوية ما يدل على كل هذه الأمور المعبرة عن حقوق الزوج المسلم لدى زوجته المسلمة. ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿حق الزوج على زوجته ألا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، وألا تصوم يوما واحدا إلا بإذنه إلا الفريضة، فإن فعلت أثمت ولم يقبل منها، وألا تعطى من بيته شيئا إلا بإذنه، فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو تراجع وإن كان ظالما—** ⁽¹⁾ .. وقوله صلى الله عليه وسلم: **﴿حق الزوج على المرأة**

(1) رواه الطياليسى - القتب سرج يوضع على سنام الجمل يجلس فوقه الراكب. ص 67 من مختار الأحاديث النبوية عن ابن عمر.

ألا تهجر فراشه، وأن تبر بفسمه، وأن تطيع أمره، وألا تخرج إلا بإذنه، وألا تدخل عليه من يكره— (1) ..

ومن الواجبات الهامة على الزوجة المسلمة نحو زوجها المسلم، ألا تكلم أجنبيا إلا بإذنه. وكان شائعا في الجاهلية أن تُحَدِّث الزوجة أجنبيا عنها بغير إذن زوجها. فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك الفعل إلا إذا كان بإذن من الزوج؛ لأن حديث الزوجة إلى الأجنبي عنها بغير إذن زوجها يثير مشاعره ضد زوجته وبالتالي يوغر صدره عليها حيث يترجم هذا الفعل عن قلة حياء المرأة المتزوجة التي تفعل ذلك دون موجب له ودون إذن زوجها أيضا. ومن هنا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الفعل. فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم : " نهى أن تكلم النساء إلا بإذن أزواجهن " (2) .. حتى لو كان المتكلم في هذه الحالة هو شقيق الزوج. فكم من جريمة للزنى وقعت تحت شعار الحمو، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم حمو الزوجة بأنه الموت. فقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من دخول الرجال على النساء فقال صلى الله عليه وسلم : **إياكم والدخول على النساء—** فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله: أفرأيت الحمو؟ فقال صلى الله عليه وسلم : **الحمو الموت—** (3) فعلى الرغم من أن الحمو قريب للزوج قرابة مباشرة وقوية إلا أنه يعتبر أجنبيا عن زوجة شقيقه فيجب عليه إذا أُلّا يدخل عليها أو تدخل عليه إلا بمصاحبة زوجها، وألا يكلمها إلا بإذنه. ومن ناحية أخرى فقد يكون هذا الداخل إلى بيت الزوجية سواء أكان حموا أم غيره، أو كان

(1) رواه الطبراني عن نعيم الداري ص 67 من المرجع السابق.

(2) رواه الطبراني ص 154 من كتاب مختار الأحاديث النبوية للسيد أحمد الهاشمي.

(3) رواه البخاري ومسلم والترمذي ص 142 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوي.

رجلا أو امرأة ممن يكره الزوج دخولهم - ناقلا لأسرار بيت الزوجية، فيفشى سر الزوجة مع زوجها. وقد تكون الداخلة امرأة ممن يحلو لهن أن يفسدن الزوجة على زوجها، حقدا على الزوجين وبيتهما السعيد. وإذن فيجب على الزوجة المسلمة أن تأخذ حذرهما وتحترس من هذا النوع من النسوة اللاتي يخربن بيوت الزوجات المسلمات المستقيمات. وعلى الزوجة أن تطيع زوجها في أمر من يدخل بيتهما ومن لا يدخل؛ حفاظا على رباط الزوجية الذي يحترمه الإسلام، ويدعو دائما إلى الحفاظ عليه من الطرفين. وهى بذلك تساهم في إسعاد زوجها واستقرار بيتها وسعادته بقسط وافر، وذلك مما يعود عليها هى أيضا بالنفع والسعادة..

وفى كتب السنة النبوية الكريمة بشريات من رسول الله صلى الله عليه وسلم للزوجات المسلمات المطيعات لأزواجهن، بالأجر العظيم من الله تبارك وتعالى عند الحمل والولادة والرضاعة. وقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأجر بالزوجات المسلمات اللاتي لا تعصين أزواجهن ولا تكفرن بعشرتهن وتنتكرن لهم. ويقول النبی صلى الله عليه وسلم في ذلك مخاطبا سلامة مرضعة ولده إبراهيم حينما سألته رضى الله عنها - بعد أن دستها صاحباتها من النساء لذلك - عما يعود على النساء من فوائد الحمل والرضاعة والمعانة من ذلك دون الرجال: ^١أما ترضى إحداكن إذا كانت حاملا من زوجها وهو عنها راض أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله؟ وإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفى لها من قرة أعين. فإذا وضعت لم يخرج من لبنها جرعة ولم يمص من ثديها مصة إلا كان لها بكل جرعة حسنة وبكل مصة حسنة. فإن أسهرها ليلة كان لها مثل أجر سبعين رقبة تعتقهم في سبيل الله.. سلامة.. أتدرين من أعنى بهذا؟ المتنعمات الصالحات

المطيعات لأزواجهن اللائي لا يكفرن العشير — (1) ..

وكانت أول المبشرات بالجنة من النساء جزاء ما قدمت لزوجها من دعم وطاعة وإيمان والتزام بكل واجبات الزوجة على زوجها - أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها، التي كانت أيضا أولى زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد ساعدته ماديا ومعنويا حتى شرع في تبليغ رسالته الخالدة وكانت سببا في صموده أمام أعداء رسالة الإسلام وكانت أول من آمن به من النساء. ومن أجل ذلك أُمِرَ المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يبشرها ببيت في الجنة من الذهب. وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أُمرتُ أن أُنشِرَ خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب** — (2) ..

وليس هذا فحسب فكثيرا ما كان صلى الله عليه وسلم يوصي النساء بطاعة ربهن وأزواجهن، وبأداء حقوق الزوج على زوجته بكل رضا وطواعية.. ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء بالتزامهن بطاعة أزواجهن وأدائهن لحقوقهم كاملة - ما قاله صلى الله عليه وسلم في لقائه ببعض نساء المسلمين، حيث قال صلى الله عليه وسلم: **﴿يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار، فإنّي رأيتهن أكثر أهل النار﴾** فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار!! قال: **— تكثرن اللعن وتكفرن العشير.** وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى لب منكـن**. —** قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال صلى الله عليه وسلم: **﴿أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا من نقصان العقل، وتمكث الليالي**

(1) رواه الطبرانی في الأوسط وابن عساكر ص 142، ص 143 من المرجع السابق.
(2) أخرجه الخطيب والطبرانی ص 50 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوي. قصد: ذهب.

ما تصلى وتفطر في رمضان، فهذا من نقصان الدين — (1) ومن ذلك أيضا ما روى في حديث ابن عباس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم: **﴿ورأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط، أقطع، ورأيت أكثر أهلها النساء — قالوا: لِمَ يا رسول الله؟ قال: ﴿لِكفرهن — قيل: أيكفرن بالله؟ قال: ﴿يكفرن العشير ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط — (2)﴾**..

وهذا الصنف من النسوة الذي تحدث عنه النبى صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف - هو الذي حذر منه الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم سلامة مرضعة ولده إبراهيم. فهن يظلمن أزواجهن ولا يقمن بحقهن عليهن.. فالرسول صلى الله عليه وسلم يحذر المسلمين والمسلمات من مخالطتهن والسماح لهن بزيارة النساء العفيفات المؤمنات الطائعات اللائى يقمن بحق أزواجهن، وقد شرع الاستئذان قبل الدخول مراعاة لمثل هذه الأحوال حتى تحفظ زوجات المسلمين أسرارهن وأسرار بيوتهن فلا تتمكن ضعيفات الإيمان والناقلات لأسرار المسلمات من نساء اليهود والنصارى من نقلها إلى أزواجهن الكفار. وإذن فطاعة الزوجة لزوجها في مثل هذه الأحوال واجبة لما ذكرناه من أسباب.

وعلى الزوجة المسلمة إذا أرادت إسعاد زوجها المسلم وبيتها المسلم - طاعة زوجها طاعة مطلقة في كل ما يطلبه منها، مما لا

(1) رواه البخارى وابن ماجة ص137 من كتاب من كنوز السنة - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى - جزلة: أى ذات رأى وشجاعة قاله ابن الأثير والمقصود أنها قوية شديدة في كلامها. وارجع إلى الهامش في الصفحة السابقة بشأن يا معشر النساء.
(2) أخرجه البخارى عن مالك عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عباس. ص132، ص133 من موطأ مالك - طبعة الشعب.

معصية فيه لله ورسوله. فقد جعلها الإسلام عنده كالرقيقة من حيث وجوب طاعته في كل ما يأمرها به. والزوجة المسلمة تثاب على هذه الطاعة ثوابا عظيما من رب العزة سبحانه وتعالى. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أَيُّهَا امْرَأَةُ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ — (1)**..

وقد يكون من ثواب المرأة في طاعتها لزوجها أن يغفر الله لأبيها إذا كان مذنباً. فقد " خرج رجل إلى سفر وعهد إلى امرأته ألا تنزل من العلو إلى أسفل. وكان أبوها في الأسفل فمرض. فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن في النزول إلى أبيها، فقال لها صلى الله عليه وسلم: **أَطِيعِي زَوْجَكَ —** فمات - الوالد - فاستأمرته، فقال: **أَطِيعِي زَوْجَكَ —**. فدفن أبوها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يخبرها " أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها " **(2)**.

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: " أتت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إني فتاة أخطب فأكره التزويج، فما حق الزوج على المرأة؟ قال: **أَطِيعِي زَوْجَكَ**؟ قال: لو كان من فرقه إلى قدمه صديد فلحسته ما أدت شكره —. قالت: أفلا أتزوج؟ قال: **أَطِيعِي زَوْجَكَ**؟ قال: بلى تزوجي فإنه خير — **(3)**..

(1) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أم سلمة ص 50 من كتاب مختار الأحاديث النبوية للسيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس إلا أنه قال: غفر لأبيها. وفي ص 145، ص 146 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى رواية مشابهة.

(3) رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبى هريرة دون قوله " بلى تزوجي فإنه خير " - الفرق: فاصل بين صفتين من الشعر في الرأس.

ولقد صور رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الزوج على الزوجة تصويراً واقعياً في غاية الروعة فقال: **لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق** - (1). وإيضاحاً لتلك الصورة ولحقيقتها يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء - لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها** - (2) ..

ومن حق الزوج على زوجته ألا تؤذيه بأى نوع من الإيذاء. والزوجة المؤمنة الصالحة تحرص على ذلك كل الحرص حتى لا تفقده في الآخرة. فقد روى معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا تؤذى امرأة زوجها في الدنيا إلا قال: زوجتـــه من الحـــــور العـــــين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخیل يوشك أن يفارقك إلينا** - (3) ..

ويدخل في هذا الإطار ما تفعله بعض النساء مع أزواجهن من التمتع إذا أرادوهن، تمنعاً بغير مانع شرعى عندهن. وقد حذرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ونفّر منه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **لعن الله المغسلة إذا أرادها زوجها قالت: أنا حائض** - (4) .. وهى بالطبع ليست كما قالت. إذ لو كانت حائضاً ما

(1) رواه أبو داود ص122 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى.

(2) رواه ابن ماجه عن معاذ ص487 من منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور

(3) رواه الترمذی وابن ماجه وأحمد ص235 من الزوجة المسلمة والبيت السعيد للأستاذ عبد العزيز الشناوى.

(4) رواه البخارى في التاريخ عن أبى هريرة ص141 من المرجع السابق.

أرادها زوجها المسلم؛ لأن الله عز وجل خاطب الأزواج المسلمين ونهاهم عن إتيان زوجاتهم إذا كن في فترة الحيض، فقال جل شأنه: {فَاعْزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ} [البقرة: ٢٢٢]. فقد نهى الله الأزواج المسلمين عن مجامعة نسائهن في أثناء حيضهن وإلى أن يتطهرن منه.. ومن هذا القبيل كذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر النساء المتزوجات من التسويف إذا أرادهن أزواجهن. فبعض النساء يتظاهرن بالقبول إذا أرادهن أزواجهن ويراوغنهم إلى أن يغلبهم النوم. وقد حذر صلى الله عليه وسلم المتزوجات من ذلك فقال: **لَعَنَ اللَّهُ الْمُسَوِّفَاتِ** التي يدعوها زوجها إلى فراشه فتقول: سوف حتى تغلبه عيناه — (1) ..

كما أن الزوجة المسلمة التي تعمل على راحة زوجها المسلم وإسعاده - عليها أن تقوم بكل خدمة تقدر عليها في بيت زوجها. وهذا يؤدي بالفعل إلى رضا الزوج وسعادته فتتمتد هذه السعادة وتستمر وتؤثر فيه خير تأثير.. وقد ضربت أسماء بنت أبي بكر الصديق - ذات النطاقين - رضى الله عنها مثلاً أعلى في هذا الشأن يجب أن تقتدى به كل زوجة مسلمة. فقد روى عن أسماء رضى الله عنها أنها قال:

" تزوجني الزبير، وماله في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء غير فرسه وناضحه. فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحه وأعلفه، وأستقي الماء، وأخرز غربه وأعجن. وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر جارية فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني. ولقيت رسول الله

(1) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر ص 141 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - عبد العزيز الشناوى.

صلى الله عليه وسلم يوماً ومعه أصحابه، والنوى على رأسى، فقال صلى الله عليه وسلم آخ آخ، لينىخ ناقته ويحملنى خلفه؛ فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس؛ فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى استحييت فمضى. فجئت الزبير، فحكيت له ما جرى، فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشد على من ركوبك معه " (1) وبهذا قدر الزوج تعب زوجته.. فقد قدر الزوج تعب زوجته من أجله ومن أجل سير بيت الزوجية على أحسن حال.. وكانت النساء في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهن قدوة حسنة لغيرهن من النساء في عصور الإسلام المتلاحقة - تحرص كل الحرص على إرضاء أزواجهن وطاعتهم وخدمتهم، لينلن الأجر العظيم من الله جل جلاله يوم القيامة.

فعن أسماء بنت يزيد الأنصارية، أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه، فقالت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك للرجال وللنساء كافة، فأما بك وبإلهك، إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالحج والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وأن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً - حفظنا لكم أولادكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم، أنفشاركم في الأجر والخير؟. فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: ٥هل سمعتم

(1) روته أسماء بنت أبى بكر - متفق عليه. ص102 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السيد الشرقاوى - الطبعة الثانية عام 1986 وانظر كتاب الزواج الإسلامى السعيد - لأبى حامد الغزالى - تحقيق محمد عثمان الخشت - يونيو 1984 ص115. ناصحه: بغيره الذي ينضح له الماء - أحرز عزبه أخيط دلوه وأزينه.

مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟- فقالوا: يارسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا.. فالتفت النبي إليها فقال: **أفهمي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء، أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله-** فانصرفت المرأة وهي تهلل، حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحن وآمنَّ جميعهن " (1) ..

ويصور الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم مدى أحقية الزوج المسلم بطاعة زوجته المسلمة له وحسن معاملتها له وتحملها لما يحدث منه من إيذاء لها غير متعمد، أو متعمد لا يمثل خطورة على الحياة الزوجية، ولا يؤثر في أدائه لحقوقها عليه كزوجة، فيقول نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم لامرأة جاءت تسأله عن حق ابن عمها عليها كزوجة له: **من حقه أن لو سال منخراه دما وقيحا فله حسته بلسانها ما أدت حقه، ولو كان ينبغي لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها إذا دخل عليها لما فضله الله عليها-** فما كان من المرأة السائلة إلا أن قالت: والذي بعثك بالحق لا أتزوج ما بقيت الدنيا " (2) ..

وعلى الرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد بحديثه للمرأة السائلة أن يصرف نظرها عن الزواج، فإن المرأة خافت من أن تقصر في حق من حقوق زوجها فتحاسب على ذلك فأثرت عدم الزواج من وجهة نظرها كما فهم من النص..

(1) رواه مسلم - المرأة العربية 36/3 من كتاب المرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر - للمرحوم الدكتور عبد الله شحاته ص73، ص74. تهلل أى تقول لا إله إلا الله.
(2) رواه البزار والحاكم عن أبي هريرة ص139 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى.

وحتى تتمكن الزوجة المسلمة من أداء رسالتها في بيت الزوجية وترعى زوجها وأولادها وبناتها، وتعطى كل ذى حق حقه - أوجب عليها الإسلام التعلم، منذ صغرها وحتى تصل إلى بيت الزوجية، تماماً كما أوجبه على الرجل. ولكل مرحلة قسطها من التعلم.. فالبنات تتعلم وتزود نفسها من العلوم المختلفة حتى تزداد معارفها وتصل إلى ما ينفعها من العلم في حياتها العملية قبل دخولها معترك هذه الحياة. وقد ورد في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما يفيد وجوب هذا التعلم ويحث عليه؛ ففي القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى: {وَأَذْكُرْ مَا يَنْتَلِي فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} [الأحزاب: ٣٤]..

فطلب العلم واجب على أمهات المؤمنين بنص الآية الكريمة. ومن ثم فهو واجب على كل المسلمات ممن تعيش منهن وممن تأتي بعدهن إلى يوم القيامة، أن يطلبن العلم النافع في جميع مجالات الحياة الدنيا والآخرة.. ويقول المولى الكريم سبحانه: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ وَالْمَلَكُ وَالْعِلْمُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

فأولو العلم من الرجال والنساء شهدوا مع الله عز وجل وملائكته أنه سبحانه واحد لا إله غيره في الكون، عادل في قسمته للأجال والأرزاق. فلا معبود بحق إلا هو جل جلاله. وكثير من آيات القرآن الكريم تفيد بأن أهل العلم من الرجال والنساء هم أهل الإيمان والتقوى الذين يتصفون بكل الصفات الحميدة التي وردت في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع آية لهذه الصفات هي قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَتَقَوَّى وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ
وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فكل الصفات التي وردت في الآية الكريمة لا يتصف بها عادة إلا أهل العلم من الرجال والنساء. فانه جل جلاله قد سوى بينهم في التكليف كما سوى بينهم في الأجر والثواب..

أما في السنة النبوية المباركة فهناك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تدل على أن طلب العلم مفروض على الرجال والنساء على حد سواء. وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل بصفة عامة على أن طلب العلم واجب على كل مسلم ومسلمة.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد في سبيل الله عز وجل** — (1) ومنه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: **من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين** — (2). فلفظ (من) يدل على الرجال والنساء جميعا. ومن هذه الأحاديث الشريفة كذلك، قوله صلى الله عليه وسلم: **طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر** — (3). وقد ورد هذا الحديث لابن عبد البر برواية أخرى فيها: " طلب

(1) رواه الديلمي ص93 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه الشيخان عن معاوية ص166 من المرجع السابق.

(3) رواه ابن عبد البر عن أنس ص93 من المرجع السابق.

العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " (1) ..

وكذلك أوجب الإسلام على المرأة والبنات أن تحيط علما بعلوم عصرها النافعة لها ولبيئتها وأسرتها ومجتمعها الإسلامى. وأن تحيط بالفنون النافعة لها في حياتها الأسرية كالتطهى والغزل والنسج. كما أمر الإسلام أن تتجنب المرأة والبنات الفنون الهابطة غير النافعة فهى تضر ولا تنفع كالرقص والتمثيل الهابط، وكذلك الغناء بالنسبة للنساء فهو من الفنون غير الشرعية..

ومن الأهمية بمكان أن يعلم القائمون على الأمر في مختلف أقطار العالم الإسلامى - أن ما تتعلمه الفتاة من علوم وفنون مشروط بإنشاء مدارس ومعاهد وكليات خاصة بالبنات والنساء، وذلك لتجنب حدوث المشاكل العديدة التي تنتج عن اختلاط النساء بالرجال والفتيات بالشباب. وخصوصا في المجتمعات التي لم تنضج فكريا ولم تنهيا لهذا الاختلاط بالأخذ الحاسم والدقيق بتعاليم الإسلام ومبادئه فيحدث نتيجة لذلك ما لا تحمد عقباه. وليس هذا فحسب بل الواجب الأهم هو إعداد جيل من المدرسات والخبرات المتخصصة في مختلف فروع العلم النافع تزود به هذه المدارس والمعاهد والكليات النسائية.

وهذا مما يساعد النساء والفتيات على الإحاطة بالعلوم النافعة دون حرج، وبحرية تامة بعيدا عن الخزى والحرص التي تصاب به الفتيات والنساء في دور العلم المختلطة مما يترتب عليه غياب النفع

(1) صحح في الجامع الصغير بعض طرقه. ص73 من كتاب المرحوم الدكتور عبد الله شحاته: المرأة في الإسلام بين الماضى والحاضر - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984م.

التام من العلوم المدروسة على اختلاف أنواعها(1)..

ويؤيد هذا المسلك الإسلامي ما ورد في كتب السنة النبوية الكريمة من أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من الشفاء بنت عبد الله العدوية وكانت كاتبة في الجاهلية والإسلام - أن تعلم أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها تجويد الكتابة وتحسينها. ولم يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك من رجل أو شاب، وذلك على الرغم من قوة إيمان هذا الجيل من الشباب والرجال الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتزامه بتعاليم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وقد ورد عن البلاذري قوله: قال النبي صلى الله عليه وسلم للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب: " ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة " (2).. ففي هذا الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم يحث المرأة على أن تعلم المرأة. وفيه تشجيع للأخذ بهذا الاتجاه.

وفي رسالته التي كتبها عن التعليم وتحدث فيها عن وجوب تعلم المرأة والبنات القرآن الكريم والعلم النافع - حث أبو الحسن القابسي المتوفى عام أربع مائة وثلاثة من الهجرة - على عدم اختلاط الرجال والشبان بالنساء والفتيات بحجة التعلم. وقد استدل على ذلك بقول سحنون - وهو عالم وفقيه مالكي: " أكره للمعلم أن يعلم الجوارى

(1) يتصرف واختصار من كتاب الاختلاط وما ينتج عنه من مساوئ الأخلاق - للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود - رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية - بدولة قطر ص28 وما بعدها.

(2) من فتوح البلدان للبلاذري ص458. وأقرأ ص77 من كتاب المرحوم الدكتور عبد الله شحاته: المرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر - رقية النملة: تحسين الكتابة بالأنامل أى الأصابع.

ويخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن " (1) وأقل درجات هذا الفساد هو أن يعطلهن عن التعلم المفيد..

ورغم كراهية علماء المسلمين لاختلاط الرجال بالنساء والشباب بالفتيات من أجل التعلم فقد يصبح هذا الاختلاط مباحا للضرورة على حذر إذا حدث نضوج فكري في أقطار المجتمع الإسلامي بين الشباب والفتيات والرجال والنساء وتمسك الجميع بتعاليم ومبادئ الكتاب والسنة وعضوا عليها بالنواجذ وتمسكوا بها خير تمسك لتعصمهم من فتنة الاختلاط ومفاسده..

وفى ظل التحفظ وعدم الاختلاط بين الرجال والنساء سجل التاريخ الإسلامي جيلا من النساء العالمات الفقيهات المشتغلات بالعلوم المختلفة وفى مقدمتها علم القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة(2) كالحديث النبوى الشريف والفقه الإسلامى وغيرها من العلوم الإسلامية.. وكانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها على رأس هؤلاء النسوة. " فقد كانت عالمة جليلة تحدث الناس وتصحح للصحابة وتفتيهم وتستدرك على فتاويهم وأقوالهم، حتى ألف الإمام الزركشى كتابا أسماه: الإجابة لإيراد ما تستدركه عائشة على الصحابة " (3) وقد رأينا العديد من نساء هذا الجيل المبارك الذي ترأسه بعض أمهات المؤمنين زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم كن يشغلن بمختلف الفنون اللازمة للمرأة في السلم والحرب... وقد ورد ذكر بعض هذه الفنون في القرآن الكريم، وأكثرها في كتب السنة النبوية المباركة..

(1) ص78 من المرجع السابق.

(2) المرجعين السابقين يتصرف واختصار من فتوح البلدان للبلاذرى ص458 وما بعدها، والمرأة في الإسلام بين الماضى والحاضر ص77 وما بعدها.

(3) ص81 من كتاب الدكتور عبد الله شحاته: المرأة في الإسلام بين الماضى والحاضر.

ففي القرآن الكريم: ورد في سورة القصص ما يشير إلى اشتغال ابنتي نبي الله شعيب عليه السلام - على اختلاف الروايات في نسبة البنيتين إلى شعيب عليه السلام أو أخيه - بالرعى. قال تعالى على

لسان موسى عليه السلام: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} [القصص: ٢٣]. حيث وجدهما موسى عليه السلام تبعدان غنمهما عن مكان السقي حتى يخف الزحام فسقى لهما موسى لما علم بعدم وجود أحد معهما يقوى على السقي في الزحام وعلى رفع الحجر الذي يغطي البئر والذي لا يطبق رفعه إلا عشرة رجال فرفعه موسى منفردا وأعاداه بعد سقى غنم البنيتين (1).

وفى سورة النحل ما يشير إلى اشتغال بعض النساء بحرفة الغزل. وذلك في قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَا} [النحل: ٩٢] الآية. والآية الكريمة تشير إلى امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد انبرامه (2)..

وفى سورة النمل يخبر الهدد سليمان عليه السلام بأن مملكة سبأ تملكها امرأة كانت تشتغل بالملك ورئاسة الدولة. وقد ورد ذلك في

قوله تعالى: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ} [النمل: ٢٢] إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش

(1) ص 363 من الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم - لابن كثير.
(2) نسب هذا القول إلى عبد الله بن كثير السدي ص 566 من الجزء الثاني من تفسير ابن كثير

عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ {النمل: ٢٢ - ٢٣}. وفى سورة البقرة تشير آية كريمة إلى اشتغال بعض النساء بالإرضاع بأجر لمن تحتاج إليه. فيقول الله عز وجل: {وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أَنْيُمَ بِالْمَعْرُوفِ} {البقرة: ٢٣٣} وفى سورة الطلاق: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْهُ لَهٗ أُخْرَى} {الطلاق: ٦}.. فكل هذه الحرف والفنون تعلمتها بعض النسوة وبرعن فيها وأتقنها واشتغلن بها بعد ذلك..

أما في مجال السنة النبوية المباركة، فتشير بعض الأحاديث النبوية الشريفة إلى بعض هذه الحرف التي تعلمتها بعض نساء المسلمين وبرعن فيها واشتغلن بها. فبالإضافة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق والذي يحث فيه الشفاء على تعليم حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها كيف تحسن الكتابة - ورد من الأحاديث الشريفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشير إلى أنه علم فاطمة الزهراء رضى الله عنها كيف تعالج الجروح حتى تتدخل في إحدى الغزوات. وأن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها وبعض الصحابيات كن يضمنن الجرحى ويسقين العطاش⁽¹⁾. وأن أم حرام رضى الله عنها ركبت أول أسطول عربى مقاتل في البحر المتوسط فسبقت بذلك المرأة العربية المسلمة نظيرتها في كل أنحاء العالم في ركوب البحر للجهاد في سبيل الله منذ أربعة عشر قرنا من الزمان وهو ما لم يحدث حتى الآن بطريقة منظمة في العالم كله شرقه وغربه. فعن أنس بن مالك رضى الله عنه: " كان رسول الله صلى

(1) ص 95 من كتاب الدكتور عبد الله شحاته في المرأة في الإسلام بين الماضى والحاضر، وحديث أنس في سقى عائشة وأم سليم الجرحى ص 237 من الجزء الثانى من كتاب اللؤلؤ والمرجان.

الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان فقتلته. وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته وجعلت تَقْلِي رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك: قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: **ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة - أو مثل الملوك على الأسرة - شك إسحاق -** فقالت: قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك. فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: **ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله - كما قال في الأول -** قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: **أنت من الأولين -** فركبت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان فصُرعت على دابتها حين خرجت من البحر فهلكت " (1) ..

ومن ناحية أخرى اشتهرت زينب طيبة بنى عواد بطب الأبدان والعيون (2) .. وقد مر بنا اشتغال بعض النساء بالغزل كما ورد في الحديث السابق لأسماء بنت يزيد الأنصارية وبغيره من الحرف النافعة للمرأة في حياتها العملية.

وهكذا نرى حرص الإسلام على تعليم البنات والمرأة ما يصلح من شأنها وشأن زوجها وبيتها وأولادها وبناتها في صغرها وكبرها. وخصوصا في هذا العصر الحديث الذي اشتدت فيه العداوة للإسلام والمسلمين وشنّت فيه حروب كثيرة من دول قوية على شعوب

(1) رواه عبد الله بن يوسف عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك ص 17 من الجزء الثاني من صحيح البخارى، عناية الدكتور محمد تامر.

(2) تطور النظرية التربوية - صالح عبد العزيز ص 67 طبعة عام 1947م.

ضعيفة لم ترتكب جرماً إلا أنها تمسكت بديانة الإسلام وطبقت تعاليمه، وحدث هذا تحت ستار محاربة الإرهاب وتحرير المرأة. وتسلمت فيه الأضواء على المرأة والبنات المسلمة في محاولة مكشوفة لدفعها إلى ترك الحجاب والتحرر من أحكام الدين الإسلامي وتعاليمه، التي تحفظهما من الذل والهوان وارتكاب المعاصي والآثام، وتقليد الدول غير الملتزمة بهذه الأحكام⁽¹⁾ حتى يكون الجميع سواسية في المذلة والامتهان، ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك العلام.

وما أشبه الليلة بالبارحة حيث يحارب الحجاب الآن في العديد من الدول الإسلامية فضلاً عن الدول غير الإسلامية وأقرب الأمثلة إلى الأذهان ما حدث في الدولة الألمانية حيث قتل متعصب ألماني امرأة مسلمة واتهمها بممارسة الإرهاب لا شيء إلا لأنها منقبة. وهذا هو الدافع الأساسي وراء قتلها.. كما يدنس القرآن الكريم ويداس بالأقدام في العديد من بلدان العالم ويستهزأ برسالة الإسلام وبرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم كجزء من محاربة البعض للإسلام والمسلمين تحت ستار محاربة الإرهاب لا شيء إلا للغل والحسد والعداوة غير المبررة للإسلام والمسلمين وآخر ما تم في هذا المجال تهديد قس أمريكي بحرق المصحف إذا أنشئ مركز إسلامي في مكان أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وقد استنكر هذا التهديد المسلمون جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها. واستنكر ذلك أيضاً غير المسلمين من بعض الدول الأجنبية.

فإذا كانت الزوجة عالمة بما يجب عليها نحو زوجها وأولادها

(1) ص12 من كتاب المرأة والسياسة في صدر الإسلام - للدكتور أحمد الكبيسي. مكتبة 14 المكتبة بالعين أبو ظبي.

وبناتها وبيتها ومجتمعها الإسلامي، ومؤدية كل حقوق زوجها الشرعية - فإن كل ذلك من شأنه أن يجعلها تنجح في الصمود أمام أعدائها فيسعد الزوج بزواجه وبحياته الزوجية، مما يجعله يضحى من أجلها ومن أجل سعادتها في هذا البيت الإسلامي بكل ما يملك، ويؤدي حقوقها على أحسن وجه. فينتج عن ذلك الوصول للغاية الإسلامية النبيلة من الزواج وهي السكن والمودة والرحمة بين الزوجين، مما يجعلهما دائمي الحفاظ عليهما. بفضل إيمانهما و إخلاصهما وتقواهما. يقول الحق
تبارك وتعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم: ٢١].

* * *

الفصل الثالث:

اهتمام الإسلام بالإنجاب والحمل والمولود

يهتم الإسلام بهذه المسائل الثلاثة اهتماماً ملحوظاً. إذ أن حب الإنجاب، والرغبة فيه من كل المسلمين والمسلمات، والشروع في تحقيقه، بتحقيق الحمل ورعايته في كل مراحله، وتنويجه بالولادة الطبيعية والإشراف الدقيق عليها - كل هذا يعتبر من أهم العوامل التي توصل إلى الهدف المنشود من تواجد الإنسان على وجه الأرض، وتعميرها. بمخلوقات الله تبارك وتعالى، وأهمها الإنسان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهو هدف يؤدي حتماً إلى سعادة البشرية، وعلي وجه الخصوص سعادة المسلمين، أفراد وأسر ومجتمعات...

أولاً اهتمام الإسلام بالإنجاب:

واهتمام الإسلام بالإنجاب واضح وبيان. إذ يعتبر ركيزة هامة ودعامة أساسية من الدعائم التي تبني عليها سعادة الأسر المسلمة في الدارين. فالبنسبة للدنيا يبين ربنا عز وجل أن زينتها المال والبنون. فيقول سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [٤٦] {الكهف: ٤٦}. ويقول الخالق الرازق الكريم سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢] ويقول الحكيم العليم جل شأنه: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ {آل عمران: ١٤}. وقد علم الإسلام الزوجين المسلمين الإيمان بالله عز وجل، والرضا بما قسم به سبحانه. ولا يَشُكُّ مسلم أو مسلمة في أنه جل في علاه عليم بما يصلح عباده المؤمنين. فقد يكون إنجاب البنين فيه السعادة المنتظرة. وقد يكون إنجاب البنات هو مصدر هذه السعادة. وقد تكون السعادة في إنجابهما معاً. وقد تكون في عدم الإنجاب مطلقاً، لعلها يعلمها علام الغيوب عز وجل. وربنا العظيم، عليم خبير، قادر على تهيئة الخير وإعداده وتسهيله لمن يطلبه منه وحده دون شريك. وإذن فالواجب على الأزواج والزوجات المسلمين والمسلمات، تسليم الأمر لله تعالى وحده والرضا بقضائه وقدره. حيث يقول في محكم تنزيله: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ عَاقِبًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

وقد ينزعج الزوج ويحزن ويجزع، إذا لم ينجب الولد، خوفاً من أن ينقطع ذكوره إذا مات على ذلك. حيث يقول صلى الله عليه وسلم: **♂: لا يدع أحدكم طلب الولد فإن الرجل إذا مات وليس له ولد انقطع اسمه — (١).** لكن ينبغي على الإنسان المسلم ألا يقنط من رحمة الله تعالى. وعليه أن يطلب منه عز وجل الولد، وأن يأخذ بأسباب ذلك. وقد أشار القرآن الكريم إلى أهم هذه الأسباب في قوله سبحانه {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾} [نوح: ١٠ - ١٢]. وقد أشار إلى ذلك الإمام زين العابدين محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أبي حفصة ص 16 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبدالعزيز الشناوي

عنهم كما سبق بيانه⁽¹⁾. وليس على الزوج وزوجته في هذا الشأن إلا أن يتوجها إلى الله جل جلاله بقلبين خاشعين مؤمنين، ويقولوا ما يقوله عبـاد الـرحمن

{رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤]، أو يقولوا ما قاله زكريا عليه السلام في هذا المقام: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: ٣٨].

وتبياننا للمزيد من الاهتمام بالإنجاب الإنساني - يخبرنا أصدق القائلين سبحانه في محكم كتابه أنه خلق الإنسان منذ بدايته في صورة أحسن من صورة غيره من المخلوقات. فيقول ربنا العظيم: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [التغابن: ٣]. ويقول تعالى ذكره: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]. حيث خلقه سبحانه حسن الصورة، منتصب القامة لا يمشي على أربع كما تمشي الحيوانات والوحوش، ولا يمشي على بطنه كالثعابين وبقية الزواحف، وخلقه متناسب الأعضاء يتناسب كل عضو فيه مع بقية أجزاء جسمه، وزينه بالعلم والفهم والعقل والتميز والنطق والأدب. فهو بالجملة وباختصار كما قال مجاهد: في أحسن صورة وأبدع خلق⁽²⁾.

وللدلالة على اهتمام الله عز وجل بالإنجاب الإنساني بين القرآن الكريم أن كل أنثى ومنها أنثى الإنسان تحمل بعلمه سبحانه وتقديره. وأنه جلت قدرته يعلم ما تطرده الأرحام من نطف لا يريد سبحانه لها النمو والازدياد والاكتمال، ويعلم ما يريد لها ذلك من النطف التي

(1) تحت عنوان اختيار الزوجة الولود.

(2) تفسير الطبراني 30، 156. وانظر ص 77 من القسم العشرين من الطبعة الاولى من كتاب صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.

تبقى في الأرحام وتنمو وتزداد وتكتمل. وأن كل ذلك يسير في الأرحام بتقديره جل شأنه. وذلك في قوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ

أُنْثَىٰ وَمَا تَعْبِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾} [الرعد: ٨ - ٩]. فمن حُسْنُ الخلق وبديع الاهتمام من الله الخالق البارئ المصور سبحانه بالإنجاب - أن مراحل خلق الإنسان تسير بعنايته عز وجل وتقديره الحكيم، الذي يزود الإنسان المخلوق منذ بداية تكوينه بما يجعله إنسانا سويا فيجعل له سمعا وبصرا وقلبا تتم كلها بإرادة الخالق العليم الحكيم. ويتوج هذا كله بنفخ الروح في هذا الجسد الإنساني، ليبداً رحلة الحياة الدنيا كما قدرها له خالقه العظيم. وسنتكلم عن ذلك كله في الحديث عن الحمل إن شاء الله. ويكفي هنا أن نشير إلى قوله تعالى: {لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ

مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي رَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾} [المرسلات: ٢٠ - ٢٣]. فقد خلق القادر سبحانه النطفة، التي تقذف في رحم المرأة، وحفظها هناك، وأقرها في مكان أمين، لتسير دورتها كما قدر لها خالقها العظيم..

ونشير إلى قوله تعالى: {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾} [البلد: ٨ - ١٠]. فهو دليل واضح من أدلة اهتمام الخالق عز وجل بالإنجاب الإنساني وتحسينه وتمييزه على غيره من المخلوقات. فقد جعل له عينين ولسانا وشفَتين وهي من أدوات المعرفة والعلم، وزوده بأداة للتمييز بين الخير والشر، وبين ما يسعده وما يشقيه. فقال جل في علاه: {هُوَ الَّذِي أَشْأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [الملك: ٢٣]. وهذا يوضح أنه سبحانه كرم نسل

الإنسان على سائر النسل بعقل يميز به بين الحسن والقبيح والخير والشر بصفة عامه. ونشير أيضاً إلى قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} [طه: ٥٤] فقد خلق ربنا العظيم الإنسان مزوداً بقلب محب للخير كاره للشر وعقل يميز به بين هذا وذاك. وفوق هذا كله أحكم الله تعالى خلق الإنسان بالأسر وهو رباط محكم يصل بين كل أعضاء جسمه، لا يفك إلا بحضور أجله. وصدق ربنا الكريم حيث يقول: {وَنَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا} [الإنسان: ٢٨]. وهكذا يوضح القرآن الكريم أهمية إنجاب الإنسان، وحسن خلقه والارتقاء به، وإحكام نسجه، بما يتناسب مع جعله خليفة لله تعالى في أرضه إلى أن تقوم الساعة.

في السنة النبوية :

فإذا انتقلنا إلى السنة النبوية المباركة وجدناها كذلك، تسلط الأضواء الكاشفة على إنجاب الإنسان. وإذا كان الغالبية من الناس يحبون الولد ويودون إنجابه - فإن السنة النبوية الكريمة معهم. حيث يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ^١الولد ثمرة القلب، وإنه من ریحان الجنة — (١). ويقول الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم: ^٢ما ولد في أهل بيت غلام إلا أصبح فيهم عز لم يكن — (٢). لكن السنة النبوية المباركة لا تنفر المسلمين والمسلمات من إنجاب البنات. بل تدعو إلى حبهن، لأنهن مؤنسات لآبائهن وأمهاتهن، غاليات عندهم. وعلى هذا نجد التوجيه النبوي الكريم للأباء والأمهات يشير إلى حبهن والأنس بهن، في قوله صلى الله عليه وسلم: ^٣لا تکرهوا

(١) رواه الترمذي ص ١٥٦ من مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ سيد أحمد الهاشمي.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ورواه البيهقي عن ابن عمر ص ١٧ من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوي.

البنات فإنهن المؤمنات الغاليات — (1) .. وكان أهل الجاهلية على عكس ذلك، يكرهون إنجاب البنات ويؤدونهن عقب ولادتهن، فيدفنونهن أحياء في التراب خشية العار والفقر. وقد عبر عن هذا المسلك الذميمة القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} (٥٨) يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمُسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [النحل: ٥٨ - ٥٩] (2) وحذرهم

الله عز وجل من عاقبة هذا التصرف المشين، وتوعدهم بالسؤال والمحاسبة عليه، في قوله تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ} (٨) {بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتَ} [التكوير: ٨ - ٩]. وفي مقابل هذا السلوك الجاهلي المذموم نبذت السنة النبوية الكريمة، هذا التصرف الممقوت؛ بمبادئها السمحة وتوجيهاتها الرشيدة. ورفضت هذه المعاملة اللاإنسانية للبنات. وأشادت بفضلهن على آبائهن وأمهاتهن. ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: **من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار** — (3).

وقول الهادي البشير صلى الله عليه وسلم: **من كانت له ابنة فهو مُتَعَبٌ ومن كانت له ابنتان فهو مُثْقَلٌ. ومن كانت له خمس بنات فهو معي في الجنة هكذا - وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطى - ومن كانت له ست بنات لم يحجب من أي باب من أبواب الجنة الثمانية شاء** — (4). ومنه أيضا

- (1) رواه عتبة بن عامر ص 157 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.
- (2) كظيم: مملوء غيظا.
- (3) رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن أبي بكر ابن حزم بن عروة ص 16 من كتاب تحفة المودود لأحكام المولود - لابن قيم الجوزية.
- (4) رواه أبو الشيخ عن أنس ص 183 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد

قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ وُلِدَتْ لَهُ ابْنَةٌ فَلَمْ يُوْذِهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهَا وَلَدَهُ - يَعْنِي الذَّكَورَ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ»** (1). ومنه كذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يَنْفَقُ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَبَيِّنَ أَوْ يَمْتَنِّ كُنْ لَهُ حَجَابًا مِنَ النَّارِ»** (2) ومن ذلك أيضاً قول حبيب ألحق صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ فَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جَدَّتِهِ، كُنْ لَهُ حَجَابًا مِنَ النَّارِ»** (3).

فكل ما سبق من الأحاديث النبوية الشريفة يبرز لنا ما يناله منجبوا البنات ومنجباتهن من الأجر والثواب في الآخرة، والعون من الله لهم ولهن في الدنيا إلى يوم القيامة جزاء صبرهم وصبرهن على تربيتهن، وإكرامهن في حياتهن، حتى ينتقلن إلى بيت الزوجية أو إلى القبر. فضلاً عن الأجر والثواب من الله تعالى يوم القيامة. وهذا يحبب إلى نفوس المؤمنين والمؤمنات إنجاب البنات والإحسان إليهن. والبنات ضعاف يحتجن إلى الاهتمام والرعاية. فالأطفال الرضع - بنين وبنات، والشيوخ الرقع، والبهائم الرتع في أرض الله تعالى - كلها مخلوقات ضعيفة يرحم الله بها عامة الناس من نزول العذاب بهم إذا ظهر الفساد في الأرض؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **«هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بضعفائكم»** (4) فإنجاب الأطفال - بنين وبنات - وإرضاعهم والعناية بهم من أسباب السعادة الأسرية

العزیز الشناوی.

(1) رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدرکه عن ابن عباس. نفس الصفحة من المرجع السابق.

(2) عن عوف بن مالك ص 17 من كتاب تحفة المودود. بين: أى يبعدن إلى بيت الزوجية.

(3) رواه أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر ص 18 من المرجع السابق. جدته: ثيابه الجديدة.

(4) رواه سعد بن أبى وقاص ص 155 من مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي.

التي يبحث عنها المسلمون والمسلمات للتمتع بها في دنياهم وأخرتهم..

ومن مظاهر اهتمام الإسلام بالإنجاب والذرية - اهتمامه باختيار الأم والأب قبل الزواج وقبل الإنجاب. فاختيار الأم والأب مبكرا، وقبل أن يتم الزواج، اختيارا سليما - دليل واضح على الاهتمام بالإنجاب. فالأم مصدر حياة الطفل وتربيته الأساسية في السنين الأولى بعد ولادته، وهى أيضا مصدر علمه بالأشياء والمفاهيم الهامة في حياته. ومن ثم فإنها تعتبر المدرسة الأولى للطفل. وفيها يقول الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها :: أعددت شعبا طيب الأعراق
كما أن اختيار الزوجة والزوج اختيارا صحيحا شرعيا هو الدعامة الكبرى للزواج الناجح السعيد. وقد تحدثنا عن أسس اختيارهما بالتفصيل فيما سبق، وقد وعى الصحابة رضوان الله عليهم - هذه الحقيقة، وعملوا على تنفيذها، وأرشدوا غيرهم من المسلمين والمسلمات إلى العمل بها واختيار الزوجين بناءً عليها. وقد سئل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عن حق الولد على أبيه فقال: " أن ينتقى أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه القرآن " (1). وبتحقيق اختيار الأم اختيارا صحيحا شرعيا وكذلك الأب، بالإضافة إلى أسس الاختيار الأخرى التي يجب مراعاتها شرعا - تصل الأسرة المسلمة إلى السعادة من أوسع أبوابها، وبسعادتها يسعد المجتمع الإسلامى...

ثانيا اهتمام الإسلام بالحمل:

أما اهتمام الإسلام بالحمل فقد كان كبيرا. ولا يخفى على كل ذى

(1) ص 174 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى.

عقل أن حُب الحمل والتعلق به مطبوع في قلوب البشر، وحتى في قلوب الحيوانات غير الناطقة.. وعندما يعلم الزوج المسلم بحمل زوجته المسلمة - فإن أول ما يفعله هو أن يتجه إلى الله عز وجل بقلبين خاشعين خالصين، ويدعوانه أن يرزقهما ذرية طيبة. بل إنهما يطلبان ذلك منه سبحانه عند كل جماع يحدث بينهما. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى على لسان عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ﴾ [الفرقان: ٧٤] ويقول عز وجل في شأن زكريا عليه السلام: ﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]. وذلك عندما أدرك أن مريم ابنة عمران يرزقها ربها رزقا حسنا بغير حساب لأنها من ذرية طيبة.. وكان بعض الصالحات في الماضي ينذرن ما في بطونهن من الحمل لخدمة الدين في دور العبادة إن وُلِدوا ذكورا. وعندما نذرت امرأة عمران عليها السلام ما في بطنها من الحمل لله جل جلاله، فولدت أنثى - لم تتراجع عن نذرها، واتجهت إلى الله سبحانه، وأعادت به وليدتها وذريتها من الشيطان الرجيم. فقبل الله سبحانه منها نذرها. وأبنت ابنتها مريم عليها السلام نباتا حسنا، وأنشأها نشأة صالحة وجعل زكريا عليه السلام كافلا لها، فباشر الكفالة وأشرف على تنشئة مريم الوليدة، وإعدادها لتحقيق النذر. حتى وصلت إلى سن خدمة الدين، فأدخلها المحراب. وفي ذلك دلالة واضحة على اهتمام الصالحين والصالحات من عباد الله وإمائهم بالحمل. ونذره لخدمة الدين تقربا إلى الله جل شأنه.

ويقول ربنا العظيم في ذلك: ﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرَأَتٌ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣٥] فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ

وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ { [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

وقد أوجب الإسلام على الحامل أن تهتم بحملها؛ فإذا خافت عليه أثناء صيامها في رمضان أفطرت حتى لا يتأثر حملها بصيامها؛ فإذا أشار عليها طبيب مسلم بذلك - فقد وجب عليها الإفطار حماية لحملها.

ويمتد هذا الاهتمام بالحمل فيشمل جميع أطواره من النطفة حتى نفخ الروح. كما أوجب عليها الإسلام أن تحيطه بالرعاية الكاملة حتى يحين وضعه. ولذلك وجدنا مريم ابنة عمران تخاف على نفسها من ألسنة الناس الذين اتهموها بالحمل سفاحاً. فعمدت إلى مكان بعيد عن أعينهم؛ حتى لا يؤثر اتهامهم لها على الجنين الذي كان بأمر من الله وتحت رعايته وعنايته سبحانه، والذي تم بغير زوج خلافاً للعادة، وآية من الله تعالى للناس، حتى يعتبروا ويتقوا الله عز وجل..

وقد وضح اهتمام الإسلام بالحمل في مواضع عديدة من القرآن الكريم غير تلك المواضع التي قدمناها؛ ففي الإيلاء، وهو حلف الزوج على ألا يوطأ زوجته - يقول أصدق القائلين سبحانه: {لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ﴿٣٣﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧] (١) ..

ومراد الله تعالى من الآيتين في هذا الشأن: أن الزوج إذا حلف ألا يجامع زوجته، تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر. فإن عاشرها في المدة المشار إليها، فقد فعل خيراً. ويكون حائشاً في يمينه وعليه

(١) فاءوا: رجعوا عن ظنهم السيئ.

الكفارة عنه. وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة بينه وبين زوجته، ووقع الطلاق بمضى مدة الأربعة أشهر، عند الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه. وقال الشافعى: ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أى الرجوع عما حلف عليه، أو الطلاق. فإن امتنع عن الأمرين طلق عليه الحاكم⁽¹⁾. ومن الواضح أن مدة الأربعة أشهر شرعت هنا للتأكد من خلو رحم الزوجة من الحمل. حتى لا تختلط الأنساب في حالة زواجها قبل انتهاء عدتها.. وفى حالة الطلاق يوضح القرآن الكريم أن الواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار على رأى الشافعى ومالك، أو ثلاثة حيض على رأى أبى حنيفة وأحمد⁽²⁾. ثم تتزوج المطلقة الحرة إن شاءت بعد انتهائ عدتها. أما غير المدخول بها فلا عدة عليها إن طلقت لأن زوجها لم يمسه ولذلك يقول ربنا عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]. فهذه يعطيها زوجها مبلغا من المال أو شيئا مقوما به جزاء ارتباطها به وارتباطه بها مدة ما قبل الطلاق ثم يطلقها ولا حرج عليه. ولا حرج عليها هى أيضا إن تزوجت غيره على الفور.. ولا يبيح الإسلام للمطلقة أن تخفى ما فى رحمها من حبل أو حيض لتتعجل في إنهاء عدتها ولتبطل حق زوجها في رجعتها. هذا إن كانت مؤمنة حقا بالله سبحانه وتعالى وتخشى عقابه. فالتهديد والإنذار واضح في أمر مَنْ تفعل ذلك من المطلقات حتى تخبر بالحق دون زيادة أو نقصان في هذا الأمر الذي لا يُعلمُ إلا من جهتها. فهى

(1) ص131 من القسم الأول من الطبعة الأولى - من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى.

(2) نفس الصفحة من المرجع السابق.

وحدها التي تدلى فيه بقولها، ويؤخذ به شرعا. وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: { وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا } [البقرة: ٢٢٨] .

الآية والملاحظ أيضا أن الأطهار الثلاثة والانتظار حتى نهايتها، تكون للتأكد من خلو رحم الزوجة من الحمل حفاظا على الأنساب وعلى حق المولود الشرعى في النفقة والإرث وغيرهما.. وكذلك الأمر في المتوفى عنها زوجها، فعليها أن تنتظر أربعة أشهر وعشرة أيام، للتأكد من خلو رحمها من الحمل أولا حفاظا على حقوق الحمل وعلى الأنساب، ثم لاحترام رباط الزوجية وعظم حق الزوج على زوجته ثانيا، والعشرة أيام احتياطا لما قد ينقص بعض الشهور ثم لظهور حركة الجنين بعد نفخ الروح فيه فيتأكد ظهوره(1).

وقد عبر القرآن الكريم عن كل ذلك في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [البقرة: ٢٣٤] فالمتوفى عنها زوجها لا تحاسب إذا ارتبطت بعد انتهاء عدتها بإنسان رغب فيها ورغبت فيه في حدود ما نصت عليه الشريعة الإسلامية في هذا الارتباط.. وكذلك الأمر في الزوجات اليائسات من الحيض أى اللاتي بلغن سن اليأس من الحيض، وتقطع حيضهن ثم كاد أن ينعدم. فإذا طلقهن أزواجهن فعدتهن أيضا ثلاثة أشهر، وكذلك اللاتي لم يحضن لصغر سنهن إذا حدث ارتياب في شأنهن لزواجهن في سن صغيرة أو المرضي من النساء المتزوجات إذا لم يحضن، تكون عدتهن ثلاثة أشهر كذلك، وهذه المدة أيضا

(1) ص269 من الجزء الأول من تفسير ابن كثير - تفسير القرآن العظيم.

انتظارا لتبرئة الرحم من الحمل منعا للمشاكل وحفظا للأنساب. ويقول ربنا العظمي في ذلك: {وَالَّتِي يَسِّنْ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ} الآية [الطلاق: ٤]. أما الحامل إذا طلقت اضطرابا فعدتها أن تضع حملها. فلو طلقت ووضعت حملها بعد فترة قصيرة من طلاقها. فلا مانع يمنعها من الزواج بعد انتهاء فترة نفاسها، وهذه المدة تجعلها مطمئنة بعض الاطمئنان على وليدها. ويقول الحق المبين سبحانه في ذلك: {وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٤] وفي ذلك اطمئنان من الأم بعد وضعها على وليدها. وانتهاء فترة حملها بسلام. واطمئنان من الأهل على الأم أيضا بعد أن وضعت حملها، مما يضيف لونا من السعادة على الأسرة وأفرادها..

ومن الأدلة الظاهرة على اهتمام الإسلام بالحمل، أن الحامل إذا طلقت يلتزم زوجها بالإنفاق عليها وهي حامل حتى تضع حملها. فيوافيها بكل ما تحتاجه من طعام وشراب وكساء وسكن. فإذا وضعت حملها وأرادت أن ترضع وليدها فهي أولى به من غيرها. وفي هذه الحالة يلتزم زوجها بأن يعطيها نفقة إرضاع المولود حسب استطاعته دون ظلم له أو لمطلقاته أو لوليدته. فإذا تعذر الإتفاق بينهما على إرضاعها للمولود، اتفق مع غيرها على إرضاعه وأعطاهها نفقة الإرضاع بالحسن، وبحسن النوايا ستيسر هذه الأمور الصعبة التي تمر بالزوجين في حالة الطلاق ولذا يقول عز وجل: {وَإِنْ كُنَّ أُولَى حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتِمُّوا رَبَّنَا بِمَعْرُوفٍ

وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَسَرِّضُوهُ لَكُمْ أُخْرَى ۖ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ

فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ {الطلاق: ٦ - ٧} الآية. وفي مقدمة هذه الآية الكريمة يقول سبحانه: {أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِأَنْصِفُوا عَلَيْهِمْ} {الآية [الطلاق: ٦]}. ومعنى ذلك أنها إذا احتاجت إلى مسكن يمكنها من رضاعة الطفل فمن حقها ذلك. فإذا تعذر ولم يتفقا فإنه يبحث عن مرضعة أخرى بالأجر أيضاً..

وليس هذا فحسب بل إننا نجد أن اهتمام الإسلام بالحمل يبدأ من بداية الحمل كما أشرنا سابقاً. فالحمل منذ بدايته يحظى باهتمام إسلامي كبير. فالإسلام يتابع تكوينه وتطوره ونموه في جميع أطواره.

ويتبين ذلك من خلال قوله جل وعلا: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} ﴿٨﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ {الرعد: ٨ - ٩}. فربنا سبحانه يعلم ما في رحم كل أنثى من الحمل ذكرها كان أم أنثى. ويعلم ما يتناقص في الرحم ولا ينمو ولا يستمر حمله. ويعلم ما يزيد في الرحم عن واحد أو واحدة. فكل حالة من هذه الحالات تتم حسب علمه جل جلاله، وتقديره لما في تلك الأرحام من أجنة يسير كل منها حسب ما قَدَّرَهُ الله الخالق له..

ومن عظيم اهتمام الإسلام بالحمل أن الخالق الجليل سبحانه يهتم به في كل أطواره حسب حكمته وتقديره. فيقول جل شأنه: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} {الزمر: ٦}. والظلمات الثلاث هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. والمشيمة كيس من الجلد الرقيق ينشأ فيه الجنين ويتم فيه تطوره. ويحميه مما قد ينشأ في بطن الأم من أخطار أو متاعب على مدى

أطواره حتى ولادته، فسبحان من حفظ الأجنة في بطون أمهاتها حتى تولد.

وإشارة إلى أطوار الحمل واهتمام الخالق عز وجل بها بكل دقة، يقول جلت قدرته: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾} [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

ففى هذه الآيات الكريمة تتجلى عناية الخالق سبحانه بحمل الإنسان في بطن أمه. حيث تُخلط نطفته ببعض من تراب الأرض التي يدفن فيها بعد انتهاء حياته وموته. كما سيأتى بيانه. ثم تتحول النطفة من مرحلة إلى مرحلة، بعناية الخالق جل وعلا. فتكون النطفة علقة، وتكون العلقة مضغة وتكون المضغة عظاما، ثم تكسى العظام لحما، ثم تتكون أجزائه وتكتمل تحت عناية ربه الجليل، ثم ينفخ فيه الروح، فيصير إنسانا مصورا في أحسن صورة. ألا وخالقه أحسن الخالقين سبحانه؟! وسنعرض إن شاء الله لهذه المراحل وتكوينها بشئ من التفصيل.. وهكذا يهتم القرآن الكريم بالحمل الإنسانى ومراحله المختلفة ويحفظه الله الخالق العظيم في كل مرحلته وأطواره إلى أن يأذن الله له بعد أن يكتمل نموه، بالخروج إلى الدنيا والعيش فيها المدة التي قدرها له عز وجل، حسب مشيئته وعلمه وتقديره... وولادة الجنين تكون أيضا بعلم الله تعالى وتقديره. حيث يقول سبحانه: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١]. حيث يعيش أجله الذي قدر له في دنياه...

أما في السنة النبوية الكريمة فقد سبق أن بينا أدلة متعددة لاهتمام الإسلام بالحمل ومراحله. وكفيينا حتى لا نكرر ما نقول، أن نُذكر

بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المقام. حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **إِنْ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد، ثم يُنفخ فيه الروح**—⁽¹⁾ الحديث. فقد جمع هذا الحديث النبوى الشريف مراحل تكوين الجنين في بطن أمه تحت عناية الله تبارك وتعالى ورعايته لكل مرحلة حتى يكتمل نموه. فيسجل الملك الموكل به، ويسمى ملك الأرحام، عمله ورزقه وأجله، وما أراد الله له من السعادة أو الشقاء، فيكتب في بطن أمه، ثم ينفخ فيه الروح، كخلق جديد يُستدل به على قدرة الله عز وجل ورعايته للإنسان والكون وما فيه.

وقد ورد أن هذه الكتابة تكتب بين عيني الجنين. ففي مسند البزار عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **إِذَا خَلَقَ اللَّهُ النُّسْمَةَ قَالَ مَلِكُ الْأَرْحَامِ: أَى رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أَثْنَى؟ قَالَ: فَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرَهُ. ثُمَّ يَقُولُ: أَى رَبِّ أَشَقَى أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقْضَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَمْرَهُ. ثُمَّ يَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا هُوَ لَاقٍ حَتَّى النُّكْبَةِ يُنَكِّبُهَا**—⁽²⁾.. وحديث حذيفة بن أسيد صريح في أن الملك يكتب ذلك في صحيفة، فقد ورد في صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعَظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَارَبِّ**

(1) رواه البخارى ومسلم ص 38 حرف الألف من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى.

(2) رواه ابن عمر في مسند البزار 2037/4. ص 212 من الجزء الأول من كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب - تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور 1407 هـ - 1986 م النكبة: الشوكة أو الأمر الموجه..

ذكر أم أنثى؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول: يارب رزقه فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمّر ولا يُنقص — (1).. ولعل ذلك يكتب في صحيفة الملك ويكتب بين عيني الجنين (2).

وسواء كان هذا أم ذاك فهذه الكتابة غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق، والتي عبر عنها آدم عليه السلام في حواجه مع موسى عليه السلام. فقد ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **إِنَّ اللَّهَ قَدَرُ مَقَادِيرِ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** — (3).. وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على مدى اهتمام السنة النبوية الكريمة في تتبعها لمراحل تكوين الجنين واهتمام الإسلام بالحمل الإنساني...

وهكذا نلمس في آيات وسور القرآن الكريم وفي الأحاديث الواردة في كتب السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم - مدى اهتمام الإسلام بالحمل الإنساني ورعايته في بطن أمه. وتكليف الزوج والزوجة، والمجتمع إذا لزم الأمر - برعاية هذا الحمل حتى يكتمل وتضعه حاملته في أمن وسلام. وعندئذ تكون بداية مرحلة جديدة من الاهتمام الإسلامي، وهي اهتمام الإسلام بالمولود....

ثالثاً اهتمام الإسلام بالمولود:

أما مظاهر اهتمام الإسلام بالمولود - فهي واضحة بينة في كثير من المواضع، بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فالقرآن الكريم

(1) صحيح مسلم في كتاب القدر باب كيفية خلق آدمي. وانظر ص 212 من الجزء الأول

من كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب - تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) الصفحة نفسها من المصدر السابق.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر - باب حجاج آدم وموسى.

يحمل في آياته وسوره الكثير من هذه المظاهر، ففي سورة البلد يقسم ربنا

عز وجل بما ولدته أنثى الإنسان وتسبب فيه الرجل، فيقول أصدق القائلين سبحانه: {وَوَالِدٍ وَمَوْلَدٌ} [البلد: ٣]. وعندما يقسم ربنا العظيم بشيء، فإن هذا القسم يدل على أهمية هذا الشيء والاهتمام الإلهي به ومن السماء تنزل أولى البشائر للمولود وأبويه فَيُطْمِئِنُّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبشر المولود وأبويه بشارة سماوية في اللحظات الأولى من ولادته فيقول صلى الله عليه وسلم: ♂ إذا ولدت الجارية بعث الله عز وجل إليها ملكا يزف البركة زفا يقول: ضعيفة خرجت من ضعيفة القيم عليها معان إلى يوم القيامة وإذا ولد الغلام بعث الله إليه ملكا من السماء فقبل بين عينيه وقال: الله يُقرئك السلام — (1). وتنزل ملائكة الرحمة بإذن ربها من السماء بعد ولادة البنت مباشرة فيسلمون على أهل بيتها ويباركونها وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: ♂ إذا وجد للرجل ابنة بعث الله ملائكة يقولون: السلام عليكم أهل البيت فيكسونها بأجنتهم ويمسحون بأيديهم على رأسها ويقولون: ضعيفة والقيم عليها يعان إلى يوم القيامة — (2).. وحتى قبل الولادة يتمنى الزوج وزوجته - كما سبق أن بينا - أن يرزقهما الله تعالى ولدا صالحا. فيقول الحق سبحانه: {فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٨٩]..

ويتوالى الاهتمام الإلهي بالولدان. ويتجلى ذلك في موضعين من

(1) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس ص 181 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد لعبد العزيز الشناوى.

(2) رواه الطبراني في الأوسط. نفس الصفحة والمرجع السابق.

سورة النساء. فيوصى ربنا سبحانه بالاهتمام بشأنهم ورعايتهم، والعفو عن غير القادرين منهم على طلب الرزق والعيش الكريم في مختلف جنبات الأرض. فيقول جل شأنه: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾ [النساء: ٩٨ - ٩٩].. وكان الناس في الجاهلية يحرمون الولدان من الميراث كما يحرمون منه البنات (1).
فنهاهم ربهم جل وعلا عن ذلك في قوله تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ} قُلْ

اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ { [النساء: ١٢٧] الآية. بل إن الله جلت قدرته أمر المسلمين بأن يدافعوا عن الولدان من الذكور والإناث إذا تعرضوا للقتل أو تعرضوا للظلم، وأن يحاربوا أعداءهم من أجل نصرة هؤلاء الضعفاء من الولدان،
ف

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا} ﴿٧٥﴾ [النساء: ٧٥]. فهؤلاء الولدان الذين تعب آباؤهم وأمهاتهم حتى كانوا سببا في إنبابهم ووجودهم وعيشهم في الحياة الدنيا - يجب ألا يتخلى عنهم الآباء والأمهات بل والمجتمع الإسلامي كله، في الأوقات العصيبة، أوقات الحرب وأوقات الظلم..

وقد يموت المولود وهو صغير، فيجعله خالقه جل جلاله من الولدان المخلدين، الذين يطوفون على أهل الجنة بخيرات من الجنة جزاءً لهم وتكريما بسبب موتهم في هذه السن المبكرة،

(1) ص 533 من الجزء الأول من تفسير ابن كثير - تفسير القرآن العظيم.

وتكريم

لآبائهم وأمهاتهم الذين كانوا سببا في تواجدهم في الحياة الدنيا. ويقول الله تعالى في ذلك: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا} [الإنسان: ١٩]. وليس هذا فحسب؛ بل إن تكريم هؤلاء الولدان الذين ماتوا صغارا وتكريم آبائهم وأمهاتهم يمتد إلى ما قبل دخولهم الجنة، وخصوصا آباءهم الذين كانوا سببا مباشرا في تواجدهم في الدنيا. فعندما يقف الناس في أرض المحشر، ويبلغ العطش منهم كل مبلغ، تمتد رحمة الله تعالى الواسعة إلى هؤلاء الصغار، فيفضل عليهم بالشراب، فيمتنعون عنه ويقولون: ياربنا لا نشرب وآباؤنا عطاش. فيأمرهم ربهم عز وجل بالطواف بين صفوف أهل المحشر ليسقوا آباءهم.. " فقد حُكِيَ عن أحد الصالحين أنه كان يُعرضُ عليه التزويج فيأبى بُرْهَةً من دهره، قال: فانتبه ذات يوم من نومه وقال: زوجوني فزوجوه. فسُئِلَ عن ذلك، فقال: رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة من الخلائق في الموقف، وبى من العطش ما كاد يقطع عنقى، وكذا الخلائق في شدة العطش والكرب، فنحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع، عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة، وأكواب من ذهب، وهم يسقون الواحد بعد الواحد، يتخللون، ويتجاوزون أكثر الناس، فمددت يدي إلى أحدهم، وقلت: اسقني فقد أجهدني العطش، فقال: ليس لك فينا ولد، إنما نسقى آباءنا، فقلت: ومن أنتم؟ فقالوا: نحن من مات من أطفال المسلمين " (1). وهكذا ينفع الأطفال الذين يموتون صغارا آباءهم كما ينفعون أمهاتهم..

ويتجلى أهتمام الإسلام بالمولود في كتاب الله تعالى وسنة رسوله

(1) ص27، ص28 من كتاب الزواج الإسلامي السعيد للشيخ أبى حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت - 1984م - 1404هـ.

صلى الله عليه وسلم؛ ففي القرآن الكريم نجد منهاجاً قرآنياً للإهتمام بالمولود، يتمثل في إرضاعه بعد ولادته، والعناية به، والسهر على تربيته تربية إسلامية. فيقول عز وجل: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ} [البقرة: ٢٣٣].

يُتِمُّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا فَأُولَدُكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وسوف نتناول ذلك وغيره من ألوان العناية والإهتمام بالمولود بعد قليل، إن شاء الله.

وقد يموت والد الطفل فيترك ولده صغيراً، لا سند له، ولا مرشد، ولا وصى. لكن الله جل جلاله يوصى أقاربه المحتضنين له، بمعاملته معاملة حسنة، ويحذرهم من معاملته بسوء. فلا يأخذوا أمواله التي تركها له أبوه ويصرفوها بغير وجه حق أو يضموها إلى أموالهم. ولا يضموا ممتلكاته التي ورثها عن أبيه إلى ممتلكاتهم. فعلى العكس من ذلك. يأمرهم الإسلام بحفظ أمواله وتنميتها له وكذلك تنمية ممتلكاته إذا كانت قابلة للنماء حتى يكبر ويحسن التصرف في أمواله وممتلكاته. وفي هذا الإطار يرسم الإسلام منهاجاً قائماً على أسس شرعية لمعاملة اليتيم في المجتمع الإسلامي. وتتضح أسس هذا المنهج في آيات وسور القرآن الكريم، وفي سنة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم...

ففي القرآن الكريم نجد قوله تعالى: {وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا

الْخَيْثِ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ [النساء: ٢] (1) ففى الآية الكريمة تحذير لكافلى اليتامى من تبديل أموالهم الخبيثة بأموال اليتامى الطيبة، أو الاستيلاء عليها بغير وجه حق.. ونجد أيضا

قوله سبحانه: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} (٥) وَأَبْنُوا إِلَيْنَا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} (٦) [النساء: ٥ - ٦] (2).. وتوجه الآيتان الكريمتان كافلى اليتامى الذين عينوا لكفالتهم ألا يسلموا أموالهم لهم إلا بعد أن يميزوا النافع من الضار، وبعد أن يختبروهم بمنحهم قليلا من مالهم ليروا كيف يتصرفوا فيه. فإن نجحوا في الاختبار، ولم يضيعوا هذا القدر البسيط من المال سلموهم أموالهم وأشهدوا على ذلك شهادة شرعية، وإلا فالتبقت أموال اليتامى معهم حتى يصلوا إلى مرحلة التمييز بين النافع والضار والحلال والحرام، ولينفقوا منها عليهم لتلبية مطالبهم في الطعام والشراب والكساء وغيرها من متطلبات الحياة. وليطمئنوهم على أموالهم وأملاكهم ويبينوا لهم أنها في أيد أمينة حتى يكبروا.. ونجد كذلك في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} (١٠)

[النساء: ١٠] تحذيرا لكافلى اليتامى من أكل أموالهم ظلما بغير وجه حق. فإذا فعلوا ذلك فإنهم في حقيقة الأمر يأكلون سحتا ونارا تدمر عليهم حياتهم في الدنيا، ثم يردون في الآخرة إلى أشد العذاب في نار

(1) حوبا: ظلما وتعديا كبيرا.

(2) بدارا: مبادرين قبل كبرهم.

جهنم خالدين فيها، إذا ماتوا على هذه الحالة.

ولكى يستوعب الكافلون لليتامى الدرس جيدا يوصيهم ربهم جل وعلا ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة الشرعية التي أباحت لهم الأخذ من هذا المال بطريقة حسنة، وتتمثل هذه الطريقة في حصولهم منه، جزاء جهدهم في الحفاظ عليه وعلى تنميته على قدر قليل منه. إذ أن مهمتهم تقتضى بعض المصاريف المالية، وخصوصا إذا كانوا فقراء؛ حتى لا يزدادوا فقرا يغرمهم لليتيم مصاريف المحافظة على ماله وتنميته بالطرق الشرعية. ولذلك يقول ربنا عز وجل: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام: ١٥٢]. وهذا بالإضافة إلى حث الكافلين لليتامى على تنمية أموالهم وإخراج زكاتها، حتى يبارك لهم الله تعالى فيها. كما سيأتى في الأحاديث النبوية الشريفة.

وهكذا يتبين للقارئ الكريم خطوط المنهج القرآنى في المحافظة على مال اليتيم وحياته. ومدى مسئولية كافله في متابعة مراحل حياته حتى يكبر ويصير رجلا يستطيع أن يدبر كافة أمور حياته بنفسه. وفى سبيل وصول الكفيل إلى هذه المرحلة الحاسمة في حياة اليتيم - عليه أن يقف بحزم أمام كل العقبات التي تعترض طريق اليتيم، وعليه أن يقاتل من أجل ذلك إذا لزم الأمر حفاظا على حياته وماله وكافة حقوقه الشرعية....

وفى السنة النبوية الكريمة ما يقابل هذا الاهتمام المنهجي القرآنى بحياة اليتيم ورعايته والاهتمام بأحواله وأمواله حتى يكبر ويملك زمام التصرف بحكمة في كل ما يهم حياته الدنيا..

ومنذ اللحظات الأولى لتيتم المولود نجد اهتماما من السنة بإرضاعه حتى يعيش؛ بقدر اهتمام القرآن الكريم بذلك والمثال الواضح في هذا المقام هو اهتمام كافل محمد صلى الله عليه وسلم

اليتيم وهو عبد المطلب بن هاشم وتوجهه به إلى حيث تتواجد المرضعات؛ ليختار له مرضعة مناسبة. وقد اختارته حليلة السعدية بعد تردد. فقد رآته يتيماً ويحتمل أن يكون مع ذلك فقيراً لا يوجد مَنْ يهتم به من أهله. وقد ذهبت به إلى دارها في بني سعد. وسرعان ما توالى عليها بشائر سعة الحال وكثرة الغداء والمال. بعد أن أظهر الله عز وجل كرامات عديدة وبركات متوالية على يد اليتيم محمد صلى الله عليه وسلم ومن يرعاه اجتماعياً واقتصادياً. مما جعل حليلة السعدية وزوجها رضى الله عنهما يطمئنان إلى تواجده معهما وفى أحضانها فترة الرضاعة وما بعدها حتى ترعرع وكبر. ولم تحاول حليلة السعدية ولا زوجها إبعاده عنهما إلا بعد حادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم الأولى. حيث خافت عليه آنذاك حليلة رضى الله عنها فسلمته إلى أهله ليكملوا رعايته ويتابعوها، حتى لا يصيبه أذى وهو فى أحضانها.. فسلمته إلى أمه آمنة بنت وهب.. ومن هنا كان اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد باليتامى. وتوجيه أصحابه رضوان الله عليهم جميعاً إلى الاهتمام بهم وبأحوالهم وممتلكاتهم وأموالهم.. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجه المسلمين جميعاً إلى وجوب إخراج زكاة أموالهم، ولم يفرق فى ذلك بين صغير وكبير. امثالاً لقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} الآية [التوبة: ١٠٣]. وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القدر من الآية بقوله لأصحابه: **أُمِرْتُ أَنْ أَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيائِكُمْ وَأَرُدَّهَا عَلَى فَقَرَائِكُمْ** — (١). فالزكاة إذن توسعة على الفقراء. ومتى وُجد الغنى وجبت الزكاة. وبه قال الجمهور. لحديثه صلى الله عليه وسلم:

(١) ص ١٠٤ من الجزء الثاني من كتاب شرح الزرقانى على موطأ مالك.

﴿تَوَخَّذْ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فترد على فقرائهم﴾ — (1).

ومما سبق يتضح لنا أن الصغير الذي له مال تجب فيه الزكاة يخرجها وليه عنه وجوباً. وينسحب هذا القول بطبيعة الحال على اليتيم الذي مات أبوه وهو صغير، وترك له ما لا تجب فيه الزكاة. فالواجب على كافله أن يخرجها عنه. فعن مالك بن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه، أنه قال: " كانت عائشة تلينى، وأخألى، يتيمين في حجرها. فكانت تخرج من أموالنا الزكاة " (2).. ومن هنا أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿اتجروا في أموال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة﴾ — (3). فالمصطفى صلى الله عليه وسلم يوجه صاحبه والمسلمين جميعاً من بعدهم إلى الاتجار في أموال اليتامى حتى لا تنهياها الزكاة بأخذ جزء منها سنوياً. ففي الاتجار فيها حفاظ عليها وتنمية لها وزيادة فيها.. وإعمالاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته الكرام، التزموا بهذا التوجيه المحمدي فاتجروا في أموال اليتامى. فكان الصحابي يلى يتيماً - أو يتيمين أو أكثر - في حجره، ويخرج زكاة ماله، فاتجروا فيها حتى لا تتناقص وتنتهى. " فعن مالك أنه بلغه أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت تعطى أموال اليتامى الذين في حجرها من يتجر لهم فيها " (4). وعن مالك عن يحيى بن سعيد أنه اشترى لبنى أخيه - يتامى في حجره - مالا، فبيع ذلك المال بعدُ بمال كثير. وقال مالك رضى الله عنه: " لا بأس بالتجارة في أموال اليتامى لهم إذا كان الولي مأذوناً،

(1) نفس الصفحة 104 من الجزء الثاني من شرح الزرقانى على موطأ مالك.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(3) رواه الطبرانى في الأوسط عن أنس بن مالك. وقال الهيثمى: أخبرنى شيخى الحافظ

زين الدين العراقى أن إسناده صحيح. نفس الصفحة من المصدر السابق.

(4) نفس الصفحة من المصدر السابق.

ولا أرى عليه ضمانا " (1).. وقد حَدَّثَ يحيى عن مالك أنه بلغه أن عمر بن الخطاب قال: " اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة " (2).. وهكذا نلمس حرص الصحابة رضوان الله عليهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده - على الاتجار في أموال اليتامى كجزء من الاهتمام بأحوالهم وتتبع مراحل نموهم حتى يكبروا ويصبحوا قادرين على رعاية كافة مصالحهم بأنفسهم. وهذا العمل الكريم يعتبر نصرة كبيرة لرعاية مصالح اليتيم، وفق منهج السنة النبوية المباركة في تتبع أحواله ورعايته كما اتضح من الأحاديث الشريفة التي عرضناها...

وهكذا وجدنا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الكريمة ما يعكس ويوضح اهتمام الإسلام بالمولود اليتيم ونشأته وتطور أحواله في جميع المجالات...

وبالإضافة إلى اهتمام الإسلام بالمولود اليتيم - نجد اهتمامات أخرى بالمولود بصفة عامة ومن هذه الاهتمامات أنه عندما يوضع من بطن أمه ويخرج إلى الدنيا، يبدأ حياته بالصراخ. فيتلقفه أبوه أو من يقوم مقامه ويقرأ الأذان في أذنه اليمنى والإقامة في أذنه اليسرى. حتى يكون أول شيء تلقاه في دنياه واستمع إليه هو ذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك يقول نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم: **من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى، رفعت عنه أم الصبيان** — (3) فالشيطان الرجيم، هذا الوسواس الخناس - وذريته - يهرب من كلمات الأذان التي تضعفه

(1) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(2) ص 103 من نفس المصدر

(3) رواه البيهقي في الشعب من حديث الحسن بن عليّ عن النبي ﷺ. ص 21 من كتاب تحفة المولود - لابن قيم الجوزية. أم الصبيان أم الجنى.

وتغيظه. وعلى هذا، إذا أراد المسلم أن يبعد عن نفسه الشيطان وحزبه وخطره، فيجب أن يكون على اتصال دائم بالله تعالى. يذكره في كل وقت فلا يجد الشيطان سبيلا إليه للتأثير في حياته..

ومن هذه المظاهر والاهتمامات من جانب السنة المباركة بالمولود - تحنيكه أى مضغ التمر ووضع في فمه وتحريكه في سقف الفم والدعاء له بالبركة. فقد ورد في الصحيحين من حديث أبى بردة عن أبى موسى قال: " ولد لى غلام فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم، فسماه إبراهيم، وحنكه بتمر. زاد البخارى: ودعا له بالبركة ودفعه إلى " (1).. وروى أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أسماء، أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قال: قالت: فخرجت وأنا مُتَمِّمٌ، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعتُه في حجره، فدعا بتمر، فمضغها، ثم ثقل في فيه: فكان أول شئ دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ثم حنكه بالتمر، ثم دعا له وبرك عليه وكان أول مولود ولد في الإسلام للمهاجرين في المدينة، قالت: ففرحوا به فرحا شديدا، وذلك أنهم قيل لهم إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم " (2)...

ومن مظاهر الاهتمام بالمولود التي وردت في السنة النبوية المباركة حلق شعر المولود يوم سابعه والتصدق بوزن هذا الشعر ذهبا أو فضة. فقد حدث يحيى عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه: أنَّهُ قال: " وزنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شعر حسن

(1) ص23 من كتاب تحفة المولود بأحكام المولود - لابن قيم الجوزية.

(2) ص23 من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - لابن قيم الجوزية.

ومن هذه المظاهر الدالة على اهتمام السنة النبوية المباركة بالمولود وجود آثار متعددة تحبب في العقيدة عن المولود. فعن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه " (3) أما عن الوقت الذي تُستحب فيه العقيدة - فقد قال أبو داود في كتاب " المسائل ": سمعت أبا عبد الله يقول: العقيدة تذبح يوم السابع. وقال صالح بن أحمد: قال أبي في العقيدة: تذبح يوم السابع، فإن لم يفعل ففي أربعة عشرة، فإن لم يفعل ففي أحد وعشرين وهذا قول عائشة رضي الله عنها(4).. والعقيدة كما قال مالك رضي الله عنه بمنزلة النسك والضحايا. لا يجوز فيها عوراء ولا عجفاء (ضعيفة هزيلة) ولا مكسورة ولا مريضة، ولا يباع من لحمها شيء، ولا جلدها، ولا يكسر عظامها، ويأكل أهلها من لحمها، ويتصدقون منها، ولا يُمسَّ الصبي بشيء من دمه(5)..

ومن مظاهر اهتمام السنة بالمولود تسميته واختيار الاسم الحسن

(1) ص 69 من المرجع السابق.

(2) ص 310 من موطأ مالك طبعة الشعب.

(3) رواه أهل السنة كلهم. وقال الترمذی حدیث حسن صحیح. ص28 من تحفة المودود

بأحكام المولود - لابن القيم.

(4) ص 43 من المصدر السابق.

(5) ص 311 من موطأ مالك - طبعة الشعب.

له، وقد سبق أن ذكرنا أن ذلك يكون في اليوم السابع من ولادته. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على حق المولود على والده في أن يسميه أبوه اسماً حسناً. فيقول صلى الله عليه وسلم: **حق المولود على والده أن يحسن اسمه ويحسن أدبه**—⁽¹⁾ ويقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: **حق الولد على والده أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه**—⁽²⁾ والمقصود بإحسان موضع الولد ألا يضعه أبوه موضع تهلكة أو ضياع أو ضعف بأى وجه من الوجوه. وتلك مسئولية الوالد تجاه ولده، أن يهيئ له مكانه اللائق بـ_____ه والـ_____ذى لا يضره ولا يخذله ولا يحرمه من حق شرعى له.

ولا شك في أن كل مامر من مظاهر الاهتمام بالمولود: من الآذان والإقامة في أذنيه عند ولادته وتحنيكه والدعاء له بالبركة وقص شعره في السابع من ولادته وذبح العقيقة له؛ كل ذلك يسعد المولود ويسعد أسرته ويسعد المجتمع الإسلامى كله مما يؤدى إلى الاجتهاد في عبادة الله وحده وطاعته، ومن ثم اختيار الاسم الحسن له والاجتهاد في ذلك. فالأقسط عند الله تبارك وتعالى هو تحسين الآباء لأسماء أبنائهم. والسنة النبوية الكريمة تدعوهم إلى ذلك؛ فيقول الهادى البشير صلى الله عليه وسلم: **إنكم تُدعَوْنَ يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم**—⁽³⁾ وكما قلنا ففى ذلك سعادة للفرد والأسرة والمجتمع الإسلامى. وأستأذن القارئ الكريم

(1) أخرجه البيهقى في السنن عن عباس رضى الله عنه ص164 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - عبد العزيز الشناوى.

(2) أخرجه البيهقى في السنن عن عائشة ص 164 من المصدر السابق.

(3) رواه أبوداود وابن حبان ص165 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - عبد العزيز الشناوى.

في أن أقف وقفة عند اختيار الآباء لأسماء أبنائهم. فالأسماء منها الحسن ومنها الأحسن ومنها الأحب عند الله وعند رسوله وعند المسلمين الصالحين، ومنها ما نُهي عنه نهى كراهة ومنها مانهى عنه نهى تحريم. وكل ذلك يحتاج إلى إيضاح حتى ينهج الآباء في المستقبل نهجا إسلاميا بعيدا عن الشرك الأصغر الذي قد يؤدي التمسك به إلى الشرك الأكبر والعياذ بالله جل جلاله..

وأحب الأسماء إلى الله عز وجل ما تُعبدُ له. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِنْ أَحَبَّ أَسْمَائُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَبْدَ اللَّهِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ﴾** (1) وقد أجاز النبي التسمية بأسماء الأنبياء بالإضافة إلى ما سبق من الأسماء المعبدة لله تعالى؛ فقال صلى الله عليه وسلم: **﴿تَسْمُوا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدَ اللَّهِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا: حَارِثٌ وَهَمَامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمِرَّةٌ﴾** (2) أما التسمية بأسماء الملائكة فقد وقع فيه خلاف بين العلماء. فأجازوه البعض وكرهه الآخرون. وقد أفاد أشهب والحارث بن مسكين أن الإمام مالك رضى الله عنه كره التسمية بأسماء الملائكة. وقال عبد الرزاق في الجامع عن معمر أنه سأل حماد بن أبي سليمان عن التسمية بها فقال: لا بأس به (3). وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤيد الفريق الذي كره ذلك. فقد قال البخاري في تاريخه: قال أحمد بن الحارث، قال أبو قتادة الشامي، قال عبد الله بن جرار: صحبني رجل من مزينة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه، فقال: يا رسول الله! وُلِدَ لِي مَوْلُودٌ فَمَا خَيْرُ الْأَسْمَاءِ؟ قال: **﴿إِنْ خَيْرَ**

(1) رواه أبو وهب الجشمي ص80 من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - لابن القيم.

(2) ص83 من كتاب تحفة المودود لابن القيم

(3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

الأسماء: الحارث وهمام، ونعم الاسم عبد الله وعبد الرحمن، وتسموا بأسماء الأنبياء ولا تسموا بأسماء الملائكة — قال: وبإسمك؟ قال: ⁽¹⁾ وبإسمي ولا تكتنوا بكنيتي — ⁽²⁾.. وكان هذا النهى عن التكنى بكنيته صلى الله عليه وسلم في حياته فقط. وقد أجاز له النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته؛ فقد روى أبو داود في سننه عن أبي بكر وعثمان ابني شيبه عن أبي أسامة عن قُطر عن منذر عن محمد الحنفية قال: قال عليّ رضي الله عنه: يا رسول الله: إن ولد لي بعدك ولد، أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك؟ قال: ⁽³⁾ نعم — ⁽⁴⁾..

ومن الأسماء التي نهى عن التسمية بها للكرهية - تسمية الإبن ببسار أو رباح أو نجاح أو أفلح. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: لم يقل: لا تسمين غلامك يسارا ولا رباحا ولا نجيجا ولا أفلح، فإنك تقول أئمم هو؟ فلا يكون — (3) .. وفي سنن ابن ماجة تأكيد للنهى عن هذه الأسماء وأمثالها في حديث أبي الزبير عن جابر عن عمر ابن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ⁽⁴⁾ إن عشت إن شاء الله لأنهن أمتي أن يسموا: رباحا ونجيجا وأفلح ويسار — (4) .. وفي معنى هذا: مبارك ومفلح وخير وسرور ونعمة وما أشبه ذلك. فإن المعنى الذي كره له النبي صلى الله عليه وسلم التسمية بتلك الأربعة

(1) نفس الصفحة من المرجع السابق.

(2) أخرجه ابن أبي عاصم وأبو نعيم عن ابن خشيب عن أبيه. ص 165 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوى.

(3) ص 1085 من صحيح مسلم الطبعة المميزة والمرقمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث - مكتبة الإيمان بالمنصورة وص 81 من تحفة المودود، وقد ورد فيها نجاحا بدلا من نجيجا

(4) ص 82 من تحفة المودود.

موجود فيها(1).

ومن هذه الأسماء المنهى عن التسمية بها ما فيه تزكية للنفس كَبَرَّة. ففي سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن تُسمى بـ _____ رة. وقـ _____ ال:
 لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم — (2). وفي سنن ابن ماجة، عن أبي هريرة " أن زينب كان اسمها برة، فقيل: تزكى نفسها، فسمّاها النبي صلى الله عليه وسلم زينب " (3) ..

ومن هذا القبيل أيضا التسمية بأسماء الشياطين كخنزب، والولهان، والأعور، والأجدع، والحباب؛ فقد قال الشعبي عن مسروق: لقيت عمر بن الخطاب فقال: من أنت؟ قلت: مسروق بن الأجدع. فقال عمر رضى الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **الْأَجْدَعُ شَيْطَانٌ** — (4). وهكذا طلب عمر من مسروق أن يغير اسم أبيه لأن التسمية بأسماء الشياطين مكروهة، وإن كان طلبا غير مباشر. ويروى أبى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: **إِنْ لِلْوَضِءِ شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ الْوُلْهَانُ، فَاتَّقُوا وَسَاوِسَ الْمَاءِ** — (5).

وفي هذا القول الشريف تحذير ونهى عن التسمية باسم " ولهان ". وقد ورد أن عثمان ابن أبى العاصى شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من وساوس تصيبه في الصلاة، فقال صلى الله عليه

(1) الصفحة نفسها من المرجع ذاته.

(2) نفس الصفحة من نفس المرجع.

(3) نفس الصفحة ونفس المرجع.

(4) ص 82 من كتاب تحفة المودود لابن القيم.

(5) ص 83 من نفس المصدر السابق.

وسلم: **﴿ذلك﴾** شيطان يقال له خنزب — (1) وذلك للتنفير من التسمية باسمه.. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن حميد عن عبد الرحمن عن هشام عن أبيه: أن رجلا كان اسمه الحباب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم "عبد الله وقال: **﴿الحباب﴾** شيطان — (2).

وهكذا نرى النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى تغيير الأسماء المكروهة بل ويغير بعضها بنفسه صلى الله عليه وسلم أحيانا. ومن الأسماء المنهى عن التسمية بها كذلك أسماء الفراعنة والجبابرة. كفرعون وقارون وهامان والوليد، وعن التسمية بالوليد نهى النبي صلى الله عليه وسلم. فقد قال عبد الرازق في الجامع: أراد رجل أن يسمى ابنا له الوليد، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: **﴿إنه سيكون رجل، يقال له الوليد. يعمل في أمتي بعمل فرعون في قومه — (3).** ويدخل في هذا الإطار، الأسماء التي لها معان تكرهها النفس ولا تلائمها، كحرب ومرة وكلب وحية وجمرة وشهاب وما يشابهها. وفي هذا المجال تحدثت كتب السنة عن واقعتين شهيرتين. أما الواقعة الأولى فهي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلن عن عدم رضاه عن اسمي (مرة وحرب) ورفض أن يحلب أى منهما الناقة التي أراد لها أن تحلب وأمر رجلا غيرهما اسمه يعيش أن يحلبها. فعن مالك بن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للقة تحلب: من يحلب هذه؟ فقال رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿ما اسمك؟ — فقال له الرجل: مرة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿اجلس — ثم قال: ﴿من يحلب**

(1) من سنن ابن ماجه عن عثمان بن أبي العاص ص83 من نفس المصدر.

(2) من سنن ابن ماجه ص83 من نفس المصدر.

(3) ص83 من تحفة المودود - لابن القيم.

هذه؟ — فقام رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٥ ما اسمك؟ — فقال حرب. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٥ اجلس — ثم قال: ٥ من يحلب هذه؟ — فقام رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٥ ما اسمك؟ — قال: يعيش. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٥ احلب — (1) .. وأما الواقعة الثانية فقد وردت عن عمر بن الخطاب الذي أبدى انزعاجه وقلقه من اسم رجل يسمى (جمرة) ويسمى أبوه كذلك (شهاب) يسكن في مكان يقال له الحرقة ومنزله بذات لظى.. فقد " روى مالك عن يحيى بن سعيد أيضا: أن عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة. فقال: ابن من؟ قال: ابن شهاب. قال ممن؟ قال: من الحرقة. قال: أين مسكنك؟ قال: بحرة النار. قال: بأيها؟ قال: بذات لظى. قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا " قال: أى الراوى - فكان كما قال عمر رضى الله عنه (2). ورواية الشعبى أكثر توضيحا وفيها: " قال عمر: ويحك، أدرك أهلك ومنزلك فقد أحرقتهم، قال: أى الراوى: فأتاهم فألفاهم قد احترق عامتهم " (3) .. ولا غرابة فيما توقعه عمر وخصوصا إذا علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ٥ البلاء مؤكلٌ بالقول — (4) وهذا الإسم المكروه إلى النفس والذى تكرر حتى في الموقع الذي يسكن فيه الرجل - هو قول تلفظ به أبو المولود أو من حل محله، وتلفظ به أيضا مَنْ سَمَّى الموقع. فالبلاء إذن متوقع يصيب صاحب الإسم الذي تكرهه النفس ولا تحبه حتى لو كان اسم مكان..

(1) موطأ مالك طبعة الشعب ص 602 - لقحة: ناقة ذات لبن.

(2) ص 602، ص 603 من المرجع السابق.

(3) رواه الشعبى ص 85 من كتاب تحفة المودود - لابن القيم.

(4) قاله أبو عمر عن النبى ﷺ ص 85 من المصدر السابق.

وإذا كان النهى عن الأسماء السابقة للكراهة - فهناك أسماء نهى عنها للتحريم. وهى كل اسم معبد لغير الله عز وجل. كعبد العزى وعبد هبل وعبد الكعبة وعبد النبى وما أشبه ذلك. ويقول ابن القيم في تحفته: حاشا عبد المطلب⁽¹⁾. فلا يدخل هذا الاسم عنده في عداد الأسماء المنهى عنها نهى تحريم. وسبب ذلك عنده أن التسمية به وبمثله كعبد شمس وعبد الدار يدخل في باب الإخبار الذي هو أوسع من باب الإنشاء. فإنشاء الاسم لغير الله محرم، أما الإخبار به فليس محرماً⁽²⁾.. ويتفق ابن القيم في ذلك مع ابن حزم. حيث يقول الأخير: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب⁽³⁾. فالتسمية بعبد المطلب عند ابن حزم لا محذور فيها. إذ أصلها من عبودية الرق. ويزيد صاحب فتح المجيد الأمر وضوحاً فيبين أن المطلب أخا هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه شيبه قد نشأ في أخواله بنى النجار. حيث تزوج هاشم امرأة منهم فجاء منها بهذا الابن (شيبه). وشب شيبه في أخواله وعندما بلغ سن الرشد سافر به عمه المطلب إلى مكة. وقدم به مكة وهو رديفه. فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر فحسبوه عبداً للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب. فتعلق به الاسم وصار لا يدعى إلا به مع أن اسمه شيبه الحمد⁽⁴⁾... وهكذا يتفق العلماء الثلاثة: ابن القيم مع ابن حزم مع الشيخ عبد الرحمن صاحب فتح المجيد، في أن عبد المطلب لا يدخل في باب التحريم، لما سبق بيانه..

(1) ص 80 من نفس المرجع.

(2) ص 81 من كتاب تحفة المودود لابن القيم

(3) ص 461 من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

(4) نفس الصفحة من المصدر السابق.

ومما يحرم التسمية به: ملك الملوك وسلطان السلاطين وشاهان شاه.. ففي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **﴿إِنْ أَخْنَعَ اسْمُ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ—** (1). وقال سفيان: مثل: شاهان شاه " (2). وفي رواية: **﴿أَغْيِظَ رَجُلٌ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثَهُ—** (3).. وهكذا نجد أن احترام أسماء الله تعالى وصفاته واجب شرعى، وأن تغيير الإسم المسمى بها واجب شرعى أيضا. ولعل الأمر يزداد وضوحا من رواية أبي شريح: فقد كان يكنى أبا الحكم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِنْ اللَّهُ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ—**. فقال: **﴿إِنْ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضَى كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فقال: ﴿مَا أَحْسَنَ هَذَا. فَمَالِكَ مِنَ الْوَلَدِ؟—** قال: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: **﴿فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ—؟. قلت شريح. قال: ﴿فَأَنْتَ أَبُو شَرِيح—** (4). وهكذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يغير كنية رجل كنى نفسه " الحكم " لأنه لفظ لا يليق إلا بالله عز وجل، ويكنيه باسم أكبر أبنائه. لتكون الكنية بعد ذلك بأكبر الأبناء.. ومثل ذلك لفظ قاضى القضاة فالتسمية به محرمة لأنه لفظ لا يتناسب إلا مع الذات الإلهية. فالتسمى به يدخل في باب الإشراك بالله تعالى.. ومما يدل على خطورة إطلاق هذا اللفظ على عبد من عباد الله عز وجل - ما ورد في كتاب فتح المجيد، من أن من النوادر في هذا المجال: " أن العز بن جماعة رأى أباه في النوم. وكان قبل وفاته يعرف بقاضى القضاة. فسأله عن حاله فقال: ما كان علىّ أضر

(1) ص 444 من المرجع السابق.

(2) نفس الصفحة من المرجع نفسه.

(3) ص 447 من المصدر ذاته

(4) رواه أبو داود وغيره ص 449 من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

من هذا الاسم (قاضى القضاة). فهى ولده الموثقين أن يكتبوا له في الأسجال " قاضى القضاة " بل قاضى المسلمين⁽¹⁾.. ومن الأسماء المحرمة المعبدة لغير الله سبحانه وتعالى - ما عبّد لحجر ونحوه. ودليل ذلك ما رواه ابن أبى شيبه من حديث يزيد بن المقدم بن شريح عن أبيه عن جده هانى بن شريح قال: وفد على النبی صلى الله عليه وسلم قوم فسمعهم يسمون عبد الحجر، فقال له: ۞ ما اسمك—؟ فقال: عبد الحجر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ۞ إنما أنت عبد الله—⁽²⁾. فقد غير النبی صلى الله عليه وسلم اسم هذا الرجل ليكون عبد الله بدلا من أن يُعبّد لحجر لکی يحمى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد..

ومن الأسماء المحرمة التي يمتنع تسمية الإنسان بها - أسماء الرب تبارك وتعالى. فلا يجوز التسمية بها: كالأحد والسيد والصمد والخالق والرازق، وسائر الأسماء المختصة به عز وجل. وعلى ذلك فلا يجوز بل يمتنع تسمية الملوك بالقاهر والطاهر، ولا بالجبار والمتكبر، ولا بالأول والآخر والباطن وعلام الغيوب.. وللدلالة على ذلك نذكر ما قاله أبو داود عن مسدد بن بشر عن المفضل عن أبى سلمة سعيد بن زيد عن أبى نضرة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: قال أبى: انطلقت مع وفد بنى عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا، فقال: ۞ السيد هو الله—، قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: ۞ قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يُجرِيَنَّكُمُ الشيطان—⁽³⁾.. وتوجيه النبی صلى الله عليه وسلم لهذا

(1) ص 446 من المرجع السابق..

(2) ص 80 من تحفة المودود - لابن القيم.

(3) ص 88 من المصدر السابق.

الوفد بالتعبير عما جاءوا من أجله مباشرة خير من الانسياق وراء وساوس الشيطان الذي يريد أن يفسد عليهم عقيدتهم، فيدلهم على ألفاظ بعيدة عن روح الإسلام وتعاليمه. فالتعبير بلفظ السيد لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى. فلا يصح أن يطلق على البشر. وقد يحتج البعض بأن قوله صلى الله عليه وسلم: **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر — الحديث** (1) يتعارض مع ذلك. والحقيقة أن لفظ سيد في الحديث الشريف يعنى الإخبار عن سيادة النوع الإنساني وفضله وليس من قبيل التسمية. فالسيادة فيه جزئية. لكن إطلاق لفظ سيد على الله تعالى فيه معنى الإطلاق والشمول. فهو سبحانه سيد الخلائق ومالك أمرهم جل جلاله(2). ويدخل في باب التحريم التسمي بها مطلقا حتى لا يستوى بها الله جل جلاله مع غيره، فيُدخل بها في مجال الإشراف بالله سبحانه وتعالى(3)..

وكذلك يدخل في باب التحريم أسماء القرآن وسوره، مثل: طه ويونس وحم ويس. والقول بأن يس وطه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم قول غير صحيح. حيث إنه لم يرد في حديث صحيح ولا حسن ولا مرسل، ولا في أثر عن صحابي. وإنما هي حروف مثل: الم وحم والر ونحوها(4).

هذا وأعتذر عن الإطالة في هذا الجزء من الفصل. فقد كان لابد من إيضاح الجائز والمكروه والمحرم من الأسماء والصفات والكنى

(1) رواه أحمد عن أبي سعيد الحذرى ص 46 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

(2) ص 88 من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - لابن القيم مع بعض التصرف.

(3) نفس الصفحة من المرجع ذاته.

(4) 4 نفس الصفحة ونفس المرجع

مع ذكر أمثلة لها وأدلة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يتمكن المسلمون وخصوصا من قراء هذا الفصل - من تلافى هذه الأخطاء ومحاولة تغيير مايمكن تغييره منها. وأعتقد أن باب التغيير للأسماء المخالفة مفتوح أمام الجميع بلا حدود. وخصوصا إذا لاحظنا أن هذه الأخطاء في التسمية تقع غالبا من الطوائف غير المتعلمة وغير المتفهمة. وهؤلاء لا يصعب عليهم تغيير هذه الأسماء المخالفة. والله من وراء القصد...

* * *

الباب الخامس

تتابع اهتمام الوالدين
بمولودهما
في ظل الكتاب والسنة

الباب الخامس : تتابع اهتمام الوالدين بمولودهما في ظل الكتاب والسنة

يظهر بوضوح قدر كبير من السعادة للمولود منذ اللحظات الأولى من ولادته، بفضل اهتمام الإسلام به وبولادته. فهو منذ هذه اللحظات يسعد بعقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين. إذ اعترف بالله عز وجل ربا وإلهًا واحدًا للكون، بعد أن جمعه الله تعالى وأقرانه وهم كالذر، بعد أن استخرجهم من ظهر آدم وأطلعهم عليهم. وشهدوا جميعًا على أنفسهم لله سبحانه وتعالى وحده بالألوهية والربوبية للكون بكل ما فيه من مخلوقات. وقد ورد حديث أخذ الميثاق الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس. واستدل الإمام أحمد بحديث عن أنس بن مالك فيمن أبى إلا الإشراك بالله سبحانه وتعالى بعد أن أخذ الميثاق⁽¹⁾. وقد سبق ذكر ذلك في الباب الأول...

* * *

(1) ورد الحديثان في ص 33 من قصص الأنبياء لابن كثير - تحقيق أبى عبد الله الأنصارى - دار القلم للتراث.

الفصل الأول:

دور الوالدين في تثبيت الفطرة وتنشئة المولود عليها

وإذن فالمولود ينزل من بطن أمه للوجود الدنيوى بهذه الفطرة التي خلقه الله عليها، معترفا بربه وإلهه الواحد، وبدينه القيم، الذي تكفل بإسعاده في دنياه وآخرته كما تكفل بإسعاد المسلمين جميعا..

وفى هذا يقول ربنا العظيم: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾} [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].. وقد اقتضت سنة الله جل شأنه في خلقه - أن يكلف الأنبياء والرسل - وآخرهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - بالمحافظة على هذه الفطرة التي ارتضاها رب الخلق للناس جميعا، دينا قيما يقيم دنياهم وآخرتهم. ويثبت صحة ذلك وتأكيد مخابضة محمد صلى الله عليه وسلم، آخر الأنبياء والرسل بهذا التكليف في حياته، ومخاطبة أمته صلى الله عليه وسلم بعد مماته إلى يوم القيامة. فيقول له رب العالمين: {فَاقُمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠]. والناس جميعا تابعون للرسل مكلفون بالمحافظة على هذه الفطرة...

فالطفل إذن مهياً في هذه الفترة المبكرة من حياته بفطرته التي خلقه الله عليها - لتلقى الدين الحقيقى ومبادئه ومعرفة الوحداية وتعاليم العقيدة الإسلامية السمحة، بشكل مبسط يتناسب مع عمره. ومن هنا تبرز أهمية الوالدين في هذه الفترة الهامة والخطيرة من

حياة الطفل المبكرة. فتلك مسئوليتهم الكبرى، وهى تثبيت وتقوية أركان ومبادئ الإسلام في قلب الطفل، النقى الطاهر. وخصوصاً أنه يتجه إلى أمه وأبيه بكل حواسه وقوته التي وهبها الله له، بمجرد ولادته.. وتزداد مسئوليتهم نحوه وتقوى كلما تقدم في سنه. ولذا يوجه النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الوالدين إلى هذه المسئولية الهامة ومزاولتها بكل إخلاص، في تثبيت مولودهما على دين الفطرة، الدين الإسلامى، ومبادئه الموصلة إلى السعادة في الدارين، فيقول صلى الله عليه وسلم: **كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء**— ثم يقول أبو هريرة: **واقرأوا إن شئتم: { فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (٣٠)** [الروم: ٣٠] (1).

وقد مر بنا أن المولود بمجرد خروجه من بطن أمه، يتلقفه أبوه أو من يقوم مقامه فيقرأ كلمات الأذان في أذنه اليمنى ويقيم الصلاة في أذنه اليسرى. ليكون أول ما حصله سمعه وأدركه حسه هو ذكر الله جل جلاله وذكر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم.. وتتوالى الاهتمامات بالمولود حسب ما ورد في سنة الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم، فيحنك بتمرّة أو أكثر، ويُبَارِكُ فيُدْعَى له بالبركة في كل ما يخصه. وعندما يبلغ يومه السابع يُقَصُّ شَعْرُهُ ويوزنُ ويُخْرَجُ بوزنه من ماله أو مال أبويه أو كافله فضة (2) توزع على الفقراء

(1) رواه البخارى عن أبى هريرة. ص11 من كتاب كنوز السنة - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني - جمعاء: أى كاملة الخلقة - جدعاء: أى مقطوعة الأنف والأذن والمقصود أنه لا نقص فيها بأى وجه.

(2) ص69، 70 من كتاب تحفة المودود بأحكام المولود - تأليف ابن القيم الجوزية.

والمساكين والمحتاجين. ثم يسمى بأحسن الأسماء. ويأتى دور العقيدة وذبحها عنه إن تيسر وأمكن ذلك شرعا وقد سبق الحديث بالتفصيل عن كل ذلك. وكل هذه الاهتمامات تُدخل جوا من البهجة والسرور والسعادة على والديه وأسرته وأقاربه، ينعكس بدوره على المولود بالمزيد من الاهتمام الإسلامى. فهناك اهتمام بمرحلة الرضاعة، واهتمام بمرحلة الطفولة واهتمام بمرحلة المراهقة والشباب، واهتمام بمرحلة الرجولة والكبر. وهو اهتمام إسلامى مشترك من القرآن الكريم، والسنة النبوية المباركة...

* * *

الفصل الثاني: مرحلة الرضاعة

وبنزول المولود من بطن أمه تبدأ مرحلة جديدة في حياته الدنيا، كلها هناء وفرح وسعادة لوالديه. ويكون المولود في عناية الله تعالى وحفظه، ثم في رعاية أبويه.

وقد قدر الإسلام مدة الرضاعة الكاملة النافعة بعامين. وهى مدة تتكون فيها أنسجة جسم المولود، وتقوى فيها عضلاته وأجزاؤه الداخلية، وتنمو وتتكامل⁽¹⁾. فينشأ المولود بذلك نشأة قوية مباركة، ويفهم ذلك من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرِّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّقْوَ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَاتَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٣٣﴾ [البقرة: ٢٣٣].. وبالنظر في معنى الآية الكريمة وتفسيراتها، يتبين لنا أن الإسلام قد اهتم بمرحلة الرضاعة ونظمها. وذلك حرصاً منه على مصلحة الرضيع وأمه وأبيه. وهذا الاهتمام الإسلامى اهتمام كامل، حتى في حالة انفصال الأم عن الأب لظروف غالبية على إرادتهما، تحكمت في حياتهما في هذه الفترة.. وقد نظم القرآن الكريم العلاقة بينهما في حالة الانفصال حتى لا يضار الطفل من ناحية، ولا يضار أبوه وأمه من ناحية أخرى.

(1) ص146 بتصرف من كتاب رعاية الطفل - للدكتور أحمد خليل عبد الخالق - عضو الجمعية الطبية الملكية بلندن وأخصائى أمراض الأطفال - الطبعة الرابعة عام 1949م.

فعليهما حينئذ تنفيذ ما ورد في قوله تعالى: {لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ}؛ فعلى والد الطفل في هذه الحالة نفقته ونفقة والدته المطلقة، وكسوته وكسوتها، حسب ما يجرى عليه العرف السائد في مثل هذه الظروف. على أن تكون نفقة معتدلة، لا إسراف فيها ولا تقتير. وذلك حتى تتمكن الأم المطلقة من خدمة ولدها ورعايته وإرضاعه.. ولا ينبغي أن يضار الطفل بطلاق أمه، فترفض إرضاعه لتضر أباه بتربيته. إذ المعروف أن الطفل في هذه السن المبكرة يحتاج إلى أمه أكثر من حاجته إلى أبيه.. ولا يَنْتَزِع الوالدُ الابنَ من أمه ليسبب لها الإضرار، مع رغبتها في إرضاعه وأحققتها بذلك لأنها أمه، وهو قطعة منها. وهذا معنى ما قاله مجاهد في تفسير ذلك الجزء من الآية الكريمة⁽¹⁾. ويشترك مع مجاهد رضى الله عنه في ذلك آخرون منهم قتادة والضحاك والزهرى والسُّدِّي والثوري وابن زيد⁽²⁾..

والوارث للأب يخلف الأب في ممارسة مسئوليته تجاه الصغير وأمه بما يصب في مصلحتهما.. وإن تشاورَ الوالدان ووجدوا أن الفطام قبل انتهاء الحولين من مصلحة الرضيع في هذه الحالة واتفقا على ذلك فلا إثم عليهما إن فعلاه. فقد تكون الأم عاجزة عن إرضاع الطفل لمرض أو ضعف أو حمل أو نحو ذلك، وقد ترغب في الزواج بعد انتهاء عدتها، ولا مانع من ذلك شرعاً، فلا بأس حينئذ من إيجاد مرضعة غير الأم بشرط أن يدفع لها الأب ما اتفقا عليه من الأجر. إذ أن الموضع إذا لم تكرم، فإنها لا تهتم بالطفل ولا تعتنى

(1) ص 136 من القسم الأول من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.

(2) ص 268 من الجزء الأول من تفسير القرآن العظيم - لابن كثير.

بارضاعه..

والحرص على إعطاء المولود حقه الكامل في الرضاعة -
يوجب على والديه أو مَنْ يحل محلهما، أن يكون رضاعه مباشرة
من ثدى أمه وأن تذلل كل العقبات التي تحول دون ذلك.

فللبن الأم أهمية عظيمة بالنسبة لمولودها ومن ذلك⁽¹⁾: أولاً: إن
لبن الأم يتكون من عناصر متناسبة ملائمة لاحتياجات الرضيع في
مراحل نموه المختلفة. ثانياً: إن هذا اللبن يشتمل على المواد
البروتينية اللازمة لقوة الطفل ومناعته ضد أمراض كثيرة فلا يصاب
بها الرضيع. ثالثاً: إن لبن الأم غير قابل للتلوث. إذ ينتقل من ثدى
الأم إلى فم الطفل مباشرة. رابعاً: إن الرضاعة من ثدى الأم تقوى
الرباط العاطفى بين الأم وابنها الذي يرضع لبنها. مما يقوى ويسهل
الاتصال النفسى بين الرضيع وأمه المرضع. خامساً: هذ الرضاعة
الطبيعية من ثدى الأم تعود على الأم المرضع بفوائد عدة أهمها: أنها
تعجل بعودة رحمها إلى حجمه الطبيعى. سادساً: كل هذا بالإضافة
إلى مايعود على الرضيع الذي يسعد بثدى أمه من فوائد في اليومين
الأولين من الرضاعة. حيث يخرج من ثديها سائل اللباء (لبن
المسمار) وله فوائد هامة بالنسبة للرضيع. فمن عظيم لطف الله عز
وجل بالأم ورضيعها أن يخرج من ثديها هذا السائل. ويتغذى عليه
المولود في اليومين الأول والثانى من الولادة. وهو سائل أصفر، به
نقط دهنية وخلايا متعددة النوايا ومحملة بالدهن. والكازينوجين به
قليل جداً أو غير موجود. وكذلك يحتوى اللباء على 3% تقريباً من

(1) يتصرف واختصار من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو
النور. من ص520، 521 تلخيصاً من فضيلته لحديث له مع الدكتور فتحى الزيات
رئيس قسم الفسيولوجيا بكلية الطب - جامعة الأزهر بهذا الخصوص.

البروتين: البومين وجلوبيولين اللبن. كما يوجد به اللاكتوز والأملاح المعدنية⁽¹⁾. وفى هذا السائل أكثر من فائدة للرضيع فهو ينشط أمعائه ويلينها ويجعلها مناسبة لاستقبال سائر الطعام ويزوده بالأجسام المناعية ضد الأمراض. كما أنه يساعد على أن تكون عملية الإخراج عند الرضيع طبيعية.. وهكذا ندرك أن الرضاعة من ثدى الأم تفيد الرضيع وأمه من النواحي العديدة: النفسية والطبية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية. وكل ذلك يفيد الطفل ويجعل نموه طبيعياً⁽²⁾، وسعاده بَيِّنَةً أكيدة.

وقد شكك بعض المتخصصين في صلاحية الأم المرضع إذا حملت. وقالوا: إن الرضاعة تضعف الأم في هذه الحالة كما تضعف رضيعها. ولكن هذا الشك ليس على إطلاقه. فقد أظهر تحليل للبن بعض الأمهات الحوامل المرضعات لمواليدهن - أن لبنهن ليس ضعيفاً كما أشيع، ولا يتغير بسبب الحمل إلا قبل الوضع بوقت قصير، حيث يتحول إلى كولسترول وأن هذا التغير يمكن ملاحظته ومنع الرضاعة في هذه الفترة المتأخرة من الحمل إذا اقتضى الأمر. كما أن إرضاع الأم الحامل لطفلها لا يضعفها، لأن هناك حالات كثيرة ترضع الأم فيها طفلها دون أن تتأثر أو تضعف نتيجة لذلك⁽³⁾. وقد لاحظ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الأمر وشيوعه في بلاد فارس والروم دون أن يضر أولادهم. ومن ثم جاء قوله صلى الله عليه وسلم لمن قال له: إنى أعزل عن امرأتى إشفافاً على ولدها أو

(1) ص256 من كتاب علم وظائف الأعضاء - الجزء الأول للدكتور محمد طلعت والدكتور أحمد طلعت - الطبعة الثانية.

(2) ص521 من كتاب منهج السنة في الزواج بتصرف.

(3) ص148 بتصرف من كتاب رعاية الطفل للدكتور أحمد خليل عبد الخالق - عضو الجمعية الطبية الملكية بلندن وأخصائى أمراض الأطفال - الطبعة الرابعة عام 1949م.

أولادها: لو كان ضاراً ضر فارس والروم — (1) بل أثر عنه صلى الله عليه وسلم ما يؤكد ذلك في ما رواه مسلم عن خلف بن هشام عن مالك بن أنس عن يحيى بن يحيى عن محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة عن جدامة بنت وهب أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لقد هممت أن أنهى عن الغيلة. حتى ذكرت أن الروم وفارس يفعلون ذلك فلا يضر أولادهم — (2) .. وفى المقابل توجد حالات كثيرة تخالف ذلك فقد يتسبب الحمل في قلة واضحة في كمية لبن الأم وعدم نمو الطفل الرضيع. وهنا يجب البحث عن مرضع أخرى للطفل أو تغذيته بلبن حيوانى ونقول في مثل هذه الحالة من الممكن مراقبة الأم التي ترضع وهى حامل. فإذا لوحظ أن ضعفها يتزايد بالإرضاع وتتعب في ممارستها الرضاعة فهنا يجب إيقافها عن الرضاعة. ومن جهة أخرى قد تتعرض الحامل التي ترضع ولدها للإجهاض بسبب الحمل. فإذا لاحظ طبيبها احتمال حدوث الإجهاض عليها بظهور علامات مبكرة تدل على ذلك - فإنه يمنعها من إرضاع وليدها من بداية الحمل (3) .. وبصفة عامة تتأثر صلاحية لبن الأم المرضع بعوامل خمسة نذكرها بإيجاز (4):

أولاً: إذا أصيبت الأم المرضع بمرض حاد معد كالتييفود أو الحصبة أو الالتهاب الرئوي أو الجدري أو غيرها من الأمراض

(1) رواه مسلم عن أسامة بن زيد وعن جدامة بنت وهب ص 515 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) صحيح مسلم - الطبعة المميزة ص 693. الغيلة إرضاع الأم لطفلها وهى حامل.

(3) يتصرف واختصار من كتاب رعاية الطفل للدكتور أحمد خليل عبد الخالق.

(4) يتصرف واختصار من ص 150 إلى ص 152 من كتاب رعاية الطفل للدكتور أحمد

خليل عبد الخالق عضو الجمعية الطبية الملكية بلندن وأخصائى أمراض الأطفال -

الطبعة الرابعة

عام 1949م.

المعدية فيجب أن تتوقف عن إرضاع طفلها فوراً. ثانياً: وإذا أصيبت بمرض معد بسيط كالزكام أو الإنفلونزا البسيطة أو التهاب اللوزتين البسيط تؤخذ لها الاحتياطات اللازمة لعدم انتقال العدوي إلى الرضيع. ولا تمنع من إرضاع ولدها إلا إذا أصيب الطفل بعارض كالقيء أو الإسهال. وكذلك الأمر إذا انتقلت العدوي من الأم المرضع المصابة بمرض خفيف إلى طفلها الرضيع فلا يمنع من الرضاعة مع أخذ الاحتياطات السابقة. ثالثاً: إذا وضعت الأم ثم أصابها مرض معد يصعب أو يطول علاجه عقب الوضع كالزهري أو السل فإنها تمنع من إرضاع ولدها. وإذا انتقلت العدوي منها إلى الطفل الرضيع، تمنع أي مرضعة أخرى من إرضاعه حتى لا تنتقل العدوي إليها. ويجب أن يخضع الطفل في هذه الحالة إلى الاختبار والملاحظة لمدة خمسين يوماً. فإذا ثبت بعدها خلوه من المرض يسمح لمرضعة أخرى بإرضاعه. رابعاً: إذا أصيبت الأم المرضع بأمراض غير معدية كعسر الهضم أو النزلة أو الإسهال البسيط - توقف الرضاعة. وكذلك إذا أصيبت بالصفرة، فأقرزت الممرارة في اللبن بحيث ينفر الطفل من الرضاعة، يمنع الطفل حينئذ من الرضاعة. خامساً: إذا ظهر على الأم المرضع مرض منهك يتسبب في عدم قدرتها على الرضاعة كالأمراض الناهكة والحالات النفسية والعصبية وأمراض الثدي يجب حينئذ إيقاف الرضاعة وإفراغ اللبن من الثدي حتى يستمر في إفراز اللبن فلا يتحول إلى كولستروم ونزيد على ذلك أنه إذا أصيبت الأم المرضع بأمراض معينة كالحمى القرمزية والحمى التيفوسية والحمرة عند الولادة - فإنها تمنع من إرضاع وليدها حيث يصبح اللبن سما يعرض حياة الوليد

للخطر (1)....

ولكل هذه الأعراض السلبية وإمكان حدوثها واستعداد الأم الحامل للإصابة بها حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من الغيل، وقال فيه حديثه الشريف: **لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ سِرًّا** — وسيأتي شرحه وتوضيحه..

وحتى تنمو وتكتمل العلاقة الوطيدة بين لبن الأم وطفلها وتؤدي ثمارها يرشدنا الإسلام إلى أمر في غاية الأهمية. فإذا كانت الأم هي العامل الأساسي في نجاح عملية الرضاعة للمولود - فإن دورا هاما ينتظر الأب؛ ليتم نجاح هذه العملية. ولا شك أن الأب يكون متشوقا ومتلهفا إلى لقاء جنسي مع زوجته المرضع بعد أن حُرِمَ من ذلك عقب الولادة وحتى انتهاء فترة النفاس. والزوج الواعي المقدر للمسئولية يضع نصب عينيه دائما ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الغيل.. والغيل أن يجامع الرجل زوجته وهي ترضع، أي في فترة إرضاعها لوليدها. أو أن ترضع وهي حامل، على خلاف بين العلماء والمتخصصين في الرضاعة مع الحمل (2).

وقد يكون هناك خطورة على الرضيع وأمه الحامل المرضع في كلتا الحالتين وعلى الأخص في حالة الرضيع إذا حملت أمه المرضعة له. وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الخطورة؛ فأعلن كراهيته لهذه الممارسة في حديثين شريفيين ففي الحديث الأول وصفها صلى الله عليه وسلم بأنها قتل سرى للمولود. ويعنى صلى

(1) ص44 بتصرف من كتاب درر الأقوال لوقاية الأطفال في الصحة والمرض للدكتور جورج عز قننجي - الطبعة الثانية 1926م. الحمرة: احمرار الوجه من شدة الانفعال. وفيه زيادة لضغط الدم.

(2) ص506 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

الله عليه وسلم بذلك الضعف والهزال الذي قد ينشأ عن الرضاعة في حالة الحمل ويستمر مع الطفل في كل مراحل عمره وخصوصا في فترة الشباب. فيقول صلى الله عليه وسلم: **«لا تقتلوا أولادكم سرا، فو الذي نفسى بيده إن الغيل ليدرك الفارس على ظهر فرسه حتى يصير - عه -»** (1). وقد ورد في رواية الإمام أحمد في مسنده بلفظ: **«فإن الغيل يدرك الفارس فيده عشرة من فوق رأسه -»** (2). وفي الحديث الثانى يصف النبى صلى الله عليه وسلم الغيل بأنه فساد للطفل ويضعه بين عشرة خلال مكروهة وقد عبر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن هذا الحديث الشريف الثانى بقوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره عشر خلال: تختم بالذهب، وجر الإزار، والصفرة - يعنى الخلق، وتغيير الشيب. قال جرير: يعنى بذلك نتفه، وعزل الماء عن محله، والرقي إلا بالمعوذات، وفساد الصبى غير مُحَرَّم، وعقد التمام، والتبرج بالزينة لغير محلها، والضرب بالكعاب (3)..

فالغيل تعبير يطلق مجازًا على أثر اللبن الفاسد أو غير المفيد الذي يضعف الجسم ويقلب المزاج، ويظل مع المرء إلى أن يصير رجلاً فإذا أراد مقارنة أقرانه ضعف وانهزم بسبب ذلك (4). ومن أجل ذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن مجامعة الزوج للزوجة

(1) رواه ابن ماجه وأبو داود وابن القيم وأحمد في مسنده عن أسماء بنت يزيد التي سمعته من رسول الله ﷺ ص 506 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) مسند الإمام أحمد 221/16 من الفتح الربانى 506 من كتاب منهج السنة في الزواج - يده عشرة: أى يسقطه.

(3) ص 506 من كتاب منهج السنة في الزواج - جر الإزار: ملامسة ما يليسه حول وسطه للأرض فيجره حين يمشى وهوىعنى التكبر في المشية - الخلق: نوع من الطيب أغليه من الزعفران - عزل الماء: يعنى عدم توصيل المنى إلى الرحم - عقد التمام: تعليق الأحبة - الكعاب: العظم الذي يلعب به.

(4) ص 506 من كتاب منهج السنة في الزواج ببعض التصرف.

في زمن إرضاعها لوليدها، حتى لا ينتج عن ذلك حمل يضيف عبأ جديدا ويؤدى إلى الفساد للوليد ولو مستقبلا.. ويؤيد ذلك ما أثبتته التجربة الطبية التي مارسها بعض الأطباء، من أن " هرمونات البروجسترونات والاستروجينات " الخاصة بالجنس والحمل تزداد أثناء الحمل؛ فيوجد تغير نوعى في تركيب لبن الأم، فتقل فيه نسبة المواد الدهنية والبروتينية عن الحد الطبيعى، مما يضعف نوعية اللبن ويقلل كميته - وربما بشكل ملحوظ - نتيجة تواجد هرمونات مانعة من الإفراز. وذلك يعرض الطفل الرضيع للإصابة بالأمراض والنزلات المعوية. حيث يمنع من الرضاعة وتعطى له أغذية مكملة للبن الأم⁽¹⁾.. فَهَئِ الشريعة الإسلامية عن جماع الأم المرضعة كان بسبب الخوف من أن تحمل، لما للحمل في هذه الحالة من عواقب قد تكون خطيرة على الأم ورضيعها.. فإذا أمكن تجنب الحمل بطريقة العزل الذي كان مباحا مع كراهته - أو بأى طريقة أخرى من الطرق الحديثة كتناول الأقراص أو الحقن أو غيرها من الطرق فلا بأس من الجماع في هذه الحالة.. ويزيد الإمام الدهلوى الأمر وضوحا فيقول في شرح المشكاة: " الظاهر أن الجماع في حال الرضاع غير مضر. لأنه يغيل المرأة فيزيد لبنها، أما الحمل فمضر؛ لأنه ينقص اللبن ويجففه. ولو نهى عن الجماع لكان لخوف الحمل " (2). وهكذا يكون العزل مباحا مع كراهته للتخفيف عن الرضيع وأمه وإنقاذهما من أمراض وأضرار خطيرة قد تتحقق نتيجة الحمل مع الرضاع. ويدخل في العزل استعمال إحدى الوسائل الحديثة، في تنظيم النسل؛ لإعفاء الأم ورضيعها من الخطر المتربص بهما. ومن المعروف أن

(1) يتصرف من كتاب الغدد الصماء للدكتور فتحى الزيات رئيس قسم الفسيولوجيا بكلية الطب - جامعة الأزهر عام 1971. وقرأ ص507 من كتاب منهج السنة في الزواج.

(2) ص508 من نفس المصدر. يغيل المرأة: يجعلها تقبل على الرضاع فيزيد لبنها.

الضرورات تبيح المحظورات. مع ملاحظة أن العزل عن الحرة لا يكون إلا بإذنها. فقد أخبر عمر رضى الله عنه عن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يُعْزَلَ عن الحرة إلا بإذنها⁽¹⁾. وهو في غير هذا الموضع مباح مع كراهته كما سبق توضيحه.

وقد زعمت اليهود أن العزل يقطع النسل أصلاً. وقالوا: إنه الموءودة الصغرى. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبهم. فعن جابر بن عبد الله قال: قلنا يا رسول الله.. إنا كنا نعزل، فزعمت اليهود أنه الموءودة الصغرى. فقال: ^١كذبت اليهود. إن الله إذا أراد أن يخلق له لم يُمْنَعْ — (2).. ويزيد على بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه - هذا الأمر وضوحاً فيما رواه ابن القيم عن أبي يعلى بإسناده عن عبيد بن رفاعه عن أبيه: " جلس إلى عمر على والزبير وسعد رضى الله عنهم في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتذاكروا العزل، فقالوا: لا بأس به. فقال رجل: إنهم يزعمون أنها الموءودة الصغرى. فقال على رضى الله عنه. لا تكون موءودة حتى تمر عليها التارات السبع، حتى تكون من سلالة من طين، ثم تكون نطفة، ثم تكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاماً، ثم تكون لحماً، ثم تكون خلقاً آخر، فقال عمر رضى الله عنه: صدقت.. أطال الله بقاءك " (3)..

وإذن فلا داعى للخوف إذا كانت هناك ضرورة شرعية للعزل، ولم يستطع الزوج أن يصبر عن زوجته المرضع حتى تكمل إرضاع

(1) ص510 من المصدر نفسه.

(2) ص511 من نفس المصدر.

(3) انظر زاد المعاد لابن القيم 4/18 والإحياء للغزالي 2/54 والسنن الكبرى للبيهقي 7/230. وانظر كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور ص511.

وليدهما في المدة المسموح بها شرعا. فجماع الزوجة الموضع مباح في هذه الحالة. وإن كان الأولى هو الصبر حتى تنتهي فترة الرضاع، وتكون الأم الموضع قد استعادت عافيتها من آثار الولادة والنفاس والرضاع.. ومن ناحية أخرى يجب على الزوج المسلم أن يؤمن بقضاء الله وقدره مع هذه الإباحة فإذا قدر الله سبحانه أن تتجب المرأة مع العزل - فإن مشيئته عز وجل ستنفذ لا محالة. وفي هذا السياق يروى عن جابر رضى الله عنه: أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " إن لى جارية هى خادمتنا وسانيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: ^١اعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قدر لها — فلبث الرجل. ثم أتاه فقال: إن الجارية قد حبلت. فقال: ^٢قد أخبرتك أنها سيأتيها ما قدر لها — (1) .. وروى أسامة بن زيد أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنى أعزل عن امرأتى. فقال له: ^٣لم تفعل ذلك؟ — فقال له الرجل: أشفق على ولدها - أو أولادها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ^٤لو كان ذلك ضارا، ضر فارس والروم — (2) وقال زهير بن حرب في روايته لهذا الحديث: ^٥إن كان لذلك فلا. ما ضار ذلك فارس ولا الروم — (3). وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، بعد أن تأكد من أن فارس والروم لا يعزلون ولا يضر الحمل أولادهم.. وفي مواقف أخرى نجده صلى الله عليه وسلم كره العزل وربط هذه الكراهة كذلك بقضاء الله وقدره. فعن ابن أبي نجيح عن مجاهد، عن قرعة، عن أبى سعيد الخدرى قال: ذكر العزل عند رسول الله صلى الله عليه

(1) رواه مسلم في الطبعة المميزة ص 692 عن أحمد بن عبد الله بن يونس عن زهير عن أبى الزبير عن جابر - سانية النخل: ساقيته وراعيته.

(2) ص 694 من صحيح مسلم الطبعة المميزة.

(3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

وسلم فقال: **لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ؟** — - ولم يقل: لا يفعل ذلك أحدكم - فإنه ليست نفس مخلوقة إلا الله خالقها — (1).. ومعنى ذلك أن العزل وعدمه سواء، ما دام قضاء الله وقدره نافذ لا محالة. فقد يقضى بالإنجاب، وقد لا يقضى به. فالمهم في هذا الأمر هو الرضى بقضاء الله عز وجل. وإذا تجنب المؤمن الجانب الرباني المتمثل في القدر، بقصد التهرب من الإنجاب - فإن قصده في هذه الحالة يجرى مجرى الوأد. وهو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل عن العزل في رواية جدامة بنت وهب الأسدية فقال: **لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ** — (2) وهى {وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَلَّتْ} (٨) **بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** { [التكوير: ٨ - ٩] وذكر الآية هنا ليس جزءا من الحديث الشريف وإنما هو زيادة ذكرها الشيخ عبيد الله عن شيخه المقرئ (3).. أما إذا كان هناك خطر في الإنجاب على الأم أو رضيعها أو أولادها وبناتها الآخرين، فإن منع الحمل في هذه الحالة لا يعد وأدا كما سبق توضيحه. فقد رأى فريق من علماء الطب والنفس والاجتماع وخصوصا علم نفس النمو - أن ضررًا ما يلحق بالرضيع من جراء حمل جديد. وبذلك يلتقى هؤلاء العلماء مع علماء الشريعة الإسلامية في وجوب حماية الطفل الناشئ من الطفل القادم وكذلك حماية أمه حتى ترضعه بسلام، ويتعد عنها خطر احتمال الإصابة بأمراض القلب والكلية لزيادة العبء عليها بسبب الحمل، وكذلك احتمال ترهل عضلات بطنها وتثديها بتكرار الحمل.. وليكن معلومًا أن امتناع الأم عن الحمل نهائيًا أو لمدة طويلة يعرضها للإصابة بالأمراض العصبية والنفسية لعدم تمتعها بوظيفتها الفطرية، وتعرض رحمها للأورام الليمفاوية وما يترتب على ذلك

(1) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدرى في الطبعة المميزة الصفحة 691، الصفحة 692.

(2) نفس المرجع ص 694.

(3) 16/10، 17 من النووى. نفس الصفحة 694 من المرجع السابق.

من نزيف وخطورة على حياة الأم (1)... وقد قدر علماء الطب والتوليد والأجنة أن المدة المثالية بين الحمل والآخر، هي المدة التي يستكمل الطفل فيها رضاعه وفطامه من أمه وتعود الأم فيها إلى طبيعتها وصحتها بعد الضعف والهزال..

ولمعاناة الزوجة في الحمل والرضاعة يحفظ الإسلام للأم هذا الفضل، من الله تبارك وتعالى. ولهذا يبشرها الإسلام بالأجر الكريم والفضل الكبير الذي يشجعها على مواصلة بذل الجهد والمشقة بنفس راضية سعيدة. فمشقة الرضاعة لها من هذه الزاوية ما يقابلها من الأجر والثواب والتكريم من الله جل جلاله. وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم موجهًا حديثه الشريف إلى سلامة حاضنة ولده إبراهيم: ¹أما ترضي إحداكن أنها إذا كانت حاملا من زوجها وهو عنها راض - أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله؟. وإذا أصابها الطلق، لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفي لها من قرعة أعين. فإذا وضعت لم يخرج من لبنها جرعة، ولم يُمص من ثديها مصة إلا كان لها بكل جرعة حسنة وبكل مصة حسنة. فإن أسهرها ليلة، كان لها مثل أجر سبعين رقبة تعتقهم في سبيل الله. سلامة: أتدرين من أعني بهذا؟ المتنعمات الصالحات المطيعات لأزواجهن اللاتي لا يكفرن العشير - (2).. وفيما ورد بشأن سلامة رواية تنبئ عن سبب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها أورده ابن الأثير: فقد جاءت سلامة حاضنة إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إنك تبشر الرجال بكل شيء، ولا تبشر النساء. فقال: ¹أصويحاتك دسسنك لهذا؟ قالت: أجل هن

(1) يتصرف من 522، 523 من كتاب منهج السنة في الزواج.

(2) رواه الطبراني في الأوسط وابن عساكر - لا يكفرن العشير: لا يجحدن وينكرن عمله الصالح من أجلهن.

أمرنني. فقال: [♂] ألا ترضي إحداكن إذا كانت حاملا من زوجها - وهو راض - أن لها مثل أجر الصائم القائم في سبيل الله عز وجل، وإذا أصابها الطلق لم يعلم أهل السماء والأرض ما أخفي لها من قرة أعين— ⁽¹⁾ الحديث. ويقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن كذلك: [♂] المرأة إذا حملت كان لها أجر الصائم القائم المخبت المجاهد في سبيل الله. وإذا ضربها الطلق فلا تدري الخلائق ما لها من الأجر. فإذا وضعت كان لها بكل مصة أو رضعة أجر نفس تحيها. فإذا فطمت ضرب الملك على منكبيها وقال استأنفي العمل— ⁽²⁾ .. ويقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أيضا في هذا الأمر: [♂] المرأة في حملها إلى وضعها إلى فصاها - كالمرباط في سبيل الله. وإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شهيد— ⁽³⁾

وهكذا يتضح لكل أم مرضع لوليدها أهمية هذا الرضاع بالنسبة لها. فلها الأجر والثواب العظيم من الله يوم القيامة. ولها السعادة والهناء والبركة في العيش مع وليدها وزوجها في دنياها. فهنيئاً لها في دنياها وأخرها وخصوصاً إذا كان زوجها راض عنها...

ومن المهم أن نشير إلى أمر هام متصل بالرضاعة للإسلام يدعو إلى التكاثر، كما عرفنا من سياق الأحاديث الشريفة سابقاً، لكن المقصود بالتكاثر من وجهة النظر الإسلامية أنه التكاثر المفيد، وهو الذي ينتج نسلًا قويًا يتفاعل مع المجتمع بقوة وحيوية ونشاط لتقوية

(1) أسد الغابة لابن الأثير 144/7 ص 141، 142 من كتاب أهداف الأسرة في الإسلام - للأستاذ حسين محمد يوسف - دار الاعتصام عام 1977م.

(2) رواه أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن عوف - المخبت: الخاشع المتواضع - تحيها: أي كأنها أمدت نفسها بالحياة. ص 143 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - لعبد العزيز الشناوي.

(3) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر - نفس الصفحة من المرجع السابق.

الأسرة والمجتمع والنهوض بهما إلى التقدم والرفاهية، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وإن كان كلاهما خير من الكافر والمنافق، فهذا النسل القوي المتكاثر يجب أن يرفع مستوى دخل الفرد والأسرة والمجتمع الإسلامي، بحيث يحس الفرد بسعة العيش وأمن الحياة، نتيجة للعمل والإنتاج المثمر في جميع مجالات الحياة، وعندئذ تكون الكثرة محموددة، وهي تختلف عن الكثرة المذمومة التي نهى عنها الإسلام، وعبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: {أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ، ثُمَّ يَهِيْجُ فَرَقَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا} [الحديد: ٢٠] الآية وفي قوله تعالى: {قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [المائدة: ١٠٠] الآية، فالقليل الطيب أفضل من الكثير الخبيث، والطيب نافع قوى، والخبيث ضار ضعيف.. وفي السنة النبوية الكريمة ما يؤدي إلى نفس المعنى. وكيفينا هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ^١يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها— قالوا: ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: ^٢لا أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل — (1) وغثاء السيل هو ما تتقاذفه الأمواج القوية من الزبد ومن أوراق الشجر ونحوهما مما لا فائدة منه... فالكثرة النافعة التي تتمتع بقوة بنيانها ونشأتها وأخلاقها - تكون طيبة مطمئنة مؤهلة لخلافة آدم عليه السلام في الأرض، ولمباهاة النبي الكريم بها غيره من الرسل والأمم يوم القيامة، بعكس الكثرة الضعيفة، وبالتالي تكون عبئاً ثقيلاً على المجتمع الإسلامي في حياتها الدنيوية؛ فهي منخفضة المستوي في

(1) رواه أبو داود الطياليسى في منهجه عن ثوبان 133/4 ص 504 من كتاب من منهج السنة في الزواج للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

الصحة والذكاء والعلم والإنتاج والخلق الكريم والسلوك السوي، وذلك يؤدي إلى انتكاسة خطيرة للأمة في دنياها وآخرتها، ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم قد كره وطء الموضع حتى لا تحمل وتنجب ذرية ضعيفة على النحو الذي ذكرناه، فتكون كثرة مذمومة، ويصبح العدول عن إنجابها واجب قومي⁽¹⁾..

ولا يخفي على المسلم والمسلمة أنه عند الرغبة في حمل جديد تشترط الشريعة الإسلامية القدرة المادية التي يتطلبها الحمل الجديد، وتربية المولود بعد ولادته، ورعايته رعاية كاملة، تماما كما تشترط القدرة المالية والمادية على نفقات الزواج قبل البدء فيه، فكما أوجب الإسلام توافر الباءة للزواج بقوله صلى الله عليه وسلم: **يا معشر- الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر- وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء-** (2) - كذلك أوجب الإسلام توافر الباءة للإنجاب. ويتضح ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم: **كفي بالمرء إثما أن يضيع من يقوت-** (3). فعلي من يرغب في الإنجاب للذرية القوية أن يُعِدَّ لهُ العُدَّة الكاملة أولا حتى لا ينجب ذرية ضعيفة تضعف أسرته وتضعف مجتمعه، وأيضا حتى لا يؤاخذ على تقصيره في الدنيا والآخرة...

* * *

(1) باختصار وتصرف من 503 إلى 505 من منهج السنة في الزواج - للدكتور/ الأحمدي أبو النور.

(2) رواه الجماعة عن مختار الأحاديث النبوية 160.

(3) مسند أحمد 81/11 المعارف بإسناد صحيح وأورده الطياليسي - والحاكم وسنن البيهقي - نص الحديث ص25 من منهج السنة في الزواج.

الفصل الثالث:

مرحلة الطفولة وإسعاد الوالدين لطفلهما

تلك مرحلة هامة من مراحل نمو الطفل. ولكي يسهل تناولها، نقسمها إلى قسمين، ويبدأ القسم الأول مع بداية العام الأول لحياة الطفل، إلى أن يصير عمره ست سنوات. ويبدأ القسم الثاني من بداية دخوله المدرسة الابتدائية إلى أن يحصل منها على الشهادة الابتدائية.

ومع بداية القسم الأول من هذه المرحلة، تستمر الأم في إدخال السعادة على طفلها، والاهتمام به، وبكل ما يلزمه من وسائل النمو الطبيعي.. فهي تهتم بصحته في المقام الأول، وبكافة أحواله بصفة عامة. وهي تحتضنه بعد فطامه، وبعد أن عودته على الأكل المفيد المنظم الصحي، تحت إشرافها وإشراف أبيه، وإشراف طبيب مختص إذا اقتضى الأمر؛ لمتابعة حالته الصحية العامة.. لكن اهتمام الأم في هذه المرحلة بطفلها - ليس مقصورا على الغذاء البدني المادي. فالغذاء الروحي أيضا على غاية كبرى من الأهمية في هذه الفترة. فالواجب على الأم أن تزود طفلها وتجمله في هذه السن المبكرة وبالتدرج - حسب احتياجاته في النمو - بالمعاني السامية. فهي تعلمه الأبوة كما تعلمه الأمومة؛ فكما تكثر له من ذكر كلمة " ماما"، تكثر له أيضا من ذكر كلمة " بابا". وعليها أن تجعله يتعلق بأبيه كما تجعله يتعلق بأمه، وأن يرضى أن يقبله أبوه وينعم بأحضانها، كما يرضى أن تقبله أمه وتنعم بأحضانها. وعليها كذلك أن تعرف طفلها بأقارب أبيه كما تعرفه بأقارب أمه؛ فيتعلم منها كلمة " عمو" كما يتعلم منها كلمة " خالو".. ومن الواجب على الأم أيضا

أن تعلم طفلها - وبمساعدة أبيه - بعض القيم الروحية، والمبادئ الأخلاقية، في جرة مناسبة لسنه الصغير. فيتعلم منها الخير والشر، والحسن والقبيح، والنافع والضار. وذلك عندما يتخطى النصف الأول من العام الثانى. إذ يتعلم بالإضافة إلى ذلك - الحلال والحرام بأسلوب سهل مختصر. فكلمة. " كخ " يمكن أن تشمل في نظر الطفل في هذه السن: الشر والقبيح والضار والحرام، وكلمة " حلو " أو " جميل " تعنى في نظره: الخير والحسن والنافع والحلال. وكلمة " أف " تعنى عنده كل ما هو منفر أو قدر وغير محتمل. وتكبر هذه الرموز في نظره وتتعاظم كلما تقدم في السن..

وهكذا ينبغي على الأم أو من يحل محلها - كالمربية أو المعلمة - أن تغرس في نفس طفلها - أو طفلتها - حب الخير وبغض الشر قبل كل شيء (1).

واستكمالاً لدور الأم في المرحلة الأولى من حياة الطفل، يجب عليها - بمساعدة الأب أن تعرفه بما حوله من الأشياء المحيطة به، والأشياء التي يمر بها وتمر به. والعبء الأكبر في ذلك الجهد يقع على الأم نظراً لارتباط الطفل بها في هذه المرحلة أكثر من الأب. والأب يسهم في هذا الدور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حسب مقتضيات الأحوال..

والعادات التي تتكون في زمن الطفولة - يكون لها تأثير فعال في مستقبل الطفل. فلنعوده إذن على كل ما من شأنه اتباع النظام، والطاعة والمواظبة، والنظافة، والتأدب، فيما بينه وبين إخوته، ومع والديه ومع كل من يعيش معهم (2).

(1) يتصرف من ص 345 من كتاب تربية الطفل تأليف ميل بك. رئيسة إصلاحية البنات.

(2) يتصرف من ص 346، ص 347 من المرجع السابق.

ولأقوال الأم وأفعالها تأثير كبير في نفس الطفل. وقد يتنقل معه هذا التأثير طوال طفولته، بل قد يظل معه طوال حياته⁽¹⁾. وعلى سبيل المثال. يجب على الأم ألا تشعر طفلها بأن الظلام مخيف. حتى لا يسيطر عليه الرعب إذا دخل مكانا مظلمًا، أو انقطع النور من حوله فجأة فيظل ذلك معه حتى كبره بل ربما طوال حياته.. وقد يميل الطفل إلى العناد. وعلى الأم في هذه الحالة ألا تشجعه على ذلك، وكذلك الأب؛ حتى لا يزداد ذلك العناد وينمو عنده ويصبح عادة لا يستطيع بسهولة التخلص منها. ويتجلى ذلك عند الطفل في صورة بعض السلوكيات، كرفضه مثلاً نوعاً من الطعام. وهنا يجب ألا تلح عليه الأم ليتناوله حتى لا يلجأ إلى العناد ويمتنع عن تناول هذا الطعام فتتأثر بذلك صحته. بل على الأم أن تعرضه عليه مرة أخرى أو مرات حتى يتعود عليه.. وكأن يلجأ الطفل إلى العناد إذا ضغطت عليه الأم أو الأب حتى يذاكر أو يدرس وهنا أيضاً يجب ألا تضغط عليه أمه أو أبوه حتى يذاكر لأن عناده في هذه الحالة قد يؤدي إلى تأخره في الدراسة. بل عليهما في هذه الحالة أن يحببا إليه المذاكرة والاطلاع والدراسة دون ضغط⁽²⁾..

وهناك اعتقاد خاطئ بأن الطفل غير القادر على الكلام في هذه الفترة - يكون محدود الإدراك، قليل الفهم، ويمكن التأثير عليه بسهولة. ولكن الواقع يؤكد أن قدرة الطفل على الفهم في هذه الحالة -

(1) يتصرف من ص 140 من كتاب رعاية الأم والعناية بالطفل في الصحة والمرض - للدكتور زكي شعبان، والدكتور إبراهيم مجدى، والدكتور إسماعيل صبرى - الطبعة الثالثة.

(2) ص 140 يتصرف من كتاب رعاية الأم والعناية بالطفل في الصحة والمرض - الطبعة الثالثة للدكاترة: زكي شعبان وإبراهيم مجدى وإسماعيل صبرى.

تفوق كثيراً قدرته على الكلام⁽¹⁾. وإذن فيجب معاملة هذا الطفل على هذا الأساس المؤكد. فهو يحتاج في هذه الحالة إلى التعامل معه بصدق في كل المواقف التي يمر بها وتمر به؛ فإذا عرضته أمه على الطبيب مثلاً فلتخبره بأنه طبيب ولا تقول له إنه "عمو" ظناً منها أنه سوف يخاف أو يمتنع عن الدخول إلى الطبيب. وذلك حتى لا يعتقد الطفل بعد ذلك أن أمه تكذب عليه فلا يأخذ كلامها وتعليماتها وتوجيهاتها له مأخذ الجد. وفي هذا الإطار يجب على الأم - أو الأب - إذا عاقبت طفلها - بأى عقاب لتقصيره في موقف ما - أن تخبره بسبب وقوع هذا العقاب عليه، حتى لا يشعر بظلم من أمه أو أبيه، فتتأزم العلاقة بينه وبينهما... ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الإسراف أو تكرار المكافأة من الأب أو الأم للطفل على قوله أو فعله الصحيح تجعل الطفل ينتظر في كل مرة أن يأخذ المكافأة. فتتحول المكافأة في نظره إلى رشوة يقول من أجلها القول الصحيح أو يفعل الفعل الصحيح؛ وبدونها لا يقول ولا يفعل الصحيح. وبذلك تفسد أخلاقه، تماماً كتكرار الضرب على شيء خاطئ يفعله أو قول خاطئ يقوله - فإنه يخطئ مراراً ويتوقع الضرب ويقبله. وذلك يجعله غير عابئ بقول أو فعل الصواب، ويكون بذلك عرضة للفساد الخلقى⁽²⁾.

وهذا الاهتمام الشديد بسلوكيات الطفل المختلفة يبدأ من سن الثالثة. وهنا يجب على الأم - وكذلك الأب - أن تراقب طفلها منذ صغره. وتنهاه عن السلوك غير الحسن. فالطفل يفهم من نظرات أمه وأبيه، ومن كلامهما رضاهما أو غضبهما من قوله أو فعله⁽³⁾.

(1) ص 141 بتصرف من كتاب رعاية الأم والعناية بالطفل في الصحة والمرض - الطبعة الثالثة للدكاترة: زكى شعبان وإبراهيم مجدى وإسماعيل صبرى.

(2) بتصرف وإختصار من المرجع السابق ص 142.

(3) بتصرف من ص 318 من كتاب رعاية الطفل للدكتور أحمد خليل عبد الخالق - الطبعة

وجدير بالذكر أنه لا يجب على الأم أو الأب معاقبة طفلهما إذا أخطأ أول مرة. بل عليهما إرشاده مرارا إلى الفعل الصحيح أو القول الصحيح حتى يتعود عليه. فإذا استمر الطفل في خطئه ولم يستمع إلى إرشاد أمه وأبيه - فهنا يجب أن يعاقب، ولكن بغير الضرب؛ فالعقاب المعنوي أفضل من العقاب المادي، وله أوجه كثيرة، كحرمانه من الفسحة مع والديه أو منع المصروف عنه في يوم خطئه.. وإذا لجأ الطفل إلى البكاء كحيلة يحتال بها على أمه أو أبيه للإفلات من العقاب أو لإجبار أمه أو أبيه على العمل برأيه - فيجب أن يقاوم هذا السلوك عنده حتى لا يتعود عليه، فلا يكف عن البكاء مثلا إلا بعد مصالحته أو تحقيق رغبته. ومقاومة والديه تكون بغير سخرية منه حتى لا يزيد هياجه وعناده فإذا أصر فليعاقب بحرمانه من اللعب أو لبس الملابس الجديدة مثلا لفترة من الزمن⁽¹⁾.

ولكل ما مر نقول: إن الأم يجب أن تُعدَّ إعدادا كافيا لهذه المهمة الصعبة لتكون تصرفاتها صحيحة في الأوقات الحرجة من سلوكيات طفلها. وإذا كنا نركز على الأم في هذه المرحلة لملازمة الطفل لها في هذه الفترة - فإن الأب ليس ببعيد عن هذه المسؤولية. لكن العبء الأكبر فيها يقع على عاتق الأم كما وضحنا. وذلك حتى تستطيع حمايته من الأخطار المحيطة به، ومن السلوكيات الخاطئة التي ينجرف إليها كثير من الأطفال، في غياب من يرشدهم سواء في البيت أو المدرسة أو الشارع. فلكل مقام من هذه المقامات المشار إليها إرشادات وآداب ينبغي العمل بها حتى يخرج الطفل من هذه المرحلة صبيبا سويا وشابا متزنا في أقواله وأفعاله وكافة سلوكياته.

الرابعة.

(1) يتصرف واختصار من ص319، 320 من المصدر السابق.

ومن هنا نبه المفكرون والمرشدون المختصون بهذه المرحلة إلى هذا الدور الهام والحيوى الذي تمارسه الأم في هذه الفترة لإعداد طفلها وتوجيهه للمراحل المقبلة من حياته.. وقد أشاد المفكرون والشعراء بالأم المُعدّة لهذه المهمة الجليّة. فهي هو شوقى على سبيل المثال يقول في ذلك:

الأم مدرسة إذا أعددتها :: أعددت شعبا طيب الأعراق...
وقد تكون ثقافة الأم متواضعة. ودرايتها غير كافية بهذه المهمات الصعبة التي تقع على عاتقها. فالطفل في هذه السن يحتاج إلى طب نفسى وإلى توجيهات اجتماعية وعلمية واقتصادية وفنية ورياضية⁽¹⁾. وقد لا تحيط الأم بكل هذه الثقافات. وهنا يفضل أن تكون مجيدة للقراءة ومحبة لها؛ لتقرأ في كل هذه المجالات وتفيد طفلها. وعليها أن تسأل ذوى الاختصاص في المجالات المختلفة إذا غمض عليها شيء في أى مجال من المجالات المذكورة. ولهذا سبق أن قلنا إنها لابد أن تكون على قدر من التعليم يمكنها من معرفة ما خفى عليها من هذه المجالات.. وإلا وجب عليها أن تلجأ إلى مربية أو معلمة ومؤدّبة تكون ملّمة بهذه المجالات أو تستطيع القيام بها لخبرتها فيها.. وسنعود بالتفصيل لهذه المسألة فيما بعد...

ويجيء بعد ذلك دور الخطوة الهامة بالنسبة للطفل. وهى ترغيبه في القراءة والكتابة. ويمكن أن تبدأ عند كثير من الأطفال من سن الرابعة أو الخامسة حسب الاستعداد الشخصى لكل طفل.. والأساس المتين في هذه الخطوة هو تعليمه الحروف الأبجدية للغة العربية، وحركاتها وسكناتها، وممدودها مع الحركات، وأحوال الشدة فيها مع الحركات أيضا، والتعرف على اللام الشمسية والقمرية. والانتقال به

(1) ص 382 يتصرف من كتاب تربية الطفل - تأليف مِلْ بِكُ رئيسة إصلاحية البنات.

بعد ذلك إلى تكوين الكلمات من أسماء وأفعال وحروف، ثم إلى تكوين الجمل الإسمية والفعلية وغيرها، مع كتابة وقراءة ما يكونه من الأسماء والأفعال والحروف والجمل. وتلك هي الطريقة النظرية والعملية النافعة والمجربة في تعليم الطفل للقراءة والكتابة بعيدا عما يصل فيه ويجول أصحاب النظريات التي يسمونها تربوية في تعليم الطفل للقراءة والكتابة. وهى نظريات غير قابلة للتطبيق عمليا. ويُستحب أن تكون الأم مُعَدَّةً ومُسْتَعِدَّةً لأداء وبذل هذا الجهد المكثف والقيام بهذا الدور العظيم بنفسها. ويكون ذلك بالتأكيد في مصلحة الطفل. وإلا فيجب أن يقوم به الأب بنفسه أيضا ولمصلحة الطفل.. أما إن لم يكن هناك استعداد من الطرفين (الأب والأم) للقيام بهذا الدور المشرف - فعليهما أن يدفعا طفلهما إلى معلم أو معلمة تجيد هذا الفن. وهذا أضعف الإيمان وأبسط الواجبات في هذا الشأن..

وكثيرا ما تنجح الأم الحريصة على مصلحة طفلها في هذه المهمة أكثر من الأب أو المعلم أو المعلمة. فالطفل كما بينا سابقا - دائم التعلق بأمه في هذه السن، يصاحبها طوال يومه في البيت، يلاعبها وتلاعبه، ويلطفها وتلاطفه. لكن الأب يغادر المنزل في الصباح، ويعود إليه في منتصف النهار متعبا ينشد قسطا من الراحة، بعد أن أمضى نصف نهاره أو أكثر في عمل جاد؛ ليوفر ما يلزم من مال للإنفاق على أسرته وتلبية مطالبها واحتياجاتها. وهذه الفترة الصباحية - وهى النصف الأول من النهار - هى أنسب الأوقات لتعليم الطفل، بعد أن استيقظ من نومه، وتناول طعام إفطاره مع أمه، ولاعبها بعض الوقت. ومن المؤكد أنها تستطيع القيام بمهمة تعليم طفلها، حتى وهى منشغلة بأعمالها المنزلية. فالطفل يتبعها في أى مكان تتوجه إليه، ويكون بمعيتها أينما تواجدت، وفى أى عمل تعمله. وتبدأ

الأم مع طفلها بتعليمه الحروف الهجائية العربية وتدريبه على نطقها نطقاً سليماً وعلى كتابتها كتابة صحيحة. فإذا أتقن ذلك، علمته نطق الحركات مع هذه الحروف وكتابتها عليها. ويأتى بعد ذلك نطق المدود مع الحروف وكتابتها، وكذلك السكون مع الحروف والتدريب عليه. وكذلك أحوال الشدة، ثم أحوال اللام الشمسية والقمرية، والتنوين بأنواعه الثلاثة إلى أن تنتهى من هذا البرنامج التعليمى بعد التدريب على كل ما مر وتكوين الكلمات من الحروف ثم الجمل من الكلمات، وكتابتها وقراءتها كما سبق القول إلى أن يتقن طفلها تعلمه للقراءة والكتابة العربية. ويستطيع أن يقرأ في أى كتاب يقدم إليه، كما يستطيع أن يكتب ما يملئ عليه. وفى هذه المرحلة التعليمية يتواجد الأب مع الأم بشكل مباشر أو غير مباشر ليوجه الأم المعلمة كلما احتاجت إلى توجيه في هذا الشأن.

وبتمام تناول الطفل لهذه الجرعة من التعليم الأولى - يكون الطفل السعيد بأمه وأبيه وبيته الذي نشأ فيه، قد اجتاز مرحلة في غاية الأهمية من مراحل حياته التعليمية؛ بالتزامه بمنهج متكامل ومحدد في تعلم القراءة والكتابة العربية وضحنائه فيما سبق. ويصبح متمرساً متقناً إتقاناً كاملاً لقراءة وكتابة اللغة العربية، في هذا الزمان الذي يكبر فيه كثير من الأطفال ويصيرون شباباً وطلاباً في المرحلة الثانوية وهم لا يحسنون القراءة والكتابة العربية.. وذلك يرجع بالطبع للأخطاء المتراكمة في عملية التربية والتعليم، وفى المرحلة الابتدائية على وجه الخصوص، حيث لم يعالج هذه الأخطاء أى مسئول عن التربية والتعليم في مصر حتى الآن. فالتدريس في المرحلة الابتدائية يحتاج في رأى إلى معلم متخصص في كل مادة على أعلى المستويات. على أن يُعَدَّ إعداداً كافياً وافياً بحيث يعالج كل

هذه الأخطاء المتراكمة في المواد المختلفة، وعلى رأسها مادة اللغة العربية. ويكون في مقدوره وإمكانه التغلب عليها بطريقة تربوية علمية ناجحة تتجاوب مع البيئة المصرية. ولا يكفي كمثال للتوضيح أن ننقل طرقا للتدريس من بيئات أجنبية ولا نستطيع أن نخدم بها العملية التعليمية في مصر.. ولم يتواجد هذا المعلم المشار إليه حتى الآن في المرحلة الابتدائية، رغم افتتاح أقسام للتعليم الأساسى في الجامعات المصرية. هذا بالإضافة إلى الأساليب المتبعة في الإشراف على العملية التعليمية في هذه المرحلة والتي تتغير بين الحين والحين. ويكفى أن نشير إلى عملية تقييم التلاميذ في صفوف المرحلة الابتدائية حاليا؛ فقد تغيرت في الآونة الأخيرة أكثر من مرة، وأُثْبِتَتْ فيها طريقة مستوردة من الخارج لا تتلاءم مع تلاميذ المرحلة ذاتها في مصر، وظهر فيها أكثر من عيب فنى والعجيب أنها مازالت سارية رغم النقد الموجه إليها من الناحية الفنية والناحية العملية والتربوية..

ومن هنا تكون الأهمية القصوى لدور الأم والأب الحريصين على تعليم أطفالهما تعليما سليما صحيحا تربويا مفيدا، منذ نعومة أظفارهم.. وكم من أمهات مثقفات واعيات مقدرات لهذه المسؤولية، وآباء مثقفين واعين مهتمين بالحياة التعليمية لأطفالهم من البنين والبنات - قد نجحوا ونجحن فيما لم ينجح فيه معلم - أو معلمة - المرحلة الابتدائية، الممارس لمهمته بمدارس التربية والتعليم وغيرها من دور العلم التي تخصصت في المرحلة الابتدائية. وقد بينا سابقا ما يجب أن يكون عليه الأب والأم من درجة التعلم والوعى، والاستعداد الدائم للتعلم حتى ينجح كلاهما في مهمته العظيمة التي تشكل الطفل منذ بداية نشأته، وتجعل منه إنسانا سويا ناجحا وموفقا

في كل خطواته التعليمية والعلمية. وتجعل منه فردا سعيدا في أسرة سعيدة، يسعد به مجتمعه الإسلامي ويفيده ويستفيد منه...

ويزداد دور الأب بعد أن يحسن الطفل المشي، وبعد أن يتقن القراءة والكتابة العربية. فيصاحبه أبوه إلى بعض الأماكن العامة، كالمسجد في الصلوات الخمس؛ ليتعود أداءها منذ صغره، وكدور الثقافة والمكتبات؛ ليتعود القراءة والاطلاع وجمع المعلومات المفيدة منذ صغره، وليقرأ ما هو مناسب لسنه، وكزيارته للأصدقاء كلما أمكن ذلك، وكخروجه للنزهة في الهواء الطلق بصحبة والديه أو أحدهما كلما أمكن ذلك أيضا. ومن شأن هذه التحركات أن تزود ثقافته ومعارفه العامة فيستفيد بذلك كثيرا في حياته التعليمية...

ومن المعروف أن الطفل في هذه السن يحسن التقليد. فهو يقلد أباه وأمه والمحيطين به والمتعاملين معه، في كلامهم وأصواتهم وحرركاتهم وأفعالهم، وحتى في أخطائهم. وهنا تبرز أهمية دور الأب والأم في تهذيب الطفل وتعليمه كل مفيد وإبعاده وتنفيره من كل ما هو غير مفيد. وإن كان دور الأب أكبر في هذه المرحلة. فالمفروض أن يوجهه إلى الصحيح وينفره من غير الصحيح ليتجه إلى الأول ولا يتمسك بالثاني. وكذلك يعرفه بالنافع والضار والحلال والحرام ليمسك بما هو فاضل من الأقوال والأفعال والتصرفات ويترك غيره. وليست الأم ببعيدة عن هذه المسؤولية تجاه طفلها. فهي تساعد الأب بجدية في تثبيت الفضائل في نفس الطفل وتجنبيه الرذائل. فيفعل الفضائل بتشجيع من أبيه وأمه ويتجنب الرذائل بتحذيرهما له منها.. ولا شك أنه بعد أن تعلم القراءة والكتابة وزار المكتبات ونمت معارفه وازدادت معلوماته عن الحسن والقبح والنافع والضار والحلال والحرام - يستطيع أن يميز بين ما ينفعه وما يضره بإشراف

أمه ومتابعة أبيه، خصوصاً بعد أن تهيأ للدخول في المرحلة الثانية من الطفولة والالتحاق بالتعليم الابتدائي.. والواجب على الأب باعتباره المسئول الأول عن ذلك - أن يوجه الأم إذا وجد عندها قصوراً في شئ مما تحدثنا عنه؛ لتتوب عنه في غيابه عن بيت الزوجية. وهكذا يسهل على الطفل في هذه السن وبعد أن اتسعت مداركه - أن يتعلم المعاني السامية، والمبادئ الدينية والروحية والأخلاقية بطريقة سهلة ونافعة بفضل مساعدة أمه وأبيه على ذلك، وأن ترتقى مصطلحاته التي كان يعبر عنها بكلمات مختصرة (كأف وكخ وحلو) وغيرها من المصطلحات التي كان يعرف بها النافع والضار والحسن والقبيح والحلال والحرام...

وليحذر الأب دائماً كما تحذر الأم أن يتجه ولدهما أو ابنتهما إلى مصاحبة الأشرار من الولدان والبنات، الذين لم ينالوا قسطاً وافراً من التوجيهات النافعة من آبائهم وأمهاتهم في هذه المرحلة. فهؤلاء الأشرار قليلوا الحياء. وهم بذلك يتصفون بالشر. فهم كالمواد القابلة للاشتعال، تشتعل فيها النار ويحركها الهواء في كل مكان فيتطاير شررها على من تجده في طريقها. وهم كذلك كداء الجرب الذي يُعدى كل من يقابله ويتصل به من الناس. والشاعر يقول عنهم في ذلك:

واحذر مصاحبة اللئيم فإنها :: تُعدي كما يُعدي السليم الأجرُ
فعلى الأم والأب أن ينتقيا لابنهما أو ابنتهما الصحبة الصالحة، غير الضارة.. وإذا كان الطفل يميل إلى اللعب في فترة الصباح أو بعد خروجه من المدرسة وخصوصاً بعد فراغه من مصاحبة أمه أو أبيه أو معلمه في الجولة التعليمية الصباحية - فإن الأم هي المسئولة في هذا الوقت، الذي يمارس فيه الأب عادة عمله خارج البيت. فهي

معلمته وموجهته الأساسية في وقت الصباح. وينبغي ألا تقلل أبدا من قيمة وخطورة أثر هذا الأمر، في حاضر الطفل ومستقبله. فالإنسان يندم يوم القيامة عندما يقف بين يدي الله عز وجل؛ لِيُسْأَلَ عن تفريطه في أمانة اختيار الصديق لولده أو ابنته بعد أن أدى ذلك إلى الإضرار بهما ويحاسب على ذلك حسابا عسيرا. ويندم حينئذ كل من لم يتخير وينتق أصحابه وأصحاب أولاده وبناته بل وصاحبات زوجته أيضا بحكم مسئوليته عنهم جميعا. وخصوصا وأن هؤلاء الصغار يحتاجون إلى من يوجههم، فهم بدون توجيه يخالطون كل من يروه، بعقولهم الصغيرة وحواسهم القاصرة، يحسن اللهو واللعب، ويتخذون من الأشرار والشريرات أصحابا وصاحبات. وبإهمال الأم في هذا الأمر وعدم متابعة الأب لهذه المسئولية الهامة - فإن أولادهما وبناتهما يضلون الطريق الصحيح. ويصير الجميع مستحقا لعقاب الله ونقمته يوم الحساب العظيم. وربما يحصد الجميع جزاء وثمرة هذا الضلال في الدنيا أيضا قبل الآخرة. فيؤدى بهم السير في طريق الأشرار إلى التهلكة والضياع في الدنيا والآخرة.. ويقول رب العزة سبحانه في ذلك: { وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ۚ } يَتَوَلَّى لَيَتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ {

[الفرقان: ٢٧ - ٢٩].. فالمقصر في مجال اختيار الصديق الصالح يندم حين لا ينفع الندم - على التفريط في حقه في اختيار الصديق الأفضل والنافع له ولأولاده وبناته وزوجته، والذي يدعو إلى الطريق المستقيم وهو الطريق إلى الله سبحانه وتعالى. ويندم هذا المفرط على أن سلم نفسه وأولاده وبناته لشياطين من الإنس يميلون عن طريق الحق، فيهلكون أنفسهم وغيرهم في غيبة الصديق الناصح الأمين..

وفى السنة النبوية أيضا ما يدل على ذلك، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي﴾** (1). وقوله صلى الله عليه وسلم: **﴿لا تصحبن أحدا لا يرى لك من الفضل كمثل ما ترى له﴾** (2). فمثل هذا صاحب، لا يبادلك فضلا بفضل، ولا حبا بحب. وهو بذلك غير جدير بمصاحبتك. وقوله صلى الله عليه وسلم: **﴿إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا متنتة﴾** (3).. وكلها أحاديث شريفة تحث على اختيار الصديق الصالح ذى الأخلاق الفاضلة، وعلى تجنب صديق السوء الذي لا يعترف بفضل صاحبه عليه ولا يميل مثله إلى عمل الصالحات، وإنما يتعمد دائما الإضرار به، وجذبه إلى السلوك السيئ، وتزيين الباطل له حتى يتخذ طريقا...

وقد يكون من مصلحة الطفل إلحاقه بإحدى مدارس الحضانة الإسلامية عند بلوغه سن الرابعة أو الخامسة. فربما تساعد هذه المدرسة الأم والأب في اهتمامهما بطفلها وإعداده إعدادا كافيا للدراسة بالمرحلة الابتدائية، عندما يحين وقتها.. ويلجأ والدا الطفل إلى ذلك إذا كانت ظروف أحدهما أو كلاهما لا تسمح بالتفرغ الكامل للطفل وتعهده وتنمية مهاراته التي تظهر في هذه السن المبكرة. والشرط في ذلك أن تؤدي المدرسة رسالتها على خير وجه، وألا

(1) رواه أبو داود ص158 من مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم سيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه أبو نعيم نفس الصفحة من المرجع السابق.

(3) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ص33 من كتاب: من كنوز السنة للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني - نافخ الكير: الحداد الذي ينفخ النار على الحديد. يحذيك: يهديك - تبتاع: تشتري.

تحصر اهتمامها في الأمور المادية فقط. وأن يكون ذلك أيضا تحت إشراف الأم والأب أو على الأقل متابعتها لجهد ونشاطات المدرسة، وتنبيه المسؤولين فيها إلى نواحي القصور إن وجدت. فلا يجب على إدارة المدرسة مثلا أن تقبل أطفالا قليلي الحياء، ناقصي التربية. إذ أن قبول أمثال هؤلاء الأطفال يضر بالأطفال الآخرين من ذوى الأخلاق الكريمة، والتربية الصالحة، والعادات والطبائع المقبولة. فيعدى الأولون الآخرين كما يعدى الأجربُ السليم. فاهتمام المسؤولين عن هذه المدرسة بالأمور المادية فقط يطغى على اهتمامهم بالأمور الروحية والمعنوية والأخلاقية وهو ما يؤدي إلى سوء أخلاق التلاميذ وفشل المدرسة في رسالتها التربوية والتعليمية.

ومن جهة أخرى تزداد مسؤولية الأم والأب إزاء ولدهما أو ابنتهما في ظل مبادئ الدين الإسلامى وإرشاداته في هذه السن المبكرة للطفل والطفلة. وخصوصا عندما يبلغ الطفل سن السادسة ويبدأ في الدراسة بالمدرسة الابتدائية. فلا بد أن يدرك الأب كما تدرك الأم أنهما القدوة والمثل الأعلى لولدهما - أو ابنتهما. فقد تربي في أحضانها. ورضع من ثدى أمه اللبن الصالح لبناء جسمه. ورضع مع اللبن الحب والحنان والعطف والثقة والمعانى السامية والمبادئ الأخلاقية الرفيعة، كغذاء روحى بالإضافة إلى الغذاء المادى.. وأول ما يجب أن يلتزم به الأبوان نحو أطفالهما من البنين والبنات - هو الصدق، في كافة معاملتهما معهم. وفى كل ما يأخذونه عنهما من مبادئ وقيم وسلوكيات. وكذلك يكون منهجها مع الأقارب والجيران والناس أجمعين..

وإن فلا يجب أن يرى هؤلاء الصغار من آبائهم وأمهاتهم إلا الصدق في النية والقول والتعامل والتناول للأمور الدينية وغيرها..

فالصدق في الوعد مطلوب سواء كان وعدا بتحقيق رغبة أو شئ فيه منفعة لهم أو دفع ضرر محتمل عنهم. وهنا يكون الصدق أسلوبا تربويا يجب اتباعه. كالوعد بشراء هدايا أو بالسماح لهم باللعب بعض الوقت أو بزيادة المصروف أو بالخروج للتنزه أو حمايتهم من بعض المنحرفين، أو نحو ذلك من الوعود. ويجب ربط هذه الوعود بطاعتهم للوالدين والمدرسين والمدرسات وتقديمهم في الدراسة وعدم اللعب مع الأشرار أو الشريريات.. وليحذر الآباء والأمهات من خُلف وعودهم مع صغارهم من البنين والبنات؛ حتى لا يفقد هؤلاء الصغار الثقة فيمن اعتبروهم مثلاً أعلى لهم في كل تصرفاتهم. وليحذروا غضب الله عز وجل من المخلفين لوعودهم؛ إذ أن خلف الوعد ليس من صفات المؤمنين الصالحين، بل من صفات الكفار والمنافقين. حيث يـ

ربنا عز وجل في ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ} [التوبة: ١١٩]. ويقول أصدق القائلين سبحانه: {بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ٧٦]. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بالصدق فإنه باب من أبواب الجنة. وإياكم والكذب فإنه باب من أبواب النار — (1).

فالقرآن الكريم يحث الآباء والأمهات على الصدق مع أبنائهم وبناتهم، وخصوصا الصغار منهم، والوفاء بما وعدوهم به وبأداء التزاماتهم لهم، وعلى أن يكونوا مثلاً أعلى لهم في الوفاء بالوعد، وفي فعل كل الصفات المحمودة وترك كل الصفات المذمومة. وذلك حتى لا تتقلب في عقول هؤلاء الصغار ونفوسهم موازين القيم؛

(1) رواه الخطيب عن أبى بكر ص 99 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

فيصبح الشر خيرا والخير شرا.. وعلى سبيل المثال: لا يأمر الأب طفله أو طفلة بأداء الصلاة وهو لا يؤديها، ولا يأمر طفله أو طفلة بالابتعاد عن الأشرار والشريرات وهو يلتقى معهم على المقاهى وغيرها، ويتخذ منهم أصحابا له. ولا يأمر طفله بالصدق في القول فإذا سأل عنه أحد لا يريد مقابله بالمنزل مثلا يقول له: أخبره أنني غير موجود. ولا تنصح الأم طفلها أو طفلتها بعدم تضيق الوقت وهى تضيق وقتها في الحديث بالتليفون عما لا فائدة فيه أو في الأحاديث غير الضرورية. إلى غير ذلك من الأمثلة الدالة على التناقض بين ما ينصحان به ولدهما أو ابنتهما، وبين سلوكهما الواقعى. وكدليل واقعى دامغ على خطورة ذلك: سألت أحد الصغار على سبيل التوجيه والنصيحة وكان يناهز الرابعة عشرة من عمره: لماذا تفطر والناس كلهم صائمون؟ - وكنا في نهار رمضان - فكان جوابه: ولماذا أصوم وأبى وأمى مفطران؟! والطفل هنا معذور لأنه يرى نصيحتى له متعارضة مع ما يفعله أبوه وأمه في الواقع المحسوس الذي يراه بعينه. ورغم أن والدَيَّ الطفل قد يكونان معذورين شرعا بشكل يبيح لهما الإفطار، لكن خطأهما أنهما أفطرا في نهار رمضان أمام ابنهما الذي لا يعرف عذرهما. والشريعة الإسلامية تنصح أصحاب الأعذار في هذه الحالة بالإفطار سرا، بحيث لا يراهما أحد، ولو كان ابنهما، وحتى لو كان الإفطار داخل المنزل. وذلك لكى لا يفقد الأطفال ثقتهم في آبائهم وأمهاتهم على هذا النحو الذي شاهدناه ويضربوا عرض الحائط بنصائحهم فتفسد أحوالهم ويصدق فيهم قول القائل:

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا :: فشيمة أهل البيت كلهم الرقص.
وإذا كان القرآن الكريم لا يغفل هذا الأمر - فإن السنة النبوية

الكريمة أيضا لا تغفله ولا تهمله. بل تحت الآباء والأمهات على الاهتمام بتربية صغارهم من البنين والبنات، تربية إسلامية صحيحة، على أساس ما ورد في القرآن الكريم من قيم ومبادئ أخلاقية كريمة..

وفى هذا الإطار يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿أدبوا أولادكم على ثلاثة خصال: حب نبيكم وحب أهل بيته وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله، يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفياه— (1).** ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **﴿أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم— (2)** ويقول المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم: **﴿لأن يؤدب أحدكم ولده خير من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم— (3).** **﴿وَوُجِّهْ السَّنةَ النَّبَوِيَّةَ الْكَرِيمَةَ أيضًا إلى وجوب وفاء الآباء والأمهات لأبنائهم وبناتهم بوعودهم لهم. إذ أن ذلك يعبر عن صدقهم وإخلاصهم لهم في تربيتهم والنصح لهم. وفى ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿الزموا أولادكم— (4).** ويقول معلم البشرية صلى الله عليه وسلم: **﴿أحبوا الصبيان وارحموهم فإذا وعدتموهم فوفوا لهم فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم— (5).****

وجدير بالذكر أن المقصود بالأولاد والصبيان في كل ما ورد من الأحاديث الشريفة السابقة الأولاد والبنات؛ لأن التشريع شامل لهم جميعا.

(1) رواه الديلمى عن علىّ من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمى ص7، ص8.

(2) أخرجه ابن ماجة عن ابن عباس. ص207 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى.

(3) ص206 من نفس المصدر.

(4) ص202 من المصدر السابق.

(5) ص101 من نفس المصدر.

وكان من أفعال سلفنا الصالح في العصور الأولى للإسلام - دفع الولد أو البنت - إلى حاضن أو حاضنة لتأديبه وتعليمه. فلم تكن مدارس ومعاهد الحضانة قد عرفت في هذا الزمن. فالحاضن يحل محل مدرسة الحضانة وكذلك الحاضنة بالنسبة للبنت. وكان يطلق على الحاضن اسم المؤدّب أو المعلم، وعلى الحاضنة المؤدّبة أو المعلمة. وكان كلاهما يختار ممن لهم علم بالفقه والحديث والعلوم الدينية بوجه عام. وممن لهم علم بالأدب والفصاحة والبيان.. وكان يلجأ إلى ذلك الخلفاء ورجال الحكم في الدولة الإسلامية بعد عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين. حيث لم يجد هؤلاء الوقت الكافي للتفرغ لتربية أولادهم وتهذيبهم وتعليمهم في وقت شاعت فيه ألوان كثيرة من اللهو والطرب والغناء⁽¹⁾..

وكان هؤلاء المعلمون يتجهون إلى تعليم الصغار من البنين والبنات القرآن الكريم وتجويده وعلومه، في بداية ممارستهم لأعمالهم التأديبية والتعليمية. ثم يتجهون بهم إلى علوم اللغة وآدابها. ثم إلى صفات الرجولة مع البنين، والشجاعة مع البنات، والفروسية والرماية وغيرها مع الجميع. ثم يزودونهم بالصفات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة من مكارم الأخلاق بكل ألوانها وأشكالها.. وهكذا " جمعت التربية الإسلامية منذ أول ظهور الإسلام بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم. فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية دون تضحية بأى نوع منها على حساب الآخر " ⁽²⁾.. وإذا لم يتوافر في

(1) ص80 من كتاب تربية الشباب في القرآن الكريم - عبد المعز خطاب.

(2) ص82 من كتاب تربية الشباب في القرآن الكريم - تأليف عبد المعز خطاب.

الأب أو الأم كل ما يلزم لتعليم الطفل وتوجيهه في مختلف المجالات التي سبق الحديث عنها - فمن المستحسن أن يختارا لابنهما أو ابنتهما مربيا أو مربية، ممن لهم دراية وخبرة بالتعليم في مدارس رياض الأطفال. ويجب أن يكون المربي أو المربية على جانب كبير من صفاء الذهن وابتهاج النفس، يشعر بالحب والرحمة تجاه الأطفال، ويستطيع الغناء والعزف على البيانو إن أمكن، ويكون في وسعه الرسم على السبورة كنوع من الإيضاح لما يقول⁽¹⁾..

وبالجملة يجب أن تتوفر في المعلم أو المعلمة الشروط الآتية⁽²⁾:
أولا: الإلمام بالأدب والنظم بصفة خاصة حتى يستطيع إعداد برنامج منظم لتعليم الطفل. ثانيا: أن يكون على دراية بعلم طبيعة الأطفال المؤسسة على المشاهدات. ثالثا: أن يكون محيطا بدراسة النباتات والحيوانات المألوفة عند الأطفال. رابعا: أن يكون عارفا بالمعلومات العامة في الأشغال اليدوية ليستطيع شغل الأطفال بما يناسبهم منها. خامسا: وأن يكون على دراية تامة بفن التربية حيث تتطلب تمرينا وصبرا طويلا، وبأن مهمته تنحصر في مساعدة الطفل على النمو والتقدم دون أن يجبره على ذلك قبل أوانه. فيعرف الوقت المناسب لكل مرحلة من مراحل نمو الطفل..

هذا بالإضافة إلى أنه لابد من معرفته بمبادئ التربية الرياضية حتى يُمكن الطفل من ممارسة النوع الذي يروق له منها. فالألعاب الرياضية والاجتماعية تعلم الطفل حب الغير، وتنفره من الأنانية وحب الذات، كما تعلمه الشفقة والأدب، وتقدير عواطف الغير⁽³⁾..

(1) يتصرف ص383 من كتاب تربية الطفل - تأليف مِلْ بك رئيسة إصلاحية البنات.

(2) يتصرف وختصار من نفس المرجع السابق ص384.

(3) ص385 يتصرف ص383 من كتاب تربية الطفل - تأليف مِلْ بك رئيسة إصلاحية البنات.

وتبدأ التربية الإسلامية في البيت عن طريق المحاكاة والتلقين. فالطفل ينشأ فيرى ويسمع أباه يقرأ القرآن ويقيم الصلاة التي تعتبر ركن الإسلام الأعظم؛ فهي أساس هام من الأسس التي يقوم عليها الدين الإسلامي.. وإذن فالواجب أن تبدأ تربية الطفل بتعويده على الصلاة وإقامتها. وحفظ القرآن الكريم. " وكان حفظ القرآن أو قدر منه كافياً في طبع الأبناء على التربية الإسلامية الصحيحة " (1).. وكما كان الشعر ديواناً للعرب القدامى، فكذلك كان القرآن الكريم وسيظل ديواناً للمسلم. ففيه جوهرة العقيدة الإسلامية وأصلها، وفيه تفاصيل العبادات، وإرشاد للسلوك الفاضل. وعلى المربي أو المعلم أن يُبسِّط ذلك في أذهان من يربيهم من الأطفال. ولا يلبث الطفل بعد رسوخ العقيدة الإسلامية في قلبه وتمكنها منه - أن يميز بين الحلال والحرام، ويبر بأهله وجيرانه، ويتعدى ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى مجتمعه الإسلامي..

والطفل في ذهابه إلى المسجد مع أبيه يتلقى التربية الإسلامية ومبادئها الصحيحة، وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنه: " اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فذلك وقاية لهم من النار " (2).. وقد ورد أن عتبة ابن أبي سفيان قال لمعلم ابنه: " ليكن إصلاحك ابني إصلاحاً لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك. فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت " (3).. فعتبة رضي الله عنه يوجه معلم ولده إلى الاهتمام بتعليمهم وإصلاحهم، وإلى أن يكون قدوة

(1) ص82 من كتاب تربية الشباب في القرآن الكريم - عبد المعز خطاب.

(2) ص84 من نفس المصدر السابق.

(3) ص205، ص206 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوي.

صالحة لهم باعتباره أباً لهم وهم جزء منه. بعد أن تعلقت به أنظار أطفاله فما يراه صالحاً فهو عندهم صالح يجب العمل به، وما يراه قبيحاً فهو عندهم قبيح يجب أن يُجْتَنَّبَ.. وها هو هارون الرشيد الخليفة العباسي يقول لمعلم ولده: " يا أحمد إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهْجَة نفسه وثمره قلبه. فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة. فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، ولا تُمرِّنْ بك ساعة إلا وأنت مغتتم فائدة تفيده إياها، من غير أن تُحزنه فتُميتَ ذهنه ولا تمض في مسامحته فيستحلِّي الفراغ ويألفه. وقوِّمهُ ما استطعت بالقرب والملاينة " (1) ..

ويلحظ معي القارئ الكريم أن هذا الخليفة العباسي الذي عاش عصراً مزدهراً بالثقافة في كل المجالات، وبممارسة الغناء واللهو والمجون - حرص على أن يوصيَ معلم ولده بكل ما هو مفيد للطفل حتى لا يحرمه منه، وبكل ما فيه خطر عليه وعلى رجولته حتى يبعد الطفل عنه.. وكان المعلمون والمؤدِّبون يستمعون إلى تلك النصائح وينفذونها، فتعينهم على أداء مهمتهم خير أداء. عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: **إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقَنَهُ** — (2) ..

ويجب أن يتدرج المؤدِّب مع الطفل بتوجيه نظره أولاً إلى النظافة. فالإسلام نظيف ولا يدخل الجنة إلا كل نظيف. والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: **إِنَّ الْإِسْلَامَ نَظِيفٌ فَتَنْظِفُوا فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا**

(1) ص206 من المصدر السابق.

(2) رواه الطبراني ص34 حرف الألف من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

نظيف — (1). والطهارة من النظافة. وفيها طريق للوضوء وأداء الصلوات الخمس التي لها فوائد عظيمة - يجب أن يعرفها الطفل من معلمه، ليتغلب على الشيطان الرجيم بالوضوء والصلاة، ولينعم بما فيها من فوائد دينية ودنيوية، فمن فوائد الوضوء الدنيوية: أنه في الصباح يتخلص به المسلم صغيراً أو كبيراً من الشيطان وخطره؛ حيث يطرده من خيشومه بالاستنثار. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَتَوَضَّأَ فَلَيْسَتْ تَنَثَّرَ ثَلَاثًا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ فِي خَيْشُومِهِ — (2).**

ومن فوائد الوضوء الدنيوية كذلك أنه ينفي الفقر عن الإنسان المسلم وخصوصاً قبل الطعام وبعده. بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: **﴿الْوُضُوءُ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ يَنْفِي الْفَقْرَ وَهُوَ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ — (3).** ومنها كذلك أنه يبعد الشيطان عن المسلم ساعة الغضب فيعصمه من الخطأ والزلل، ويقول في ذلك الهادي البشير صلى الله عليه وسلم: **﴿إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خَلَقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ — (4).**

أما فوائد الوضوء الدينية فمنها: ذلك النور المنبعث من المسلم يوم القيامة، والذي ينير له الطريق إلى الجنة. وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِنْ أُمْتِيَ يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرّاً مَجْجَلِينَ مِنْ آثَارِ**

(1) رواه الديلمي ص27 من المصدر السابق.

(2) أخرجه البخاري في 59 كتاب بدء الخلق 11 - باب صفة إبليس وجنوده ص58 من الجزء الأول من كتاب اللؤلؤ والمرجان - محمد فؤاد عبد الباقي - والاستنثار إدخال الماء إلى الأنف وطرده يشده خارجها فيأخذ معه به من أقذار ويخرجها بما فيها الشيطان الرجيم.

(3) رواه الطبراني عن ابن عباس ص156 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

(4) رواه الشيخان عن أبي هريرة ص39 من المصدر السابق.

الوضوء. فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل — (1). ومنها أن المسلم عندما يتوضأ تخرج ذنوبه من أعضائه وضوئه وتتساقط كما يتساقط ورق الشجر. وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **♂: إذا توضأ العبد المسلم (أو المؤمن) فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء؛ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيا من الذنوب — (2).**

أما عن الصلاة، فقد شدد القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة في وجوب المحافظة على الصلوات الخمس في كل الأحوال والظروف في أوقاتها المشروعة، وخصوصاً في حالات المطر الشديد والوحل الشديد والريح الشديد. وفي حالات السفر القصير والطويل، وفي حالات المرض الشديد والخوف الشديد من العدو في حالة الحرب وغيرها. وكل ذلك ثابت في القرآن والسنة. يقول ربنا العظيم: {حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ} (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٣٨ - ٢٣٩]. كما يقول ربنا عز وجل في كيفية صلاة الخوف: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ

(1) رواه أبو داود ص 39 من المصدر السابق. غرا محجلين: ينبعث من وجوههم وأرجلهم يوم القيامة نور من آثار الوضوء في الدنيا.
(2) رواه أبو هريرة ص 169 من المصدر السابق.

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ

اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا
 وَفُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ [النساء: ١٠٢ - ١٠٣] وقد ورد في الجامع
 الصغير: ٥٠ مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها لعشر -
 وفرقوا بينهم في المضاجع، وإذا زوج أحدكم خادمه أو أجيره فلا ينظر إلى ما
 دون السرة وما فوق الركبة — (١) ..

ومن الفوائد النبوية للصلاة التي يحرص عليها الأبوان وينقلونها إلى صغارهم من البنين والبنات، أنها تنهى صاحبها في الدنيا عن فعل الفحشاء والمنكر. وقد ورد في ذلك قول الله تعالى: {أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٤٥]. وذلك إذا أقيمت بشروطها وأركانها الواردة موضحة في السنة النبوية المباركة.. ومن فوائد الدينية أنها ذكر يثاب عليه المسلم يوم القيامة، إذ يـ

عز وجل: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤]. ومنها كذلك أنها تغفر الذنوب التي يقترفها المسلم في الدنيا فيدخل بذلك الجنة. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **الصلوات الخمس. والجمعة إلى الجمعة. ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر** — (2).

وهكذا يدرك الصغار بفضل تعليم الكبار لهم وإرشادهم إلى كل

(1) رواه أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم عن ابن عمر ص 263 من الجزء الأول من كتاب الشرح الصغير للإمام مالك - حاشية الصاوي.

(2) عن عمر بن إسحاق عن أبيه عن أبي هريرة ص 133 من صحيح مسلم - الطبعة المميزة.

ما مر ذكره، كما أدرك الكبار، أن الوضوء والصلاة مصدر سعادة لهم، فيشبون محافظين عليهما. وكذلك الصوم. فقد أشار الحديث الشريف السابق إلى أن السيئات التي يعملها المسلم بوسوسة الشيطان الرجيم - يغفرها الله عز وجل إذا حافظ المسلم على صيام رمضان. فما بين رمضان ورمضان يغفر الله تعالى لعباده الصالحين تلك الذنوب التي يتورطون في فعلها إذا تجنبوا فعل الكبائر. فرحمة الله واسعة، يجب أن يستغلها ويستفيد منها الكبير والصغير على السواء.

وقد فرض صوم رمضان على المسلمين جميعا الذين وصلوا إلى سن التكليف - عدا ذوى الأعذار من المسلمين فإن لهم أن يعيدوا أو يُقَدُّوا حسب أحوالهم في المرض والسفر. وأقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام الأتقياء - يجب أن يُعوِّدَ الآباء والأمهات أبناءهم وبناتهم الصغار على الصوم؛ حتى تكون ممارستهم لهذه الفريضة شيئا عاديا عند بلوغ سن التكليف، وفي سن الشباب وما بعده. فالصيام طريق التقوى والعصمة من الزلل. وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحثون أولادهم وبناتهم الصغار على الصوم ويأمرونهم به حتى قبل أن يصلوا إلى سن التكليف كما سبق القول. فإذا انتصف النهار شغلهم باللعب ونحو ذلك حتى يحين وقت الإفطار. وذلك لحرصهم على نفع أولادهم وبناتهم بفوائده الدنيوية والأخروية. وأقل هذه الفوائد أنه يبعدهم عن ممارسة الرذائل، ويدفعهم إلى السير في طريق الصلاح في الدارين. وفي ذلك تمرين لهم على الالتزام بممارسة سائر الفضائل والآداب والأخلاق الكريمة وترك القبائح التي تصغر فاعليها.. فمحافظة هؤلاء الناشئين من البنين والبنات على أداء الصلوات الخمس وصيام رمضان يعودهم على التمسك بالفضائل الإنسانية والتحلى بالأخلاق

الكريمة كالصدق والبر والكرم والشجاعة والتعاون على البر والتقوى وصلة الرحم وإكرام الجار والعفو عن المظالم إذا لم يكن في ذلك إضرار بالدين كما يعودهم ذلك أيضا على ترك الإثم والعدوان. وفي ذلك سعادة أيما سعادة لهؤلاء الصغار وخصوصا عندما يشبون ويكبرون...

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن نشير إلى سن التكليف التي إذا وصل إليها الإبن أو الإبنة - يعد مسئولا عن تصرفاته وعن نواحي تقصيره في أداء العبادات المفروضة على المسلمين والمسلمات، وسائر الحقوق الشرعية الواجبة على المسلمين بعضهم مع بعض، والواجبات التي تحددها الشريعة الإسلامية، حتى لا يحيد عنها المسلمون لأنها معيار السعادة فيما بينهم. وبوصول المسلم الصغير - أو المسلمة إلى هذا السن فإنه يُسأل إذا قصر في أمر مفروض عليه شرعا من أمور الدنيا والدين - في الدنيا ويوم الحساب...

وقد أشارت بعض الآثار الإسلامية إلى أن التكليف يكون عندما يبلغ الإبن وتبلغ الإبنة الحلم. أى عندما يرى الصبى في منامه أنه يختلط بالنساء والبنات فيمنى، وكذلك البنات، فيستيقظ وقد وجد في ملابسه الداخلية بللا من أثر الإمضاء.. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في بعض آياته كقوله تعالى: {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} الآية [النور: ٥٩]. فالتكليف مرفوع عن الطفل حتى يبلغ الحلم - وكذلك الطفلة. فإذا بلغه صار مكافا. وتشير بعض الأحاديث إلى نوع من التحديد لسن التكليف. ومن ذلك أن عمر بن الخطاب كان يرد من لم يبلغ الحلم عن الاشتراك في جيش المسلمين، وعن حرب العدو معهم. وكان يستثنيه ممن تدفع لهم

الرواتب (رواتب المجندين) لصغر سنهم، اقتداء منه برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة هامة في هذا الشأن. فجدد من لم يبلغ الحلم من الشباب إذا بلغ سن الخامسة عشرة. وكان العام في هذا الزمن كفيل بأن يبرز القوة والقدرة في التفريق بين الصبيان. فلم يكونوا عرضة للأمراض والعلل كما هو الحال في زماننا. يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد⁽¹⁾ وهو ابن أربعة عشرة سنة، فلم يجزنى، ثم عرضنى يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازنى" ⁽²⁾. فقول عمر رضى الله عنه "فأجازنى" دليل على أن من استكمل خمس عشرة سنة قمرية تحديدية ابتداءها من انفصال جميع الولد، يكون بالغاً بالسن. فتجرى عليه أحكام البالغين وإن لم يحتلم. فيكلف بالعبادات وإقامة الحدود. ويستحق سهم الغنيمة وغير ذلك من الأحكام⁽³⁾. ويجرى هذا خلافاً للقوانين الوضعية السارية الآن والتي تعفى الطفل من المسؤولية إلى أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره....

وهكذا ينجح الوالدان في الوصول بطفلها إلى بر الأمان باستفادته من وصاياهما وإرشاداتهما المتمشية مع تعاليم الإسلام، والأخذ بما في القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة من الإرشادات الاجتماعية والصحية التي تتمشى مع هدى الله تعالى وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم. فيكبر الأطفال ويصيرون صبية وشباباً

(1) يعنى أوقفه ضمن المعروضين عليه لقبولهم في الجيش أوقفهم.

(2) ص253 من الجزء الثانى من كتاب اللؤلؤ والمرجان - تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي - لم يجزنى: أى لم يثبتنى في ديوان المقاتلين ولم يقدر لى روقاً مثل أرزاق الجنود.

(3) هامش الصفحة ذاتها من المرجع السابق.

صالحين يحفظون لأمهاتهم وآبائهم فضل تنشئتهم الإسلامية لهم.
ويصدق فيهم قول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا :: على ما كان عوده أبوه.
والأب هنا يرمز إلى القوة، قوة التمسك بالمسئولية في ظل مبادئ
الإسلام قرآنا وسنة. ولا يقصد الشاعر أن يُقَصِّرَ الفضل فقط على
الآباء. فالأمهات أيضا شريكات للآباء في غرس هذه القوة في عزائم
الصغار..

* * *

الفصل الرابع: الإسلام وعناية الوالدين بأبنائهم في مرحلة الصبا والشباب

وبتوجيه الوالدين لأبنائهم وبناتهم إلى الالتزام بأداء الصلوات الخمس وصوم رمضان منذ صغرهم، وخصوصا بعد أن نشأوا على حبها - يضاعف الله تعالى لهم الثواب والأجر، بقدر إخلاصهم في هذا الالتزام. فإبليس اللعين يتسلط بكل قوته على الصبية والشباب الملتزمين؛ حتى يفسد عليهم عبادتهم وإخلاصهم لله تعالى. وينحرف بهم عن الصراط المستقيم، وهو الطريق إلى الله سبحانه.. لكن الشريعة الإسلامية ذات المحجة البيضاء - تقوت على الشيطان الرجيم وأعدائه الملاحين هذه الفرصة؛ لتضمن للفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم بالسلوكيات الحميدة المسئولة - السعادة في الدارين، دار النعيم المؤقت، ودار النعيم الدائم. فنجد ثمار الالتزام، بالطريق إلى الله تعالى، خيرا وبركة في الحياة الدنيا، وأمانا واطمئنانا وسعادة في الدار الآخرة للفتية والشباب..

في القرآن الكريم: ففي القرآن الكريم ومجال التمسك بعقيدة التوحيد الخالص لله تعالى والإخلاص في عبادته وحده لا شريك له - نجد ثمار هذا الإخلاص متمثلة في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] (1).. ويحيط الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم والمسلمين جميعا بعاقبة الشـرك؛ حتـى يعـتـبـر

(1) لم يلبسوا: لم يخلطوا.

ويمتنع كل من تحدثه نفسه الأمانة بالسوء، أن يشرك بالله العظيم، فيقول سبحانه: {وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥]. فالشرك يضيع ثواب العمل الصالح، ويؤدى إلى الخسارة المؤكدة في الدارين. وقد أكد الرسل جميعاً، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة. ففي سورة الصافات والبقرة وآل عمران وغيرها من سور القرآن الكريم، يؤكد ربنا جل جلاله، أن الغاية الكبرى من خلق الجن والإنس، هى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به. ولذلك كان أول ما أوصى به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، لكل مولود من البشر أن يُؤَدَّنَ في أذنه اليمنى، وتقام الصلاة في أذنه اليسرى، حال ولادته. ليكون أول ما يسمعه في حياته الدنيا هو معرفة الله ورسوله ورسالة الإسلام الخالدة، التي قال عنها ربنا تبارك وتعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥].. وبذلك يهيأ الطفل منذ بداية حياته وفي صباه وشبابه، وفي رجولته وشيخوخته - لتحمل هذه المسؤولية. وهو في ذلك يقتدى بنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبمن سبقه من المرسلين الذين حرصوا على أن تتبع ذريتهم وأتباعهم طريق عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين..

ويتضح من ذلك أهمية دور الوالدين تجاه أولادهم وبناتهم في مرحلة الصبا والشباب، كما كان الحال في مرحلة الطفولة.. فلقمان عليه السلام يحذر ولده من الميل إلى عقيدة الشرك، ويوجهه إلى عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى. ويقول عز وجل في هذا الشأن: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِهِ - وَهُوَ يَعِظُهُ - يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]. فأول ما يعظ به لقمان ابنه هو تجنب الشرك والتمسك بعقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين. فالشرك -

ولا شك - ظلم للمشرك ولأهله وعشيرته، وظلم للمجتمع كله. وفوق كل ذلك هو ظلم الله تعالى الغنى عن الشرك والشركاء.. ويحرص نبي الله يعقوب عليه السلام على الاطمئنان على عقيدة أبنائه بعد وفاته. فيجمع أولاده من حوله - عند إحساسه بدنو أجله - ويقول لهم: {مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي} [البقرة: ١٣٣]؟ فيقولون: {نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٣]. فيطمئن قلبه قبل موته ويسلم روحه الله تعالى وهو قرير العين..

وفى ظل الصدق والإخلاص في عقيدة التوحيد، يزداد الصبية والشباب اقتناعاً بالشخصية المسلمة، التي ترفض التقليد وتلجأ إلى العقل في أمور العقيدة؛ حتى تكون سليمة مفيدة خالصة من شوائب الشرك بالله تعالى.. وقد سبق أن عرفنا أن كل إنسان يولد على الفطرة وهي الطريق المستقيم إلى الله عز وجل. فقد أوجب سبحانه أقوالاً وأفعالاً توصل إلى طريقه المستقيم، من عبادات ومعاملات وطاعات، وتعريف بمخالفات هذا الطريق. وعلى الإنسان، إذا أراد الحفاظ على فطرته التي خلقه الله عليها، أن يرفض تقليد الآباء والأجداد في كل قول أو فعل يحجب الطريق إليه سبحانه. ولما كان الأجداد والآباء قبل الإسلام، يتسلطون على أولادهم، ويطلبون منهم الطاعة العمياء في ممارسة عبادات تؤدي إلى الشرك بالله جل جلاله، دون مناقشة، ودون رجوع إلى العقل - فإن الإسلام رفض ويرفض أسلوب التقليد، وخصوصاً فيما يؤدي إلى بطلان عقيدة التوحيد الخالص لله الواحد القهار..

وفى القرآن الكريم ما يحذر من التقليد وينادي الآباء وأبناءهم وبناتهم بالاحتكام إلى العقل؛ للتفريق بين النافع والضار والحلال

والحرام. وقد سلك هذا النهج الكريم أنبياء الله تعالى ورسله ودلّوا قومهم عليه.. فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يقف في وجه آبائه وأجداده من المقلدين الذين لا يحتكمون إلى العقل، ويسلمون أنفسهم في النهاية إلى الشرك وعاقبته الخاسرة. وكان على رأس هؤلاء المقلدين، أبوه آزر. فتوجه إبراهيم عليه السلام إلى أبيه بمنطق العقل. وطلب منه الاحتكام إليه في هذا الأمر. وأخذ ينصحه ويحذره قائلاً: {يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} (٤٢) يَتَابَتُ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَتَابَتُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) { [مريم: ٤٢ - ٤٥].. وكما نصح إبراهيم الخليل أباه، كذلك توجه بالنصح إلى قومه الذين كانوا ينهجون نهج أبيه آزر في الاشرار بالله سبحانه. وأخذ يتدرج معهم في طريق الشرك حتى وصل إلى نهايته الضالة. وأوضح لهم بما لا يدع مجالاً للشك، أن طريق الله واضح لا يحتاج إلى شرك أو شريك. ويتجلى ذلك في قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّرُ إِنِّي بِرَبٍِّّ مُّشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) } [الأنعام: ٧٥ - ٧٩]..

وامتدادا لهذا الاتجاه الرباني في مجال الحفاظ على عقيدة التوحيد الخالص لرب السموات والأرض وما بينهما - يدعو ربنا عز وجل

الفتية والشباب إلى عدم التأثر بنزغات الشيطان، وبما تأمر به النفس الأمارة بالسوء، من أخطاء وانحرافات، قد تؤدي بالشباب والفتية والفتيات إلى طريق النار، وتبعدهم عن طريق الجنة. وفي هذا الإطار ظل إبراهيم عليه السلام - وكان شابا في ريعان شبابه - ينصح أباه وقومه حتى تبرم أبوه آزر وقومه من ميل إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده، وتمسكه بذلك، وإلى بغضه للشرك والشركاء. فقرر قومه أن يعاقبوه.. {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} (٦٨) قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) { [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

وقد ورد في تفسير هذه الآية الكريمة: " لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهرين. حتى كانت المرأة تمرض فتتذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها نارا فكان لها لهب عظيم، حتى إن الطائر يمر من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار، فجاء إليه جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال: حسبى من سؤالي علمه بحالى. فقال الله: {يَنَارُ} (1) كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ { [الأنبياء: ٦٩] (2).. وهكذا نجى الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بكلمة كن من الاحتراق في النار بعد أن أبطل سبحانه عملها وعكس مهمتها فكانت بردا وسلاما عليه. ولم تحرق منه النار إلا وثاقه أو موضع الكتاف

(1) سجلت بالإملاء اللغوى خلافا لثبوتها في القرآن الكريم لتعذر وضع الف المد فوق الحرف. ومثلها يابنى. ومثلها يا إبراهيم.

(2) القرطبي 303/11. وانظر القسم التاسع من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني ص 17 تفسير الآية 69 من سورة الأنبياء - المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحرب كانت ترمى بها حجارة على الأسوار فتهدمها.

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المفسرين. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن: **لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ فِي النَّارِ، قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَمَا احْتَرَقَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعُ الْكَتَافِ — (1).** وقال ابن عباس رضى الله عنه: " لو لم يقل الله: (وسلاما على إبراهيم) لآذى إبراهيم بردها " (2)... وهكذا نجى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام من عذاب الاحتراق بنار الدنيا بفضل تمسكه بعقيدة التوحيد والإخلاص فيها لله رب العالمين. مما جعل أباه أزر يتعجب من تعطيل نظام الطبيعة الذي جعل النار المحرقة بردا وسلاما على إبراهيم، وقال له قولته المشهورة " نعم الرب ربك يا إبراهيم " (3).. وذلك رغم بقاءه على إشراكه. ولو استعمل عقله منذ بداية الدعوة التي وجهت إليه لنبذ الشرك وعبد الله وحده وأراح نفسه وقومه وولده...

وفى المجال الإجتماعى: يوجه الإسلام الآباء والأمهات إلى نصيحة آبائهم وبناتهم بتوجيههم إلى مجموعة من عزائم الأمور الاجتماعية وعظائمها لأهميتها في إقامة حياة سعيدة في الدنيا والآخرة. وفى مقدمة هذه الأمور إقامة الصلاة التي هى عماد الدين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على أقدار الله جل وعلا. فيقول سبحانه على لسان لقمان عليه السلام ناصحا ولده: **{يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ}** [لقمان: ١٧]. وكلها أمور تجعل حياة المسلم والمسلمة سعيدة مستقرة نافعة.. ولا ينسى لقمان في هذا

(1) رواه ابن النجار عن أبى هريرة ص120 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى - الكتاف: الوثائق.

(2) انظر ص17 من القسم التاسع من المرجع صفوة التفاسير.

(3) رواه أبو هريرة ص106 من كتاب قصص الأنبياء - لابن كثير - تحقيق الأنصارى.

المقام، أن يحذر ولده من التكبر على عباد الله وغمطهم بحجة أن الشباب - وهو منهم - هم العنصر الفاعل في المجتمع الإسلامي، وهم الذين يقودون مجتمعهم إلى التنمية والرقى. والشباب وإن كانوا كذلك فإنهم يستشيرون الرجال والشيوخ في المجتمع، فهم الذين يحملون في جنباتهم الخبرة اللازمة باستفادتهم من توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة. ومن هنا يوجه الإسلام الآباء والأمهات إلى تنبيه أبنائهم وبناتهم إلى التواضع وعدم التكبر والتهوين من شأن الفئات الأخرى في المجتمع. ويقول ربنا عز وجل في ذلك أيضا على لسان لقمان عليه السلام موجهها ولده الشاب { وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ } [لقمان: ١٨] (1).

وهناك توجيهات ربانية أخرى ينصح بها الوالدان أبناءهما الشباب من البنين والبنات، مستفيدين من البرنامج القرآني في إرشاد الصبية والشباب والفتيات في المجال الاجتماعي. فهم يوجهونهم إلى الاعتدال في المشى وفي تصرفاتهم المتعددة في الحياة اليومية، والاعتدال كذلك عند الكلام بغض الصوت في الزمان والمكان اللازمين لذلك. ويوجه لقمان عليه السلام ابنه وأبناء المسلمين جميعا إلى ذلك في قوله تعالى على لسانه: { وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [لقمان: ١٩] (2). فالتوسط في المشى بين الإبطاء والسرعة مطلوب من الصبية والشباب والناس جميعا؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **سرعة المشى تذهب بهاء الوجه** — (3).

(1) غمط الناس: التقليل من شأنهم والترفع عليهم - تصغير الخد: إماتته عن الناس.

(2) اقصد في مشيك: توسط فيه بين البطء والسرعة.

(3) رواه أبو نعيم 85 من مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

وكذلك التوسط في الأقوال والأفعال وكافة التصرفات المطلوبة في الحياة اليومية، مطلوب في الأحوال الكثيرة التي تتطلب ذلك. ومثل ذلك خفض الصوت عند الحديث أثناء المشى أو الوقوف في الطرقات والشوارع وخصوصا في وقت الليل. فعلو الصوت في مثل هذه الأماكن والأوقات فيه تشبيه بالحمير التي يعلو صوتها فيها دون تمييز بين وجوب خفض الصوت وعلوه؛ لأنها حيوانات لا تعقل ولا تميز. قال قتادة: " أقبح الأصوات صوت الحمير أوله زفير وآخره شهيق " (1). وقال الحسن رضى الله عنه: " كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فرد الله عز وجل عليهم بأنه لو كان خيرا لفضلتهم به الحمير " (2)...

وتمشيا مع الفضائل الاجتماعية التي ينفع بها الوالدان أولادهما وبناتهما - يوجه القرآن الكريم الأبوين إلى حث أولادهم وبناتهم على الصبر وحسن التصرف في توجيه طاقتهم الشبابية الجنسية إلى أشياء مفيدة لحين تمكنهم من الزواج. فيقول سبحانه: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} الآية [النور: ٣٣]. فعلى هؤلاء الشباب الذين لا يجدون براءة الزواج أن يعفوا عن نساء الناس وبناتهم فلا يتعمدون إيذاءهن بقول أو فعل إلى أن يتمكنوا من الزواج الشرعى، والوفاء بكل متطلباته. وعليهم أن يتسلحوا بالصوم فهو وجاء (3) لهم من الانزلاق وراء الشهوات المدمرة لشبابهم. وعليهم أن يمارسوا أنواع الرياضة المختلفة حتى يصرفوا طاقتهم تصرفا

(1) ص28 من القسم 12 من كتاب صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى - الطبعة الأولى.

(2) ص28 من القسم 12 من كتاب صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى - الطبعة الأولى.

(3) وجاء: حافظ.

شرعيا مفيدا. وعليهم أيضا أن يأخذوا بمبادئ وتعاليم الإسلام التي تعصمهم من الزلل والانحراف. فربنا عز وجل يعين من يسير في هذا الاتجاه، ويهديهم إلى طريق الخير.. ودليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالْصَوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ — (1)**. فالصوم حافظ لهم من الانزلاق وراء شهواتهم الحيوانية المدمرة.

واستمرارا في التوجيهات القرآنية الاجتماعية لحفظ الشباب يوجه كتاب الله العزيز الوالدين إلى وجوب الحذر من دخول الأبناء على والديهم في أوقات ثلاثة يميل فيها الوالدان إلى الراحة، وقد يخفون ملابسهم في هذه الأوقات. لذا أوجب الإسلام على أبائهما وبناتهما الاستئذان قبل الدخول عليهما في حجراتهما الخاصة في الأوقات

المشار إليها في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَغْنِيَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [النور: ٥٨] (2). وهكذا يوجه القرآن الكريم الصبية والشباب والفتيات للنظر إلى آبائهم وأمهاتهم بنظرة الاحترام والطاعة والتعاون المتبادل على البر والتقوى، وإعلاء كلمة الله، وإعلاء شأن الأسرة المسلمة وما يتفرع عنها مستقبلا...

(1) رواه الجماعة ص 160 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - الباء: مصاريف الزواج.
(2) الذين ملكت أيمانكم: إماءكم وعبيدكم - الذين لم يبلغوا الحلم منكم: لم يبلغوا سن التكليف والبلوغ.

وفى مجال طاعة الأبناء والبنات لأبائهم وأمهاتهم وتعاونهم فيما بينهم بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه بهذا الخصوص - نجد الأسوة الحسنة في إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وهو جد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.. فقد رأى أبوه إبراهيم عليه السلام في منامه، أنه يذبح ولده إسماعيل. ورؤيا الأنبياء حق ويجب تحقيقها. وقد حزن أبو الأنبياء إبراهيم لهذه الرؤيا حزنا شديدا. لكنه تمالك نفسه وأذعن للأمر الإلهي. فأخذ سكيناً حامياً وأخفاه في ملابسه. وسار بابنه إسماعيل في أعماق الوادى وسلك طريقاً لا يسير الناس فيه عادة. وتوقف إبراهيم في المكان المعروف الآن بالمشعر الحرام بمنى. وهناك صارح ولده إسماعيل بالرؤيا التي رآها في منامه وبحزنه العميق من أجل ذلك. وقد فطن إسماعيل لغرض أبيه ولسيره في هذا الطريق غير المسلوك، فبادل استسلام أبيه لأمر الله وقضائه بالامتثال. واكتمل المشهد الرائع بتشجيع إسماعيل لأبيه إبراهيم عليهما السلام - على تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى رغم ما في ذلك من حساسية شديدة وفجيعة؛ حتى لا تأخذ إبراهيم الشفقة فيتراجع عن التنفيذ. وازداد المشهد روعة بوصية إسماعيل لأبيه قبل الذبح، وهى وصية مشهورة، قال فيها إسماعيل مخاطباً أباه ومحفراً له على تنفيذ أمر الله جل جلاله: "يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب.. واكفف ثيابك حتى لا ينتضح عليها شئ من دمي فتراه أمى فتحزن.. واحدد شفرتك وأسرع بها على حلقى ليكون الموت أهون على.. وإذا أتيت أمى فأقرئها منى السلام.. وإن أردت أن ترد قميصى عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عنى". فلما سمع الأب إبراهيم وصية ولده له وامتناله لأمر الله الجليل، قال له: "نعم العون أنت يا بنى على

أمر الله " (1) .. وتكتمل روعة الفداء فيظهر إبراهيم السكين الذي أخفاه عن ولده، ويكبه على وجهه، ويهوى بها على حلقه، لكن السكين الحامية الحادة لم تذبح. وسمع إبراهيم الخليل نداء ربه عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْنِي أَفَاطِلُكَ فَقَالَ إِنَّا نَكَذِّبُكَ ۖ تَجَرَّيْ أَلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧] (2) ..

وهكذا يكتمل المشهد الرهيب فيفدى الله الكريم الجليل نبيه إسماعيل عليه السلام، بفداء يتناسب مع جوده بروحه امتثالاً لأمر ربه جل وعلا وأمر أبيه.. وطمأنة وتثبيتاً وتكريماً لصدر أبيه إبراهيم الذي امتثل لأمر ربه العظيم، جُعِلَ الذبح في ذلك الوقت من كل عام هجرى إحياء لهذا الموقف البطولى من الأب والابن على السواء. فلكل من يساهم في إحياء هذه الذكرى العطرة بالذبح لأضحيته أجر عظيم من الله الكريم حيث تعينه يوم القيامة على اجتياز الصراط إلى جنة النعيم دار الخلد. وأما في الدنيا فتغفر كل ذنوبه مع آخر قطرة تنزل من دمها بعد ذبحها. وفي ذلك يقول ربنا عز وجل تخليدا لهذه الذكرى وتوجيها للمسلمين باستمرار هذه المناسبة البطولية: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢].. ويقول عز وجل: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعِيرٍ ۚ اللَّهُ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦] الآية. ويقول جل جلاله ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ١٠٧ ماعمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله

(1) ص18 من القسم الرابع عشر 12 من كتاب صفوة التفاسير - الطبعة الأولى - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.
(2) تله الجبين: أكبه على وجهه ليذبحه.

من إهراق دم. وإنما لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها. وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً — (1). وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ١ ما أنفقت

الورق في

شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد — (2). وقال مجاهد: " {لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ} [الحج: ٣٦] قال: أجر ومنافع " (3). وسلط إبراهيم النخعي الضوء على ما فيها من منافع دنيوية فقال: " يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها " (4).

وجزاءً لوفاء وطاعة الابن إسماعيل لأبيه إبراهيم عليهما السلام، وللتعاون بينهما في مجال التضحية والولاء لله رب العالمين، كافأ إبراهيم ولده إسماعيل بأن طلب منه أن يرفع معه قواعد بيت الله الحرام بعد أن حددتها الملائكة لهما؛ حتى يكتمل للمسلمين نسكهم، فيزدادا ثواباً وبركة من الله جل جلاله في داريهما الفانية والباقية. ويقول رب البيت سبحانه في ذلك: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

{ (١٢٨) [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨] .. وهكذا يتراءى للجميع أن رضا الوالدين من رضا الله تعالى. ولذلك يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: " من أَرْضَى والديه فقد أَرْضَى الله، ومن أسخط والديه فقد أسخط الله " (5) ...

(1) رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه ص212 من الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم - لابن كثير.

(2) رواه الدار قطنى في سننه. نفس الصفحة من المرجع السابق.

(3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

(4) نفس الصفحة من المرجع السابق.

(5) رواه البخارى عن أنس ص139 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم

ومن الأمور الاجتماعية الهامة في مرحلة الصببية والشباب اهتمام الوالدين بدعم مستقبل أولادهم وبناتهم بأقصى قدر من الاستطاعة. فلا يجب أن ينشأ الأبناء عالة على الآباء والأمهات أو عالة على المجتمع؛ لأن ضعف الأبناء أو تقاعدهم عن الكسب وعن الاعتماد على النفس فيه - يؤدي حتما إلى ضعف الأسرة والمجتمع الإسلامي. ويحذر القرآن الكريم المسلمين جميعا من هذا الأمر. فيقول عز وجل: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِفاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء: ٩].. فدور الوالدين هنا طمانة ذريتهما الضعيفة بعبارات العطف والحنان التي تشجعهم على شق طريقهم في الحياة دون خشية ضعف أو فقر أو غيرهما. وكذلك يُطمئنُ الوالدان مَنْ تحت رعايتهما من اليتامى - إن وُجدوا - إلى عدم خشية الفقر، حتى يعيشوا مطمئنين إلى رعاية الله ثم الكافلين والمجتمع الإسلامي لهم، فيتشجعون، ويتجه القادر من الأبناء واليتامى إلى العمل على الكسب الحلال، وعدم الإتكال على الآباء والكافلين. بل إن الإسلام أمر أتباعه بتحسين وضع هؤلاء الأبناء واليتامى الضعفاء وهدايتهم إلى بداية الطريق الصحيح للكسب. وقد سبق أن تحدثنا عن تنمية أموال اليتامى بالاتجار فيها لهم. وبذلك يطمئن هؤلاء وأولئك على مستقبلهم في ظل الثقة والتعاون والأمن المتوفر في الأسرة والمجتمع الإسلامي طبقا لتعاليم الإسلام.. فقد نهى الإسلام أتباعه عن قهر اليتيم وانتهاك السائل. فتطبيب خاطرهما بكلمة طيبة أفضل بكثير من قهرهما بكلمة جارحة للشعور مثبتة للعزيمة القوية على العيش الكريم. وربنا جل شأنه يقول: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزَأْ بِهِ} [الضحى: ٩ - ١٠]. ويقول

أصدق القائلين سبحانه: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٣]. ففي الآية الكريمة حث وإغراء لمعاملة الفقير والمحتاج بالحسنى ولو بكلمة طيبة يغفر الله لقائلها ذنوبه جزاء هذا الدعم المعنوى للفقير والمحتاج واليتيم..

وكذلك نهى الإسلام عما كان يحدث في الجاهلية من قتل بعض الآباء لأبنائهم خشية الفقر. فربنا الخالق الرازق العظيم قد تكفل برزق الآباء والأبناء. والإيمان به سبحانه وبقدره واجب. يقول جل شأنه: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا

كَبِيرًا} [الإسراء: ٣١]. فهو سبحانه يُطْمِئِنُّ من يهتمون بقتل أولادهم خشية الفقر بأنه كريم جواد يتكفل برزق هؤلاء الأولاد كما يتكفل برزق آبائهم. فلا داعى إطلاقاً لقتل الأبناء خشية الفقر. فالأبناء والبنات نعمة من الخالق عز وجل لعباده يجب الحفاظ عليها وطمأننتها ورعايتها بدلا من إهانتها وقتلها. والأولاد كذلك يساعدون آباءهم وأمهاتهم عند الكبر. فلا يجب أن يحرم الوالدان أنفسهما من هذا الخير القادم والمتوقع. فيقول المولى سبحانه: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف: ١٥]...

ويحث الإسلام الآباء والأمهات على نصح أبنائهم بالالتزام بالإسلام وتعاليمه وآدابه إذا هم مالوا إلى الكفر وتركوا الإسلام، وأصروا على الإشراك بالله عز وجل، والكفر بالبعث والنشور والحساب،

وفى ذلك يقول ربنا الكريم: {وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدِهِ أُفٍّ لَّكَ مَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾} [الأحقاف: ١٧]... وعلينا أن نتذكر موقف نوح عليه السلام من ابنه الكافر. إذ عندما دعاه أبوه إلى الإسلام واللاحاق به وبالمؤمنين لينجو من الغرق الذي كتبه الله تعالى على الكفار من

قومه ظل على كفره وقال: {سَآوَيْتُ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ} قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ { [هود: ٤٣].. فلم يفعه إيمان أبيه ولا نبوته وظل على كفره حتى مات عليه غريقا مع الكافرين...

لكن حرص الوالدين على أمن أولادهم وبناتهم وعلى سعادتهم لا يجب أن ينسيهما - ولو لحظة - أن العمل من أجل الآخرة واجب، وأن السعادة في الآخرة أكد وأبقى. فمن فاته سعادة الدنيا، فسعادته في الآخرة محفوظة، لكنها مرهونة بعمله الصالح في الدنيا، وتقواه لله جل جلاله. ولذا يقول ربنا سبحانه: {زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ } [آل عمران: ١٤].

وفى الإطار الاجتماعى لاهتمام الإسلام بالصبيّة والشباب يدعوهم ربنا عز وجل إلى قيام الليل أو جزء منه تعبداً لله سبحانه وتعالى. حيث إن ذلك سيجعل الشباب والفتيات سليمى العقل والجسم. فيقول لهم الحكيم العليم: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكَ وَأَقْوَمُ قِيلاً} [المزمل: ٦]. ولهم فى ذلك أسوة حسنة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) أخرج: أبعث - خلت: مرت وفاتت.

وصحابته الكرام وتابعيهم. إذ يقول جل شأنه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ (١) قُرْ أَيْلٌ لِأَقِيلًا (٢) نِصْفَهُ، أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل: ١ - ٤]. ويقول له أيضا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية [المزمل: ٢٠].. وفى هذا الإطار نصحت أم سليمان ابنها سليمان عليهما السلام، بأن يقوم الليل أو جزءا منه تعبدا لله تعالى؛ لأن كثرة النوم به تجعل الإنسان فقيرا يوم القيامة. فقد روى البيهقي عن جابر رضى الله عنهما: قالت أم سليمان بن داود لسليمان "يا بنى لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الإنسان فقيرا يوم القيامة" (١)... كما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من عدم قيام الليل أو جزء منه وبين لهم أن من فوائد هذا القيام الدنيوية أنه يكون مطردة للداء من الجسد. فيقول صلى الله عليه وسلم: ٥ عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم. وقربة إلى الله تعالى ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء من الجسد — (٢).

بل إن هذا الحديث الشريف أورد جملة من فضائل قيام الليل؛ فهو طريق الصالحين من خلق آدم إلى يوم القيامة، وفيه تقرب لله جل جلاله، وفيه نهى دائم وقوى عن ارتكاب الآثام والمعاصي، وفيه تكفير للسيئات التي يرتكبها المسلم في فترات ضعفه أمام وساوس الشيطان الرجيم. وفيه أيضا قوة للبدن تجعله قادرا على طرد العلل والأسقام والأمراض. وهذا من فضل الله العلى القدير... وبقدر ما يكون الشباب والفتيات مطيعين لأبائهم وأمهاتهم يجب أن يكونوا على حذر من اتخاذ آبائهم وإخوانهم أولياء وأصفياء لهم، إن كان

(١) ص108 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

(٢) رواه أحمد عن بلال ص99 من نفس المصدر.

هؤلاء الآباء والإخوان يحبون الكفر ويفضلونه على الإسلام. إذ أن في ذلك ظلم للأبناء وكذلك للآباء والإخوة؛ لأن طريق الله تعالى المستقيم الخالص من الشرك والشركاء - أحق بالإتباع. ولهذا يقول لهم جل شأنه: {يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة: ٢٣]..

وفي هذا الإطار الاجتماعي الهام يحذر الإسلام الآباء من أبنائهم وزوجاتهم؛ فقد يسير هؤلاء الأبناء وأمهاتهم في طريق الضلال ويمنعون آباءهم من فعل الخير كما منع بعض الأولين من النساء والبنين آباءهم من إكمال دينهم بالهجرة مع بقية المؤمنين. وعلى الآباء حينئذ التمسك بطريق الإسلام الذي يتطلب فعل الخير كبقية المسلمين وعليهم في الوقت نفسه أن يعفوا ويصفحوا عن أبنائهم وأزواجهم، فبقية...
لهم المولى تبارك وتعالى: {يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التغابن: ١٤].. وفي هذا الإطار كذلك يحذر القرآن الكريم شباب المسلمين من التكاسل والانصراف عن حب الله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم وعن طاعتهما، وعن الجهاد في سبيل الله. وذلك بالانغماس في الملذات والشهوات الدنيوية والفخر بالآباء والأبناء والأزواج والعشائر، وجمع الأموال. فكل ذلك نعيم مؤقت لا يغني عن النعيم الدائم في الآخرة. فيقول الله الفرد الصمد أمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحذر هؤلاء من هذا السلوك الضال: {قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ

إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة: ٢٤].. فطريق الله الآمن الباقي أحق أن يتبع. وبالجمله فقد وجه القرآن الكريم الفتية والشباب وفقا لهذا المنهج الاجتماعي المتكامل الحكيم الذي ذكرنا جوانبه المتعددة - إلى الطريق القويم، طريق الله جل جلاله، والصبر على السير فيه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق من الرزق الإلهي الحلال الطيب، وفعل الحسنة بعد السيئة لكي تمحها، كما وعدهم الله تبارك وتعالى بأنهم إن ساروا في هذا الطريق المستقيم النافع - فإن مصيرهم يكون إلى الجنة. فيقول رب العالمين سبحانه: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾} [الرعد: ٢٢ - ٢٤]..

وننبه صبية المسلمين وشبابهم إلى أن مقاومة الشر وعدم الانسياق وراء وساوس الشيطان الرجيم، يعتبر أساسا للسير في طريق الله عز وجل. وعلى الآباء والأمهات أن يعلموا أولادهم وبناتهم ذلك.. وللمسلمين جميعا والشباب منهم - قدوة حسنة في يوسف عليه السلام، وهو الصديق الصادق الأمين. فقد كان شكله جميلا وحسنه فائقا. تربى في بيت رجل كريم من مصر. وعندما شبَّ عُوْدُهُ واستوى، راودته امرأة سيِّدِهِ التي هو في بيتها ليمارس معها الفاحشة. وأغلقت أبواب دارها عليه بل وأحكمت إغلاقها؛ حتى لا يستطيع الهرب. وهيات له طريق الزنى بكل إمكانياتها. لكن يوسف عليه السلام، رد عليها وعلى شيطانها الرجيم، ردا حاسما، تجاوب فيه مع نداء الله تبارك وتعالى. وسد عليها سبل الشيطان إلى

فعل الخطيئة. وبادل سيده إخلاصا بإخلاص. ويقص علينا المولى تبارك وتعالى مدار في هذه اللحظات الحاسمة التي هرب فيها يوسف من فعل الفاحشة وقهر النفس كما يهرب الإنسان من الوحش المفترس فيقول سبحانه: {وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُبُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُحْلَصِينَ} (٢٤) وَأَسْتَبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ، قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (٢٦) وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ، قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ، قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} (٢٨) {يوسف: ٢٣ - ٢٨} لقد قاوم يوسف الشيطان الرجيم والتزم طريق الرحمن الرحيم فكان الله عز وجل معه، وأدرك سيِّدُهُ أنه بريء من التهمة الملصقة به فصرف النظر عما نسب إليه، وحذر زوجته ونصحها أن تعود إلى الله وتترك الشيطان وطريقه وحزبه، فقال المولى الكريم على لسانه: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} (٢٩) {يوسف: ٢٩}.

وهناك أغراض مختلفة تهم الشباب والفتيات اهتم بها القرآن الكريم، وإن لم يخاطبهم بشأنها خطابا مباشرا، فقد وجهها إليهم باعتبارهم أهم الطوائف العاملة في المجتمع الإسلامي، وسياق الحديث في أغلبها مقصود به الفتية والشباب والفتيات وإن كان الخطاب فيه ليس موجها إليهم في الغالب.

ففي المجال الاقتصادي وتكوين الثروات المالية التي تعتبر

السبيل إلى تقدم المجتمع وتنميته ورقيه في ظل تعاليم الإسلام - نجد توجيهات عديدة تفيد الشباب كما تفيد غيرهم، منها توجيه المجتمع بما فيه من شباب إلى وجوب التحرى في طلب الرزق والحرص على أن يكون حلالا طيبا. وتحذير العاملين من تتبع خطوات الشيطان الذي يزين للناس دائما طرق الرزق الخبيثة كالسرقة والغش والرشوة والخداع والتعامل بالربا، وغيرها من الطرق التي تمحـق الرزق. فيقـول

الرحمن الرحيم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ١٦٨]. ويقول عز وجل: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥]. ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} (٢٧٩) وَإِنْ كَانَتْ ذُوْعُسْرَةً فَذُوْعُسْرَةٌ إِلَى مِيسْرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (٢٨٠) [البقرة: ٢٧٨ - ٢٨٠]. فهو سبحانه يحذرهم من الطرق الشيطانية في طلب الرزق ويوجه القادرين منهم إلى مساعدة غير القادرين بالقرض الحسن الخالي من الفوائد الربوية. كما يوجههم إلى الابتعاد عن طريق الربا الذي يدمر اقتصاد الأفراد والجماعات بل واقتصاد الوطن الإسلامي كله. وحتى يكون التعامل الاقتصادي سليما ونقيا وخاليا من الغش والخداع والظلم - نهى القرآن الكريم التجار عن تطفيف الميزان والكيل. وتوعد المطففين وذكّرهم بالوقوف الصعب بين يدي الله تعالى خزايا مقهـورين.

فقال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} (٢) وَإِذَا

كَالْوَهْمِ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ { [المطففين: ١ - ٦] كما وجه القرآن الكريم الناس بصفة عامة إلى الاعتدال في الإنفاق. فالوسطية فيه بين الإسراف والتقتير هي المطلوبة من المسلمين. ولهذا فقد جعل ربنا عز وجل المعتدلين في إنفاقهم من عباد الرحمن الذين بشرهم بفضل عظيم ونعيم كبير في الآخرة علاوة على أمنهم في الدنيا بسبب هذا الاعتدال.

فقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} ﴿٦٧﴾ { [الفرقان: ٦٧]. كما ذم القرآن الكريم المبذرين المسرفين وجعلهم إخوانا للشياطين، لأنهم يسرفون في إنفاقهم وتقتيرهم. فيضعفون المجتمع وأسرته وأفراده، بهذا التصرف الممقوت. وفي ذلك يقول رب العالمين: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} ﴿٢٧﴾ { [الإسراء: ٢٧].

وقد عمل الإسلام على الحد من التسابق إلى جمع المال. وحث المسلمين على التسابق الأولى والأصلح وهو العمل من أجل الآخرة. وقد أشرنا سابقا إلى قوله تعالى: {زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ} [آل عمران: ١٤] وكذلك أشرنا سابقا إلى حث الإسلام على معاملة المحتاجين المسلمين بالقرض الحسن والبعد عن الربا ومضاره. وكل هذه المعاملات يحتاج إليها الشباب أكثر من غيرهم من طوائف المجتمع باعتبارهم العنصر الأكثر والفاعل في المجتمع الإسلامي..

وفي التوجيه إلى الصناعة، يتحدث القرآن الكريم عن أكثر من ميدان من ميادين الصناعة التي لو اشتغل بها الشباب لعادت عليه

بألوان كثيرة من الخير. وأنبياء الله تعالى ورسله الذين كانوا في ريعان شبابهم قد اشتغلوا ببعض هذه الصناعات - فكانوا المثل الأعلى للشباب والعاملين في المجتمعات الإسلامية..

فقد علم الله تبارك وتعالى داود عليه السلام صناعة الدروع. فكان أول من صنعها. ويتضح ذلك من قوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ} [الأنبياء: ٨٠]. وكان داود يومئذ في ريعان شبابه.. ومن بعده ولده سليمان عليه السلام الذي أسال الله تعالى له عين القطر أى النحاس يعمل منه التماثيل التي لم تكن قد حرمت بعد، وغيرها من الأدوات اللازمة للحياة في ذلك الزمن، كأوانى الطهى والقدر الضخمة الراسية التي لا يمكن تحريكها من أماكنها، والقصاع الكبيرة التي تشبه الأحواض لاستخدامها في الأغراض المختلفة. ويقول ربنا عز وجل في ذلك: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَاهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ. وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَةٍ} [١٢] أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ} [١٣] [سبأ: ١٢ - ١٣].

ومن سياق الآيات السابقة ومعانيها نرى أن الله جلت قدرته قد سخر الريح لسليمان عليه السلام. يستخدمها في نقل جيوشه إلى أى مكان في العالم آنذاك. كما يستخدمها في أغراض أخرى اجتماعية واقتصادية. كما سخر الله عز وجل لسليمان عليه السلام طوائف من الجن يغوصون في البحر فيستخرجون له الجواهر واللائى التي تستخدم في الصناعات المختلفة. {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ} [الأنبياء: ٨٢]. وكل هذا ليستفيد البشر من بعدهم بهذه الصناعات وينشطوها. فلا

يتكل أحد منهم على غيره. كلُّ يعمل ما تيسر له من الصناعات.. والشباب أكثر من غيرهم معنيون بهذا النشاط الصناعي الذي يمكن أن يثرى أى مجتمع.. وكان للمرأة نصيب في هذه النهضة الصناعية. والفتيات معنيات بذلك حتى يشاركن في رقى مجتمعهم الإسلامى. فقد وجه الله عز وجل العنصر النسائى إلى صناعة الغزل لاستعماله بعد ذلك في صناعة المنسوجات المختلفة. يقول تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا} الآية [النحل: ٩٢].. تلك ألوان من الصناعات لو اهتم بها الشباب والفتيات لأحسوا بالرخاء الاقتصادى ولنفعوا مجتمعهم الإسلامى نفعا عظيما مؤكدا...

وبالإضافة إلى كل مامر نجد القرآن الكريم يمنح الشباب والفتيات جرعات قوية من المنشطات العامة النافعة لهم ولغيرهم في دنياهم وآخرتهم، تحثهم على التحلى بالأخلاق الكريمة، وتحبب إليهم خصال الخير، وتنفرهم من خصال الشر.

فيقول عز وجل مخاطبا المسلمين جميعا وفيهم الشباب والشابات: {قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَارُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنْ اَللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِالْعٰبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اِنَّا ؕ اٰمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصّٰبِرِيْنَ وَالصّٰدِقِيْنَ وَالْقٰنِئِيْنَ وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْاَسْحَارِ ﴿١٧﴾} [آل عمران: ١٥ - ١٧].. ولا ننسى في هذا المقام أن نذكر بالوصايا العشر اللازمة لكل مسلم ومسلمة، وللصغير والكبير على حد سواء. يوصى بها الآباء والأمهات أبناءهم وبناتهم، شبابهم وأطفالهم. وهى مجموعة في قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ اَلَا تُشْرِكُوْا بِهِۦ شَيْئًا وَّ بِالْوٰلِدَيْنِ اِحْسٰنًا وَّلَا تَقْتُلُوْا اَوْلَادَكُمْ مِّنْ اِمْلٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَاِيٰهَٰمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

مِنْهَا وَمَا بَطَرٌ ۖ وَلَا تَقْنُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ لَا تَكِلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ { [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] .. ولا يفوتنا كذلك أن نذكر بتلك الصفات الحميدة التي جمعناها آية واحدة من كتاب الله جل وعلا. ويبشر الله تعالى من آمن به واتصف بها. وهى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ النَّاسِ﴾ الْحَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ { [التوبة: ١١٢] (١) ..

ونكرر في هذا السياق ما سبق أن أشرنا إليه من صفات الخير التى يتصف بها الآباء والأمهات والشباب والفتيات. ويتسابق الجميع في سبيل الوصول إليها وتحقيقها ليحظى بالمغفرة والأجر العظيم في الآخرة علاوة على الأمن والسعادة في الدنيا.

وهى أيضا مجموعة في آية واحدة من كتاب الله عز وجل هى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ { [الأحزاب: ٣٥].

(1) السائقون: السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم وللعظة والاعتبار. وقال البعض هم الصائمون. وقال البعض هم المهاجرون ورجح الشيخ المرحوم محمد على الصابوني رأى الفخر الرازى وهو الرأى الأول. ص 50 من القسم الخامس من كتاب صفوة التفاسير - للشيخ الصابوني.

ويطمئن الله جل جلاله البشر جميعا بما فيهم من الشباب والفتيات بأنه تعالى لن يضيع نعمة أنعمها على أحد أو قوم من الناس إلا إذا بدأوا هم أو آحادهم بالتغيير إلى الأسوأ. وهو عز وجل سميع لخلقه عليهم بهم. فيقول سبحانه: {ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَتَى اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٥٣]. وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه أن ينصر اللاجئين إليه الراغبين في طاعته والالتزام بأمره والانتهاز عن نهيه، الرافضين لطريق الشيطان عدو الله العظيم وعدو آدم وعدو الإنسانية جمعاء وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢] (١) ..

فالحق قوى لأنه من الله القوى المتين والباطل ضعيف لأنه من الشيطان ضعيف الكيد. وانتصار الحق على الباطل أمر محتوم. فليختر الصبية والشباب طريق الحق فهو الأصلح والأنفع، وليتركوا طريق الباطل فهو الأضعف والأبتر ..

وبهذا المنهج الرباني المتكامل، يكون القرآن الكريم قد أحاط الشباب والفتية والفتيات علما بأهم السبل التي تؤدي بهم إلى السعادة الدنيوية، سواء في العمل من أجل الآخرة أو من أجل الدنيا في المجال الاجتماعي والاقتصادي بكافة صورته وأشكاله وفي مجال الأخلاق الكريمة التي تقرب إلى الخير وتنفّر من الشر، والتي اكتسبها الشباب من والديه، ونتيجة إيمانه بخالقه عز وجل،

(١) بمصرخكم: بمغيثكم من عذاب الله.

ومحافظته على عقيدة الإسلام الخالدة. وتلك هي الميادين الرئيسية التي يلتمس الشباب والفتية والفتيات فيها النصح والإرشاد. وللجنة النبوية المباركة برنامج مماثل ومكمل ومستفيض يجب أن نحيط بكل أبعاده إن شاء الله.

اهتمام السنة المباركة بمرحلة الصبا والشباب :

فإذا انتقلنا إلى السنة النبوية الكريمة واهتمامها بالشباب والفتيات ومشاركتها في إسعادهم - فإننا نجد في البداية دعوة إلى العقيدة السليمة ووجوب التمسك بها، والإيمان الكامل بالله عز وجل وإخلاص العبادة له سبحانه منذ الصغر. فقد ساعد الوالدان أبناءهما وبناتهما منذ الصغر على التمسك بعقيدة الإسلام والحذر من التهويد والتنصير والتمجيس وغيرها من الاتجاهات المخالفة للعقيدة الإسلامية التي ولد الأبناء والبنات مطبوعين عليها. وقد سبق أن أشرنا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: **كُلُّ إِنْسَانٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبْوَاهُ يَهُودَانِهِ، أَوْ نَصْرَانِهِ أَوْ مَجْسَانِهِ، كَمَا تَنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةِ جَمْعَاءَ، هَلْ تَحْسُونُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ—** ثم يقول أبو هريرة وقرأوا إن شئتم: **{فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** الآية [الروم: ٣٠] (1).

وفى لفظة كريمة أخرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبه خلالها الصبية والشباب إلى وجوب الاستمرار في التمسك بالعقيدة الإسلامية الصحيحة في هذه المرحلة الحاسمة من عمر الإنسان حيث يظل مرتبطاً بها طيلة حياته ويبشرهم صلى الله عليه وسلم بأن الشباب المتمسك بعقيدة الإسلام يتمتع في الآخرة بظل الله تعالى

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة ص11 من كتاب كنوز السنة - للشيخ المرحوم محمد علي الصابوني.

حيث لا ظل هناك إلا ظله سبحانه مادام قد نشأ على عبادة الله وشب عليها وأخلص فيها فيقول صلى الله عليه وسلم: **سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شاله ما أنفقت يمينه—** (1).

فالشاب الذي ينشأ منذ صغره على حب العبادة والإخلاص فيها لله رب العلمين وحده، ويستمر على ذلك ويداوم عليه حتى انتهاء عمره - شاب ضمن الأمن والفوز بالدارين..

كما أن نزول جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم في صورة شاب ليعظ الشباب وغيرهم ويوجههم إلى حقيقة العبادة والإخلاص فيها لله عز وجل وإلى إقامة دينه الحنيف - يدل دلالة واضحة على اهتمام الإسلام بالشباب وحرصه على تمكين العقيدة الإسلامية من نفوسهم.

ففي جلسة ممتعة من جلسات رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه الكرام الذين كانت غالبتهم من الشباب. وكان منهم عمر بن الخطاب نفسه الذي يروى هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: " بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على

(1) رواه الشيخان ص84 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

فخذي، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا** — فقال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: **أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره** — قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** — قال: صدقت، فأخبرني عن الساعة؟ قال: **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل** —، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: **أن تلد الأمة ربته، وأن تُرى الحفاة العراءُ رُعاءَ الشَّاءِ يتطاولون في البنيان** — ثم انطلق. فلبث مليا، ثم قال (لى): **يا عمر أتدرى من السائل؟** — قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** — (1).. فقد شاءت عناية الرحمن الرحيم، أن ينزل جبريل عليه السلام على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة شاب ليشجع الشباب ويدفعهم إلى السؤال عن أمور دينهم دون حرج أو خجل؛ لكي يحققوها فيسعدوا في دنياهم وآخرتهم.. وقد حدث هذا فعلا..

ومن ذلك أيضا ما رواه مسلم عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنهما، قال: قلت يا رسول الله: قل لى في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا غيرك، قال: **قل آمنت بالله ثم استقم** — (2). وفى هذا الحديث الشريف تصديق لقول المولى عز وجل: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ**

(1) رواه مسلم ص131، ص132 من الجزء الأول من كتاب جامع العلوم والحكم - لابن رجب - تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور - أن تلد الأمة ربته: سببتها ومالكها: إثارة إلى الفتح وإشتراك السود فيه.

(2) ص191 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

الَّتِي كُنْتُمْ تُعَكِّدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوَّكُنَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُنَّ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُنَّ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزْلُمُونَ عَفْوٌ رَّحِيمٌ { [فصلت: ٣٠ - ٣٢].. ولنا وللمسلمين جميعا بما فيهم الشباب - أسوة

حسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قاوم الشرك والمشركين
وكان على استعداد لفقد حياته في سبيل بقاء عقيدة الإسلام. إذ لما
ضغط المشركون من قومه على عمه أبى طالب لكى يصرفه عن
عقيدة الإسلام أو يسلمه إليهم - قال لعمه قولاته المشهورة: **يَا عَمِي**
وَاللّٰهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ
حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلُكَ فِيهِ مَا تَرَكْتَهُ — ثم استعبر وبكى ثم قام، فلما
وَأَلْفِي نَدَاهُ

أبو طالب فأقبل فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك إليهم أبدا (1).. وكان هذا الرد الحاسم من أبى طالب لابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم بداية صمود رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه الشرك والمشركين دفاعا عن عقيدة الإسلام الخالدة...

أما في المجال الاجتماعي: فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسم للفتية والشباب والفتيات والشابات برنامجا اجتماعيا يوصلهم إلى بر الأمان في دنياهم وآخرتهم بعد أن نشأهم نشأة إسلامية صحيحة. وتتضح خطوات هذا البرنامج المحمدي الاجتماعي فيما يلي:

يوجه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فتية المسلمين وشبابهم وفتياتهم إلى الحياة الدنيوية المستقرة المطمئنة والحياة الأخروية السعيدة. فيقول صلى الله عليه وسلم لمن جاءه من الشباب يسأله عن

(1) ص34 من كتاب صفوة السيرة المحمدية - للشيخ المرحوم أحمد حسن الباقوري - استعير نزلت العبرات أى الدموع على خذه الشريف.

طريق السير في الإسلام: ^١ اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن — (1). فهذا حديث نبوى شريف شامل، جمع من الأوامر ما يصلح أن يكون أساسا لحياة دنيوية، سعيدة مستقرة، وحياة أخروية مآلها إلى السعادة والهناء؛ فتقوى الله عز وجل في كل الأمور الدنيوية، وفعل الحسنة بعد السيئة لتمحوها، ومعاملة الناس بالحسن في كل الحالات - أمور لو فعلها شباب المسلمين وفتياتهم وفتياتهم لفازوا وسعدوا في الدارين.

ويوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء الشباب والفتيات إلى خالقهم ورازقهم ومُسيّر أمورهم سبحانه ليعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا، وليستعينوا به في كل أحوالهم فلا يقصدوا أحدا غيره، وليسيروا على طريقه المستقيم. فيقول لهم الشافع المشفع صلى الله عليه وسلم موصيا شابا سألته عن طريق الإسلام الصحيح: ^١ يا غلام: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله عز وجل — (2).. فاتجاه الفتية والشباب والفتيات والمسلمين جميعا إلى الله، واستعانتهم به سبحانه في كل أمور حياتهم الدنيوية والأخروية - يحفظ العقيدة الإسلامية ويقوى الإيمان في نفوسهم..

وكثير من الشباب والفتيات تلعب بهم الأهواء، وتتغلب عليهم نزغات الشيطان إذا نظروا إلى من هو أكثر منهم حظا في المال والولد والجاه والسلطان والحسب، فيدفعهم ذلك إلى اليأس من رحمة الله تعالى خالقهم ورازقهم. وهنا يحثهم رسول الله صلى الله عليه

(1) رواه الطبراني عن أبي ذر ص4 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي

(2) رواه الترمذى ص160 من المرجع السابق.

وسلم على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، الذي هو جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله العزيز العليم. فهو يبعدهم عن الحقد والغل والحسد والضغينة بينهم وبين أهليهم وأقاربهم وأصحابهم وجيرانهم؛ فيعيش الجميع في سعادة وأمن. ويحث الآباء والأمهات أولادهم وبناتهم على وجوب الإيمان بقضائه وقدره سبحانه. فهذا عبادة بن الصامت يعظ ابنه فيقول: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **﴿إِنْ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟﴾**. قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. — يابني: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات على غير هذا فليس مني — ⁽¹⁾.. وفي هذا الشأن نفسه يقول ابن عمر رضى الله عنه: "والذى نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر" ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره﴾** — ⁽²⁾..

وهكذا يمارس الآباء والأمهات دورهم في تعميق الإيمان، والرضا بقضاء الله، لدى أبنائهم وبناتهم من الشباب والشابات مما يجعلهم دائماً على طريق العقيدة الإسلامية الصحيحة، يمارسون الإيمان بالله ورسوله، وينتفعون به في الحياة الدنيا ويعملون به للدار الآخرة..

وكذلك مرت بنا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم للآباء

(1) رواه أبو داود وأحمد عن عبادة بن الصامت ص494 من كتاب - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

(2) رواه مسلم ص493 من المرجع السابق.

والأمهات بمتابعة أولادهم وبناتهم من الصببية والشباب وحثهم على أداء الصلوات الخمس والمحافظة عليها. فقد جاء في الجامع الصغير

قول رسول الله

صلى الله عليه وسلم: **مروا أولادكم بالصلاة وهم أولاد سبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع. وإذا زوج أحدكم خادمه أو أجيده فلا ينظر إلى مادون السرة وما فوق الركبة — (1)**.. ولا بأس من دخول الصببية الصغار إلى المساجد ليتعودوا على أداء الصلوات الخمس في جماعة ولا مانع من تشجيع آبائهم وأمهاتهم لهم في هذا الاتجاه مع توصيتهم وإرشادهم إلى أن يلتزموا الأدب أثناء تواجدهم بالمسجد. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعترض على تواجد الحسن والحسين رضى الله عنهما، وغيرهما بالمسجد في فترة الصغر..

وقد أمرت السنة النبوية الكريمة الآباء والأمهات ببر أبنائهم وبناتهم، كما أمرت ببر الأبناء والبنات لأبائهم وأمهاتهم. وأمرت كذلك بأن يتعفف المسلمون عن نساء الناس حتى يعف الناس عن نسائهم وبناتهم. وفي هذا يقول النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: **عَفُّوا عَن نِّسَاءِ النَّاسِ تَعَفَّ نِسَاؤُكُمْ وَبَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبْرَكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ. وَمَنْ أَتَاهُ أَخُوهُ مُتَنَصِّلاً فَلْيَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ مُحَقّاً كَانَ أَمْ مَبْطِلاً، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَرِدْ عَلَى الْحَوْضِ — (2)**.. ففيه دعوة للتسامح والعفو وخصوصاً مع من اعترف بخطئه..

وحرصاً من السنة النبوية الكريمة على سعادة الأسرة المسلمة،

(1) رواه أحمد في مسنده وأبو داود والحاكم عن ابن عمر ص263 من الجزء الأول من كتاب الشرح الصغير - للإمام مالك - تأليف أبي البركات الدرديري - حاشية الصاوي.
(2) رواه الحاكم عن أبي هريرة ص97 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي.

نبرز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم للأبناء والبنات بطاعة الآباء. فنظرا لارتباط المولود بأمه فترة طويلة في صغره، قد يظن بعض الأبناء والبنات أن الأم فقط هي التي تجب طاعتها، وخصوصا عندما يقرأون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **الجنة تحت أقدام الأمهات — (1)**، وغيره من الأحاديث التي توصي بطاعة الأم.

وهنا تنبه السنة النبوية الكريمة أبناء المسلمين وبناتهم إلى أن طاعتهم لآبائهم واجبة؛ لأنها من طاعة الله جل وعلا. ومن هنا يقول المبعوث رحمة للعالمين محمد صلى الله عليه وسلم: **طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد — (2)**. وطاعة الولد والبنات لوالديهما تكون واجبة إذا كان أمر الوالد لهما في طاعة الله تعالى - وهذا يحدث غالبا. فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وكذلك الأمر بالنسبة للأم.

وتحت السنة النبوية المباركة الفتية والشباب والفتيات على التقرب إلى الله تبارك وتعالى بالطاعة والعبادات وخصوصا العبادات التطوعية والنوافل وعلى الأخص بالليل والناس نيام. وقد سجلت كتب السنة ما ورد في شأن وصية أم سليمان عليها السلام لولدها سليمان، بقضاء وقت من الليل في طاعة الله عز وجل وعبادته. ففي هذا يقول الهادي البشير صلى الله عليه وسلم: **قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الإنسان فقيرا يوم القيامة — (3)**. والشاب الذي نشأ على عبادة الله

(1) ص54 من كتاب مكانة المرأة في الإسلام - محمد عطية الإبراشي. ورواه الإمام أحمد ص65 من المرجع السابق، الجزء الأول من كتاب الشرح الصغير للإمام مالك، تأليف أبو البركات الدرديري حاشية الصاوي.

(2) رواه الطبراني ص92 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي.

(3) رواه البيهقي عن جابر ص108 من المرجع السابق.

- وكذلك الشابة - قد يصير يوما من أولياء الله الصالحين سبحانه الذين قال الله تعالى فيهم في حديثه القدسي الذي رواه عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم: **«من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذني لأعيذنه»** (1). فمداومة العبد المسلم، واستمراره في التقرب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل توصله إلى محبة الله الجليل له بل إلى أن يكون وليا من أوليائه سبحانه وتعالى، يسمع به سبحانه ويبصر به، ولا ينطق قولا ولا يعمل عملا إلا برعايته سبحانه. وتلك مرحلة عالية ومنزلة رفيعة لا يصل إليها إلا ذوا الحظوظ العظيمة والدرجات العالية عند الله الخالق الرازق العظيم. وذلك لأن النوافل توصل العابد إلى مرحلة الإحسان التي يتمتع فيها بولاية الله سبحانه له.

وقد يهتم بعض الشباب بأمهاتهم فقط لظروف معينة - ذكرنا شيئا منها فيما سبق - عديدة. ويعمدون إلى قطع الود مع آبائهم. لكن علاقة الابن المسلم بأبيه المسلم يجب أن تدوم، وحفاظا عليها يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الأبناء إلى التودد لآبائهم وعدم الانقطاع عن ذلك. فيقول صلى الله عليه وسلم: **«احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك»** (2). وقد قال ربنا العظيم: **«وَمَنْ لَمْ يَحْوَ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»** الآية [النور: ٤٠].. وحتى لا ينقطع الود بين الابن وأبيه، دعت السنة النبوية المباركة الآباء والأمهات إلى إحسان أدب

(1) رواه البخارى عن أبى هريرة ص166 من المرجع السابق - مختار الأحاديث النبوية.

(2) رواه البخارى ص7 من المرجع السابق.

أولادهم وبناتهم، وتربيتهم على ثلاث خصال حميدة، هي: حب النبي صلى الله عليه وسلم، وحب أهل بيته الكرام، رضى الله عنهم، وتلاوة القرآن الكريم. لأن حَمَلَتُهُ والمطبقين لما فيه من شرائع وأحكام وآداب وتوجيهات - لهم شأن عظيم في الدنيا والآخرة. ولا يظنن أب أن اهتمامه بأحد أبنائه وتعليمه القرآن الكريم وما فيه من أحكام وآداب وتوجيهات، دون بقية أبنائه وبناته - قد يعفيه من الحساب على تقصيره مع بقية أبنائه وبناته. فهو مطالب بتعليمهم جميعا القرآن الكريم وغيره من العلوم النافعة. وهو مطالب بتعليمهم جميعا بآداب القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة. حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن. فإن حملة القرآن في ظل الله، يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفياه—(1) وكلمة أولادكم تشمل البنين والبنات كما دلت على ذلك نصوص كثيرة، ولأن التطبيق يشملهما...﴾**

وفى إطار هذا المنهج النبوى الكريم في المجال الاجتماعى في تربية الأولاد والبنات، نذكر الآباء والأمهات بوجوب العدل بين الأولاد وبين البنات أيضا. فالمطلوب عدم تمييز ولد على ولد أو بنت على أخرى أو ولد على بنت أو بنت على ولد إلا في حدود ما رسمته الشريعة الإسلامية. فعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن أباه أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: **«إني نحتلت ابني هذا غلاما كان لى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أفعلت هذا بولدك "؟ قال: لا. قال: ﴿اتقوا الله واعدلوا في أولادكم—فرجع أبى، فردَّ تلك الصدقة " (2). وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه**

(1) رواه الديلمى عن علىّ ص7، 8 من المرجع السابق.

(2) رواه الشيخان عن النعمان بن بشير ص198 من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

قال: **♂** ساووا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء — (1) .. وفى هذا الإطار النبوي للتنشئة الاجتماعية الصالحة للأبناء التي تؤدي إلى إسعادهم - تحت السنة النبوية الشريفة الأبناء على الدعاء للوالدين. ومن ذلك ما قاله النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: **♂** إذا ترك العبد الدعاء للوالدين فإنه ينقطع عنه الرزق — (2). وقد أوجب الإسلام على الأولاد والبنات الطاعة لوالديهم وبين أن جزاءها الجنة. فالمصطفى صلى الله عليه وسلم يقول: **♂** من أصبح مطيعاً لله في والديه، أصبح له بابان مفتوحان من الجنة، وإن كان واحداً فواحد — (3). ومن هذا القبيل في بر الأبناء بالآباء، الحج عنهما إن كانا غير قادرين، أو قضاء دينهما إن كانا مدينين. وذلك سواء في حياتهما أو بعد موتهما. ومن أجل ذلك، يقول الشافع المشفع صلى الله عليه وسلم: **♂** من حج عن والديه، أو قضى - عنهما مغرمًا بعثه الله يوم القيامة من الأبرار — (4) .. كما أن إنفاق الأبناء والبنات على آبائهم وأمهاتهم عند كبرهم وعجزهم، واجب شرعي إن كانوا قادرين على ذلك شرعاً. وفى ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **♂** أربع من كن فيه نشر - الله تعالى عليه رحمته، وأدخله جنته: من آوى مسكيناً، ورحم الضعيف، ورفق بالمملوك، وأنفق على الوالدين — (5) ..

وجدير بالذكر أن بر الأبناء والبنات بآبائهم وأمهاتهم أحد أربعة أشياء تحول الشقاء إلى سعادة وتزيد في العمر وتقى مصارع السوء.

بولدك: أى بسائر أبنائك.

(1) رواه الطبراني 85 من المرجع السابق - مختار الأحاديث النبوية.

(2) رواه الديلمي من المرجع السابق.

(3) رواه ابن عساکر عن ابن عباس ص 140 من المرجع السابق - وإن كان واحداً فواحد أى إن كان له والد فقط أو والدته فقط فله باب واحد.

(4) رواه الدارقطني عن ابن عباس ص 143 من المرجع السابق.

(5) من حديث رواه الحاكم ص 18 من المرجع السابق.

وفى ذلك أيضا يقول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم: **♂ الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، تحول الشقاء إلى سعادة وتزيد العمر وتقى مصارع السوء — (1) ..**

وكذلك يجب أن يسود الحب المتبادل بين الأبناء والآباء والأمهات. على ألا يطغى ذلك الحب من الجميع على حبهم لله ورسوله. بل يجب أن يقدم الجميع حب الله ورسوله على حبهم المتبادل بينهم. إذ أن ذلك من تمام الإيمان. فالنبي الأكرم صلى الله عليه وسلم يقول: **♂ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين — (2)**. وكان صحابة رسول الله يحبون الله ورسوله أكثر من حبهم لآبائهم وأمهاتهم وأقاربهم بل أكثر من حبهم لأنفسهم. فهذا زيد بن الدثنة الذي أسر يوم الرجيع يشتريه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه فيخرجه هو وقومه وكان معهم أبو سفيان ابن حرب. وحين قدموا زيدا ليقتل سأله أبو سفيان فقال: " أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ - فقال زيد: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس في أهلى " فتعجب أبو سفيان من قوله وقال: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا " (3).

وفى هذا الجو من الحب المتبادل بين الآباء والأمهات وبين آبائهم وبناتهم يحث الإسلام ويرشد الآباء والأمهات على تعليم أبنائهم وبناتهم؛ حتى يسعدوا في حياتهم بتعلمهم الفنون اللازمة للحياة..

(1) رواه أبو نعيم ص91 من المرجع السابق.

(2) رواه الشيخان عن أنس ص159 من المرجع السابق.

(3) ص252 من كتاب صفوة السيرة المحمدية - للشيخ أحمد حسن الباقورى.

فالعمل والسعى للرزق واجب يدعم به الآباء والأمهات أبناءهم وبناتهم ويرشدونهم إلى وسائل العمل والسعى للرزق الحلال. فالعمل الشريف لازم للعيش الكريم.. ويضرب النبي صلى الله عليه وسلم لهم جميعاً مثلاً عالياً للسعى وراء الرزق بنبي الله داود عليه السلام. فيقول حبيب الرحمن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطَّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنْ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ— (1)﴾. حتى المرأة المسلمة كانت تعمل مستظلة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد برعت نساء ذلك العصر النبوي في ميدان الغزل والنسج. ففي كتاب الله عز وجل وردت آية تشير إلى اشتغال النساء بالغزل وهو يشمل في عصرنا الحاضر إعداد خيوط الغزل ونسجها. فقد ورد في سورة النحل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢]..

وقد كان نساء الصحابة، في هذا الزمن الأغر، يقمن بغزل أثواب أزواجهن. ومن المعروف أن الثوب في هذا الوقت كان يتكون غالباً من جزئين: جزء علوى يسمى الرداء، يوضع على الكتف فيغطي الظهر والبطن إلى السرة وجزء سفلى يسمى الإزار، يغطي منطقة العورة من السرة إلى مابعد الركبتين. وكان أشبه بلباس الإحرام الذي يلبسه الحاج الآن.. وقد أشارت إلى هذه المهنة التي كانت المرأة المسلمة تشارك بها آنذاك في اقتصاديات أسرتها - أسماء بنت يزيد الأنصارية في معرض حديثها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سأله عما إذا كانت هى وبنات جنسها تشارك الرجال الأجر

(1) رواه البخارى عن المقدم ص128 من المرجع السابق.

والخير الذي يفعلونه من أجل الدولة الإسلامية كالجهد والغزو ونحو ذلك من أعمال البر. فأجابها الرسول صلى الله عليه وسلم بأن: **حسن تبعل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته، يعدل ذلك كله** — (1). فعن أسماء بنت يزيد الأنصارية، أنها أتت النبي وهو بين أصحابه، فقالت: بأبي أنت وأمي يارسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله عز وجل بعثك للرجال وللنساء كافة، فأمننا بك وبإلهك، إنا معشر النساء مقصورات، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالحج والعبادات وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وأن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا - حفظنا لكم أولادكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم، أونشارككم في الأجر والخير.. فالتفت إليها رسول الله بكل وجهه وأثنى عليها بين أصحابه ثم قال لها صلى الله عليه وسلم: **افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله** —

واستكمالا لمنهج السنة المطهرة لتوجيه الشباب وإسعادهم وتقويتهم - نجد الإسلام ينفر الشباب من البخل وسوء الخلق، ويحببهم في العطاء والبذل وحسن الخلق. فيقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **شاب سخي حسن الخلق، أحب إلى الله من شيخ بخيل سئ الخلق** — (2). كما يوجه الإسلام نظر الشباب والفتية والفتيات إلى أن البذل والعطاء يكون أحسن ما يكون من الابن لأبيه الضعيف غير

(1) من كتاب المرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر للمرحوم الدكتور عبد الله شحاتة ص73، ص74.

(2) رواه الديلمي عن ابن عباس ص88 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي - شيخ: كبير في السن.

القادر على العمل، ومن الأب لابنه الصغير الضعيف عن ممارسة العمل من أجل البحث عن الرزق، فهو غير قادر عليه؛ لأن ذلك نوع من الجهاد في سبيل الله. يقول الهادي البشير صلى الله عليه وسلم ليس الجهاد أن يضرب الرجل بسيفه في سبيل الله، إنما الجهاد من عال والديه، وعال ولده، فهو في جهاد، ومن عال نفسه فكفها عن الناس فهو في جهاد " (1). فليس الجهاد في سبيل الله مقصوراً على الضرب بالسيف، وإنما من أنفق على والديه أو أحدهما ورعى شئونهما من كسبه - فهو مجاهد. ومن رعى ولده وأنفق عليه لعدم قدرته على الكسب، فهو مجاهد. ومن كف نفسه عن سؤال الناس بالعمل والكد الشريف - فهو مجاهد. ومن سعى على أرملة أو مسكين فهو مجاهد. ومن أجل ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله** — (2) ..

بل إن الرجل إذا أنفق على أهله وولده وخدمه وبيته، فإن ذلك يحتسب له صدقة يستظل بها يوم لا ظل إلا ظل الله تبارك وتعالى. وفي ذلك يقول حبيب الرحمن محمد صلى الله عليه وسلم: **ما أنفق الرجل في بيته، وأهله وولده وخدمه فهو له صدقة** — (3) ..

وبالتزام الواجب تبادلته بين الآباء، والأمهات من جانب وبين أولادهم وبناتهم من جانب آخر، تزيد العلاقات الاجتماعية بين الفرد والأسرة والمجتمع الإسلامي وتقوى، فيقوى معها الجميع؛ فلا بد أن يرحم الكبير الصغير، وأن يعرف الصغير حق الكبير، وأن يحب المؤمن لغيره من المؤمنين ما يحبه لنفسه، وأن يكره لهم ما يكرهه

(1) رواه ابن عساكر عن أنس ص123 من مختار الأحاديث النبوية - ليس الجهاد: أى فقط.

(2) رواه الشيخان ص199 من المرجع السابق.

(3) رواه الطبراني عن أبي أمامة ص128 من نفس المرجع السابق.

لنفسه. وكل ذلك من تمام الإيمان. ولا بد أن يمتنع الغش بين الأفراد والأسر في المجتمع الإسلامي كله. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا، وليس منا من غشنا، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه** — (1) ..

وكذلك يجب على الآباء والأمهات توجيه صغارهم من الشباب والفتيات إلى آداب النوم والأكل. والشرب والكلام وغيرها من الآداب الواجب اتباعها بين المسلمين صغارا وكبارا ليزدادوا قوة واحتراما.. ومن هذا القبيل في مجال آداب الأكل، توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لغلام كان في حجره، وكانت يده تطيش في صحيفة الطعام وهو عمر بن أبي سلمة. ويروى عمر رضى الله عنه ما حدث له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر فيقول: كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحيفة فقال صلى الله عليه وسلم: **يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك** — (2). وقد تحدثنا عن بعض هذه الآداب وذكرنا أمثلة لها وخصوصا آداب الأكل والشرب في الباب السادس.

ونذكر هنا أمثلة لآداب النوم والكلام. فمن الآداب التي حرص الإسلام على تزويد الشباب وغيرهم من الناس بها، في مجال النوم - قوله صلى الله عليه وسلم: **إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونيك الذي**

(1) رواه الطبراني عن ضمرة ص125 من المرجع السابق.

(2) رواه الشيخان عن عمر بن أبي سلمة ص85 من المرجع السابق. مما يليك: من أمامك.

أرسلت — (1) .. ومن ذلك أيضا، قوله صلى الله عليه وسلم: **إِذَا اضْطَجَعْتَ فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ** — (2) .. وعن آداب الكلام يقول صلى الله عليه وسلم: **رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَنُغْمِ أَوْ سَكَتَ عَنْ سُوءٍ فَسَلِمَ** — (3) .. ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: **إِنْ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يَلْقَى لَهَا بِأَلَا يَرْفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنْ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يَلْقَى لَهَا بِأَلَا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ** — (4) .. ومن ذلك أيضا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **مَنْ بَدَأَ بِالْكَلَامِ قَبْلَ السَّلَامِ فَلَا تَجِيبُوهُ** — (5).

وفى نطاق هذا المنهج الاجتماعى المسمى المبارك تحذير من فتنة الشيطان للصغير والكبير والشاب والشيخ والفتيات والسيدات، وتوجيه لكيفية التغلب على هذه الفتنة الشيطانية. فإذا أصابت المسلم صغيرا أو كبيرا (وكذلك المسلمة) - فتنة في أهله أو ماله أو ولده أو جاره فيجب أن يفزع إلى العبادات التطوعية القولية والفعلية، فضلا عن تأديته للعبادات المفروضة. فليعالج فتنته بصلاة التطوع؛ ففيها تقرب إلى الله عز وجل. وليعالجها بصيام التطوع؛ ففيه تقرب إلى خالقه سبحانه وتعالى. وليلجأ أيضا إلى صدقة التطوع فإن المؤمن يستظل بهذه الصدقة يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله تبارك وتعالى، فليعطها للفقراء والمساكين والمحتاجين وإذا لم يستطع فعل شئ من ذلك - فليعتمد إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ففى كل ما

(1) رواه البخارى ومسلم ص8 من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

(2) رواه أبو نصر السنجرى عن عمر ص10 من المرجع السابق.

(3) رواه ابن المبارك عن خالد بن أبى عمران ص80 من نفس المصدر.

(4) رواه أحمد ص38 من نفس المصدر.

(5) رواه أبو نعيم ص142 من نفس المصدر.

مر ما يصرف عن المؤمن والمؤمنة الصغير منهم والكبير، والشباب والشابة - تلك الفتنة التي أَلَمْتُ به. وفي ذلك يقول نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم: **فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** — (1). ففي هذا الحديث الشريف برنامج عمل للأسرة - فيما بينها ولها مع غيرها من الجيران والأصدقاء - فيه نفع للجميع..

ويدخل في هذا الإطار الاجتماعي الذي ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للفتية والشباب والشابات توجيهه صلى الله عليه وسلم لهم إلى عدم العبث بمشاعر كبار السن أو بهم أو معهم، وعدم السخرية والاستهزاء بهم، وعدم الامتناع عن قضاء حوائجهم. فينبه نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى أداء حقوق كبار السن، خاصة أن تصرفات بعض الشباب الطائشة مع هؤلاء الكبار تنتظرهم عندما يكبرون، ويصيرون مثلهم محتاجين إلى المساعدة، والمعاملة الحسنة، فيعبث بهم غيرهم من الشباب. وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **ما أكرم شاب شيخا لسنه، إلا قبيض الله له من يكرمه عند سنه** — (2).. ويحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشباب وغيرهم من السخرية بكبار السن واستعمالهم في قضاء حوائجهم، وعدم التأدب معهم لأن كل ذلك يعد من علامات الساعة. فيقول صلى الله عليه وسلم: **من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد ولا يصلي فيه ركعتين، وألا يسلم الرجل إلا على من يعرف، وأن يُردَّ الصبيُّ الشيخَ** — (3)..

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن حذيفة ص102 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه الترمذي عن أنس ص128 من المرجع السابق - قيض: هيا.

(3) رواه الطبراني عن ابن مسعود ص136 من المرجع السابق - يبرده: يستعمله في

ومن الأبعاد الهامة في المنهج الاجتماعي المحمدي للنهوض بالفتية والشباب والفتيات - الإحسان إلى اليتيم واليتيمة؛ حتى يعيشا سعيدين في المجتمع الإسلامي المتكافل. وفي ذلك يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: **من أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وهو كهاتين في الجنة** — وق—————رن ب————ين أصبعيه صلى الله عليه وسلم (1).. وقد نهت السنة النبوية المباركة الآباء والأقارب والرجال الكافلين والنساء الكافلات لليتامى - إلى أن أكل مال اليتيم يعتبر من السبع الموبقات التي تقود الآكل إلى نار جهنم، إذا لم يتب قبل موته ويرد المظالم إلى أهلها. فقال صلى الله عليه وسلم: **اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** — (2). وقد أشرنا سابقا إلى منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة في رعاية اليتيم...

وإذا انتقلنا إلى المجال الاقتصادي: في رحاب السنة النبوية المباركة، وجدناها توجه الشباب إلى الأسلوب الاقتصادي الأنفع والأفضل الذي يزيد من دخله زيادة شرعية. كما تحذر الشباب وغيرهم من الطرق الشيطانية الشريرة المغرية التي تقوت عليهم الاستقرار والسعادة المنشودة في الحياتين، الدنيا والآخرة. وقد وردت في كتب السنة كثير من الآثار التي تناولت جوانب متعددة من المجال الاقتصادي الذي يمكن أن يتجه إليها الشباب باعتبارهم القوة العاملة الأساسية في المجتمع الإسلامي، والقادرة على العمل في

قضاء حوائجه.

(1) رواه الحكيم عن أنس ص138 من المرجع السابق.

(2) رواه الشيخان 6 من المرجع السابق.

جميع مجالات الحياة الاقتصادية..

وقد حثت السنة النبوية المطهرة جميع الشباب على السعى في طلب الرزق وعدم الاتكال على الآباء أو غيرهم في هذا المجال. ومما ورد في ذلك الحديث النبوي الشريف الذي أشرنا إليه سابقا ولا مانع من تكراره. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكَلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ، وَإِنْ نَبَى اللَّهُ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِهِ** — (1).

وسياتى - إن شاء الله - أن الله عز وجل ألان الحديد لداود عليه السلام، فكان يعمل الدروع ويبيعها ويأكل من ثمرها ويتصدق. وكان ابنه سليمان عليه السلام يعمل، ولم يتكل على مال أبيه داود عليه السلام. فقد امتثل لأمر ربه سبحانه حيث قال له ولأهله: **{أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ}** [سبأ: ١٣]. وقد أسال الله - القادر على كل شئ - له عين القطر أى النحاس المذاب، وسخر له فريقا من الجن يعملون ما يشاء من الأوانى وغيرها، وفريقا آخر يغوصون في البحر فيخرجون له من اللآلى ما يدخل في العديد من الصناعات.. وكان محمد صلى الله عليه وسلم يعمل في التجارة، ولم يعتمد على مال جده أو عمه.. وهكذا يضرب أنبياء الله ورسله، المثل الأعلى للشباب وغيرهم في العمل والكد في طلب الرزق رغم مكانتهم عند الله سبحانه وتعالى. فالمسلمون أولى بهذا الاهتمام بالبحث عن الرزق الحلال الطيب بالعمل الجاد المثمر، وخصوصا الشباب منهم.. ونقف وقفات قصيرة عند كل نشاط من النشاطات الاقتصادية التي تعد ميدانا حيويا للشباب وغيرهم للسعى في طلب الرزق الحلال...

(1) رواه البخارى عن المقدم ص128 من المرجع السابق.

ففي مجال الزراعة: أوصت السنة النبوية الكريمة، كما أوصى القرآن الكريم - الشباب وغيرهم أن يقلبوا جنبات الأرض ويسعوا إلى تعميرها وتنميتها بزراعتها والانتفاع بها. وبما ينتج فيها من خيرات متنوعة، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: **ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيم إلا كان له به صدقة** — (1) ومنه أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: **ما من أحمى أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق** — قال مالك رحمه الله والعرق الظالم كل ما احتكر أو أخذ أو غرس بغير حق (2) ..

ومن هذا القبيل أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: **ما من عمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها** — (3) كما أوصت السنة النبوية المباركة الشباب وغيرهم بالاجتهاد في جمع الأرزاق والبحث عنها في مناكب الأرض ووضحت لهم أن الرضا بالرزق القليل الناتج عن كد وعمل، خير من تعريض المسلم نفسه لمذلة سؤال الناس. ولذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **"لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيأتي بحزمة حطب فيبيعها فيكف الله بها وجهه - خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"** (4) ..

وفي مجال التجارة وتصريفها في أنحاء الأرض، ضرب رسول الله المثل الأعلى في ذلك. فقد تاجر في أموال السيدة خديجة رضى الله عنها قبل أن يتزوجها وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم. وكان من

(1) رواه الشيخان عن أنس ص134 من مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي.

(2) يحيى عن مالك عن هشام عن عروة عن أبيه ص28، ص29 من الجزء الرابع من شرح الزرقاني عن موطأ مالك حاشية الصاوي.

(3) رواه البخاري ص138 من مختار الأحاديث النبوية.

(4) رواه البخاري ومسلم ص118 من المرجع السابق.

أسباب إصرار أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها على الارتباط به صلى الله عليه وسلم، واتخاذها زوجا لها - أمانته التي اشتهر بها في التجارة وفي المعاملات بين الناس. وقد كان صلى الله عليه وسلم معروفا بين الناس بالأمين. وكان صلى الله عليه وسلم ينتقل بعروض التجارة بين قبائل العرب، ويذهب إلى الشام وغيرها من بلاد العالم لتصريف التجارة بالطرق المشروعة..

وكان صلى الله عليه وسلم لا يلجأ إلى الطرق الملتوية غير النظيفة في ذلك، كالغش والربا ونحو ذلك من الأساليب غير الشرعية في تصريف عروض التجارة. وكان صلى الله عليه وسلم يحذر المسلمين عامة والشباب منهم خاصة من هذه الطرق غير النظيفة. فقد حذر صلى الله عليه وسلم من التعامل بالربا وقال صلى الله عليه وسلم في هذا المجال: ^١الذهب بالذهب والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يدا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، والآخذ والمعطى سواء— ⁽¹⁾..

واعتبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أكل الربا من السبع الموبقات. وقد سبق ذكر الحديث الدال على ذلك. كما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حذر من احتكار السلع، وحرمان المسلمين من ذوى الدخل المحدود منها بذلك، وخصوصاً الأطعمة والسلع الضرورية لحياة المسلمين وأمنهم الدنيوى. ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ^٢من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس— ⁽²⁾.. والاحتكار: أن يجمع التاجر السلعة من الأسواق ويخبئها لتقل في السوق ثم يرفع سعرها فيشتريها الغنى ولا يستطيع

(1) رواه مسلم ص79 من نفس المرجع السابق مختار الأحاديث النبوية.

(2) رواه أحمد في مسنده ص138 من المرجع السابق.

الفقير أو ذو الدخل المحدود شراءها. كما يفعل الآن تجار الأسمت والحديد واللحوم وغيرها من السلع الضرورية لحياة البشر.. وقد يلجأ الفقير إلى طرق تضر به وبأسرته وبمجتمعه لكي يحصل عليها..

وقد أثبت التاريخ الإسلامى صدق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر. فقد " نقل ابن حجر الهيثمى من رواية الأصبهاني: أن طعاما ألقى على باب المسجد، فخرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو أمير المؤمنين، فقال له بعض الذين معه: يا أمير المؤمنين قد احتكر. فقال: من احتكره؟ فقالوا: فروخ وقلان مولى عمر بن الخطاب، فأرسل إليهما فأتياه. فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ فقالا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع. فقال عمر رضى الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس** - فقال عند ذلك فروخ - وهو مولى عثمان بن عفان -: يا أمير المؤمنين، فإنى أعاهد الله وأعاهدك على ألا أعود إلى احتكار طعام أبدا. فتحول إلى أرض مصر. وأما مولى عمر فقال: نشترى بأموالنا ونبيع. قال أبو يحيى أحد رواة الحديث: إنه رأى مولى عمر مجذوما مشدوخا " (1)

وقد ذكر كثير من الفقهاء أن الإصرار على احتكار السلع إضرار زائد بالعباد، يجيز لولى الأمر أو من ينوب عنه من القضاة ومن في حكمهم أن يعزر المحتكر المصر على موقفه، بعد أن

(1) ص 95 من كتاب التعامل التجارى في ميزان الشريعة - الطبعة الأولى: 1980 - للدكتور يوسف قاسم. - فروخ: مولى عثمان بن عفان. مشدوخا: متسعا بياض جبهته من شدة جذامه أو مشقوق الوجه.

يوجهه إلى البيع ورفع الظلم؛ فيؤمر المحتكر ببيع ما يفيض عن قوته وقوت أهله. فإن لم يمتثل عُزِّرَ⁽¹⁾.. وقد فعل ذلك عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه. فقد عزر محتكرا عاد عليه التعزير بضرر كبير.. فقد روى عبد الرازق عن المعتمد التميمي عن ليث بن أبي سليم قال: أخبرني أبو الحكم أن عليا ابن أبي طالب أحرق طعاما احتكر بمائة ألف.. وهو تعزير موجه للتاجر المحتكر.. ويستفاد مما قاله الفقهاء أن لولى الأمر أن يُكره المحتكر على بيع ما عنده بقيمة المثل. وإلا عُزِّرَ⁽²⁾..

ومن الجدير بالذكر أن التشدد من ولى الأمر في هذا الشأن مباح بل مطلوب وواجب؛ لأن الاحتكار خطيئة كبرى في حق الفرد المسلم غير القادر على الشراء بثمن مضاعف، وفي حق المجتمع الإسلامى كله. ومما ورد في كتب السنة عن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **من احتكر فهو خاطئ** —⁽³⁾. وقد ورد بلفظ: **لا يحتكر إلا خاطئ** —⁽⁴⁾..

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **من احتكر حكرة يريد بها أن يغلى على المسلمين فهو خاطئ**، وقد برئت منه ذمة الله ورسوله —⁽⁵⁾. ومن ذلك قول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: **الجالب مرزوق والمحتكر ملعون** —⁽⁶⁾. ومما ورد أيضا في شأن احتكار طعام

(1) ص83 من نفس المصدر السابق.. والتعزير: عقاب يفرضه الحاكم أو من يحل محله على المحتكر حسب الأحوال والقرائن.

(2) نفس الصفحة من نفس المصدر. وقد ذكر ذلك ابن القيم

(3) رواه مسلم وأبو داود عن سعيد بن المسيب عن معمر بن عبد الله العدوى.

(4) في لفظ لمسلم وأبي داود والترمذى وابن ماجه ص77 من نفس المصدر.

(5) رواه أحمد بسند عن أبي هريرة ص77، ص78 من المصدر السابق.

(6) رواه ابن ماجه والحاكم والدارمى وغيرهم بسند عن ابن عمر ص78 من كتاب التعامل التجارى في ميزان الشريعة - للدكتور يوسف قاسم.

المسلمين قول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿من احتكر الطعام أربعين ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه﴾** (1).. والإسلام يطلب من التاجر المسلم شابا كان أم كبيرا، أن يكون صادقا في أقواله وأفعاله الخاصة بالتجارة. ويبين لهم فوائد الصدق في التعامل مع البشر. وفي السنة النبوية الكريمة أدلة على ذلك، منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿إن التجار يعثون يوم القيامة فجارا، إلا من اتقى الله، وبر وصدق﴾** (2). ومنها أيضا قول النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم: **﴿التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾** (3)..

ويبين رسول الله صلى الله عليه وسلم للتجار أن التاجر الذي يصف بضاعته باليمين الكاذبة ليروجها، لا يجد في ذلك ربحا ولا بركة. فيقول صلى الله عليه وسلم: **﴿الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب﴾** وفي رواية: **﴿ممحقة للبركة والربح﴾** (4)...

وهكذا يتضح لنا أن شريعة الإسلام تريد من التاجر الشاب أو الكبير أن يتعامل مع الناس بصدق بعيدا عن الكذب والغش والخداع، وبعيدا عن الاحتكار المدمر للسلعة والكسب والمدمر للتاجر ذاته والضار بالأسرة والمجتمع الإسلامى...

وفى مجال الصناعة: توجه السنة النبوية الكريمة الشباب وغيرهم إلى أهمية السير في هذا الاتجاه. وقد كان لبعض أنبياء الله تعالى دور في رواج بعض الصناعات. فقد علم الله عز وجل داود

(1) رواه أحمد وأحمد والحاكم وابن أبي شيبة والبخاري وأبو يعلى 79 من المصدر السابق.

(2) رواه الترمذى ص 44 من مختار الأحاديث النبوية.

(3) رواه الترمذى ص 62 من المرجع السابق.

(4) رواه البخارى ومسلم ص 69 من المرجع السابق.

عليه السلام - وكان شابا - صناعة الدروع التي كانت تحصنه وتحصن الجنود والناس في زمانه من خطر الإصابة في الحروب. وفي تفسير قوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} [الأنبياء: ٨٠].

- يقول قتادة رضى الله عنه: " أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سردها وحلقها " (1).. ومن المعروف أن الله تبارك وتعالى أكرم نبيه داود عليه السلام بأن ألان له الحديد فكان يعمل منه الدروع السابغات أى التي تشمل وتغطي الجسم كله. وكان يقدر نسجها حتى تتلاءم حلقاتها بتوجيه من ربه جل وعلا. ويظهر ذلك ويتضح من تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنْ أَنْبَاطِ الْفُلْكِ حُلُقًا مِنْ حديدٍ وَأَلَمَّا أَتَاهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَطَاقِبَ عَلَى مِصْرٍ قَالَ أَسْبَغْتُ فِي السَّيْرِ وَأَعْمَلُوا صَلَاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [سبا: ١٠ - ١١]. قال المفسرون: " كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء. ويصنع الدرع في بعض يوم يساوى ألف درهم فيأكل ويتصدق " (2). وفي إحكام نسجها يقول الصاوى: {وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ} [سبا: ١١] أى اجعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تُثْقَلَ حاملها، واجعل الكل بنسبة واحدة " (3)..

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الله تعالى وجه داود إلى العمل الصالح وعدم الاتكال على مال أبيه أو اتكال أبنائه على ماله؛ ليضرب ذلك النبي الكريم مثلا أعلى للشباب - وقد كان شابا كما أشرنا - في العمل الصالح المستمر وبذل الجهد في سبيل العيش الكريم، وعدم الاتكال

(1) ص 19 من القسم التاسع من كتاب صفوة التفاسير - الطبعة الأولى - للشيخ المرحوم محمد على الصابوني.

(2) القرطبي 226/14. ص 7 من القسم التاسع من المرجع السابق.

(3) حاشية الصاوى على الجلالين 294/3.

على مال أبيه، والتقاعس عن العمل الشريف الذي يدر عائدا شرعيا. وفى ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ {الآية [سبأ: ١٣]}..

وفى إشارة قرآنية كريمة إلى بعض مآثر سليمان بن داود عليهما السلام، وعدم اتكاله على مال أبيه وثرائه، يقول عز وجل: ﴿وَلَسَلِمْنَ مِنَ الرِّيحِ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوْاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَاهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٣) يَعْمَلُونَ لَهُ، مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) {سبأ: ١٢ - ١٣}.. قال المفسرون: " أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد - آية معجزة ظاهرة. وسخر له الجن تعمل بأمره وإرادته ما يشاء مما يعجز عنه البشر ". وكان هؤلاء الجن يعملون لسليمان عليه السلام ما يريد من القصور الشاهقة والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج، قال الحسن: " ولم تكن يومئذ محرمة.

وقد حرمت في شريعتنا سدا للذريعة لنلا تعبد من دون الله، وقصاع ضخمة تشبه الأحواض، وقدور كبيرة ثابتات لا تتحرك؛ لكبرها وضخامتها. وقال ابن كثير: والقدر الراسيات أى الثابتات فى أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها(1)..

وكان الجن يغوصون فى الماء ويدخلون فى أعماق البحار ليستخرجوا لسليمان عليه السلام الجواهر والآلى التى تستخدم فى صناعات عديدة.. ولعل البعض يتساءل عن تسخير الجن لسليمان

(1) مختصر تفسير ابن كثير - للشيخ محمد على الصابونى، وتفسير الآيتين السابقتين 12، 13 من سورة سبأ موجود فى ص8 من القسم 13 من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفاسير - للشيخ المرحوم محمد على الابونى.

عليه السلام ويقولون كان الأولى بسليمان أن يفعل كل ذلك بنفسه. ونقول لهم: إن سليمان عليه السلام تعرض لفتنة من الله عز وجل فنجح في الاختبار، وكان عبدا قانتا لله عز وجل فتوجه إليه سبحانه وطلب العون منه حتى لا يتكل على مال أبيه، وطلب منه سبحانه المغفرة، وقال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [ص: ٣٥]. فاستجاب الله سبحانه وتعالى له، وجعل الجن تَأْمُرُ بأمره فكان يأمرهم بفعل ما يشاء مكرمة وهبة من الله الجليل، اختصها به عليه السلام. وكذلك سخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث تَوَجَّه تختصر له الوقت والجهد...

وكان هذا الجهد الكبير من بعض أنبياء الله تعالى في مجال الصناعة ليقبض بهم قومهم، ومن يأتي بعدهم من الأمم وخصوصا أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي خاطب ربُّها أبناءها قائلا لهم: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥]. وفي زماننا هذا يسخرُ بعض الجهلة، الذين لا يعرفون هذه الحقيقة، من كل شاب أو رجل مفكر وطني يطرح فكرة استغلال البحار والأنهار لزيادة الدخل الوطني في البلاد الفقيرة التي منحها الله عز وجل نعمة البحار والأنهار.. فهؤلاء الجهلة يتكاسلون عن جلب الأرزاق ونفع بلادهم الفقيرة من ثروات الأنهار والبحار، ويحثون غيرهم على التكاسل، وعدم استغلال هذه الثروة الهامة المتواجدة في تلك البحار والأنهار؛ لزيادة الدخل القومي، بل يحثون غيرهم على التقصير في خدمة وطنهم الفقير.

وإذا كان شباب الكفار يعملون ويجتهدون ويبنون المباني الفخمة؛ كالقصور الحصينة وهم لا يحتاجون إليها لسكن ونحوه، كما فعلت ثمود، قوم صالح، الذين وبخهم نبيهم لأنهم كانوا يعملون فقط من

أجل الدنيا، ويتركون الآخرة، فلا يعملون لها - فأولى بشباب المسلمين وفتيانهم وفتياتهم، أن يعملوا للدنيا والآخرة معاً، وأن يواجهوا الصعاب والتحديات، في سبيل من يأتي بعدهم من ذريتهم الضعيفة، حتى يقوى هؤلاء وأولئك. فقد كان قوم صالح عليه السلام ينحتون صخور الجبل ويبنون فيه البيوت العالية دون حاجة إليها، إلا أن يتعالوا بها على الناس.

وقد قال فيهم ربهم عز وجل: {وَتَحِثُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتَا فَرِهِينَ} [الشعراء: ١٤٩] (1).. وسار على نهجهم مِنْ قَبْلِهِمْ - قوم عاد فكانوا يبنون الأبنية الشاهقة في الأماكن المرتفعة من الطريق لمجرد اللهو والعبث. تاركين العمل من أجل الآخرة. فوبخهم نبيهم هود عليه السلام. وقال لهم الله تعالى على لسان نبيه: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} (١٢٩) [الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩] (2)...

وشبابنا اليوم أولى بهذا التحذير من هؤلاء وأولئك. وفي هذا المجال يحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم شباب وشيوخ المسلمين من العمل للدنيا ونسيان الآخرة، فالدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء، فيقول
 الهـ _____ ادى البشر

صلى الله عليه وسلم: **كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعودوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكير والبكاء، ولا تختلف بكم الأهواء؛ تبون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤمّلون ما لا تدركون** — (3) ..

فالأولى بشباب المسلمين وفتياتهم، أن يضعوا كل هذه

(1) البيوت الفارحة: الشاهقة في العلو

(2) مصانع: بيوتا شاهقة مجهزة مزخرفة

(3) رواه أبو نعيم عن الحكم بن عمير ص 113 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي.

الحقائق أمامهم، وأن يعلموا أنه ليس عيباً أن يعمل الإنسان لدنياه، إنما العيب أن يترك العمل من أجل آخرته. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً** — (1) ..

وهذا الحديث النبوي الشريف تصديق لقول الله تبارك وتعالى: **{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}** [القصص: ٧٧]... فرسول الله صلى الله عليه وسلم يوجه المسلمين - والشباب منهم - إلى العمل من أجل الدنيا حتى ينشأوا أقوياء أغنياء لا يعتمدون على معونة من غيرهم، حتى لو كان هذا الغير آباءهم. وذلك في الوقت الذي يعملون فيه أيضاً من أجل الآخرة، حتى يلقوا ربهم سبحانه وهو راض عنهم.. وهذا عكس ما يفعله الكفار والمنافقون الذين يعملون فقط من أجل الدنيا، تاركين العمل من أجل الآخرة. فيقول الله أصدق القائلين سبحانه فيهم: **{مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ}** (١٥) **{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْتَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** (١٦) [هود: ١٥ - ١٦] ..

وتوجه السنة النبوية الكريمة مَنْ يبحث عن السعادة سواء أكان شاباً أم شيخاً أم فتاة أم أما - إلى أن يلتمسها في أربع: أولها: زوج أو زوجة صالحة تعينه على نوائب الدهر ومصائبه. وثانيها: أولاد وبنات أبرار يبرون آباءهم وأمهاتهم، في حياتهم وبعد موتهم. وثالثها: أصدقاء وخطاء صالحون، وفيهم يقول النبي صلى الله عليه

(1) رواه ابن عساکر 25 من المرجع السابق.

وسلم: " لا تصحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي " (1)،
ورابعها: أن يكون رزقه في بلده، وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه
وسلم: " أربع من سعادة المرء: أن تكون زوجته صالحة، وأولاده
أبرارا، وخطاؤه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده " (2) ..

وفى لفتة نبوية كريمة، يحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم
الشباب وغيرهم من الرشوة باعتبارها طريقا مختصرا لتحقيق
الأهداف، ولو على حساب جهد الآخرين المستحقين لتحقيق هذه
الأهداف والأولى بها. فهؤلاء الآخرون ضعفاء لا يقدرّون على
المحافظة على حقوقهم، وعلى أكتافهم يصل هؤلاء المغتصبون
لحقوقهم، في وسط مجتمع ضعيف متخاذل يأخذ بأسباب الجاهلية، لا
يصل إلى هدفه فيه إلا قليل من متسلقى أكتاف الضعفاء العاملين بجد
وأمانة. فهو مجتمع لا يعترف بحقوق الضعفاء ..

فطموح الشباب والفتية والفتيات نحو مستقبل أفضل يتميز
بوضع مالى مشرف - يجب أن يكون مصحوبا بجهد مخلص
شرعى؛ لتحقيق هذا الطموح ..

ومن أجل ذلك يحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشباب
وغيرهم من التكاثر عن تحقيق الأهداف النافعة الشرعية، ومن
اختيار طريق الرشوة لاختصار جهدهم، على حساب الضعفاء
المخلصين في عملهم والعاملين لتحقيق طموحاتهم الإسلامية في
الحياة. ولهذا يقول لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ^١لعن الله الراشى

(1) رواه أبو داود في سننه ص158 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم
السيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه الديلمي عن عليّ ص18 من المصدر السابق.

والمرتشى والرائش الذي يمشى بينهما — (1) فالرائشى هو ذلك الدَّعَى الذي يدعى أحقية شيء لا يمكنه الوصول إليه لأنه ليس من أهله. والمرتشى هو الذي يساعد ذلك الدعى على حساب الآخر الضعيف الذي لا يستطيع الدفاع عن حقه أمام ذلك الدعى الجبان. وأما الرائش فهو الوساطة بين الرائشى والمرتشى، يسير بينهما لتحقيق منفعة لا قيمة لها؛ بتضييع حق لضعيف وإحاقه بدعى لا يستحقه...

ولهذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الطريقة الوضيعة لتحقيق الأهداف؛ لأنها طريقة غير مشروعة، فيها تثبيط لمن يعملون بصدق وأمانة، وتشجيع لأدعياء يحبون الوصول على أكتاف غيرهم من العاملين الشرفاء...

وهكذا يفتح الإسلام طريق القوة والسعادة أمام المسلمين جميعا، والشباب منهم على وجه الخصوص، ليمارسوا دورهم في الحياة لإسعاد أنفسهم وإسعاد غيرهم، وليكوّنوا أساسا صالحا للأجيال المسلمة القادمة من بعدهم، على هَدْيٍ من كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم...

* * *

(1) رواه أحمد عن ثوبان ص119 من المصدر السابق.

الباب السادس: مرحلة الرجولة والأنوثة

الباب السادس

مرحلة الرجولة والأنوثة

الباب السادس:

مرحلة الرجولة والأنوثة

وبعد مرحلة الصبا والشباب تأتي مرحلة الرجولة والأنوثة. وهى تعنى اكتمال الرجولة والأنوثة عند الشباب والفتيات؛ بحيث يتحمل كلاهما مسئولية المشاركة الفعالة في نمو الأسر التي ينتمون إليها، وتنتمى إليهم. وعليهم في هذه الحالة أن يسهموا مساهمة جدية في رقيها، وأن يقودوها إلى نمو حقيقى على أسس معدة ومدروسة، وأن يحافظوا على دعائمها الشرعية الأساسية، التي قامت ونمت وتطورت بها إلى الأفضل في كل مجالات الحياة، الدينى منها والاجتماعى، والاقتصادى والثقافى، والصحى. أى في جميع نواحي الحياة الدنيا التي يعيشون فيها، والحياة الآخرة التي ينتظرونها، ويعملون مع بقية أفراد الأسر من أجلها..

والحديث عن هذه المرحلة من مراحل النمو الأسرى، يوجهنا إلى الأسس العامة التي تحكم هذا التطور والنمو، وتحميه وتقويه، وتدفعه دائما إلى الأمام. وهذه الأسس العامة متواجدة في القرآن الكريم، وفى السنة النبوية المباركة. وقد تحدثنا عنها سابقا بما فيه الكفاية.. ولا بأس أن نُذكر في هذا المقام بأمور هامة يجب اتباعها في هذه المرحلة، من منطلق توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة..

* * *

الفصل الأول:

في القرآن الكريم

ونجد في كتاب الله العزيز، القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إشارات متعددة تدعو إلى كل خصال الخير، وتتفر من كل خصال الشر. ومنها: في المجال الديني: ما يشير إلى وجوب تقوى الله عز وجل، والإيمان به سبحانه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين والمرسلين.

وبعنصرى الإيمان والتقوى تكتمل سعادة الزوجين والأسرة والمجتمع الإسلامى في الدارين، وبهما تكتمل الرجولة والأنوثة. وفيهما يقول ربنا أصدق القائلين سبحانه، مبينا ثمرة الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، التي تكتمل بتقوى المسلم والمسلمة في كل أمور حياتهما الدنيوية والأخروية - يقول عز وجل: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الحديد: ٢٨] (١).

فمن يلتزم من المؤمنين والمؤمنات بالإيمان والتقوى وبما يوجبانه، يحظى بنصيبين من رحمة الله جل جلاله، نصيب في الدنيا وآخر في الآخرة. لكن نصيبه من رحمة الله في الآخرة أكبر بكثير من نصيبه منها في الدنيا؛ حيث يدخر الله تعالى له عنده تسعة وتسعين جزءا من هذه الرحمة، ينفعه بها في الآخرة. وبجزء واحد من من هذه الرحمة الربانية يرحمه الله تعالى في الدنيا من بلايا كثيرة ومشاكل عديدة وأخطار جسيمة.. ويبين لنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم

(١) كفلين: نصيبين.

تفاصيل هذه الرحمة الإلهية المهداة إلى خلائقه سبحانه، فيقول صلى الله عليه وسلم: **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَحَّمُونَ، وَبِهَا تَعْطَفُ الْوُحُوشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ — (1).** وليس هذا فحسب بل للمؤمن الملتزم بالإيمان والتقوى نور يمشى به. وهذا النور في الحقيقة نوران؛ نور يسير به في الدنيا، ونور ينفعه في الآخرة. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: {قَدْ

جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾} [المائدة: ١٥ - ١٦]. وقد ورد في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين: أى " جاءكم من الله نور هو القرآن الكريم، لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك. وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز، يهdy به الله تعالى من اتبع رضاه - طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة. ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه سبحانه وتعالى وإرادته. فينهجون النهج الإسلامى وبيتعدون عن نهج الشرك " (2). وليس هذا فقط، بل ينعم المؤمن الملتزم بالإيمان والتقوى في الدنيا بمغفرة ذنوبه، حيث يحس بتوفيق الله له ورعايته لأمواره الدنيوية، وفى الآخرة بنعيم الجنة وهى دار القرار..

ومن هذه الإشارات أيضا في المجال الدينى: دعوة إلى التمسك بالوصايا العشر التي وردت في سورة الأنعام. أوصى الله تعالى بها عباده المؤمنين المتقين. فمن عمل بها فاز في الدارين. وهى

(1) رواه الشيخان عن أبى هريرة ص164 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى - الهوام: ما كان له سم كالحية وقد تطلق الكلمة على ما لا يقتل من الحشرات.

(2) ص13 من القسم الثالث من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للشيخ المرحوم محمد على الصابونى.

مجموعه
قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَئْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ
اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ
وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا
تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {
[الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] (1).

وقد اتفقت جميع الشرائع السماوية على هذه الوصايا (2) وبها
تكتمل سعادة البشر جميعا، بما فيهم الشباب والشيوخ والنساء
والبنات.. وتتلخص هذه الوصايا في: عبادة الله وحده، وعدم الإشراك
به، بأى طريقة كانت. والإحسان إلى الوالدين، في حياتهما وبعد
ماتهما. وعدم قتل الأولاد خشية الفقر، لأنه مسلك جاهلى. وعدم
ممارسة الفواحش علنا أو في السر، بل وعدم القرب منها، لما لها
من آثار سيئة في حياة البشر. قال ابن عباس: " وقد كانوا في
الجاهلية لا يرون في الزنى بأسا إذا كان في السر، ويستقبحونه إذا
كان في العلن، فحرّمه الله في السر والعلانية " (3). وعدم قتل النفس
التي حرم الله قتلها إلا بالحق، والحق الذي أباحت به الشريعة
الإسلامية قتل النفس - فسرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) الإملاق: الفقر - الفواحش: المنكرات والكبائر - بالقسط: بالعدل.

(2) ص107 من القسم الثالث من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ
محمد على الصابونى.

(3) الطبرى 219/12. وانظر نفس الصفحة من المصدر السابق.

بقوله: ^١ لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة — ⁽¹⁾. فالثيب وهو أول الثلاثة التي أهدرت الشريعة الإسلامية دمهم - هو من سبق له الزواج سواء أكان ذكرا أم أنثى، وذاق الشهوة والعسيلة بطريقة شرعية فبممارسته الزنى يعتبر متراجعا عن الإسلام ومشجعا لإشاعة الفاحشة في الأسر والجماعات والمجتمعات الإسلامية، ويهوى بذلك إلى مرتبة البهائم. وهو بكل هذا يستحق القتل. والثانى من ثبتت عليه جريمة قتل النفس فيقتل بها أو يعفو عنه من بأيديهم العفو من أهلها؛ حتى لا تعم الفوضى في المجتمع الإسلامى. والثالث: من أسلم ودخل بين المسلمين وتعامل معهم، ثم ترك دين الإسلام؛ لغرض أو عَرَض دنيوى، أو لإحداث فتنة بين المسلمين، فيقتل بذلك أيضا..

ومن الوصايا العشر كذلك: عدم الاقتراب من مال اليتيم والتصرف فيه والإنفاق منه إلا بالحسنى، وتقتضى الحسنى عدم ضمه إلى مال الكافل أو الصرف منه بغير وجه حق، كما تقتضى الحسنى تنمية هذا المال إلى أن يستطيع صاحبه اليتيم أن يعتمد على نفسه، ويصرف منه الكفيل ما ينفقه في سبيل تنميته والمحافظة عليه وما ينفقه منه على اليتيم إن كان هذا الكافل فقيرا. وقد سبق الحديث عن ذلك. ومن هذه الوصايا كذلك استيفاء الكيل والميزان وعدم التطفيف فيه، فالويل ينتظر المطففين ويقتضى هذا الاستيفاء عدم ظلم من يكيل أو يزن لنفسه.. ومنها العدل في القول بالشهادة وغيرها ولو كان ذلك القول في حق أحد أقاربه أو معارفه. ومنها الوفاء بعهد الله

(1) ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ص318 من الجزء الأول من كتاب جامع العلوم والحكم - تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

وميثاقه أيّا كان هذا العهد والميثاق الذي قطعه على نفسه. وإذا كان عهد الإنسان للإنسان يجب الوفاء به فعهد الله تبارك وتعالى أولى بالوفاء مادام في حدود الشريعة الإسلامية - وعادة ما يكون كذلك.. ومنها كذلك اتباع طريق الله المستقيم وطريق رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم والذي اتضح في الالتزام بالإيمان والتقوى..

وذلك يدخلنا في إشارة جديدة في المجال الديني مفادها: وجوب الإيمان بالله تعالى ربا واحدا للكون، والاستقامة على طريقه. لما في ذلك من تمتع بالأمن في الدارين ويتضح ذلك من قوله عز وجل: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾** [فصلت: ٣٠ - ٣٥]. فالاعتراف بالله تعالى ربا واحدا للكون والإيمان به سبحانه، والاستقامة على طريقه عز وجل - فيه سعادة حقيقية للبشر جميعا فالشخص الذي بينه وبين أحد هؤلاء المؤمنين بالله المستقيمين على طريقه سبحانه - عداوة أو خلاف، يميل إلى أخلاقه السمحة التي تجذبه إليه فيصبح صديقا حميما له، بعد أن كان عدوا لدودا. ففي هذه الاستقامة سعادة لأصحابها في الدارين لأنهم أولياء الله تبارك وتعالى فيهما..

ومن كتب الله في قلبه الإيمان وأيده بتوفيقه سبحانه تمكن الحب الإلهي من قلبه فلا يكون فيه مكان لحب أعداء الله عز وجل، حتى لو كان من هؤلاء الأعداء من هو أب لهذا المؤمن أو أمُّ له أو ابن أو

خال، أو أحد من عشيرته وهكذا لا يمكن أن يجتمع حب الله وحب أعدائه في قلب واحد. فمن أحب الله تعالى أبغض أعداءه. ومصدق ذلك

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]. قال المفسرون: " غرض الآية نهى المؤمنين عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين. لكنها جاءت بصورة إخبار للمبالغة في النهي والتحذير " (1).

وقال الإمام الفخر الرازي: " المعنى أنه لا يجتمع الإيمان مع حب أعداء الله، وذلك لأن من أحب أحدا امتنع أن يحب عدوه، لأنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان " (2) وعكس ذلك صحيح أيضا.. وقد ذكر ابن كثير من نزلت فيهم الآية فقال: " نزل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ " (3). فقد آمن أبو عبيدة والصديق ومصعب بن عمير وحمزة وعلى وعبيدة بن الحارث - بالله واليوم الآخر وفضلوا عليه الكفرة من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم

(1) ص16 من القسم الثامن عشر من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.

(2) الفخر الرازي: التفسير الكبير 276/29.

(3) ص318 من الجزء الرابع من تفسير القرآن الكريم - لابن كثير.

فإذا انتقلنا إلى المجال الاجتماعي وجدنا أنه يدخل فيه النهي عن

(1) التفسير الكبير 29/277.

(2) رواه الشيخان عن أبي سعيد ص35 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم: السيد أحمد الهاشمي.

المرحوم: السيد أحمد الهاشمي.
(3) بظلم: أى بشرك.

المحرمات والفواحش التي نهى الله عنها في قوله جل ثناؤه: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾} [الأعراف: ٣٣].. وإذا فصلنا بعض التفصيل، نقول إن هناك محرمات من الطعام والشراب. فمحرمات الطعام يقول عنها ربنا سبحانه: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَتُهُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ

إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقَسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَيْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾} [المائدة: ٣٤].. فمن محرمات الطعام: الميت من الحيوانات والطيور دون أن يذبح ذبحاً شرعياً. والدم والمقصود به هنا الدم المسفوح وهو دم الأمعاء، وكان أهل الجاهلية يشوونه ويقولون لم يحرم من فُصِدَ له⁽¹⁾، وكذلك حرم لحم الخنزير سواء ذبح أو لم يذبح وها هم المخالفون لأمر الله والذين يأكلون لحم الخنزير يكتوون الآن بوباء انفلونزا الخنازير، الذي حصد كثيراً من أرواحهم وما زال سارياً حتى الآن، لعلهم يعتبرون وينتهون عن مخالفة أمر الله تعالى وكذلك ما ذبح تقرباً لغير الله تعالى، والمخنوقة بحبل أو شبهه، والمضروبة بعصا أو حجر، والتي تسقط من جبل ونحوه، والتي تنطحها بهيمة أخرى فتموت بالنطح، وما أكل السبع بعضه فمات، إلا ما أدركتم فيه الروح فذبحتموه قبل الموت ذبحاً شرعياً، وما ذبح على الأحجار المنصوبة التي كان يعبدونها أهل الجاهلية. ويذبحون لها، وكذلك حرم الله تعالى أكل كل

(1) الكشف 468/1 - الفصد: شق عرق المريض ووضع الدواء فيه.

ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير.

وقد ورد هذا النهى في حديث أبى ثعلبة رضى الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع وعن أكل لحوم الحمر الأهلية " (1). وفى حديث ابن عباس قال: " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذى ناب من السباع وعن كل ذى مخلب من الطير " (2).. كما ورد في الآية الكريمة (آية المائدة) النهى عن الاستقسام بالأزلام؛ وهو طلب معرفة ما قسم للإنسان من الخير أو الشر بضرب القداح بسهم أو نحوه.. لكن رحمة الله العلى القدير تجلت في مسامحة من ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من تلك المحرمات في مجاعة إذا كان غير محب للإثم ولا متمدّ له. فمثل هذه الضرورات تبيح المحظورات..

وهناك محرمات من الشراب كشرب الخمر وكل ما أسكر، والقليل منه كالكثير. إذ القاعدة الشرعية أن كل ما أسكر كثيره فقليله حرام. وكذلك شرب الدخان والسجائر والشيشة بكل أنواعها لأنها من الخبائث التي نهى الله تبارك وتعالى عنها..

وكان شرب الخمر مشاعا على نطاق واسع في الجاهلية فلما جاء الإسلام حرمها على مراحل حتى يطيق الناس تحريمها.. وفى المرحلة الأولى من تحريم الخمر يقول المولى عز وجل: {يَتَأْتِيهَا الذِّينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣]

(1) أخرجه البخارى في 72 - كتاب الذبائح والصيد - 29 باب أكل كل ذى ناب من السباع ص267 من الجزء الثانى من كتاب اللؤلؤ والمرجان - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ص268 باب أكل لحوم الحمر الإنسية.

(2) عن عبد الله بن معاذ العنبري عن أبيه عن شعبة بن الحكم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس ص982، ص983 من صحيح مسلم - الطبعة المميزة والمركمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

الآية. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة ما رواه الترمذى عن على كرم الله وجهه قال: " صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر. فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما تعبدون.. فأنزل الله: {يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣] الآية وقد كان هذا قبل تحريم الخمر " (1) ..

وفي المرحلة الثانية من تحريم الخمر نبه عز وجل شاربيها إلى أن فيها منافع ومضار لكن مضارها أكثر من منافعها. فقال أصدق القائلين سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩] الآية. وفي ذلك توجيه كريم إلى الاستغناء عنها؛ لأن منافعها قليلة يمكن إدراكها بوسائل أخرى.. ثم جاء تحريمها قاطعا في المرحلة الثالثة، حيث قال سبحانه: {يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ} (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ} (٩١)

[المائدة: ٩٠ - ٩١]. فربنا

عز وجل يبين لعباده المؤمنين العديد من مفسدات شرب الخمر وأخطارها وأضرارها، ويطلب منهم الانتهاء عن شربها. فالاستفهام في نهاية الآية مقصود به الأمر، " وهذا الاستفهام من أبلغ ما ينهى به " (2). ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما سمع

(1) ص 98 من القسم الثانى من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى.

(2) البحر المحيط 4 و 15 لابن مكتوم القيسى. اقرأ ص 43 من القسم الثالث من الطبعة الأولى من صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى.

الآيتين الكريمتين: " انتهينا ربنا انتهينا " (1).

ونقف هنا وقفة لنبين صورة واقعية لمن يشرب الخمر من الرجال والنساء والشباب. ففي تصوير لبعض جوانب مضارها، ورد في تفسير سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩] الآية - ما رواه النسائي عن عثمان رضى الله عنه أنه قال: " اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، وإنه كان رجل ممن قبلكم متعبداً فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريته فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جارتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام وباطية خمر. فقالت: إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع علىّ أو تشرب من هذا الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام. قال: فاسقيني من هذه الخمر كأساً. فسقته كأساً فقال: زيدوني فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه " (2).

وهذا عن إثمها الكبير. أما ما يقال عن منافعها فهي منافع دنيوية زائلة. فمن المعروف أن الناس في الجاهلية كانوا يتاجرون في الخمر فيربحون منها ربها فاحشا لشيوعها وانتشارها بينهم. ومن ناحية أخرى قد يدعى البعض أنها قد تفيد في الجماع. لكنه ادعاء باطل لم تثبت صحته. وهو على الغالب وهم (3). وقد يراد بالنفع تلك اللذة المزعومة والنشوة المدعاة. وهذه اللذة إن حدثت تكون عادة مصحوبة بسخرية وضحك العقلاء لما

(1) نفس الصفحة من المرجع السابق

(2) ص129 من القسم الأول من الطبعة الأولى من المرجع السابق

(3) ص130 من القسم الأول من الطبعة الأولى من المرجع السابق.

يرونه من ضياع لهيبة وشخصية شاربها وهَوَانِه على الناس.. قال القرطبي:

" وشارب الخمر يصير ضحكة للعقلاء فيلعب ببوله وعذرتة (برازة)، وربما يمسح بها وجهه. حتى رُؤى بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول: اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين. ورُؤى بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول: أكرمك الله كما أكرمتنى " (1).

ويتضح من هاتين الواقعتين ذهابُ عقل شارب الخمر وعدم إدراكه لما يقوله أو يفعله، وذهاب شخصيته وكرامته بذهاب عقله.. وواقعة أخرى عاينتها بنفسى. فقد تبين لى في فترة من فترات الدراسة التي عشتها في القاهرة أنه يسكن فوقى رجل سكير، فتركت هذا المسكن بعد علمى بذلك وسماعى لهذا الحادث المؤسف. ففى ليلة من ليالى سكره، سمعت فوقى جرى أقدام. وسمعت امرأة وابنتها تصيحان وتجريان، وسمعت صوت الابنة تصيح قائلة " أنا بنتك يا بابا " فتيقنت بعد أن وصلتتى أخبار الحدث أن هذا السكران كان يجرى وراء ابنته يظن أنها زوجته. وليست هذه نشوة كما يقولون بل ذهاب للعقل من أثر شرب الخمر، تذهب معه نخوة الرجولة ونخوة المسؤولية. وبعد ذلك يكون ذهاب المال وتصريفه في شيء ممنوع وضار، وذهاب الصحة نتيجة لشرب هذه الخمر التي تجلب لصاحبها المرض. فأى شيء يبقى بعد ذلك؟.. وقد ورد في نفس الآية الكريمة إشارة إلى لعب الميسر وهو القمار. وهو لعب يخرب البيوت ويدمر الأسرة، ويحدث العداوة والبغضاء بين اللاعبين وأسرهم. والقمار

(1) القرطبي 3 و157 وانظر ص 129 و130 من القسم الأول من الطبعة الأولى من صفوة التفسير.

مقـــــامرة بالمـــــال ومغـــــامرة بـــــه
 في شئ يستحيل ضمانه. فعقل لاعب الميسر ذاهب مثل عقل
 شارب الخمر.. وتقاس على الخمر كل المسكرات الأخرى بكافة
 أنواعها وأسمائها ويقاس على لعب الميسر كل الخبائث الأخرى
 كالسجائر والدخان والشيشة، بكافة أنواعها، فهي محرمة أيضا لأنها
 مـــــن
 الخبائث المنهى عن تناولها، والتي حرّمها ربنا العظيم في قوله
 تعـــــلى:

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
 التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
 الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
 عَلَيْهِمْ } الآية [الأعراف: ١٥٧] (1) وإذا كان السكارى وأعوانهم
 وأنصارهم لا يباهون بالدين الإسلامى ومبادئه وأحكامه وإرشاداته -
 فإن الطب العالمى قد قال قولته الحاسمة في هذا الشأن، وبين أن هذه
 المعطيات تدمر الصحة تدميرا كاملا. وتحذر تقارير منظمة الصحة
 العالمية من الوضع العالمى الخطير لهذه المعطيات من الدخان
 والكحوليات وما يتبعهما من المسكرات وتشير إلى ذلك تقارير عام
 ألفين وأربعة وألفين وسبعة وألفين وثمانية وألفين وتسعة (2). وما يسرى
 على الكحوليات يسرى على بقية المواد المخدرة. ولو أن عند هؤلاء
 المتعاطين بقية من عقل وتمييز - لكان بيان الطب الحاسم في هذا الأمر
 رادعا لهم؛ حتى لا يدمروا أنفسهم ويدمروا أسرهم، ويضروا بذلك

(1) الخبائث: كل المحرمات: من الأطعمة والأشربة والمعاملات والأقوال - ص245 من
 الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم - لابن كثير.

(2) مثال تحذير الطب العالمى من هذه المعطيات وأخفها ضررا السجائر ما يكتب على
 علبة السجائر الآن حتى الأجنبية منها " التدخين ضار جدا بالصحة ".

جيرانهم وأصحابهم، بل والمجتمع الإسلامي كله. ونظرة إلى أحوال المدمنين وما يعانونه من تدهور في صحتهم وأموالهم، وضعفهم عن أن يكونوا من الطبقة العاملة في المجتمع، وإلى أحوال أسرهم وتدنّيها بسبب تدهور أحوال هؤلاء المدمنين - ثرينا كم هو لازم وواجب أن يقبل هؤلاء العلاج الشافي من هذا الداء العضال، وأن ينقذوا أنفسهم وأسرهم من هذا الدمار الشامل الذي يلحق بهم وبمرضاها المدمنين وقد خصصت مصر خطا مباشرا للاتصال بالمسؤولين عن علاج الإدمان يعمل ليل نهار؛ لإنقاذ من يمكن إنقاذه من المدمنين وأسرهم. والله تعالى ولي ذلك والقادر عليه..

ومن المحرمات التي نبه إليها القرآن الكريم ودعا إلى تجنبها - أكل مال اليتيم. وقد اهتم القرآن الكريم بمال اليتيم اهتماما خاصا، وفيه برنامج إسلامي للمحافظة عليه وتنميته. وقد سبق الحديث عن هذا البرنامج الإلهي بالتفصيل..

ومن المحرمات التي تدمر السعادة في أسر المجتمع الإسلامي - الوصية لوارث. ففيها طغيان على نصيب بعض الأبناء والبنات من الميراث الشرعي؛ مما يوغر الصدور، ويضعف صلة الرحم بدلا من تقويتها. وبذلك تكون هذه الوصية مدعاة إلى تفكك الأسرة بدلا من ترابطها، وتفكك صلة الرحم داخل الأسرة الواحدة، وتتواجد بدلا منها العداوة والخصام؛ بسبب تمييز لا سند له ولا غاية في الشريعة الإسلامية الغراء. فيعطى الوالد أحد أبنائه نصيبا ينقصه من حقوق بقية أبنائه وبناته من الميراث الشرعي.. وبسبب هذا التصرف الطائش غير الشرعي تتفكك رابطة الأسرة ويعادى أفرادها بعضهم بعضا. وغالبا ما يفعل الوالد ذلك عقابا لأحد أبنائه، أو ظنا منه أن بقية أبنائه سيحيفون على هذا الموصى له ويستولون على حقه بعد

وفاة أبيه. وقد عالجت الشريعة الإسلامية تداعيات هذا الظن بالنسبة لمن يموت من أبناء هذا الوالد تاركاً ولداً له. فقد حمت الشريعة الإسلامية ابن الابن قبل أن يفكر جده في حمايته؛ فجعلت له وصية واجبة في حدود ثلاث التركات لا يزيد عن ذلك.. أما الفرع الوارث الذي هو موضوع حديث هذه الفقرة - فلا ينبغي أن يميزه أبوه عن سائر أولاده وينقص من نصيبهم ليعطيه في السر نصيباً مؤجلاً لا حق له فيه. ولو فعل الوالد ذلك علناً في حياته ما اعترض عليه أحد من أبنائه وما حدثت قطيعة ولا تخاصم بين الأب وأبنائه، ولا بين الابن المميز وسائر إخوته. فلأب شرعاً حرية التصرف في ماله وممتلكاته في حياته وفي كامل قواه العقلية وإرادته الحرة. أما بعد موته فلا يجوز أن يفاجأ بقية أبنائه بأنه كتب لأحدهم صكاً بشئ من ماله أو ممتلكاته على هيئة وصية يتفق معه على سرّيتها حتى موته ويحرص على تسجيلها بالشهر العقاري؛ لتكون تمييزاً لأحد ورثته على حساب الآخرين. فكلهم سواء بعد وفاة أبيهم. وما تركه قسمة بينهم جميعاً. وقد أوصت الشريعة الإسلامية بذلك وحذرت من يحيف على هذه القسمة. وذلك في قوله عز وجل: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)

[النساء: ١٣ - ١٤].. أما في السنة النبوية المباركة، فقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فعن أبي أمامة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حجة الوداع ^١ إن الله قد

أعطى لكل ذى حق حقه فلا وصية لوارث — (1). والسنة الثابتة عند الإمام مالك - والتي لا اختلاف فيها - أنه لا تجوز وصية لوارث إلا أن يجيز ورثة الميت، وأنه إذا أجاز له بعضهم وأبى بعض، جاز له حق من أجاز منهم، ومن أبى أخذ حقه من ذلك (2). ومعنى ذلك أن هذه الإجازة تكون بعد علم بقية الإخوة بما فعل أبوهم سواء أعلمهم بذلك قبل موته أو لم يعلموا به إلا بعد موته لسرية هذا الإجراء.. وإذن فالشريعة الإسلامية حسمت هذه القضية.. على أنه من المعروف أن ما يحدث في هذه المسألة غالباً، هو أن يتفق الأب مع الموصى له بكتمان أمر هذه الوصية حتى موت الأب مع حفظ الوصية بالشهر العقاري بعد تسجيلها به حتى تنفذ بعد موته.. وإن جاز ذلك في الوصية الواجبة، فإنه لا يجوز في الوصية لوارث لأن أمرها محسوم كما تقدم، ولأنها مخالفة للسنة ومخالفة لما جاء في تقسيم الفرائض بين الورثة، كل حسب نصيبه الشرعى..

ومن هذه المؤشرات التي تؤثر في البنيان الاجتماعى، وتقضى على الألفة والمحبة بين أفراد وأسر المجتمع الإسلامى، وتضيع الحقوق الشرعية بين أبناء وبنات هذه الأسر، وبين رجالها وإنائها - ما ورد في الزنى وتحريمه، وبيان خطره على الأفراد والجماعات في المجتمع الإسلامى. وفيه يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقد سبق الحديث عن الزنى ومقدماته.

ونذكر هنا أسوأ آثاره في الدنيا؛ وهو أن الزانى يحرم من الزواج

(1) أخرجه أبو داود والترمذى وغيرهما عن أبى أمامة ص68 من الجزء الرابع - من شرح موطأ مالك للزرقانى.

(2) نفس الصفحة من المرجع السابق.

من شريفة كما أن الزانية تحرم من الزواج من شريف. وهذا حكم من الله جل جلاله على كل من فرط في شرفه ودينه. ويقول تبارك وتعالى فيه: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٣]. فالزواج من الشرفاء والشريفات قاصر على المؤمنين والمؤمنات، الصالحين والصالحات، المتجنبين والمتجنبات للزنى ومقدماته. أما الزانى والزانية فلا يستحقان هذا التشريف والتكريم؛ لضلوعهما في جريمة الزنى وما يتبعه من ضياع للأنساب والحقوق الشرعية الناتجة عن الزواج الشرعى عادة...

ومن المحرمات التي تضر بالفرد والأسرة والمجتمع الإسلامى - قتل النفس. وقد حرم الله تعالى قتل النفس إلا بالحق. وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الحق الذي أباح الله سبحانه به قتل النفس. فقد بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف الذي سبقت الإشارة إليه. وهو " الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ". وبذلك لا يصل الأمر أبداً إلى حد القتل مهما اختلف الطرفان. فالقتل حينئذ يكون خروجاً من دائرة الإيمان والإسلام إلى دائرة الكفر والعصيان لله رب العالمين. ولذلك يقول ربنا الكريم: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣].. أما القتل الخطأ فله أحوال وردت في قوله تعالى:

{وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً

مَنْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا { الآية [النساء: ٩٢]. والآية الكريمة مفصلة وواضحة الأحكام في القتل الخطأ.. وسوف نشير إلى قاتل نفسه وما أعده الله له من عذاب في الآخرة في مجال الحديث عن السنة النبوية الكريمة في المجال الاجتماعي إن شاء الله.. ونشير هنا إلى عادة القتل أخذاً بالثأر، وأنها ما زالت سارية في صعيد مصر، وإن خفت حدتها، فذلك يُحَسَّبُ للمسئولين بوزارة الداخلية المصرية ولبعض الأجهزة الإعلامية التي تعمل جاهدة على إخماد هذه الفكرة وإحلال الأمن والسلام محلها عن طريق الصلح بين طرفي النزاع من أجل الثأر. ومن المحرمات التي تعكر صفو الأمن والسلام في الأسرة والمجتمع الإسلامي - الحراقة وهى الإفساد في الأرض ومحاربة الناس في أقواتهم وأموالهم وأعراضهم. فهى عدة جرائم يطلق عليها اسم الحراقة وقد حدد الإسلام لها عقاباً رادعاً يكفى لإنهاء خطرهما على الأسرة والمجتمع الإسلامي، لو طبق كما أمر الله العلى القدير سبحانه.. فيقول

العليم الحكيم جل جلاله في ذلك: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [٣٣] {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [٣٤] [المائدة: ٣٣ - ٣٤]. فجزاء من يحارب الله ورسوله ويفسد في الأرض ولا يطيع ما أمر الله تعالى به ورسوله، ولا ينتهى عما نهى عنه - متروك تقديره للحاكم أو من ينييه عنه في ذلك، حسب الجريمة المرتكبة، فقد يكون القتل وقد يكون الصلب وقد يكون تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أى اليمنى مع اليسرى أو العكس، وقد يكون النفى أى الإبعاد من الأرض التي يفسد

فيها إلى أرض أخرى، غريبة عنه يهاب القيام فيها بشئ من الحراية وهى الإفساد. وباب التوبة هنا أيضا مفتوح؛ فمن قدم نفسه للعدالة قبل أن تناله يد الحاكم أو من ينوب عنه يرفع عنه العقاب، حسب ما أشار القرآن الكريم في الآية الكريمة الثانية المذكورة.. وفى علاج الحراية بهذه الطريقة الشرعية ردع للأشرار وسعادة كبرى للرجال والنساء والشباب والفتيات...

فإذا انتقلنا إلى المجال الاقتصادي، وجدنا هناك إشارات تعالج قضية هامة هى التعامل بالربا. إذ أنه يدمر اقتصاد المتعامل به سواء كان فردا أم أسرة أم جماعة أم المجتمع كله. وقد حرم الإسلام الربا بنوعيه: ربا الفضل و ربا النسيئة، تحريما قاطعا؛ لأنه أداة لاستغلال حاجة الأفراد والأسر والمجتمعات، أسوأ استغلال. فهو يدمر اقتصاد من لجأ إليه. ومن أجل ذلك نهى الإسلام عنه واعتبر المتعامل به محاربا لله. حيث يقول ربنا الجليل في ذلك: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٧٨ - ٢٨٠]. وقد سبق أن تحدثنا عن الربا وخطورته على الفرد والأسرة والمجتمع. ويكفى أن نذكر هنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرّمه تحريما قاطعا، كما حرّمه ربنا عز وجل.

وفى تفسير الآيتين الأولى والثانية " يروى السيوطى في الدر المنثور أن الآيتين نزلتا في العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل من بنى المغيرة أقرضا لِنَاسٍ مِّنْ ثَقِيفٍ مِّنْ بَنِي عَمْرٍو هم بنو عمرو بن عمير. فجاء الإسلام ولهم أموال عظيمة من الربا "

(1).. وقد ورد في خطبته صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع قوله صلى الله عليه وسلم: **«ألا إن ربا الجاهلية موضوع. وأول ربا أضعه من ربانا: ربا عمى العباس بن عبد المطلب»** (2)..

ويكفيها أيضا تلك الصورة المنفرة التي صور الله عز وجل بها أكلة الربا يوم القيامة، والتي وردت في قوله تعالى: **{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}** {الآية [البقرة: ٢٧٥]}. وقد سبق توضيح الصورة وشرحها.. ولا يقتصر المجال الاقتصادي على التجارة والتعامل غير الشرعي بالربا والغش والخداع في تصريف عروض التجارة، لكنه يشتمل أيضا احتكار التجار لأنواع من الطعام والسلع الضرورية لحياة الناس.. وكل ذلك تحدثنا عنه سابقا بما فيه الكفاية. وتحدثنا كذلك عن جوانب أخرى للمجال الاقتصادي: كالزراعة والصناعة بأنواعها المختلفة ومنها صناعة الغزل والنسيج، وأشبعناها تفصيلا، وذكرنا الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة.

على أنه بالتعامل غير الشرعي في كل جوانب المجال الاقتصادي، وبالمحرمات التي أشرنا إليها في المجال الاجتماعي - وبالتهاون في المجال الديني بترك الطاعات وفعل المنكرات - نجد كل ذلك يحول بين الأفراد والأسر - في المجتمع الإسلامي وبين السعادة والرفاهية التي يرتضيها الإسلام للبشر جميعا.. فمن الطبيعي أن يكون الإقلاع عن هذه الجرائم والمحرمات هو صمام عودة الأمن والأمان والسلامة والإسلام والسعادة والرفاهية والوئام إلى أفراد

(1) ص 125 من كتاب التعامل التجاري في ميزان الشريعة - للدكتور يوسف قاسم - أستاذ الشريعة الإسلامية بحقوق القاهرة - الطبعة الأولى 1980.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.

المجتمع الإسلامي وأسرّه. وبفضل تعاليم الإسلام وإرشاداته للأفراد والأسر والجماعات في المجتمع الإسلامي كله، وبفضل فعل الطاعات وترك المنكرات حسب مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه، يكون الإسلام قد أوجد حلولاً في كل مجالات الحياة والتعامل بين المسلمين لتحويل الشقاء إلى سعادة والخوف إلى أمان. في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة...

* * *

الفصل الثاني:

في السنة النبوية المباركة

فإذا انتقلنا إلى السنة النبوية الكريمة نجد الكثير والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة والآثار الإسلامية التي تهتم بالمرأة، ومنها تلك التي تهتم في الدرجة الأولى بالعقيدة؛ حتى يكون الناس جميعاً في ضلال عقيدة إسلامية صحيحة، صالحة للرجل والمرأة والصغير والكبير. وسوف نورد هنا - إن شاء الله - بقدر الإمكان - ما لم نذكره فيما سبق..

ففي مجال العقيدة الإسلامية: نورد ما رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل في الحديث القدسي: **إني أنا الله، لا إله إلا أنا، فمن أقر لي بالتوحيد دخل حصني وأمن من عذابي** — (1). وهو حديث قدسي يدعو إلى الوحدانية والإقرار بها لله رب العالمين لا شريك له.. فمن أراد أن يكون آمناً من عذاب الله في الآخرة وسعيداً في دنياه فليقر له سبحانه بالوحدانية وليعمل بما يوجبه إقراره، وهو يوجب التقوى، أي فعل الطاعات والامتناع عن المنكرات، كما يوجب التوكل عليه جل جلاله دون سواه..

فعن التقوى يروى النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل قوله: **وَعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمين، ولا خوفين، إن هو أمني في الدنيا، أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا، أمنت يوم أجمع عبادي** — (2).. فمن خاف الله في دنياه سعد في آخرته ودنياه.

(1) رواه الشيرازي عن عليّ ص 107 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه أبو نعيم بنفس الصفحة من المرجع السابق.

ويوضح لنا هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿الْأَلْبَانِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٤) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَةٍ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) { [يونس: ٦٢ - ٦٤]. فربنا عز وجل يتولى المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة ويطمئنهم قبل موتهم.

وعن التوكل عليه سبحانه يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم :
 ﴿أوحى الله تعالى إلى داود: ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات بما فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه وأرسخت الهوى من تحت قدميه. وما من عبد يطيعنى إلا وأنا معطيه قبل أن يسألنى، وغافر له قبل أن يستغفرنى — (1). وفى هذا الإطار يقول حبيب الخلق والخالق صلى الله عليه وسلم : ﴿ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقا من قلبه، إلا حرمه الله على النار —. قال معاذ بن جبل (راوى الحديث) يا رسول الله، أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ قال: " إِنْ يَتَكَلَّوْا " (2). فقوله صلى الله عليه وسلم " صدقا من قلبه " يتطلب أن يكون مع الشهادة عمل صالح وتقوى وتوكل عليه وحده سبحانه.. فالعمل الصالح والتقوى والتوكل الخالص عليه سبحانه، كل هذا يثبت صحة الشهادة وصدقها لأن الإيمان ما وقر في القلب وصدقته العمل..

وفى مجال البنيان الاجتماعى وتماسكه: تهتم السنة بالتفسير من المحرمات التي تؤثر بالسلب في البنيان الاجتماعى للمجتمعات

(1) رواه ابن عساکر ص47 من نفس المرجع - أرسخت: أى ثبتت.

(2) رواه الشيخان عن معاذ بن جبل ص131 من المرجع السابق. - يتكلموا: يتواكلوا ويتكاسلوا عن فعل الطاعات والامتناع عن المنكرات.

الإسلامية. وقد تحدثنا عن كثير من المحرمات سابقا. والآن نقصر حديثنا على المحرمات المهلكة. وذلك على الرغم من حديثنا عن غالبية هذه المحرمات في تناولنا لمرحلة الشباب؛ لأنها تضر بالفرد والأسرة والمجتمع الإسلامى كله..

وفى هذا الإطار الهام يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** — (1). ويتضمن هذا الحديث الشريف محرمات تهلك من مارسها وأصر على فعلها حتى موته. وفى مقدمة هذه المحرمات المهلكة: الإشراف بالله تعالى في عبادته وفى طاعته. وهو ظلم عظيم لفاعله وللساكت عليه وفيه ضياع للمشرك. ولذلك يقول الح

تبارك وتعالى: {خُفَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]. وهذه العقوبة الوخيمة تنتظر المشرك في دنياه وأخرته..

ومن هذه المحرمات المهلكة أيضا: السحر: وهو محاولة تغيير الطبيعة الإنسانية من الهدوء إلى الاضطراب مع الاستعانة في ذلك بغير الله تعالى كالشياطين والوسائل غير الشرعية. وقد عرفه أبو محمد المقدسى في الكافى: السحر عزائم ورُقَى وعُقَد يؤثر في القلوب والأبدان؛ فيمرض ويقتل؛ ويفرق بين المرء وزوجه (2). وفيه يقول المولى عز وجل: {وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٍ وَمَا

(1) رواه الشيخان ص6 من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

(2) ص291 من كتاب فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا
أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى
يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ
الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ [البقرة:
١٠٢]. فالسحر في الآية الكريمة كان فتنة للناس عن طريق ملكين
أرسلهما الله تعالى إلى أرض بابل بالكوفة، يعلمون الناس ما يفرقون
به بين المرء وزوجه، ويعرفون من يعلمونه أن ذلك فتنة من الله
تبارك وتعالى، من استعملها لدفع الأذى عن الناس فقد نجا، ومن
استعملها لإضرار الناس فإنه يكون كافرا (1)..

وكان البعض يستعملونه لدفع الأذى عن الناس باستعمال القرآن
الكريم والأدعية النافعة في هذا المجال، وكانوا يطلقون عليه اسم
التولة. فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول: **إِنَّ الرُقَى وَالتَّهَامَ وَالتُّولَةَ شَرْكٌ — (2)** فهي كلها
شرك كسحر الملكين. وفي التولة من ناحية أخرى شيء يصنعونه،
يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى زوجته. فما
استُعمل فيه القرآن الكريم وأسماء الله على غير طريقة اليهود فهو
حلال. وأما ما أُستعمل فيه غير القرآن الكريم وأسماء الله بطريقة

(1) ص 69، 70 من القسم الأول من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم
الشيخ محمد على الصابوني.

(2) رواه أحمد وأبو داود عن عبد الله بن مسعود ص 136 من كتاب فتح المجيد - شرح
كتاب التوحيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ. - الرقى: هى العزائم
الموصوفة منها بالشرك هى التى يستعان فيها بغير الله - والتلميمة هى ما يعلق بأعناق
الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين. - والتولة: شئ كانوا يصنعونه. يزعمون أنه
يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى زوجته.

اليهود فهو محرم لأنه شرك.. وكانت اليهود تكتبه حروفا مقطعة بمداد خاص ويمزجونه بأدعية جاهلية وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذي كان فيه سر ملكه⁽¹⁾... ومن السبع الموبقات المحرمات، قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وقد عرفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذا الحق في حديثه الشريف^١ الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة— وقد سبق شرحه. فهؤلاء الثلاثة فعلوا ما يخرجهم عن الإسلام فاستحقوا بذلك القتل.. وقد اتضحت للقارئ الكريم عواقب القتل العمد والقتل الخطأ وتأثير ذلك على البنیان الاجتماعی في المجتمع الإسلامی.. وليكن معلوما أن الله العلى القدير يحاسب أيضا من قتل نفسه فضلا عن قتل الغير. فالنفس أمانة عند حاملها، عليه أن يتعهد بها بالرعاية ويجعلها نفسا مطمئنة. فإذا فرط في الأمانة وأزهق نفسه فإن الله العظيم يخلده في نار جهنم. ويقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك: ^١من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحصى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا—⁽²⁾..

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من قتل بعضهم بعضا فقال صلى الله عليه وسلم: ^١ويلكم أو ويحكم⁽³⁾، لا ترجعوا بعدى

(1) ص140 من المرجع السابق.

(2) رواه البخارى عن أبى هريرة ص143 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى. تردى قذف نفسه من جبل - تحصى: شرب - يجأ: يضرب.

(3) شك من الراوى أقال ويلكم أو ويحكم وهو دعاء بالهلاك على من يفعل ما حذر منه النبى ﷺ.

كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض — (1). كما أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا النهى في حجة الوداع كما ورد في رواية جرير عنه صلى الله عليه وسلم بنفس النص (2).. فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم لئلا يعكر شئ من ذلك صفو نفوس المسلمين؛ فيسود بينهم البغض والكراهية والتنافر بدلاً من الحب والوئام والتواصل. فالقتل يقضى على السعادة بين أفراد المسلمين وأسرها ومجتمعهم الإسلامى، ويوجد بدلاً منها الشقاء والتعاسة...

ومن السبع الموبقات المحرمات - الربا. وقد تحدثنا عنه بما فيه الكفاية. وقد نهى عنه القرآن الكريم، ونهت عنه السنة النبوية الكريمة، وحذرت كل الأطراف المتعاملة به. وفى هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: لعن الله آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه، هم فيه سواء — (3).. ونضيف هنا أن آكل الربا مفضوح يوم القيامة، فأنه عز وجل يسمه بعلامة خاصة به.. فهو لا يقوم يوم الحشر إلا كما يقوم الذي أصابه الصرع من الجنون. يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشى مستوياً. وتلك صفته عند الموقف. فقد أربى الله عز وجل في بطنه وكثر ما أكله من الربا الدنيوى فأثقله ذلك، فصار مخبولاً لا ينهض ويسقط. قال سعيد بن جبير رضى الله عنه: " وتلك علامة

(1) رواه ابن عمر ص14 من الجزء الأول من كتاب اللؤلؤ والمرجان - تحقيق - محمد فؤاد

عبد الباقي.

(2) أخرجه البخارى في كتاب العلم - 43 باب الإنصات إلى العلماء - نفس الصفحة من الجزء الأول من المرجع السابق.

(3) رواه مسلم ص118 من مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمى.

آكل الربا يوم القيامة " (1)..

ويرى بعض المفسرين أن هذه الصورة واقعة في الأرض على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس في حكم النظام الربوى الشائع في العالم الآن (2). ومصدق ذلك ما يشاهد في العالم الآن من الأزمة المالية الطاحنة وخاصة في الدول الكبرى التي أضرت بضررها الدول الصغرى.. ويرى الدكتور إبراهيم عويس الخبير الاقتصادى العالمى الذى عمل ويعمل في الاقتصاديات غير الإسلامية كغيره من علماء الاقتصاد في العالم الإسلامى، مثل الدكتور يوسف قاسم وغيره من المتخصصين في الاقتصاد الإسلامى - أن هذا الاقتصاد الإسلامى لم يتأثر بالأزمة المالية العالمية؛ لأنه لا يتعامل بالربا الذى تتعامل به البنوك الأوروبية والغربية والعالمية. وقد أفلس كثير من البنوك الأمريكية، وتعثرت اقتصاديات دول الاتحاد الأوروبى وغيرها من دول العالم غير الإسلامية بسبب هذه الأزمة، التي مازالت تداعياتها قائمة ومؤثرة في تلك الاقتصاديات. وعلى الرغم من ادعاء بعض الدول الأوروبية أنها تعافت من تلك الأزمة المالية، إلا أن دول أوروبا تتكاتف وتحمل أعباء مالية كبرى من أجل خروج بعضها من هذه الأزمة. ويضيف الدكتور إبراهيم عويس أن بعض الدول الأوروبية، التي لفت نظرها عدم تأثر الدول الإسلامية بهذه الأزمة - راحت تطلب من بعض الدول الإسلامية فكرة عن نظامها الاقتصادى الإسلامى حتى تستفيد منها. كما فعلت اليابان وألمانيا إذ طلبت من الكويت وغيرها أن تمدّها بفكرة عن

(1) ص 162 من القسم الأول من الطبعة الأولى من كتاب صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى.

(2) نفس الصفحة من المرجع السابق.

اقتصادياتها الإسلامية. وهكذا يصمد الاقتصاد الإسلامي أمام الأزمات العالمية، التي تنهال فيها كثير من دول الشرق والغرب غير الإسلامية بفضل نبذه للتعامل الربوي.. ويقول الحق تبارك وتعالى في علامة من يأكلون الربا ويتعاملون به يوم القيامة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآية.. وهكذا يضرار الضعيف بتسلط القوى عليه بغير حق. ويصدق في الجميع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ — (1)**.

وقبول الهدية مقابل شفاععة من إنسان لإنسان لقضاء مصلحة، يدخل في باب الربا؛ لأن الشافع لا يقوم عادة بشفاعته إلا وهو يعلم أن المشفوع له سيعطى له ما يقابل هذه الشفاععة. وخصوصا إذا كان لا يستحقها. فهو ربح بلا مقابل من جانب شخص يحاول الوصول على أكتاف غيره إلى موضع متميز. فالشافع هنا يستغل المشفوع له أسوأ استغلال. والأمر يختلف بطبيعة الحال إذا كان هذا هو الطريق الوحيد أمام الضعفاء الذين لا ناصر لهم والذين يعيشون في عالم لا يعترف بالعدالة والمساواة بين ذوى الكفاءات الواحدة المتساوية.

ويدخل أيضا في هذا الباب ما يفعله المحتكر الذي يخبئ السلعة في المخازن حتى إذا قلت في السوق أو ارتفع سعرها وبحث الناس عنها أظهرها وباعها بسعر مضاعف. وقد يكون المحتاجون إليها من ذوى الدخل المحدود المنخفض فتكون الجريمة في حقهم مضاعفة وعقابها الأخرى مضاعف أيضا بالإضافة إلى عذاب الدنيا.. وقد

(1) رواه أبو داود والنسائي والترمذى عن أبى بكر الصديق ص204 من كتاب من كنوز السنة - للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى.

سبق شرح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوارد في هذا الشأن: **من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس** — (1).

ومن السبع الموبقات المحرمات: أكل مال اليتيم: فهو ضعيف يستحق المساعدة بدلا من تضييع ماله أو سرقة وتبديده قبل أن يكبر. وقد رسمت الشريعة الإسلامية برنامجا لحفظ مال اليتيم تحدثنا عنه سابقا في مجال القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة. وقد نهت الشريعة الإسلامية عن أكل مال اليتيم. وأوجبته معاملته بالحسنى. وفى هذا الإطار يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا** — (2). ويقول الهادى البشير صلى الله عليه وسلم: **من أحسن إلى يتيم أو يتيمة، كنت أنا وهو كهاتين في الجنة** — وقرن بين أصبعيه صلى الله عليه وسلم (3). .. وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم للمسلم كيف يكسب عطف اليتيم ويستميله إليه فيقول صلى الله عليه وسلم: **امسح رأس اليتيم (هكذا) إلى مقدم رأسه، ومن له أب (هكذا) إلى مؤخر رأسه** — (4). .. فيمسح رأس اليتيم من مؤخرة رأسه إلى مقدمته وعكسه من له أب. فهو يحرص على مساعدته وتنمية ماله إلى أن يكبر ويتحمل مسئولية المحافظة على نفسه وماله.

ومن السبع الموبقات المحرمات: التولى يوم الزحف: فقد حرمه

(1) رواه أحمد في مسنده ص138 من كتاب مختار الأحاديث النبوية.

(2) رواه البخارى عن أبى هريرة ص74 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى.

(3) رواه الحكيم عن أنس ص138 من المرجع السابق.

(4) رواه الخطيب عن ابن عباس ص32 من المرجع السابق.

الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.. فيقول عز وجل في ذلك: {وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾} [الأنفال: ١٦]. فالمقام مقام إقدام وشجاعة وبذل للنفس نصرة للدين وللضعفاء من نساء وأطفال وشيوخ ومرضى. فالتولى والفرار في هذا المقام جزاؤه جهنم وبئس المصير. كما اعتبره الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور التي تهلك صاحبها في دنياه وآخرته، إذا لم يتب إلى الله ويغير سلوكه ويعوض ما فاتته من خسارة في حياته قبل موته...

ومن السبع الموبقات المحرمات: قذف المحصنات الغافلات المؤمنات: فهؤلاء النسوة قد تحصَّنَّ بالزواج الشرعى، فلا يصح قذفهن إلا ببينة واضحة. فمن اتهم غير زوجته بالزنى دون بينة وشهود أربعة عدول - فإنه يُعرضُ نفسه للجلد ثمانين جلدة، ويعامل في الإسلام على أنه فاسق لا تقبل شهادته حتى ولو كان صادقاً فيها. وفي هـ ذاقه فولد ربنا العظيم: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾} [النور: ٤] أما من قذف زوجته بفعل الفاحشة دون بينة واضحة وشهود أربعة عدول، فإنه يعرض نفسه للهلاك في دنياه وآخرته. فهو يعرض نفسه للملاعنة في الدنيا. يلاعن زوجته وتلاعنه. ثم يفرق القاضى بينهما. فهو يخسر نفسه ويخسر زوجته. وقد وردت كيفية اللعان وصفته في القرآن الكريم، في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةُ أَن لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَلَيْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ

الْكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَلِخَمْسَةٍ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ [النور: ٦ - ٩].. أما في السنة النبوية المباركة فقد روى عن عويمر العجلاني: أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقضه فيقتلونه؟ أم كيف يفعل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ١ قد أنزل فيك وفي صاحبك فاذهب فأت بها — (1). قال سهل: قَتَلَا عَنَّا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عويمر: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها. فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن شهاب: فكانت تلك بعدُ سنة المتلاعنين (2). وقال مالك رضى الله عنه: السنة عندنا أن المتلاعنين لا يتناكحان أبداً. وإن كَذَّبَ نفسه جُلِدَ الحَدَّ وأُلْحِقَ به الولد ولم ترجع إليه أبداً (3).. وقال مالك: والعبد بمنزلة الحر في قذفه ولعانه يجرى مجرى الحرِّ في ملاعنته. غير أنه ليس على من قذفَ مملوكه حد(4)..

وهكذا يُعرِّض مسلم بيته وأسرته للضياع والشقاء بدلاً من أن يعمل على استقراره وإسعاده؛ بسبب ظن كاذب لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة. إذ لا دليل عليه ببينة أو شهود. وكم من أسرة مسلمة ضاعت بسبب هذا العبث الذي لا يستند إلى بينة أو دليل شرعي، وكتب عليها الشقاء والتعاسة بدلاً من السعادة والهناء..

ومن المحرمات المنهى عنها لحماية الإطار الاجتماعي للفرد

(1) وفي رواية فسكت عنه النبي ﷺ فأعاد وانتظر وانتظر الناس معه وكأنما نزل عليه الوحي فلما سرى عنه قال حديثه الشريف في عويمر وصاحبه.

(2) حديث يحيى بن مالك عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي في موطأ مالك ص 350 طبعة الشعب.

(3) رواه مالك في باب ما جاء في اللعان ص 351 من المصدر السابق.

(4) نفس الصفحة من المرجع السابق.

والأسرة والمجتمع الإسلامي - شهادة الزور: وهى شهادة مخالفة للواقع والحاصل. يترتب عليها ضياع حقوق الأفراد والأسر في المجتمع الإسلامي؛ فيتسلط عليهم من البلايا والمصائب ما يساوى أكثر من تضییع هذه الحقوق. ويقع الظلم على أفراد وأسر لم تفعل إثماً.. ويوم القيامة يسلط الله المظلومين على الظالمين فيأخذون منهم حقوقهم علاوة على ما ينتظر الظالمين من عقاب الله عز وجل. ولهذا يحذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعاً من شهادة الزور فيقول صلى الله عليه وسلم: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر — ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإِشراك بالله وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئاً — فقال: ألا وقول الزور —»**. قال: " فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " (1).. كما يحذر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم شاهد الزور من هول ما يلقاه يوم القيامة فيقول صلى الله عليه وسلم: **«شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يوجب الله له النار —»** (2)..

ومن الكبائر التي نهت السنة النبوية الكريمة عنها المسلمين جميعاً - الزنى ومقدماته؛ لما له ولها من آثار سيئة على البنیان الاجتماعى الإسلامى حيث تضییع الأنساب وتوغر الصدور وتقطع أوصال الأسر والجماعات في المجتمع الإسلامى. وقد تحدثنا عنه سابقاً بما فيه الكفاية. ونضيف هنا آثاراً مما ورد في التحذير من مقدمات الزنى..

فمن ذلك ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من إتباع النظرة إلى المرأة بالنظرة. فإن الأولى للناظر والأخرى عليه. ومن يكتف

(1) أخرجه البخارى عن أبى بكره في 52 كتاب الشهادات - 10 باب ما قيل في شهادة الزور ص 16، 17 من الجزء الأول من كتاب اللؤلؤ والمرجان - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(2) رواه الحاكم ص 88 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمى.

بالأولى يملأ الله قلبه أمنا وإيماناً. وقد رغب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته في غرض البصر، فقال صلى الله عليه وسلم: **«ما من مسلم ينظر إلى امرأة أول رمقة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه»** (1).. كما حذر النبي صلى الله عليه وسلم من تمطى الرجل عند المرأة الأجنبية. فقد روى الدارقطني عن أبي هريرة: **«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يتمطى الرجل في الصلاة أو عند النساء إلا عند امرأته أو جواريه»** (2).. وكذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أن يكلم الرجال النساء إلا بإذن أزواجهن. فقد روى الطبراني: **«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن تُكلم النساء إلا بإذن أزواجهن»** (3).. وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من التصدي للمرأة الأجنبية إذا أعجب بها عندما يراها، كما أرشد المسلم إلى التصرف السليم في هذا المأزق، فقال صلى الله عليه وسلم: **«إن المرأة تُقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهلها، فإن ذلك يرد ما في نفسه»** (4)..

أما الأعزب فقد سبق أن وصف له النبي صلى الله عليه وسلم علاجه في هذه الحالة - في حديثه الشريف. فقد قال صلى الله عليه وسلم: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»** (5) أى حافظ، والباءة هى مصاريف الزواج وتكاليفه ومسئولياته.

(1) رواه أحمد ص 134 من المرجع السابق

(2) ص 154 من المرجع السابق - تمطى: تمدد وتبختر

(3) رواه مسلم ص 33 من المرجع السابق.

(4) رواه مسلم ص 33 من نفس المرجع السابق.

(5) رواه الجماعة ص 160 من المرجع السابق.

وينطبق ذلك أيضا على مَنْ فقد زوجته من الرجال وعلى من فقدت زوجها من النساء. وقد بين المصطفى صلى الله عليه وسلم أن المرأة تفضل الرجل بتسعة وتسعين جزءا من اللذة. وذلك حتى لا يفقد رجل إيمانه من أجل امرأة، فقال صلى الله عليه وسلم: **فضلت المرأة على الرجل بتسعة وتسعين جزءا من اللذة، ولكن الله ألقى عليهن الحياء—** (1).. هذا وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعا من الزنى ومن بقية الكبائر؛ فوضح أن الزانى وشارب الخمر ومرتكب أى كبيرة بالقياس عليهما يُنزع الإيمان من قلبه إذا شرع في فعلها. فيكون شأنه شأن الكافر ومآله إلى النار إذا لم يتب ويخلص في توبته حتى يقبلها الله عز وجل منه. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: **من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان، كما يخلع الإنسان القميص من رأسه—** (2).. وقسْ على ذلك فعل بقية الكبائر.. ويوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنظار المسلمين إلى طائفة من المفرطين في حقوق جيرانهم والذين يمارسون الزنى مع زوجات جيرانهم يحذرهم صلى الله عليه وسلم من الزنى بحليلة الجار، ويبين موقف هذا الزانى يوم القيامة، فيقول صلى الله عليه وسلم: **الزانى بحليلة جاره لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزيكه ويقول له: ادخل النار مع الداخلين—** (3). وأكثر منه تفريطا وعقابا يوم القيامة من يزنى بحليلة أخيه.

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من دخول رجالهم على الأجنبية عنهم بغير إذن من أزواجهن، فاستفسر أحد

(1) رواه البيهقي عن أبى هريرة ص103 من نفس المرجع السابق.

(2) رواه الحكيم عن أبى هريرة ص145 من المرجع السابق.

(3) رواه الديلمي ص83 من نفس المصدر السابق.

الحاضرين عن دخول الرجل على زوجة أخيه بغير إذنه فقال: أرأيتم الحمّو؟ فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: **الحمّو الموت—** أى يجب الحذر من الحمّو كما يحذر الإنسان من الموت. وقد سبق شرح الحديث. وكم من جريمة زنى ترتكب تحت ستار الحمّو. فيجب أن يحذر المسلمون من ذلك رغم شذوذ هذا المسلك.. وبصفة عامة يحذر الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته والمسلمين جميعاً من الزنى. ويبين لهم أن فيه خصالاً مذمومة يجب تجنبها فيقول صلى الله عليه وسلم: **إياكم والزنا فإن فيه أربع خصال: يذهب البهاء عن الوجه، ويقطع الرزق، ويسخط الرحمن، ويوجب الخلود في النار—** (1).

هذا وما زالت السنة النبوية الكريمة مملوءة بالآثار الخالدة التي تنفع في كل مجالات الحياة، الدينية منها والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والصحية وغيرها، مما ينفع الفرد والأسرة والمجتمع الإسلامى كله.. وليس مطلوباً منا أن نذكر كل الأمثلة في كل مجال؛ لاستحالة ذلك في هذا الموقف. ولكن حسبنا أن نذكر مثلاً لكل حالة من حالات كل مجال، محاولين أن تكون الأمثلة مما لم يرد ذكره من قبل..

ففى المجال الدينى: بالنسبة لتحقيق أركان الإسلام، يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **اتقوا الله واصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم، وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم—** (2). فهذا حديث نبوى شريف، شامل لكل أركان الإسلام

(1) رواه الطبرانى عن ابن عباس ص49 من المرجع السابق.

(2) رواه الحاكم عن أبى أمامة ص5 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى.

عدا الحج، ومن عمل بما فيه دخل الجنة حسب بشارة الهادى البشير صلى الله عليه وسلم له.. وعن أداء ركن الحج روى أبو هريرة رضى الله عنه: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا**— (1) الحديث. وروى الشيخان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**— (2). وتلك بشارة أخرى من بشائر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لمن يخلص لله عز وجل في أداء حجه وعمرته...

وفى المجال الاجتماعى: إضافة إلى ما ذكر: ورد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إكرام الضيف أحاديث شريفة كثيرة، نذكر منها، قول النبی صلى الله عليه وسلم: **الضيف يأتي برزقه، ويرتحل بذنوب القوم يمحص عنهم ذنوبهم**— (3) وفى إجابة الدعوة إلى الوليمة يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **إذا دُعِيَ أحدكم إلى الوليمة فليأتها**— (4).. وفى آداب الأكل والشراب وردت أحاديث كثيرة، منها ما روى عن خلع النعلين عند تناول الطعام. وفيه يقول النبی صلى الله عليه وسلم: **إذا قُرِّبَ إلى أحدكم طعامه وفى رجله نعلان فليزع نعليه، فإنه أروح للقدمين وهو من السنة**— (5).. وعن عدم رفع اليد عن الطعام عند الشبع من الأكل مع جماعة حتى يبدأ الباقيون في رفع أيديهم، يقول النبی صلى الله عليه وسلم: **إذا أكل أحدكم مع جماعة وشبع، فلا يرفع يده حتى يرفع القوم، إنه ينجل**

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة ص190 من المرجع السابق.

(2) رواه الشيخان عن أبي هريرة ص191 من نفس المرجع.

(3) رواه أبو الشيخ عن أبي الدرداء ص92 من المرجع السابق. - يمحص: يبعد ويكشف.

(4) رواه البخارى ومسلم ص120 من نفس المرجع.

(5) رواه أبو يعلى عن أنس ص15 من نفس المرجع.

جليسه — (1).. وذلك حفاظاً على مشاعر الجالسين على مائدة الطعام.. وعن استعمال اليد اليمنى في الأكل وغيره، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِيَمِينِهِ، وَلْيُعْطِ بِيَمِينِهِ﴾** (2)..

وفى التسمية عند الأكل، يقول صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ﴾** (3).. وفى كيفية شرب الماء يأتى حديث نبوى شريف نذكره عندما يأتى دوره في المجال الصحى.. وفى الإقلال من الطعام وفائدته الكبرى يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا أَقْلَ الرَّجُلُ الطَّعْمَ مُلَيَّ جَوْفَهُ نُورًا﴾** (4).. وفى إطفاء الحريق، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إِذَا رَأَيْتُمْ الْحَرِيقَ فَكَبِّرُوا، فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يَطْفِئُهُ﴾** (5).. وفى كتمان قضاء الحوائج، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿اسْتَعِينُوا عَلَى قِضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالكَتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مُحْشُودٌ﴾** (6).. وفى الخطبة والنكاح وإتمامهما على خير، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **﴿أَظْهَرُوا النِّكَاحَ وَأَخْفَوْا الْخُطْبَةَ﴾** (7).. وهذا عكس ما يفعله الكثير من الناس في الخطبة حيث يسرعون في إعلانها دون تمهل وتريث حتى يتم الاتفاق بين الطرفين على كل الخطوات. ولعل هذا الحديث النبوى الشريف يكون درسا لمن يتعجل في الإعلان ثم لا يحدث اتفاق بين الطرفين، فيكون الحرج من

(1) رواه البيهقى ص17 من نفس المرجع.

(2) رواه الحسن عن سفيان ص11 من نفس المرجع.

(3) رواه الترمذى ص10 من نفس المرجع.

(4) رواه الديلمى عن أبى هريرة ص10 من نفس المرجع السابق.

(5) رواه ابن عساکر ص13 من نفس المرجع.

(6) رواه أبو نعيم عن معاذ بن جبل ص20 من نفس المرجع.

(7) رواه الديلمى عن أم سلمة ص23 من نفس المرجع.

الإعلان.. وفي إعطاء الأجير حقه قبل أن يجف عرقه وإعلانه بأجره أثناء عمله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه، وأعلموه أجره وهو في عمله﴾**—(1)..

وعن النظافة والتزين وأثرهما في التجاذب والتقارب بين الناس وخصوصا بين الزوج وزوجته، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يفعلوا ذلك، فزنت نساؤهم﴾**—(2).. وعن اختصاص قوم في قضاء مصالح الناس وأثر ذلك في دنياهم وآخرتهم يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: **﴿إن الله تعالى أقواما اختصهم بحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك هم الآمنون من عقاب الله﴾**—(3). ويقول صلى الله عليه وسلم: **﴿إن الله تعالى أقواما اختصهم بالنعمة لمنافع العباد، ويقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم، فحوها إلى غيرهم﴾**—(4).. وعن الإحسان في الذبح وقتل الحشرات ونحوها، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إن الله كتب الإحسان في كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته﴾**—(5).. وعن أدب الجلوس في الطرقات وبيان حق الطريق، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إياكم والجلوس في الطرقات﴾**—، فقالوا ما لنا من بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: **﴿فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها﴾**—،

(1) رواه البيهقي ص24 من نفس المرجع.

(2) رواه ابن عساکر عن عليّ ص25 من نفس المرجع.

(3) رواه الطبراني عن ابن عمر ص40 من نفس المرجع.

(4) رواه ابن أبي الدنيا عن ابن عمر ص40 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

(5) رواه مسلم ص43 من نفس المرجع. يحد شفرته: يسن سكينه قبل الزبح.

قالوا: وما حق الطريق؟ قال: **غَضُّ البَصَرِ**، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر — (1) .. وعن التهادى بين الناس والتحاب والمصافحة، وأثرها في التقارب الاجتماعى بين المسلمين، يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **تَهَادَوْا، تَحَابُّوا، وَتَصَافَحُوا يَذْهَبَ الْغُلُّ بَيْنَكُمْ** — (2) ..

وعن التنفير من الطعن في الناس ولعنهم وفحش القول وبذاءة اللسان، يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بَطَعَانٌ وَلَا لَعَّانٌ وَلَا فَاحِشٌ وَلَا بَذِيٌّ** — (3) .. وروى الشيخان عن عبد الله بن عمر: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا وكان يقول: **إِنْ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا** — (4) .. وعن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ. أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ** — (5) .. وعن عبد الله بن عمر: **لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ** — (6) .. فالواجب على المسلمين أن يهتدوا بهدى الله تعالى وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم.. وللتنفير من الحسد والنميمة والكهانة وخطورتها على الكيان الاجتماعى الإسلامى للفرد والأسرة

(1) رواه البخارى ص52، 53 من المرجع نفسه.

(2) رواه ابن عساكر ص62 من المرجع نفسه.

(3) رواه مسلم ص159 من نفس المرجع. طعان: يتناول أعراض الناس - بذى: سليط اللسان.

(4) رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر ص201 من نفس المرجع. - الفاحش: من يأتى بالقبیح من القول أو الفعل - والمتفحش: من يأتى بالكثير من ذلك.

(5) نفس الصفحة 201 من المرجع السابق - عتل: شديد جاف غليظ - جواط: سيئ الخلق وقيل الذي يتخلل القوم فيعيث فيهم فسادا.

(6) رواه الشيخان - نفس الصفحة من المصدر السابق.

والمجتمع، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه** — (1) ..

وهناك الكثير غير ما ذكرناه من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية في هذا المجال الاجتماعي، مما يساعد في إدخال السعادة على الفرد والأسرة والمجتمع وعلى المسلمين عامة صغارا وكبارا، ورجالا ونساء وليس مقصودا حصرها الآن، وحسبنا أن أشرنا إلى أهمها وأبرزها..

أما في المجال الاقتصادي: فهناك من الفوائد الاقتصادية الهامة ما يدفعنا إلى الحديث عنها علاوة على ما ذكرناه سابقا في الحديث عن مرحلة الشباب.. ففي لفظة نبوية كريمة يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض أسباب انقطاع الرزق عن الإنسان المسلم، فيقول صلى الله عليه وسلم: **إذا ترك العبد الدعاء للوالدين، فإنه ينقطع عنه الرزق** — (2) .. وعن فعل المعاصي وأثرها في حرمان الإنسان من رزق كان يساق إليه، يخبر الهادي البشير صلى الله عليه وسلم أمته عن ذلك فيقول: **إن الرجل ليُحرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه، لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر** — (3) .. وفي مسألة الزراعة وأمنها من العاهة ووقت ذلك، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **إذا طلعت الثريا أمن الزارع من العاهة** — (4) .. فهو صلى الله عليه وسلم يجتهد في أمر يخص المسلمين في ميدان الزراعة

(1) رواه الطبراني عن عبد الله بن يسر ص 125 من نفس المرجع السابق - الحاسد: من يتمنى زوال النعمة من الغير - النمام: من يذكر أخاه بما يكره - الكاهن: من يدعى علم الغيب.

(2) رواه الديلمي ص 11 من نفس المرجع السابق

(3) رواه ابن حبان عن ثوبان ص 73 من نفس المرجع

(4) رواه الطبراني ص 14 من نفس المرجع

والزراع. فإن أصاب صلى الله عليه وسلم فله أجر اجتهداه.. وعن تحسين التجار معاملتهم للناس ووجوب برهم بقسمهم وتقواهم لله رب العالمين يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إن التجار يبغثون يوم القيامة فجارا، إلا من اتقى الله وبر وصدق﴾** (1).. وعن بعض وسائل إنعاش الاقتصاد الفردى والأسرى واقتصاد المجتمع الإسلامى، ينبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وجوب التوسط في النفقة والمعيشة فيقول صلى الله عليه وسلم: **﴿الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم﴾** (2).. وينبه إلى وجوب التبكير في طلب الرزق فيقول صلى الله عليه وسلم: **﴿باكروا في طلب الرزق والحوائج فإن الغدو بركة ونجاح﴾** (3).. وفى لفظة نبوية كريمة أخرى ينبه صلى الله عليه وسلم إلى أن للوضوء أيضا شأن في مجال الرزق والاقتصاد، فيقول صلى الله عليه وسلم: **﴿الوضوء قبل الطعام وبعده ينفى الفقر، وهو من سنن المرسلين﴾** (4)..

ويحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من الطمع في أقوات الناس وأرزاقهم فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر﴾** (5). ويذكر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعا بحق إخوانهم الفقراء والمحتاجين في جزء من أموالهم، بإخراج زكاة أموالهم إذا بلغت نصابا وحال عليها الحول، ويذكرهم أيضا بصدقة التطوع التي تكثر الرزق ولا تقلله كما قد يتصور بعض الناس، فيقول صلى الله عليه

(1) رواه الترمذى ص 44 من نف المرجع

(2) رواه الطبرانى عن ابن عمر ص 51 من نفس المرجع

(3) رواه ابن عدى عن عائشة ص 54 من نفس المرجع السابق

(4) رواه الطبرانى عن ابن عباس ص 156 من نفس المرجع.

(5) رواه الطبرانى ص 52 من نفس المرجع.

وسلم: ⁽¹⁾ إن مفاتيح الرزق متوجهة نحو العرش، فينزل الله تعالى على الناس أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثر كُثر له، ومن قلَّ قلَّ له —
(1) ...

وقد تحدثنا سابقا عن بعض المخاطر التي تدمر الاقتصاد الفردي والأسرى والمجتمعي، ومنها: الربا وخطره على الاقتصاد والرزق. وفي هذا المجال يحذر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة الإسلامية من طائفة من الناس تؤثر بالسلب على اقتصاد الفرد والأسرة والمجتمع، وهم المستخدمون للرشوة في الوصول إلى الربح بطريقة سريعة مختصرة لا جد فيها ولا نصب، ولكنها غير شرعية. وعن مصير هذه الطائفة الخاسرة والمضيعة لأسرها ومجتمعها يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ⁽²⁾ الراشي والمرتشى في النار — (2). ذلك لأن هذه الطائفة تصل إلى أهدافها غير المشروعة على حساب الكادحين من أفراد المجتمع الإسلامي والذين هم أحق منها في الوصول إلى ما تصل إليه. ولمن أراد من المسلمين التماس البركة في الرزق أن يسلك طريق الأمانة في تعاملاته الاقتصادية مع الأفراد والأسر والمجتمعات الإسلامية. وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ⁽³⁾ الأمانة تجلب الرزق، والخيانة تجلب الفقر — (3)....

فإذا انتقلنا إلى المجال الصحي: وجدنا كثرة كثيرة من توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين عامة وأفراد وأسر وجماعات، تجعلهم يتمتعون بالسعادة الحقيقية وبالصحة المتميزة في ظل توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة..

(1) رواه الدارقطني عن أنس ص 42 من المرجع السابق.

(2) رواه الطبراني ص 82 من المرجع السابق.

(3) رواه الديلمي ص 27 من المرجع السابق.

ففى توجيه منه صلى الله عليه وسلم إلى عدم الإكثار من الأكل في الوجبة الواحدة، يقول صلى الله عليه وسلم: **أَحْبَبُكُمْ إِلَى اللَّهِ أَقْلُكُمْ طَعْمًا وَأَخْفُكُمْ بَدَنًا** — (1).. فالرشاقة والصحة والسعادة في عدم ملء المعدة بالطعام، حتى يتمكن المسلم من تقوى الله وعبادته حق العبادة، وأداء عمله خير أداء.. وفى كثرة الأكل وما يترتب عليها من مداومة النوم والكسل والتأخر في إنجاز الخير النافع للناس، يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **أَخْشَى مَا خَشِيتَ عَلَى أُمَّتِي: كِبَرُ الْبَطْنِ، وَمُدَاوِمَةُ النَّوْمِ وَالْكَسَلِ، وَضَعْفُ الْيَقِينِ** — (2).. كما ينبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الفائدة العظمى للإقلال من الطعام في المجال الروحى، فيقول صلى الله عليه وسلم: **إِذَا أَقْلَ الرَّجُلُ الطَّعْمَ مُلِيَ جَوْفُهُ نَوْرًا** — (3).. وهذا النور ينفعه في دنياه وآخرته فيحس بالسعادة في الدارين.. وعن الرقية الشرعية التي وجه النبى صلى الله عليه وسلم أنظار المسلمين إليها بدلا من استشارتهم للدجالين وإخوان الشياطين، يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: **إِذَا اشْتَكَيْتَ فَضَعْ يَدَكَ حَيْثُ تَشْتَكِي، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ مِنْ وَجَعٍ هَذَا، ثُمَّ ارْفَعْ يَدَكَ ثُمَّ أَعِدْ ذَلِكَ وَتَرَا** — (4)..

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: **اسْتَشْفُوا بِمَا حَمَدَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمَدَهُ خَلْقُهُ، وَمَا مَدَحَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ "الْحَمْدُ لِلَّهِ" (5) و"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فَمَنْ لَمْ يَشْفِهِ الْقُرْآنَ فَلَا شِفَاءَ أَحَدٌ** — (6). فقراءة سورتي

(1) رواه الديلمى عن ابن عباس ص7 من المرجع السابق.

(2) رواه الدار قطنى عن جابر ص7 من المرجع السابق - كبر البطن: كثرة الأكل - اليقين: الثبات والتوكل على الله.

(3) رواه الديلمى عن أبى هريرة ص10 من نفس المرجع.

(4) رواه الترمذى عن أنس ص10 من المرجع نفسه.

(5) قوله ■ الحمد لله فيه إشارة إلى قراءة الفاتحة للاستشفاء بها.

(6) رواه ابن نافع عن رجاء الغنوى ص20 من المرجع نفسه.

الفاتحة والإخلاص تشفى من المرض ومن هذا القبيل كذلك، ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: **﴿ألا أُرقيك برقية رقاني بها جبريل، تقول: "بسم الله أُرقيك، والله يشفيك، من كل داء يأتيك، من شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد، ترقى بها ثلاث مرات— (1)﴾**. ومن ذلك ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن الرقية من الحسد: **﴿في كتاب الله ثمانُ آياتٍ لِلْعَيْنِ الفاتحة، وآية الكرسي— (2)﴾**. وعن الطريقة الصحية لشرب الماء يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿إذا شربتم الماء فاشربوه مَصًّا، ولا تشربوه عَبًّا فإنَّ العَبَّ يورثُ الكُباد— (3)﴾**. وعن خطورة النوم بعد طعام العشاء مباشرة وآثاره السلبية على الجسد، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿أذنبوا طعامكم بذكر الله ولا تناموا عليه فتفسد قلوبكم— (4)﴾**. وعن كثرة الأكل والشرب وملء المعدة بهما، يحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعا فيقول: **﴿إياكم والبطنة في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسم تورث السقم عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد، وأبعد عن السرف— (5)﴾** فهما يؤديان إلى الإعياء والتكاسل عن الصلاة والعمل والجهاد.. فهناك طائفة من بنى إسرائيل وهم الذين بع

لهم طالوت ملكا ليقاتلوا في سبيل الله. قال لهم طالوت: **﴿إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا**

(1) رواه الحاكم ص48 من نفس المرجع.

(2) رواه الديلمي عن عميران بن حصين ص104 من نفس المصدر.

(3) رواه الديلمي ص14 من نفس المرجع - العب: مقابل المص - الكباد: مرض الكبد والكلى والطحال.

(4) رواه أبو نعيم في الطب عن عائشة ص17 من نفس المصدر.

(5) رواه البخارى ص 52 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

مَنْ أَعْتَرَفَ عُزْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ { الآية [البقرة: ٢٤٩]. والشاهد أن جنود طالوت لما ملئوا بطونهم من ماء النهر ضعفت همتهم عن الجهاد بسبب إعيائهم.. وبالإضافة إلى ذلك يؤدي ملء البطن بالطعام والشراب إلى تعمد الإسراف المالى..

وفى لفظة نبوية كريمة أخرى يحذر النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين جميعاً من البول في المقابر ومن خطورة ذلك على صحة المسلم، فيقول صلى الله عليه وسلم: **إياكم والبول في المقابر فإنه يورث البرص** — (1). وهذا تحذير يوجهه صلى الله عليه وسلم إلى الشباب بصفة خاصة وإلى المسلمين والمسلمات بصفة عامة ليحذروا أبناءهم من ذلك. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **قال الله تعالى: إذا بلغ عبدى أربعين سنة عافيتة من البلى الثلاث: من الجنون، والجذام، والبرص** — (2) الحديث - وإن فذاك التحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجه بالدرجة الأولى لمن لم يتجاوز الأربعين من الشباب. عافانا الله وإياكم من كل داء.. وعن ضرورة التداوى من العلل والأمراض للأخذ بالأسباب، وعدم الاستسلام للمرض، يقول النبى صلى الله عليه وسلم: **تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، غير داء واحد: الهرم** — (3). وعن إخراج الصدقة والتصدق لشفاء المريض والدعاء له وللمبتلى، يقول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم: **حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدعاء** — (4). وعن أخذ الدماء من الرأس

(1) رواه الديلمى ص51 من نفس المصدر..

(2) من حديث رواه الحكيم عن عثمان ص106 من نفس المرجع.

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده ص59 من نفس المرجع.

(4) رواه الخطيب عن ابن مسعود ص66 من نفس المرجع.

بقصد الشفاء من المرض، يقول النبي صلى الله عليه وسلم
:الحجامة تنفع من كل داء، ألا فاحتجموا—⁽¹⁾.. وعن صب الماء
على الجسد أو وضع الكمادات لتخفيف الحمى، يقول المصطفى
صلى الله عليه وسلم :الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ—⁽²⁾..

وللتحذير من الإسراع في المشى وضرر ذلك على صحة
الإنسان المؤمن، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :سرعة المشى
تذهب بهاء المؤمن—⁽³⁾. فالتأني والتؤدة سمة من سمات المؤمن حتى
في المشى. ومن فوائده عند المؤمن أنه يحفظ بهاءه وجماله عند الله
والناس، إذ أنه يشغل نفسه بذكر الله بدلا من أن يشغلها بسرعة
المشى.. وعن أهمية التسوك والسواك وبعض فوائده، يقول الهادي
البشير صلى الله عليه وسلم :السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب،
مجلاة للبصر—⁽⁴⁾. فمن فوائد السواك التي عددها رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه: يطهر الفم والأسنان من الميكروبات وأنه يرضى
رب الأرض والسموات، وأنه يقوى الإبصار ويجعله واضحا جليا..
وفى لفظة نبوية كريمة ينبه رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين
جميعا الى احتواء تراب الأرض على عنصر يقتل ميكروب الكلب
وفى إخباره صلى الله عليه وسلم عن ذلك منذ أكثر من أربعة عشر
قرنا من الزمان ما يوضح كرامة رسول الإنسانية محمد صلى الله
عليه وسلم وصدق نبوته. إذ أن الطب العالمى لم يصل إلى تلك
الحقيقة إلا في العصر الحديث، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في
ذلك:طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات،

(1) رواه الديلمى ص68من نفس المرجع.

(2) رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس 70 من نفس المرجع.

(3) رواه أبو نعيم ص85 من نفس المرجع.

(4) رواه الطبرانى ص17من نفس المرجع.

أولاهن بالتراب — (1) فغسل هذا الإناء بالتراب أول مرة يميت ميكروب الكلب..

وعن التنبيه إلى خطورة الطاعون، وما يلزم من إجراءات لعدم انتشاره، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **الطاعون بقية من رجز، أو عذاب أرسل إلى طائفة من بني إسرائيل، فإذا وقع بأرض، وأنتم بها، فلا تخرجوا منها فرارا منه، وإذا وقع بأرض ولستم بها، فلا تهبطوا عليها — (2)**.. وعن واجب عيادة المريض للتخفيف عنه، يقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم: **عائد المريض يخوض في الرحمة، فإذا جلس عنده غمرته الرحمة — (3)**. فرحمة الله تعالى واسعة تتال عائد المريض وتخفف عن المريض نفسه من عناء المرض..

وعن بعض الفوائد الصحية التي يجنيها المسلم من قيامه الليل؛ يقول الطبيب الأول للمسلمين محمد صلى الله عليه وسلم: **عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى الله تعالى ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء من الجسد — (4)**.. فقيام الليل سلوك الصالحين وطابعهم، وهو تقرب إلى رب العالمين سبحانه، وفي فعله نهي عن الإثم، وفيه تكفير للسيئات والذنوب التي يقتربها المسلم، وهو بعد كل ذلك يطرد الأمراض من الجسد. فأى سعادة بعد ذلك ينالها قائم الليل أو حتى جزء منه.. ولفتة نبوية أخرى من لفتاته

(1) رواه مسلم ص95 من المرجع نفسه. ومن المعروف أن تراب الأرض أحد العناصر التي تكونها. وأن الشمس بما فيها من أشعة بعضها قاتلة تتسلط على الأرض نهارا، فتكسيها بعض خصائصها. والله ورسوله أعلم.

(2) رواه الشيخان نفس الصفحة من المرجع السابق. وهذا يفسر ما تقوم به سلطات الدولة الآن من إجراءات لعدم انتشار إنفلونزا الطيور والخنازير.

(3) رواه أحمد عن أبي أمامة ص96 من نفس المرجع.

(4) رواه أحمد في مسنده عن بلال ص99 من نفس المرجع.

صلى الله عليه وسلم إلى ما ينفع المسلمين، يوضح فيها رسول الإنسانية أمرا يغفل عنه كثير من الناس. فكلنا يدخل الحمام ويغتسل بالماء الساخن. لكن غسل القدمين بالماء البارد بعد الحمام الساخن له فائدة يبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: **غسل القدمين بالماء البارد بعد الخروج من الحمام أمان من الصداع** — (1). وعن تغطية الإناء وتوكئة السقاء اتقاء للوباء، يقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم: **غطوا الإناء، وأوكلوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء لم يغط ولا سقاء لم يوكأ إلا وقع فيه من ذلك الوباء** — (2). وعن إحدى فوائد أكل التمر يقول الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم: **كلوا التمر على الريق فإنه يقتل الدود** — (3).

وعن ماء زمزم وشفائه من الأمراض بإذن الله تعالى وعن بعض فوائده الهامة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ماء زمزم لما شرب له، من شربه لمرض شفاه الله، أو لجوع أشبعه الله، أو لحاجة قضاها الله. ماء زمزم شفاء من كل داء** — (4). وعن الصبر على ذهاب نعمة البصر وجزاء ذلك الابتلاء عند الله عز وجل، يقول الهادي البشير صلى الله عليه وسلم: **ما أصيب عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره، وما ذهب بصر عبد فصبر إلا دخل الجنة** — (5). وكثير من الناس الآن يفقدون بصرهم بسبب مرض السكر. وعن صبر المسلم على ما

(1) رواه أبو نعيم ص101 من نفس المرجع - بعد الخروج من الحمام مقصود منه بعد انتهائه من حمامه.

(2) رواه أحمد في مسنده ورواه مسلم في صحيحه ص 101 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي - أوكلوا السقاء: أسندوه إلى حائط أو نحوه حتى يكون محكم الغلق.

(3) رواه الديلمي عن ابن عباس ص112 من المرجع السابق.

(4) رواه الديلمي ص126 من المرجع السابق.

(5) رواه الخطيب عن بريدة ص127 من نفس المرجع السابق.

يصيبه من النصب والوصب (المرض) والهم والأذى والغم وجزاؤه عند الله على ذلك، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها﴾** (1).. وعن مرض الصرع وجزاء صبر مَنْ أصيب به، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿ما من عبد يصرع صرعة من مرض إلا بعثه الله منها طاهرا﴾** (2)..

وعن ثبوت الأجر عن الأوراد التي يؤديها المسلم في كل يوم وليلة أو نحو ذلك وعجزه عن أدائها في حالة مرضه، يبشر النبي صلى الله عليه وسلم قُرَاء تلك الأوراد بثبوت الأجر عنها في حالة المرض، فيقول صلى الله عليه وسلم: **﴿ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة أن يكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل ما دام محبوسا في وثاقي﴾** (3).. وعن ثواب كتمان المرض والوجع وعدم الشكاية منه للناس، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **﴿من أصيب بمصيبة في ماله أو جسده، وكتمها ولم يشكها للناس، كان حقا على الله أن يغفر له﴾** (4)..

وعن شرب العسل وشفائه من الأمراض لمن داوم على شربه بالقدر الذي يؤثر على فاعلية المرض، يقول الطبيب الأول للمسلمين صلى الله عليه وسلم: **﴿مَنْ لَقِيَ العسل ثلاث غدوات كل شهر، لم**

(1) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، ص128 من المرجع السابق. الوصب: المرض.

(2) رواه الطبراني عن أبي أمامة ص132 من نفس المرجع.

(3) رواه الحاكم عن ابن عمر ص134، 135 من نفس المرجع - محبوسا في وثاقي: أي مريضا.

(4) رواه الطبراني عن ابن عباس ص140 من نفس المرجع.

يصبه عظيم من البلاء— (1).. ومن ذلك أيضا، حديث أبى سعيد، أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: أخى يشتكى بطنه. فقال: اسقه عسلا— ثم أتاه فقال: فعلت. فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلا— فسقاه فبرأ (2). وقد لا يُشفى المريض بشرب العسل من أول مرة. ولذلك كرر الرسول صلى الله عليه وسلم أمره للرجل بأن يسقى أخاه عسلا، فلما أعاد سقيه شفى تصديقا لقول الله عز وجل: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} الآية [النحل: 69]. وفى النهى عن أكل الطعام الساخن حتى يمكن أكله بعد أن تخف حرارته دون ضرر لأكله، يقول الطبرانى: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الطعام الحار حتى يُمكن " (3)..

وفى النهى عن النفخ فى الطعام والشراب حتى لا يضار أحد من نفس مريض أو ريقه، يروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نهى عن النفخ فى الطعام والشراب " (4).. وعن ضرر البول فى الماء الراكد ثم الغسل فيه والوضوء، يقول النبى صلى الله عليه وسلم: لا يبولن أحدكم فى الماء الذى لا يجرى ثم يغتسل فيه— (5) ومثل الغسل الوضوء فالغسل أو الوضوء من هذا الماء الراكد بعد البول فيه يعرض المسلم لانتقال الميكروبات الضارة إليه من هذا الماء فضلا عن عدم صحة الغسل فيه والوضوء منه..

(1) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة ص148 من نفس المرجع - غدوات: مفردھا غدوة وهى من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس.

(2) أخرجه البخارى فى 76 كتاب الطب 4 - باب الدواء بالغسل ص67 من الجزء الثالث من اللؤلؤ والمرجان - محمد فؤاد عبد الباقي - فعلت: أى سقيته فلم يُشف - برأ: شفى.

(3) رواه الطبرانى ص154 من مختار الأحاديث النبوية - حتى يمكن: أى حتى يمكن أكله بعد أن تخف حرارته.

(4) أرواه ابن عباس نفس الصفحة من المرجع السابق.

(5) رواه البخارى ص159 من المرجع نفسه.

فإذا انتقلنا إلى مجال طلب العلم ووجوب التعلم - لوجدنا كمًّا كثيرًا من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحت على العلم وطلبه ومذاكرته والاستفادة منه وعن السؤال وكيفيته وغير ذلك من الأمور المتصلة بالعلم. ولا شك أن ممارسة العبادة لله رب العالمين وحده وطاعة الله تعالى ورسوله والانتهاز عما نهيا عنه كل ذلك يتطلب أن يكون المسلم عالما بعبادته وممارساته في طاعة الله ورسوله والانتهاز عما نهيا عنه. حتى يكون العمل أرجى في القبول وأكثر في الثواب.. ونورد هنا طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في ذلك حتى تكتمل الفائدة لدى القارئ الكريم...

فعن فريضة طلب العلم ووجوب الالتزام بأدائها وأجرها عند الله تعالى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر — (1)**.. وقد أشرنا سابقا إلى نص حديث نبوى شريف يشير إلى أن طلب العلم فريضة على المسلمين أيضا.. وعن الغرض الشرعى من طلب العلم يقول معلم البشرية صلى الله عليه وسلم: **العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكثر به الكنوز هاب من كل شيء — (2)**.. وعن قيمة العلماء وفضلهم يقول حبيب الخلق والخالق صلى الله عليه وسلم: **العلماء أمناء الرسل، مالم يخالطوا السلطان، ويدخلوا الدنيا. فإن خالطوا السلطان ودخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم — (3)**..

ويوجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى حسن السؤال عند طلب

(1) رواه ابن عبد البر عن أنس ص93 من نفس المرجع.

(2) رواه الديلمى عن أنس ص99 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى.

(3) رواه العقيلي عن أنس ص100 من نفس المرجع

العلم فاللسؤال وقت ولا يصح أن يثار قبل وقته وله أدب يحسن التحلى به، ويقول صلى الله عليه وسلم في ذلك: ﴿الاعتصام في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم— (1) وقد قال عز وجل في وقت السؤال وحسنه على لسان الخضر عليه السلام في اتفاقه مع موسى على الصحبة للعلم: {إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [الكهف: ٧٠].. وعن تواضع المتعلم لمعلمه يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تتعلمون منه— (2) .. فأين متعلموا اليوم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلا سكينة ولا وقار ولا تواضع ومن ثم فلا تعلم.. وعن عمل العالم بما عمل ووجوب ذلك، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿تعلموا من العلم ما شئتم فوالله لا تؤجرون بجمع العلم حتى تعملوا— (3) وإذن فلا ثواب ولا أجر للعالم إلا إذا عمل بما علم.. وعن منزلة العلماء في الأمة يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿خير أمتي علمائها، وخيار علمائها رُحماؤها، ألا وإن الله تعالى ليغفر للعالم أربعين ذنبا، قبل أن يغفر للجاهل ذنبا واحدا، ألا وإن العالم الرحيم يحيي يوم القيامة، وإن نوره قد أضاء يمشي فيه ما بين المشرق والمغرب، كما يضيء الكوكب الدرى— (4) .. وإزاء هذه المنزلة للعالم في دنياه وآخرته لا ينبغي أن يكتف شيئا من علمه، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أيها رجل آتاه الله علما فكتمه، أجمه الله يوم

(1) رواه الطبراني عن ابن عمر ص51 من نفس المرجع.

(2) رواه أبو نعيم عن عمر ص60 من نفس المرجع.

(3) رواه أبو الحسن بن الأخرم عن أنس ص61 من نفس المرجع.

(4) رواه القضاعى عن ابن عمر ص73 من نفس المرجع. الدرى: المتلألا الوضاء.

القيامة بلجام من نار — (1) ..

وعن فضل العالم على العابد يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: **﴿فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم، إن الله عز وجل، وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلون على معلم الناس الخير﴾** (2) .. وعن الخروج في طلب العلم وفضله يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿ما خرج رجل من بيته يطلب علما، إلا سهل الله له طريقا إلى الجنة﴾** (3) .. وعن الفتوى بغير علم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض﴾** (4) .. ومن كرامة العلماء أن يختصهم الله عز وجل فيمن اختصه للشفاعة يوم القيامة. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **﴿يشفع يوم القيامة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء﴾** (5) فهو لاء في مقدمة من له حق الشفاعة من البشر تكريما لهم ومنهم العلماء... وعن مهمة العلماء الجليلة يقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب عندما بعثه معلما لأهل اليمن: **﴿فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمُر النعم﴾** (6) ...

وعلى الرغم من ذكر هذا الكم الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة النافعة للمسلم والمسلمة والصغير والكبير، في كل مجالات

(1) رواه الطبراني ص 51 من نفس المرجع.

(2) رواه الترمذى ص 103 من نفس المرجع.

(3) رواه الطبراني عن السيدة عائشة ص 129 من نفس المرجع.

(4) رواه ابن عساكر ص 141.

(5) رواه ابن ماجه 160 من نفس المصدر.

(6) رواه الشيخان عن سهل بن سعد ص 167 من نفس المرجع - حمر النعم: أفضل أنواعها من الإبل والبقر والغنم.

الحياة - فإننا لو تتبعنا السنة النبوية المباركة بما فيها من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، لوجدنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يترك شيئاً سئل عنه، أو أحس صلى الله عليه وسلم بحاجة الناس إليه، إلا تحدث عنه.. ومع أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بتبليغ مبادئ وأركان الدين الإسلامى وآدابه إلى الناس جميعاً، وليس مكلفاً بإبداء رأيه في الأمور الدنيوية إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في توجيه الناس حسب استطاعته عندما يُسأل، تبركا برأيه صلى الله عليه وسلم. وفى ذلك إسعاد لأصحابه وأمتة من بعدهم. فإذا أصاب في شئ منها أجر على ذلك باعتباره ناصحاً أميناً للمسلمين. وإذا جانبه الصواب مرة أو أخرى، فلن يحاسب صلى الله عليه وسلم على إبداء رأيه في هذه الأمور التي يعرفها المتخصصون فيها أكثر من غيرهم.. فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد في كل لحظة ونفس عدد ما وسعه علم الله تبارك وتعالى...

* * *

الباب السابع

أسباب التعثر في الحياة
الزوجية

الباب السابع:

أسباب التعثر في الحياة الزوجية

عرضنا في الأبواب الستة السابقة برنامج القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة للوصول إلى سعادة الأسرة المسلمة. وتحدثنا عن أركان هذا البرنامج وكافة العوامل المكملة له. وتأكد القارئ الكريم أن هذا البرنامج الإسلامي يُوصَّل كل من التزم به التزاما كاملا إلى السعادة المنشودة. لكن غير الملتزم به لن يحس بهذه السعادة وبقدر التزام المسلم به تكون سعادته. وبقدر تركه له وعدم التقيد به يكون شقاؤه..

ويأخذ عدم الالتزام بهذا البرنامج الإسلامي الموصول إلى السعادة الأسرية - أشكالا كثيرة تمثل في جملتها ما يطلق عليه أسباب التعثر في الوصول إلى السعادة المرجوة من الزواج. وفيما يلي نتحدث إن شاء الله - عن أسباب هذا التعثر، وعلاجها في ضوء ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة عن هذا المجال..

أولا: اختلاف الدين بين الزوجين:

إن الدين الإسلامي الحنيف يبيح للرجل المسلم أن يتزوج من غير المسلمة، ولا يبيح لغير المسلم أن يتزوج من المسلمة.. فلا مانع ولا حرج إذن من أن يتزوج المسلم بغير المسلمة، فهو بقوة إيمانه وقوة شخصيته، يستطيع جذب زوجته غير المسلمة إلى الدخول في الإسلام. وخصوصا عندما ترى وتلمس حسن معاملته لها وللآخرين داخل المنزل وخارجه، وعندما تظهر أمامها أخلاقه الطيبة، وصفاته الحسنة، وطيب مبادئ وتوجيهات الإسلام الذي يعتنقه. فتحس عندئذ

بحاجتها إلى الدخول في الإسلام واعتناق مبادئه وإقامة أركانها فتعلن إسلامها أمام جميع الناس ولا تخشى في الله لومة لائم. أما غير المسلم فيكون مع زوجته المسلمة على العكس من ذلك تماماً، فهو بعقيدته غير الإسلامية، تميل شخصيته إلى التعصب لها دون أن يستخدم عقله في بيان أسباب ذلك. مع أنه يستطيع البيان بمقارنة بسيطة، بين عقيدة زوجته وهي الإسلام وعقيدته هو غير الإسلامية. ولو استعمل عقله وقارن بين العقيدتين لتوصل إلى الحق الواضح الصريح ولترك زوجته وعقيدتها مادام غير مقتنع بها. لكنه في الواقع يحاول العكس، يحاول أن يستميل زوجته ويخرجها من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر. وهكذا تبدأ حياتهما الزوجية بصدام قوى بين عقيدتها الإسلامية وعقيدة زوجها الذي لا يدين بالإسلام. وخصوصاً إذا كانت متمسكة بدينها الإسلامي وحريصة على بقائها في ظلال العقيدة الإسلامية. ومن الطبيعي أن ينتهي الصدام بينهما إلى التفرق على مبدأ {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦] مادام طرف منهما لم يقتنع بمبدأ التسامح واستخدام العقل في المسائل العالقة بينهما..

لكن العقيدة الإسلامية منذ البداية تحتكم إلى العقل. فربنا الرحمن الرحيم يقول في محكم كتابه حاسماً هذا الأمر: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُوْمِنَ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُوْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [البقرة: ٢٢١].. " ففي الآية الكريمة تحذير للمسلمين من ارتباط بناتهم بالمشركيين، عن طريق الزواج، سواء كانوا وثنيين أو من أهل الكتاب. إلا إذا آمن هؤلاء الأزواج بالله عز وجل، وبرسوله محمد

صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.. ومن المؤكد أن زواج المؤمنة الحرة من عبد مؤمن أفضل بكثير لها وله من زواجها من حر مشرك، وثنيا كان أم من أهل الكتاب، مهما أعجبها ذلك الحر ففي حسبه ونسبه وكماله. فربنا عز شأنه وجل يدعوها من خلال الإسلام وأركانها وتوجيهاته إلى الجنة لكن هذا المشرك يدعوها بكذب وكبرياء وإنكار للحق إلى النار، مصير الكفر والفسوق والعصيان⁽¹⁾. ويحاول تجنيد من يستطيع تجنيده للدخول في دائرة الكفر وما دام الأمر كذلك فمن حق المسلمين ألا يتزوجوا من بنات هؤلاء الكفرة إلا إذا أسلمن، وألا يزواجهن بناتهم إلا إذا أسلموا..

والمرأة المؤمنة كالرجل المؤمن. لا بد لها من ممارسة العبادة الخالصة لله عز وجل.. فإذا آمنت امرأة وثنية أو من أهل الكتاب وأعلنت إسلامها، والتزمت طريق الإيمان والتقوى، حسب ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - فعندئذ يطمئن قلب المؤمن لممارسة الحياة الزوجية معها، بعد أن تحولت من الكفر الخالص إلى الإيمان الخالص بالله الواحد القهار.

لكن المهم هنا هو أن خطر المواجهة لها ولزوجها المسلم من جانب أهلها غير المسلمين - ماثل ووارد في الحسبان. وبالتأكيد ستكون مواجهة قوية وعنيفة لا مكان فيها للعقل والتعقل بل للقوة والخطورة. فغير المسلمين من أهل الزوجة التي أسلمت يتعصبون ضد موقف ابنتهم لأن مبادئهم تختلف عن مبادئ الإسلام. فليس من السهل أن يتبادلوا مع زوج ابنتهم وأهله الود والتسامح. فهذا غذاء

(1) بتصرف من القسم الأول من صفوة التفاسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني ص 127.

روحي لا يتواجد إلا في الشريعة الإسلامية، التي يتعامل الناس في ظلها على أساس هذا الغذاء المعنوي في شئون حياتهم اليومية الإسلامية.. بيد أن⁽¹⁾ غير المسلمين يتخذون مبدأ مخالفا، يعبر عن سير علاقتهم مع غيرهم من الناس. فهم دائما يقولون: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دينَكُمْ} [آل عمران: ٧٣] الآية.. وإذن فزواج المسلم من الوثنيات أو من بنات أهل الكتاب مباح، لكنه يصطدم بعقبة المواجهة القوية من جانب أهاليهن غير المسلمين. وبالتالي ستكون هذه الحياة الزوجية بصفة دائمة مهددة بالانتقام، الذي يحيل سعادة الزوجين إلى شقاء، ويتطلب استعداد الزوج المستمر، وحذره من عمل عدائي قد يدفع حياته ثمنا له..

والأمثلة على ذلك كثيرة. فذاك فتى ينتمى إلى أسرة محترمة عائلها رجل من رجال الدين الإسلامى. شاء له قدره أن يتعلق قلبه بابنة جاره غير المسلم. وبادلتها الفتاة حبا بحب. وعندما تمكن حبه من قلبها، اتخذت خطوة يقل أن تخطوها فتاة مثلها. فدرست العقيدة الإسلامية وأركانها، ومبادئها وتوجيهاتها، دراسة عميقة، بعيدا عن موقف أهلها، واقتنعت بها. ولكنها تعلم أن عقيدة أهلها لا تمكنها من الزواج من هذا الشاب المسلم، الذي ملك قلبها. فاتخذت خطوة أخرى أشد جرأة حيث أسلمت بعد اقتناع كامل بالإسلام، واتخذت طريق الإيمان والتقوى طريقا سرى لها، وتأكد فتاها من ذلك، فأعلنت إسلامها وتزوجته. وما أن علم أهلها بذلك حتى أعلنوا رفضهم لهذا الزواج لكنهم رأوا ابنتهم ثابتة على عقيدتها الجديدة، غير عابئة برفضهم وغضبهم منها، مصرة على استمرار حياتها الزوجية مع هذا الشاب المسلم. وعندئذ قرووا الانتقام.. وحذرت الفتاة الحديثة في

(1) بيد أن: أى على حين.

إسلامها المتمكنة منه - زوجها المسلم من المواجهة ونية الإيذاء. لكن الحذر لا يمنع القدر. فقد ترصد أهلها لابنتهم وزوجها ورأوهما يركبان سيارة، فأطلق أحدهم رصاصة استقرت في العمود الفقري للزوج فقصمته. وكانت العاقبة المتوقعة. فهو الآن يقضى بقية حياته طريحا في فراشه، أو جالسا على كرسي متحرك.. وهكذا يتسبب التعصب الأعمى وعدم استخدام العقل، في جعل الاختلاف في العقيدة سببا من أسباب تعثر الحياة الزوجية وتحويلها من حياة مليئة بالسعادة في ظلال الإسلام ومبادئه، إلى حياة مليئة بالتعاسة والشقاء لم تكتمل بهجتها وحلاوتها، ولم يتمتع طرفاها بالسكن والمودة والرحمة..

ومن المؤكد أن ثواب هذا الشاب وفتاته عظيم وأجرهما كريم، يوم القيامة، يتمتع معها في جنات النعيم الدائم. لكن العمل من أجل الدنيا مطلوب أيضا مع العمل للآخرة.. وصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر عليا بن أبي طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - بهذا الأجر الأخرى عندما سلمه الراية يوم خيبر أميرا للجيش الإسلامي، فقال صلى الله عليه وسلم: **﴿فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم﴾** (1) - إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى قال عن وجوب السعى إلى الخير في الدنيا: **﴿اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا﴾** (2).. وقال أيضا عن نفس هذا الغرض: **أصلحوادنياكم**

(1) من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ ص104، ص 105 من كتاب فتح المجيد - شرح كتاب التوحيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - الطبعة الأولى 1405 هـ. حمر النعم: الإبل الحمر وهي أنفس أموال العرب.

(2) رواه ابن عساکر ص 25 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي.

واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا— (1).

فلا بد أن يعد المسلم العدة لحياة دنيوية سعيدة مع من يختارها زوجة له. وفي النهاية نجد أن قضاء الله وقدره في عباده وخلقه نافذ لا محالة. فطوبى لمن يرضى بقضائه وقدره سبحانه، مع الأخذ بالأسباب التي تنجى من كيد الشيطان وحزبه. وقد أخبرنا العلي القدير أن كيد الشيطان ضعيف. يستطيع قوي الإيمان أن يغلبه، حيث قال أصدق القائلين جل شأنه: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [الآية [النساء: ٧٦]]. فبالإرادة القوية وحب الإسلام ومبادئه يغلب المسلم الشيطان، ويمنعه من إفساد عبادته لله الواحد القهار.

ثانياً: عدم تطبيق أسس ومبادئ وتعاليم ونظم الإسلام في الحياة الزوجية:

إن المسلم في ضلال أسس الإسلام ومبادئه وتعاليمه ونظمه - مطالب بالعمل والتمسك بهذه الأسس والمبادئ والتعاليم والنظم الإسلامية التي تسير حياته مع الدنيوية والأخروية. وقد علمتنا تلك الشريعة الإسلامية بشقيها، القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة - أن الإسلام له نظام شرعى يجب اتباعه في الزواج.. ففى منهج الزواج الإسلامى: أسس لاختيار كل من الزوجين للآخر، وآداب للخطبة، وشروط لصحة العقد والزواج، وحقوق وواجبات يلتزم بها كل من الزوجين في ممارسته للحياة الزوجية الإسلامية. كما أن هناك منهجا إسلاميا كاملا لمراعاة الحمل والرضاعة ومراحل نمو الطفل، منذ اللحظات الأولى للولادة وحتى مرحلة الكبر..

ولقد تناولنا كل ذلك في الأبواب السابقة. وكلما التزم الزوجان

(1) رواه الديلمى عن أنس ص22من المرجع السابق.

بهذه الأسس والآداب والشروط والنظم الإسلامية كلما فازا في الدارين بنصيب وافر من السعادة. وسوف يتضح للقارئ الكريم أن كثيرا من المشاكل - إن لم تكن كلها - التي تربك الحياة الزوجية وتعطلها بل وتدمرها في كثير من الأحيان، تنتج عن عدم التمسك بالنظام الإسلامي السامي الذي يحافظ على الحياة الزوجية، ويسيرها في مسارها الصحيح. فإغفال الزوج أو الزوجة للمنهج الإسلامي اليومي في تعامل كل منهما مع الآخر - يوقعهما في شباك الشيطان الرجيم، ويوصل زواجهما إلى طريق ملبد بالعواصف إن لم يكن مغلقا. وينعكس ذلك بطبيعة الحال، على ثمرة هذا الزواج من البنين والبنات إن وجدوا.. ونذكر لك عزيزي القارئ أمثلة من واقع الحياة الزوجية المصرية. لكننا لن نذكر أسماء للأشخاص ولا للأماكن التي تلقى الضوء على طرفي المشكلة. حتى لا تتسبب في إحراج زوج أو زوجة أو ابن أو ابنة. فليس هذا غرضنا. بل إننا نسعى إلى أن يستفيد القارئ الكريم من تلك الصفحات التي بذلنا فيها جهدا مضنيا حتى تخرج إلى الوجود. على أننا لن نذكر مثالا لكل جانب من جوانب هذا المنهج الإسلامي. بل نكتفي بأمثلة لبعض جوانب هذا المنهج وبالله التوفيق.

فعن مسؤولية الآباء والأبناء في إحكام الرقابة على أبنائهم وبناتهم أثناء غيابهم عن منزل الزوجية - نذكر قصة أخ وأخت في سن المراهقة تركهما أبوهما في منزل الزوجية ليكملا دراستهما في الثانوية العامة في مصر وسافرا إلى إحدى الدول العربية على أن يلحقا بهما بعد ظهور النتيجة ونجاحهما ليكملا دراستهما هناك مع الأبوين. لكن النتيجة المنتظرة كانت صدمة عنيفة ومروعة للأبوين المستهترين في تربية ولدهما وابنتهما، حسب النظام الإسلامي

الآمن، حيث لم يضعها قبل سفرهما نظاما دقيقا محكما لمراقبة البنات والولد أثناء غيابهما. وكان في إمكانهما أن يفعلا ذلك بواسطة أحد الأقارب المخلصين أو أحد الجيران الملتزمين. لكن الأم والأب تركا ابنا مراهقا وابنة مراهقة دون رقيب ولا وصى. وكانت النتيجة المفجعة أن استسلم الفتى والفتاة لوساوس الشيطان الرجيم، وأرادا أن يمارسا الحياة الزوجية كما يريانها في الأفلام والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية، بحرية، بعيدا عن رقابة الوالدين أو من يعاونهما. فوقعت الواقعة وحملت البنت من أخيها. وضاعت بذلك آمال الزوجين الخياليين المستهترين، وضاع معهما مستقبل الفتى والفتاة الأخوين. وبدلا من أن يجنى الجميع سعادة وهناء بالمال والبنين، جنوا ذلة وشقاء وخذلانا وفقرا منتظرا. وتلك نهاية سيئة لوالدين وأخ وأخت، لم يلتزم أحد منهم بالتربية الإسلامية الآمنة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، ووجدت تفاصيلها في سنة الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم...

ومن جهة ما في الصعيد الذي عشت فيه ما يقرب من أربع سنوات في بداية تعييني أخبركم عن قصة فتاة كانت ضحية لما يسميه البعض العصرية والحرية. فقد كانت هذه الفتاة تنعم وهى صغيرة برقابة والديها الصعيديين المتعلمين تعليما أكاديميا كاملا. وما أن بدأت البنت تنخرط في مرحلة التعليم الابتدائي حتى أتمت والدتها سلمها الأكاديمي، وتخصصت في المجال النفسى خارج البلاد، وبعيدا عن الإسلام ومبادئه وتوجيهاته المفيدة للجميع. واقتنعت الأم المثقفة بعد عودتها بنظرية درستها هناك في بلد غير إسلامي. وتدعو هذه النظرية إلى ترك الولد والبنت ينعمان بالحرية في كل تصرفاتهما، وعدم الاعتراض على شيء من أفعالهما حتى لو

كان مخالفا للدين الإسلامي أو كان خطأ بينا واضحا، إلى أن يهتدى كلاهما إلى الصواب من تلقاء نفسه، فيترك الخطأ ويفعل الصواب. وهذه النظرية المستوردة - على الرغم من أنها معارضة لتوجيهات الإسلام في تربية الأولاد والبنات - لو طبقت على الابن تجاوزا فليس من المعقول تطبيقها على البنت. والمهم أن الزوجة التي تدعى أنها عصرية وتنعم بقدر كبير من الحرية - رغم ولادتها ونشأتها وعيشها في الصعيد الذي يتمتع بتحفظ كبير ضد هذا الاتجاه - أقنعت زوجها الصعيدي بالأخذ بتلك النظرية في تربية ابنتهما وولدهما وبالفعل تغاضى الزوج عن تصرفات ابنه وابنته التي لا تعجبه. وانتظر أن يصل كل منهما إلى الصواب من تلقاء نفسه، حسب نظرية الأم المتخصصة في هذا المجال.. وهنا نقف وقفة قصيرة لنسجل أن الأب وهو المسئول عن رعيته بما فيها الأم أخطأ خطأ جسيما - وكذلك الأم - إذ سويًا بين البنت والابن في تطبيق هذه النظرية. فالبنت جزء من شرف أسرتها. وشرف البنت وأسرته لا يمكن أن يكون محل تجربة. لأن هذه التجربة إن فشلت فمعناها ضياع شرف الأسرة وشرف البنت أيضا.. وقد حدث ما كان متوقعا. فتلك الفتاة نشأت وعاشت في صعيد مصر المعروف بتشدده لكنها نالت قسطا كبيرا من الحرية منحها إياها أبواها، على الرغم من أنهما صعيديا المولد والنشأة والعرف والتقاليد، في ظل النظرية التربوية المستوردة التي إن صلحت في الخارج بعيدا عن الإسلام وتوجيهاته، فإنها لا تصلح في البلاد الإسلامية التي تعزز بإسلامها وتلتزم به. وبالتالي لم يلتزم أبواها بالإسلام ومبادئه في تربية النشء، وإنما التزما بطريقة تربوية مستوردة لاتصلح للبيئة الإسلامية، وليئة الصعيد بالذات. والنتيجة أنهما لم يحكما الرقابة على البنت.. أما

البنات نفسها فلم تعرف خطأها إلا بعد أن أنجبت مولودا غير شرعى من ذئب بشرى تنكر لها، واستولى في غفلة منها على ورقة كان قد منحها إياها لإثبات ما يسمونه في هذه الأيام بالزواج العرفى. وهو في الحقيقة غير عرفى، بل هو في الواقع زواج سرى يفتقر إلى الشرعية المتمثلة في وجوب تواجد الولى عن الزوجة وشاهدى عقد الزواج.. وبعد أن جردها الذئب البشرى من سلاحها تركها بعد أن دنس شرفها وشرف أسرته. ولو أن الابنة وأبويها التزموا بتعاليم الإسلام الذي ينتمون إليه - لما حرموا أنفسهم من الاستقرار والسعادة والأمن التي توفرها الشريعة الإسلامية من خلال تعاليمها الرشيدة ومبادئها السامية، والمستقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة.

وهناك عشرات الأمثلة من هذا النوع الذي لا يهتم فيه الأبوان بتعاليم الشريعة الإسلامية في الزواج فينتج عن ذلك شقاء وأحزان وبعد عن السعادة والأمن في العديد من أسر المجتمع...

وقد تحدث المصيبة والفضيحة من الأب نفسه، إذا كان سكيراً يتعاطى المخدرات، ولا يعبأ بتعاليم الشريعة الإسلامية، ومبادئها وتوجيهاتها التربوية المفيدة لكل أفراد الأسرة الإسلامية. فتلك فتاة جميلة تركتها أمها في المنزل مع أبيها السكير البعيد عن منهج الإسلام في تربية الأولاد والبنات ومراعاة حقوقهم عليه.. وكان الأب في هذا الوقت يغط في نوم عميق. فأوصت الأم ابنتها قبل أن تخرج من المنزل بأن تنصرف إلى مدرستها في الموعد المحدد، وأن تترك أباه نائماً ولا توقظه.. ويشاء القدر أن يستيقظ الأب بعد فترة وجيزة من انصراف الأم. وأخذ يتحسس وجود الأم فتأكد من عدم وجودها بالمنزل. ووجد ابنته تغير ملابسها لتخرج إلى مدرستها كما أوصتها أمها، ولم تدر أن أباه قد استيقظ.. فقام الأب السكير من سريره

وأثاره جسد ابنته شبه العريانة فخلع ملابسه وانقض عليها كالثور الهائج فألقاها بيديه الآثمتين على سريرها وفض بكارتها وجامعها وهى في ذهول وإعياء تامين. ولم تشعر البنت إلا بنداء أمها وصراخها، بعد أن رأتها غارقة في دمائها العذرية: من فعل بك هذا؟ فأشارت إلى أبيها في إعياء تام.. ولم تنطل حيلة الأب الذي تظاهر بالنوم بعد فعلته الدنيئة فاستدعت الأم الشرطة. وبدلاً من أن يتناول الأب والأم مع ابنتهما طعام الفطور، اقتادت الشرطة الأب الجانى على ابنته إلى السجن وتحولت البنت إلى الطبيب الشرعى ليقول كلمته في هذه المصيبة. وتحولت السعادة الأسرية إلى شقاء بسبب عدم التزام الأب بتعاليم الإسلام... وتوجيهاته نحو ابنته الوحيدة، في الحفاظ عليها ورعايتها إلى أن تتزوج، وعدم العبث بشرفها إذ هى قطعة منه.

وقد يفقد الابن الشعور بالأمومة وشرعيتها ووجوب الإحسان إلى الأم في غياب التزامه بمبادئ الشريعة الإسلامية وتعليماتها التي توصى بالإحسان إلى الأم وطلب مرضاتها وعدم الإساءة إليها، وفي غياب دور الأم في رعاية ولدها والعمل على راحته وتزويجه في الوقت المناسب. فتلك أم في غاية الجمال رحل زوجها إلى الدار الآخرة، وترك لها ابناً كبيراً يبدو عاقلاً. وبعد أن انتهت فترة عدتها وهى أربعة أشهر وعشرة أيام - بدأت الزوجة تفكر في الزواج من رجل آخر. حيث لا تريد أن تكون مطمعا للرجال أو أن تلوكها السنة الناس، وتؤذى شرفها. واختمرت فكرة الزواج في رأس الأم الجميلة. لكنها نسيت أن ولدها لم يتزوج بعد. وطبيعى أن يرفض فكرة زواجها. لكنه لم يظهر سبب اعتراضه. ولو زوجته هو أولاً لما حدث منه ما حدث. لقد سرحت بأفكارها في سببين اثنين بعيدين

لرفضه فكرة زواجها. فقد ظنت أنها عاطفة الأمومة تسيطر عليه، والوفاء للأب. فلم يرد أن يرى أمه في أحضان رجل آخر غير أبيه يتمتع بقدر من ثروته، وذلك إكراما لهذا الأب. وتقديرا لدور أمه التي تعبت في تربيته. وحسنٌ لو كان هذا هو تفكير الابن.. فلقد ناقشته أمه في كلا السببين وطمأنته أنها لن تختار رجلا يطمع في ثروة أبيه لينتزع منها جزءا. لكن الفتى ظل على موقفه يرفض أن تتزوج أمه. ولم تطمئن الأم لهذا الموقف ورأت أن وضعها الحساس يوجب عليها أن ترتبط بزواج آخر.. وبدأت تبحث عن زوج لها حتى وجدت ضالتها فأبلغت ولدها بذلك. فلما رأى ابنها إصرارها على الزواج أضمر في نفسه فعلا لم يخبرها به. وأخذت الأم في إعداد نفسها وبيتها لزوجها الجديد، واستمر ذلك أياما وليالى طويلة. وفى ليلة من تلك الليالى، دخلت الأم غرفتها لتنام. وما أن اقترب النوم من جفניה، إذا بابنها يدخل عليها غرفتها على غير عادته ويقترح خلوتها. وإذا به في سرعة شديدة يخلع ملابسه وينقض على أمه فيجامعها.. وكأنه يقول لها: إذا كنت تقصدين من وراء الزواج إشباع رغبتك الجنسية فأنا كفيلا بإشباعها.. وذهلت الأم ولم تستطع التصرف. هل تكلم أحدا من أقاربها أو جيرانها فيفتضح أمرها؟ أم تسكت على ولدها لعله وقع في نزوة شيطانية يفيق بعدها مما هو فيه؟ لقد أثرت السكوت خوفا من الفضيحة. لكن الشيطان الرجيم لم يترك ولدها. فكرر ما فعله عدة مرات في ليال عديدة. وبدأت أعراض الحمل تظهر على أمه لكنه ظل على غيه إلى أن وجد بطن أمه كبرت وظهر عليها الحمل فأثر الهروب من البيت والبلدة، وفضل ذلك على مواجهة الفضيحة. أما أمه الجاهلة المسكينة فقد اضطرت إلى الذهاب إلى النيابة لإثبات حالتها المزرية. ويبدو أن

حاجب وكيل النيابة قد سمع القصة التي روتها الأم أمام النيابة فتقدم للزواج منها وأبدى استعدادة للتستر عليها وتربية المولود القادم فكان له ما أراد.

وأعود فأكرر لو أن الأم التزمت بأحكام الشريعة الإسلامية فزوجت ولدها أولاً لما حدث لها ما حدث. ولو أن، ولدها عرض عليها مشكلته وأنه هو الذي يجب أن يتزوج أولاً لما حدث له ما حدث. لقد غابت عنه تعاليم الشريعة الإسلامية. فأورده ذلك مورد الهلاك وضيع مع أمه بقية أسرة كان من الممكن أن تعيش سعيدة بعد وفاة الزوج في ظل تعاليم الشريعة الإسلامية والعمل بمقتضاها... وهكذا نرى أن الجهل بتعاليم الإسلام، وعدم التمسك بها، هو السبب في كل ما مر وما يمر بالشباب والرجال والنساء والبنات من مآسى يقشعر منها بدن المسلم الغيور على دينه وعرضه وشرفه في ظل ما يسميه البعض الحرية ويقصد بها الحرية المطلقة التي لا تكون إلا في عالم الحيوان. والإسلام يرفض هذه الحرية ويحذر منها المسلمين والمسلمات، حيث لا ينتج عنها إلا الزنى الذي حرمة الإسلام وغيره من المحرمات كالقتل. فتلك امرأة أخرى قتلت زوجها لا لشيء إلا لأنه يريد أن تكون زوجته له وحده. وهى لا تريد ذلك بل تريد أن تبيع لحمها لمن يدفع الثمن الأكبر. فهى تقتل زوجها لأنه يقف حائلاً بينها وبين حريتها المطلقة. وهى تريد أن تتمتع بأكثر من زوج طبقاً لحريتها غير الشرعية. فواجهت نهايتها المحتومة وهى الإعدام..

ثالثاً: الزواج من الزناة:

وما دمنّا بصدد الحفاظ على الكرامة والعزة والشرف، للرجل والمرأة والفرد والأسرة في المجتمع الإسلامى - فليدرك الجميع أن الشريعة الإسلامية الغراء قد نهت عن زواج المؤمنين والمؤمنات

من الزناة. فالله جل وعلا يقول: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٣]. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة، أن امرأة تدعى أم مهزول كانت من البغايا⁽¹⁾. فكانت تسافح الرجل وتشتط أن تنفق عليه، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله: {وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} [النور: ٣]⁽²⁾. وقال الإمام الفخر الرازي في تفسير الآية الكريمة: " من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية: أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنى والفسق - لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله، أو في مشركة. والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصالحاء من الرجال وينفرون منها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين، وهذا الأعم الأغلب، كما يقال: " لا يفعل الخير إلا الرجل التقى، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقى، فهكذا هنا " (3). {وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٣] أى حرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه. أو حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة " (4). فمادام الرجل قد اختار لنفسه طريق الزنى أو الإشراك، فعادة ما يكون ارتباطه في حياته الأسرية بزانية أو مشركة، لأنها مثله تنعم بالحرية المطلقة. فهما لايهتمان بأحكام الشريعة الإسلامية وتوجيهاتها في الحياة الزوجية. وقد عرفنا أن الحرية في ميزان الشريعة الإسلامية ليست مطلقة، ولا يمكن أن

(1) البغايا: اللاتي يمارسن الزنى.

(2) رواه أحمد النسائي ص6 من القسم العاشر من كتاب صفوة التفسير - الطبعة الأولى -

للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني - تسافح الرجل: أى تزنى معه وتنجب منه.

(3) التفسير الكبير للفخر الرازي 150/23 وانظر ص 6 من المرجع السابق.

(4) قاله أبو السعود والقرطبي ص7 من المرجع السابق

تكون كذلك، لأن حرية التصرف فيها مرهونة بعدم الإضرار بالآخرين، فلا ضرر ولا ضرار فيها كما هو معروف..

أما المؤمن الذي اختار لنفسه طريق الإيمان والصلاح والتقوى - فإنه لا يختار لنفسه إلا مؤمنة صالحة تقية فهي المناسبة له، كما أن الزانية أو المشتركة مناسبة للزاني أو المشترك..

وهكذا تجرى سنة الله في خلقه {الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِ} [النور: ٢٦] الآية.. وللقارئ الكريم أن يتصور: كيف تكون حياة الطيب مع الخبيثة أو الطيبة مع الخبيث. فأحدهما يحمل في قلبه وجوانحه استعدادا لحياة طيبة كل ما فيها حلال طيب. والآخر يحمل في قلبه وجوانحه استعدادا لحياة خبيثة كل ما فيها حرام وخبيث.. لاشك أن صداما هائلا يحدث بين الطرفين، وتكون حياتهما جحيما لا يطاق. وتكون النتيجة ضياع الأمل في حياة طيبة مستقرة، تسودها السعادة والأمن.. فلا بد إذن أن يكون تناسب بين الطرفين، فالطيبة للطيب، والخبيثة للخبيث.. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه جميعا من الزواج بالـ عاهرات فيقول

صلى الله عليه وسلم: إياكم وخضراء الدمن — قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء — (1). وقد مر شرح الحديث وتوضيحه.. وأمثلة الزواج من الخبيثات كثيرة ونتائجها معروفة ومحسومة. فالانفصال عن تلك الزوجة يؤكد لاستحالة الوصول معها إلى أى نوع من أنواع السعادة. فإذا أضفنا

(1) رواه الدارقطني والديلمي عن أبي سعيد الخدري ص 52 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوى - خضراء الدمن: عشب المزابل فاقد الصلاحية يخشى عليه من الفساد والإفساد. وفيه كناية عن عدم صلاحية المرأة الجميلة غير الملتزمة بتعاليم الإسلام، كزوجة للرجل الملتزم بهذه التعاليم.

إلى ذلك الضياع المؤكد للذرية الناتجة عن هذا اللقاء بين طرفين غير متكافئين أحدهما خير والآخر شرير. وكفة الشر غالبية؛ لأن الخير يحتاج إلى من يثبتته ويقويه في مواجهة الشر، فإذا لم يتوفر ذلك يكون الميل إلى الشر هو الأقوى.. فالثمرة التي تنتج من نبت غير صالح تكون غير صالحة بطبيعة الحال. والشاعر يقول في هذه الذرية وأمثالها:

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا :: فشيمة أهل البيت كلهم الرقص
والأمثلة كثيرة على فشل هذا الزواج واستحالة وصوله إلى بر
الأمان مادام الطرفان أو أحدهما يسير في هذا الطريق وفي الحياة
اليومية كثير من الأمثلة على ذلك.

رابعاً: عقم الزوجين أو أحدهما:

لاشك أن العقم شئ مكره إلى النفس يكرهه من يقبل على الزواج من الشباب والكبار ومن الرجال والنساء. والشريعة الإسلامية تحذر من الزواج بالعقيم ذكراً أم أنثى؛ لأن فرص الإنجاب معهما تكاد تكون معدومة ومستغربة. وإذا بشر عجوز أو عقيم بالإنجاب، فإنه يستغرب ذلك الأمر.. فنبي الله تعالى زكريا عليه السلام يطلب من ربه الكريم تحقيق رغبته في الإنجاب. فلما استجاب له علام الغيوب سبحانه، استغرب هذا الأمر، وقال لربه عز وجل: {رَبِّ اِنِّي كُنْتُ لِيْ غُلَامٌ وَقدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَاْمَرَاتِيْ عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكُ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } [آل عمران: ٤٠]. ونبي الله إبراهيم صاحب الحنيفية السمحاء، يأتيه ضيوف من الرحمن الرحيم لا يعرفهم، ويقدم لهم الطعام فلا يذوقونه، فيتشكك في أمرهم ويرتاع منهم، فيهدئون من روعه، ويبشرونه بغلام عليم. وكانت امراته ترى هذا المشهد المروع، فعندما سمعت بشرى الملائكة لزوجها أقبلت في صياح وجلبة، وضربت وجهها

تعجبا. وقالت معبرة عن دهشتها: " عجوز عقيم " أى ألد وأنا
عجوز عقيم؟! لقد استغربت هذا الموقف؛ لأنه ليس من المعهود أن
تنجب عجوز عقيم مثلها. وفى ذلك يقول الحق المبين سبحانه: {هَلْ
أَنَّكَ حَدِيثُ صَيْفِ بْنِ زَيْدٍ أَوْ كَلِمَةٍ مِّنْ بَيْنِ أَهْلِ الْكُفْرِ يَوْمَ
يُتْلَىٰ مِنْهَا وَهُمْ يُكَذِّبُوهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا نَحْنُ مُبَشِّرُونَ ۚ إِنَّمَا يَكُونُ
الْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۚ} (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ
مُّنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
(٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي
صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) { [الذاريات: ٢٤ - ٢٩].

وإذا كان هذا الحمل المستغرب يحدث لزوجات الأنبياء الكبيرات في السن، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم، لحكمة يعلمها الحكيم العليم - فإن حدوثه للبشر العاديين يكاد يكون مستحيلا. إلا إذا أراد به الله عز وجل العظة والعبرة لقوم يضعف يقينهم في قدرة الله جل وعلا.. ومن أجل ذلك نهت السنة النبوية الكريمة عن التزوج من العجوز الكبيرة في السن، ومن العقيم التي لا تلد، فالإنجاب في هاتين الحالتين يكاد يكون معدوما كما سبق القول. وذلك مخالف لأهم مقاصد الشريعة الإسلامية من الزواج؛ وهو إثمار ذرية صالحة قوية تعين المجتمع وتبنى له، ولا تعيقه وتهدم أركانه. وتحقيقا لهذا الهدف، حثت السنة النبوية المباركة، كما حث القرآن الكريم، بطريقة مباشرة وغير مباشرة، على الزواج من الولود، كما حذرت من الزواج من العقيم. ومن ذلك ما رواه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد. أفأتزوجه؟ قال: لا—، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: تزوجوا الولود الولود، فإني مكاثركم بالأمم—⁽¹⁾. ومن ذلك

(1) ص 93 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

أيضا التحذير من الزواج من العجوز والعاقرة. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: **لا تتزوجوا عجوزا ولا عاقرا فإنني مكاثركم الأمم** — (1). ومنه كذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: **سوداء ولود خير من حسناء لا تلد، وإنني مكاثركم الأمم حتى بالسقط محبطينا على باب الجنة، ويقال له ادخل الجنة، فيقول يارب وأبواي؟ فيقال له: ادخل الجنة أنت وأبواك** — (2). فعلى كل من يريد أن يتزوج ويحرص على الإنجاب، تجنب الزواج من العجوز والعاقرة؛ حيث لا تنجب إحداهما عادة.. وأما من يهمل توجيهات القرآن والسنة النبوية المباركة في هذا الشأن - فإنه يعرض نفسه لانتكاسة خطيرة محتملة. ويستطيع أن يتجنبها إذا استجاب لنداءات القرآن الكريم والسنة النبوية في توجيه من يقبلون على الزواج..

ومن الواجب الشرعي، أن يتأكد المقبل على الزواج من أن المرشح للزواج منه جاهز وقادر على الإنجاب. وليست لديه موانع عضوية أو مرضية تمنعه من الإنجاب.. ومن الواجب الشرعي أيضا، أن يسرع المتشكك في قدرته على الإنجاب، إلى الطبيب المختص، ليعرف حقيقة أمره، وليعالج ما يمكن علاجه من أسباب عدم القدرة على الإنجاب. فهناك حالات كثيرة، يكون العقم فيها بسبب قصور في عضو يمكن علاجه، أو بسبب حالة مرضية يمكن للطبيب علاجها.. ومن الواجب الشرعي كذلك، أن يتوجه الطرفان قبل الزواج إلى طبيب مختص، يفحصهما، ويعالج ما يراه محتاجا إلى العلاج من أحوالهما التي يمر بها كثير من الناس. ويؤدي

(1) رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک ص 54 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوي.

(2) أخرجه الطبراني في الكبير عن معاوية بن حيدة ص 17 من المرجع السابق. السقط: الجنين الذي ينزل قبل أوانه. محبطينا: متعلقا.

علاجها إلى تحول زوج أو زوجة من عاقر إلى ولود. وهذا موقف شجاع نؤيده وندعو إليه كل عروسين قبل زفافهما أو حتى قبل الارتباط..

وكم من مواقف محرجة بل محزنة، يتعرض لها الطرفان إن تخاذلا أو أحدهما عن ذلك. فعندها يحس الطرفان بقدر كبير من الشقاء والأسف لعدم حسم هذه المسألة في وقتها المناسب بالطرق الشرعية التي هي في متناول الجميع. ونتيجة لهذا التخاذل يعيش الطرفان حياة يخيم عليها العجز عن تحقيق الهدف من وراء الزواج. وتفتر العلاقة بينهما إلى حد كبير. وخصوصا عندما يريان أولاد وبنات الجيران والأصدقاء من حولهما يعيشون سعادة في ظل ترابط أسرى إسلامي متين. وقد يدفعهما ذلك إلى اللجوء إلى التبني لأحد أبناء الملاجئ من اليتامى واليتيمات، أو اللقطاء واللقطات، ممن ليس لهم نسب معروف. وهذا إن كانا ميسورين ماديا واجتماعيا واقتصاديا ومتهيئين لأعباء التبني. وحتى في هذه الحالة فسوف يحسان من أعماقهما أن ذلك مجرد عطف لا يرقى إلى مرتبة الإحسان إلى الإبن الصلب أو الإبنة الصلبة. كما ينعكس ذلك على المتبني ذكرا كان أم أنثى؛ ولذلك تنعدم بينهما السعادة الأسرية على الرغم من خطوة التبني.. وهناك لذلك أمثلة كثيرة من واقع الحياة (1).

فذلك شاب تزوج من ابنة جيرانه على عجل ودون تفحص كل منهما للآخر. لكنه صارحها بعد الزواج بأنه لا ينبغي وأنه يحاول بطريقة جدية أن يعالج حالة العقم التي يعاني منها. ولم يكن أمام فتاته

(1) بتصرف واختصار من ص 94، ص 95 من كتاب منهاج السنة في الزواج للدكتور محمد الأحمد أبو النور.

إلا الصبر فصبرت ورضيت بنصيبها منه. وبالفعل قام بعدة محاولات مع أطباء متخصصين.. وفي النهاية تأكد بطريقة جازمة أن مَيِّة يخرج ميتاً، وأنه لا سبيل إلى إحيائه إلا إذا أراد الله عز وجل. فتوجه إلى زوجته وصارحها بما حدث، وبأنه مستعد أن يتركها بالمعروف كما أخذها بالمعروف لتشق طريقها وتجرب حظها مع رجل آخر لعله ينجب لها ما تقر عينها به من البنين والبنات. لكن زوجته الصابرة المحتسبة رضيت بالحرمان من الإنجاب. ورأت أن ذلك أفضل من تركها لزوجها بعد أن عاشرته فترة ليست بالقصيرة، رغم ما يجلب عليها ذلك من تعاسة وشقاء وافتقار للسعادة والهناء الأسرى. وقد لجأ الزوج إلى تبني أحد أبناء أخيه. ولولا إيمان الزوجين بالله العظيم وقضائه وقدره - رغم اعترافهما بالتقصير في هذا الأمر - لتفرق الزوجان، ولتهدمت البقية الباقية من الأسرة علانية. وإن كانت حياتهما مع ذلك خالية من السعادة والهناء الأسرى...

ومن أمثلة حالات العقم القابلة للشفاء، ذلك الرجل الذي تزوج من امرأة وجدها مناسبة له. وعاشا فترة تقدر ببضع سنوات في سعادة وثبات لكنهما لم ينجبا صبيانا ولا بنات. وأخذا يبحثان عن السبب في عدم الإنجاب. وبدأ الزوج بنفسه فزار عدداً من الأطباء المشهورين المتخصصين فأكدوا له أنه لا عيب فيه. فأدرك أن القصور من ناحية زوجته وبحث عن طبيب جراح متخصص، فوجد ضالته. وبعد التحاليل والفحوصات اللازمة أخبره الطبيب أن الرحم غير مهياً لتخصيب البويضة، وأن المطلوب هو تخصيب البويضة خارج الرحم ثم إعادتها إليه. وبالفعل قام الطبيب الجراح الماهر بإجراء هذا التخصيب خارج رحم الزوجة بمنيتها ومنى زوجها حتى تم بقدرة

الخالق العظيم. ثم أعاد الطبيب البويضة المخصبة إلى الرحم فتم الحمل وبدأ ينمو بصورة طبيعية. وأُتلج صدرى الأبوين بعد أن كانا فاقدى الأمل في الإنجاب. وتحولت حياتهما من هموم وأحزان إلى أفراح وسعادة وأمان.. وهكذا يُتأكد للجميع أن العرض على الطبيب المختص ينفع ولا يضر..

وهناك صنف من الناس ضعيف الإيمان واليقين بالله رب العالمين. وقد تلجأ الزوجة من هذا الصنف إلى الاستماع لوساوس الشيطان، العدو المبين للإنسان، فتحاول الارتباط بعلاقة غير شرعية مع رجل آخر غير زوجها لتُشبع رغبتها في الإنجاب، أو تلجأ إلى أحد الدجالين أو إحدى الدجالات ومن هؤلاء من يحضر معه عينات من المنى يستخدمها كلبوس في مثل هذه الأحوال للعاجزات عن الإنجاب. وهى طريقة واضحة في عدم شرعيتها حتى لو نجحت في بعض الأحيان. لأنها تستخدم للزوجة ماء غير ماء زوجها. وفى هذا من الإثم ما فيه، ونتاجه من البنين والبنات - إن أنجبت - غير شرعى.. وقد يتضح لتلك الضعيفة في إيمانها في النهاية، سوء حظها، وعاقبة خروجها على الشريعة الإسلامية - فتعلم أنها هى الأخرى لا تنجب. فيزداد بؤسها وشقاؤها، بعد ضياع أملها في الإنجاب. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة.. ونعود فنقول إن اتفاق الطرفين على الفحص، قبل الارتباط أو الدخول، هو الأفضل والأنسب. حتى يعلم كل طرف ما له وما عليه. بدلا من التخبط في الجهل والإثم وفقدان السعادة من أوسع أبوابها...

خامسا: الزواج للتمتع فقط بجمال المرأة:

قد يكون الزواج من أجل التمتع فقط بجمال المرأة الجسدى - سببا في تعثر الحياة الزوجية، وبُعدها عن السعادة المرجوة. والنفس

الإنسانية بطبيعتها محبة للجمال. لكن الجمال الجسدى وحده لا يصلح ركيزة لاختيار الزوجة في ظل العقيدة الإسلامية. فلا بد من مَوْجِه طيب لهذا الجمال. ويتمثل هذا الجانب الطيب في الدين الإسلامى الذي يرفع مصالح الزوجين، فيحفظ لكل منهما حقوقه وواجباته في الحياة الزوجية ويقصد بذلك التدين. فإذا تواجد التمسك بمبادئ هذا الدين الإسلامى وبأسسه التي وضعها للحياة الزوجية، إلى جانب الجمال الجسدى، فلا بأس. وإذا تواجد معهما مال وحسب فلا بأس كذلك. ومن هنا نجد تأكيد السنة النبوية لهذا الاتجاه. ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم: **تَنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسْبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرُبَّتْ يَدَاكَ — (1)**.

فالدِّين الإسلامى هو الأساس الناجح الموصل إلى الجمال المعنوى الموصل بدوره إلى السعادة الزوجية. فهذا الجمال المعنوى هو الذي به يتواجد السكن والمودة والرحمة بين الزوجين؛ فيذوقان طعم سعادة حلوة المذاق..

وقد يتجه كثير من الشباب قليل الخبرة والمعرفة بأمور الحياة الزوجية السعيدة - إلى البحث عن زوجة جميلة الشكل، والارتباط بها ظناً منه أنه بذلك يحقق السعادة الزوجية. والشرعية الإسلامية لم تُحرِّم الزواج من الجميلات شكلاً، لكنها وضحت كما سبق - أن هذا الجمال يجب أن تتمسك صاحبه بالدين، الذي يعصم من الزلل، ومن الوقوع في الرذائل والتصرفات الخاطئة والمثيرة للشك.. وعدم تمسك تلك الجميلة بمبادئ الدين الإسلامى وتوجيهاته للحياة الزوجية

(1) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ص61 من مختار الأحاديث النبوية - للسيد أحمد الهاشمى - تربت يداك: أى لصقت بتراب الأرض. كناية عن الفقر الذي يصيبك إذا لم تظفر بذات الدين.

- يوجد عندها الاستعداد لفعل الرذائل والمنكرات. ويكون ذلك خطرا عليها وعلى بيت الزوجية التي تعتبر هي إحدى دعائمه.. ومن أجل ذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشباب المسلم من الزواج بجماليات الأجساد للتمتع فقط بجمالهن. فالجمال الجسدي عَرَضٌ زائل لا يستمر طوال العمر. فلا بد معه إذن من الجمال الروحي الدائم، الذي يتجلى في الإيمان والتقوى، وتجميل النفس بالأخلاق الكريمة التي تدعو إلى التآلف والتحاب والتلاقى بين الزوجين. والشاعر يقول:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه :: فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والشباب الذي يهتم فقط بالجمال الجسدي قد ينفر من زوجته الجميلة عندما يزول جمالها وينتهى أمره في الحياة الزوجية. ولا ينجيه من الخروج من هذا المأزق إلا اهتمامه بالجمال المعنوي الذي يبقى ويعمر ويعيش، ويحيا به الزوجان بقية حياتهما بعد زوال الجمال الجسدي واندثاره..

وقد يتزوج الرجل أو الشاب من امرأة جميلة الجسد لكنها غير متدينة، ويفرح بأحضانها وقبلاتها وشكلها الفتان. ثم ينتهي أمرهما إلى حسرة وندامة على أثر زوال هذه النعمة الزائفة، نعمة الجمال غير المزيّن بالتوجيهات والأخلاق الإسلامية المفيدة في هذا المقام: فهذان شابان مسلمان تنافسا من أجل الزواج بفتاة جميلة الجسد والشكل. لكنها لم تكن متمسكة بمبادئ الدين الإسلامي الذي تنتمي إليه، والذي يعصمها من الزلل والوقوع في الأخطاء المتعارضة مع مبادئ الإسلام وتعاليمه؛ بعدم الالتزام بحقوق الزوج الشرعية.. وساعدت الظروف المادية والاجتماعية والاقتصادية لأحد الشابين على خطبة الفتاة الجميلة والزواج منها. وبذلك فاز على منافسه الذي

لم يستعد لباءة الزواج.. لكن الشاب الذي فاز بالزواج من الجميلة كان مثل جميلته. لايهتم بالجمال المعنوى الدائم. فلا يهتم بمبادئ الدين الإسلامى. ولا بتوجيهاته في حقوق الزوجة على الزوج وحقوق الزوج على الزوجة.. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فقد صمم المنافس الخاسر على الانتقام من زميله الفائز.. وسرعان ما وجد الشيطان الرجيم البيئة المناسبة للوقعة بين طرفى النزاع: الفائز بالجميلة من جهة، والمنافس الخاسر من جهة أخرى. وثلاثتهم لا يتحلى بالجمال المعنوى الباقى. وبدأ زوج الجميلة يحذر من زميله المنافس؛ فاتخذ من جانبه بعض الإجراءات الأحادية الجانب دون مناقشة زوجته فيها. فمنعها من فتح النوافذ، والإطلال منها. ومنعها كذلك من الوقوف أو الجلوس في شرفة المنزل. وأحست فتاته الجميلة أنه بدأ يحد من حريتها، ويحرمها من جمال الطبيعة الموجود حولها. ومن هنا بدأت الخلافات بين الزوج وجميلته تظهر وتتسع دائرتها. ولم يقلل شكل الزوجة وجسدها الجميلان من هذه الخلافات. وكان بإمكانه أن يوجهها إلى لبس الحجاب والنقاب بدلا من حرمانها من النظر إلى الشارع والمشى فيه لكنه لم يفعل. وصارت الفتاة الجميلة تعيش في سجن كبير هو بيت الزوجية، مسلوقة الإرادة. وخصوصا بعد أن منعها من الخروج من عش الزوجية. ومن هنا بدأ الخاسر نشاطه غير الشرعى في التفريق بين الجميلة وزوجها؛ ليعجل الزوج بطلاق زوجته، فيتزوجها الخاسر. فحاول الاتصال بالزوجة ليفهمها أنه يستطيع تخليصها من سجنها. وطلب منها مقابلته خارج منزل الزوجية. وحدد لها موعدا لهذه المقابلة. فعزمت الزوجة الجميلة على مخالفة زوجها، الذي كان يأمرها دائما بعدم الخروج من المنزل. وعندما لمس منها زوجها الإصرار على الخروج هدها

بالطلاق إذا خرجت دون إذنه. لكنها لم تأبه بتهديده. فهددها بما هو أكبر من ذلك. هدها بالموت إذا خرجت من بيتها بغير إذنه. وهنا ازداد نشاط الشيطان الرجيم في إشعال نار الفتنة بين الزوجين. فأوعز لمنافسه الخاسر أن يهيئ لها طريق الهروب من سجنها الكئيب، ففعل الخاسر، وخرجت الجميلة من المنزل لتزيد الأحداث سخونة بل غليانا. ولو أنها التزمت بآداب الإسلام وأطاعت زوجها لما حدث لها ما حدث. وما أن خرجت الجميلة من خدرها إلى الشارع حتى لحقها زوجها، وقد ركبته الشياطين كلها، وتحكمت في مشاعره وأفعاله، فلاحق جميلته في الشارع. وأخرج سكيناً حامية كان قد خبأها في ملابسه، وانقض عليها كالثور الذي يريد أن يميت مُصارعه. فانهال عليها طعنا بسكينه الحامى في كل مكان مكنته يده من جسمها الجميل. ولم يتركها إلا جثة هامدة تسبح في دمائها. وانتهى بذلك عش الزوجية القائم فقط على الجمال الجسدى. وساءت عاقبة هذا الاختيار غير الشرعى. وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله في تحذيره للمسلمين من الزواج فقط للتمتع بالجمال الجسدى. حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: **لَا تَزُوجُوا النِّسَاءَ لِحَسَنِهِنَّ فَعَسَى حَسَنُهُنَّ أَنْ يَرْدِيَهُنَّ، وَلَا تَزُوجُوهُنَّ لِأَمْوَالِهِنَّ، فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تَطْغِيَهُنَّ، وَلَكِنْ تَزُوجُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ وَلِأَمَّةٍ خِرْقَاءَ سَوْدَاءَ ذَاتِ دِينٍ أَفْضَلُ** — (1)..
فالسعيد إذن في حياته الزوجية هو من يبدأ باختيار الجمال الروحى الدائم ولا بأس أن يكون معه جمال جسدى مؤقت ينتهى بعد فترة من الزمن ليحل محله الجمال الروحى الدائم حتى الموت...

(1) رواه ابن ماجه في السنن 597/1 من طريق عبد الرحمن بن أنعم المعروف بالإفريقى. ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق آخر ورواه غيرهما. ص362 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور - خرقاء: لاتعرف عملها بيدها.

سادسا: الزواج من الغنية للتمتع بمالها فقط:

لقد خلق الله عز وجل البشر رجالا ونساء. لكنه سبحانه جعل القوامه للرجل على المرأة، فقال: **جَلَّ شَأْنُهُ: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ} بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** [النساء: ٣٤]. فالرجال قائمون على النساء بالأمر والنهي والإنفاق والتوجيه، كما يقوم الولاة على الرعية. فالله العزيز الحكيم منح الرجال العقل والتدبير، وخصهم بالكسب والإنفاق. فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب(1) ..

وقد بينت السنة النبوية المطهرة أن من حق الزوجة على زوجها أن ينفق عليها ويوفر لها الطعام والشراب والكساء والمسكن. وفي إشارة إلى بعض هذه الحقوق يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يضرب الوجه، ولا يُقَبِّح ولا يهجر إلا في البيت — (2)**. فإنفاق الرجل على زوجته وأولاده وبناته وعلى بيت الزوجية، حق مفروض عليه. كما ورد في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. وليس مطلوبا من الزوجة أن تنفق على زوجها وأولادها وبناتها وعلى بيت الزوجية، لأن ذلك موكول شرعا إلى الزوج. ولا يحق له أن يطلب من زوجته شرعا الإنفاق على شيء مما سبق ذكره حتى لو كانت ذمتها المالية أكبر من ذمته بكثير.. وإذا حدث ذلك فإنه يعدد مخالفا لسنة الله تعالى في خلقه ومخالفا لطبيعة كل من الزوج والزوجة، ولما هو مطلوب شرعا من كل منهما..

(1) تفسير الآية في القسم الثاني من الطبعة الأولى - من كتاب صفوة التفسير - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني ص 95.

(2) رواه الحاكم ص 67 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي.

ومعنى ذلك أن اعتماد الزوج على مال زوجته مهما كان كثيرا في تسيير دفة الحياة الزوجية، وضع مقلوب لا يمكن أن يؤدي إلى استقرار وسعادة الأسرة وهنائها. بل إنه سيكون من أقوى الأسباب التي تؤدي إلى تعثر الحياة الزوجية، وانعدام السعادة بين جميع أفراد الأسرة.. فتعتمد الرجل اختيار زوجة غنية للتمتع فقط بمالها و ثروتها المملوكة لها بعد زواجه منها مخالف للشرعية الإسلامية وتوجيهاتها، حتى لو وافقت الزوجة على ذلك بدون إكراه من زوجها أو غيره..

فالزوج إذن هو المطالب بالإنفاق الكامل على بيت الزوجية. ومال هذا البيت يحتاج إلى رجل متدين يوجه إنفاقه وجهة شرعية شاملة ومفيدة في كل وجوه الإنفاق. إذ أن الرجل غير الملتزم بالتوجيهات الإسلامية في كسب الأموال وتصريفها في وجوه الإنفاق المتنوعة - يمكن أن يطيع أهواءه الفاسدة فتبعده عن طريق الإفادة والاستفادة وأداء كافة الحقوق والواجبات الدينية والاجتماعية وغيرها. وقد يجد نفسه في طريق مفتوح للتوسع في الإنفاق على المحرمات والبعد عن أداء الحقوق والواجبات الشرعية لزوجته وأولاده وبناته..

وهذه النوعية من الأزواج هي التي تبحث عن زوجة ذات مال ليتمتع الزوج بالإنفاق من مالها على نفسه وعلى بيت الزوجية في غياب العمل بكتاب الله العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. وقد يجد ضالته فيلتقى بزوجة من هذا النوع. وغالبا ما تكون هي الأخرى غير ملتزمة بالتوجيهات الإسلامية الواردة في الكتاب والسنة. فتغامر بقبول هذا الدور طمعا بأن تكون لها الكلمة العليا في بيت الزوجية. وعادة ما يغريها زوجها الطامع في مالها، بمنحها القوامه الذي يخطئ فهمها، فيجعلها قيمة على بيت الزوجية، تتحكم

في الإنفاق على الأسرة كيف تشاء فترة من الزمن، فتقلب الحق باطلا والباطل حقا. وتتهاون في بعض حقوق زوجها وأولادها وبناتها فلا تؤدّيها. كأن تلغى زكاة المال إذا بلغ نصابا وحال عليه الحول، ويوافقها زوجها الفقير إلى معرفة هذه الحقوق الشرعية. وبذلك يفتح مع زوجته الباطل على بيت الزوجية - بابا من أبواب الشيطان، يجعل حياتهما جحيما لا يطاق. فيثور عليهما الفقراء ويحقد عليهما المحتاجون، الذين لهم نصيب شرعى في هذا المال. وتسوء بذلك علاقتهما الاجتماعية والاقتصادية بجيرانهما وأصدقائهما وفقراء الحى القريبين منهما أو تنعدم. فيحل الحقد والكراهية محل الألفة والمحبة. وينعكس كل ذلك على أبنائهما وبناتهما السائرين في فلكهما، فيعزلون بدورهم عن المجتمع الإسلامى. الذي يعيشون في ظله ولا يطبقون مبادئه وتعاليمه في الأمور المالية والمادية.. فنجد الأبناء يريدون حرمان أخواتهم البنات من بعض حقوقهن المادية.. والولد الذي ساءت تربيته يريد أن يحصل بغير حق على بعض حقوق إخوانه الذين تربوا معه في أحضان الأسرة.

وينعكس ذلك على سائر تصرفاتهم وتعاملاتهم الاقتصادية والاجتماعية وتصبح السعادة بالنسبة لهم جميعا سرايا يحاولون الوصول إليه. فإذا هيئ لهم أنهم قد وصلوا لم يجدوا شيئا مما كانوا يريدون.. بل وجدوا الله تعالى وشريعته الغراء.. وكل هذا من أجل تحكم امرأة بمالها في بيت زوجها وفى زوجها وأولادها وبناتها. وخصوصا أنها كانت تعتقد أن هذا المال الذي تتحكم به في مجريات أمور أسرتها بهذا الشكل - سيوصلها إلى المجد والشهرة والسعادة. لكن النتيجة تكون عكس ما تصورت. فمجرد السعادة بالمال فقط

دون توجيه من الدين في تصريفه وإنفاقه - تتحول إلى شقاء مؤكد.. بسبب ما يوصلها إليه هذا المال، من غرور وطغيان. فتبعد بذلك عن الخط الإسلامي المرتجى، بل عن رحمة الله عز وجل. وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم حيث أشار في الحديث الذي تقدم ذكره، إلى الأموال الذي تغطي صاحبته فلا تسير حسب شريعة الله جل وعلا. فتخسر مالها وأسرته وتخسر نفسها أيضا. فيقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: **﴿وَلَا تَزَوَّجُوهُنَّ لَأَمْوَالِهِنَّ، فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تَطْغِيَهُنَّ﴾** — الحديث. وقد سبقت الإشارة إليه...

والأمثلة على ذلك من واقع الحياة كثيرة.. فذاك شاب جاوز الثلاثين من عمره بقليل، يبحث عن زوجة غنية يستطيع بمالها أن يعوض ما فاتته من العمر قبل الزواج. وتمضى الأيام، وبعد شهور قليلة يجد الشاب ضالته. إنها أيضا تجاوزت الثلاثين بقليل وتريد أن تعوض ما فاتتها من العمر. فاتقفا على الزواج على أن تتولى هي مهام زوجها المالية إلى أن تتحسن حاله ويستقر. وكانت مثله لا تتقيد بمبادئ الدين وتوجيهاته في كل مجالات الحياة، وفي مجال المال بصفة خاصة. وبدت نشيطة في مستهل حياتها الزوجية فيما عهد إليها. فسددت عدة التزامات مالية مطلوبة من زوجها. لكنها بدأت تسير في طريق الشيطان فاتفقت مع زوجها على عدم إخراج زكاة المال. وطبيعي أن يوافقها زوجها على ذلك فهو مثلها لا يعبأ بالالتزامات المادية المفروضة شرعا في المال لهؤلاء الفقراء والمحتاجين. ولم تخرج نصيب ذوى الحاجات من صدقة التطوع.

وهكذا كسرت حصن أموالها بعدم إخراج زكاة المال وصدقة التطوع، وهو ما يعرض المال للضياع. وازداد الأمر سوءا بتحكمها في مصروفات زوجها، وعدم الوفاء بكثير من التزاماته المالية

والمادية زاعمة أنه هو المسئول عن هذه الأحوال الخاصة به. وزاد سوء حدة فعاملت أولادها وبناتها معاملة جافة. فغالبية طلباتهم المالية غير قابلة للتحقيق. وتآزمت علاقات هؤلاء الأولاد والبنات مع بعضهم البعض، ومع أصدقائهم وجيرانهم. حتى أصبح الوضع مع كل الأطراف المتعاملين معها غير محتمل. وضاع الترابط والتراحم فيما بينهم. وقد انفض عنها جيرانها الفقراء والمحتاجون، وتآزمت علاقاتهم بها. وهكذا وجدت الزوجة نفسها وهى صاحبة المال - أن كل من حولها يتضررون منها، حتى زوجها الذي لم يجد بدا من طلاقها بسبب فشلها في ضبط علاقاتهم المادية، وهى مهمته في الأصل.. وهكذا كان مال الزوجة نقمة عليها، لم يجلب لها السعادة التي كانت تنتشدها، بل جعلها في شقاء تام. لأنها قلبت أوضاع الحياة وسارت عكس ما يريد الله عز وجل للناس. لقد ظنت أنها ستتحكم في بيتها وفى كل من حولها بمالها. فأذلها مالها وأرداها وأخفقت في حياتها الزوجية بسبب مالها، تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم.. **﴿وَلَا تَزَوَّجُوهُنَّ لَأَمْوَالِهِنَّ، فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تَطْغِيَهُنَّ﴾** — الحديث...

سابعا: عدم التكافؤ بين الزوجين:

تتعدد صور التكافؤ بين الزوجين لكن الإسلام ركز على الكفاءة بينهما في أمرين أساسيين. أحدهما: الخبرة والكفاءة العملية؛ فمن المهم أن تتساوى خبرة الزوجين وكفاءتهما العملية. ويدخل في هذا الأمر النضج النفسى والعقلى لكل منهما. ومنه أيضا: المستوى الخلقى والدينى لكل منهما. فلا بد أن يتساويا أو أن يقتربا من المساواة في هذا الأمر..

والثانى خاص بكفاءة الزوج واستعداده لباءة الزواج لتسيير دفة

الحياة الزوجية بالتعاون مع الطرف الثاني (الزوجة) على حلو الحياة ومرها. ولا بد من وجود نفس الشعور بالتعاون عند الزوجة مع التزام كل منهما بما أوجبه عليه الإسلام نحو الطرف الآخر (1).

ويتبع هذين العنصرين، عناصر أخرى تعتبر عند النظر في الكفاءة بين الزوجين.. وسوف نتحدث عن هذه العناصر التابعة وعن العنصرين الأساسيين بإحاطة واختصار - إن شاء الله تعالى. لأن عدم توفر هذه العناصر يؤثر سلبا على الحياة الزوجية إن لم يقض عليها نهائيا...

ومما يتبع العنصر الأول: عدم الكفاءة في السن:

ومن المعروف أنه لا توجد مشاكل ولا صعوبات في التفاهم بين الزوجين - إذا كانا في سن متساوية لكن هذا السن يجب ألا يقل عن سن الرشد. حيث يكون الطرفان حينئذ قد تجاوزا سن الطفولة والمراهقة، وتخيلااتها وتأملاتها الفكرية التي قد تؤثر في الحياة العملية للزوجين، بتمسك كل منهما مثلا بما كانت الأمور تسيير عليه من قبل الزواج في بيت أهله..

ويأخذ الاختلاف في السن بين الزوجين عدة أشكال؛ بعضها لا يدخل في مرحلة الخطورة، وبعضها الآخر يمر في منتصف الدائرة أو على حافتها، فيتوقع منه بعض المشاكل كما سبق القول..

ففارق البضع سنوات يبعد عادة عن موطن الخطر وهو في كثير من الأحوال لا يمثل أى خطر. وقد يُدخلُ كلا منهما في دائرة الأمان الأسرى، وخصوصا إذا تمسكا بعقيدة الإسلام وأسسها، وتوجيهاته

(1) بتصرف من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور من ص382.

وإرشاداته لكل منهما في حياته مع الآخر. فدين الإسلام بما فيه من مبادئ سامية وأخلاق فاضلة، كفيل بأن يذيب أية خلافات بين زوجين يحرصان على اتباع تعاليمه وتوجيهاته في الحياة الزوجية.. والأكبر منهما في هذه الحالة - وهو الأكثر خبرة في معترك الحياة - يكون مرشدا ومعلما للطرف الآخر، ومعينا له على تخطي أية عقبة تظهر لهما في الطريق... ومثلنا الأعلى في ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي نجح في التوافق مع من هي أكبر منه سنا، ومن هي أصغر منه سنا.. فالسيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها عندما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت أكبر منه سنا. فقد كان سنها نحو الأربعين وسنه صلى الله عليه وسلم نحو الخامسة والعشرين⁽¹⁾. وقد ثبتته رضى الله عنها في مستهل تكليفه بالرسالة، وشدت من أزره في المواقف الصعبة التي كان يقابل فيها وحى السماء. وهي مواقف لم تحدث له صلى الله عليه وسلم من قبل. فقد وقفت بجانبه مؤازرة ومقوية. وكانت من عباراتها التي سجلها لها التاريخ الإسلامى قولها المأثور في هذا الصدد " كلا والله لا يخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل⁽²⁾، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق " ⁽³⁾. وكذلك نجح رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوافق مع عائشة رضى الله عنها. فقد بنى عليها صلى الله عليه وسلم وهي ابنة تسع سنوات. وقد ساعدها زواجها منه في صغر سنها على أن تتهل من وحى رسالته صلى الله عليه وسلم عن قرب. وساعدها على المساهمة في دعم الإسلام وشد

(1) ص207 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

(2) الكل: الضعيف.

(3) الصفحة 207 من المرجع السابق منهج السنة في الزواج. وفى رواية: " وتعين على نوائب الدهر " والمعنى واحد هو مصائب الدهر - تقرى: تكرم.

أزر المسلمين، ونشر الدعوة الإسلامية والسنة المحمدية. وقد اتصفت رضى الله عنها بالأدب الجم والأخلاق الكريمة والعقل الحصيف. واشتهرت بالعلم والتقوى والورع. وأدت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما فقهت من بيانه وأحاديثه - ما لم يكن بوسع غيرها من زوجاته أن تؤديه وتبلغه. وهذا فضلا عن قدرتها في الزهد والتقوى والسخاء والورع⁽¹⁾.

وعادة ما ينجح الزواج، ولا يخشى عليه من فارق السن بين الزوج والزوجة، إذا كان عمر الزوجة نصف عمر زوجها أو أكثر بقليل. وسيكون كبر سنه في هذه الحالة عامل تقوية وترسيخ للزواج. كما أن الزوج في هذه الحالة يكون بمثابة موجه لزوجته في كل أمور حياتهما. وستقبل الزوجة دور زوجها في هذه الحالة، إذا التزمت وإياه بمنهج الإسلام في الزواج. واستفاداً منه ومن توجيهاته في كل مجالات الحياة الزوجية..

ويمكن خطر التفاوت الكبير في السن بين الزوجين في أكثر من زاوية.. فحين تتزوج الفتاة الصغيرة بإيعاز من أبيها أو قريب لها، له مصلحة مادية في هذا الزواج، وينبهاها أبوها أو غيره بأن زوجها كبير في السن وسيموت بعد فترة قليلة، وأنها سترثه وتحصل على كل أمواله، حيث لن ينازعها أحد في ثروته - عندئذ يطل الخطر برأسه على هذا الزواج القائم على مصلحة طرف ثالث غير طرفي الزواج، حيث لم تلتزم الزوجة فيه بمعايير الإسلام وتوجيهاته فيموت الزوج وتظل الزوجة فريسة لأطماع من حولها ممن أو عزوا إليها بقبول الزواج، من أجل إرث مال أو حسب أو جاه أو مركز اجتماعي. ولا يحدث شيء من ذلك ولا يفيد - أمام أطماع الطامعين

(1) يتصرف من ترجمة عائشة في الطبقات الطبري 58/8. ص 279 من المرجع السابق.

فيها بعد موت زوجها الغنى. وستتحول حياتها معهم إلى جحيم لا يطاق لأنهم لا يهتمهم إلا كسبهم المادى من وراء تنفيذ هذا الزواج غير المتكافئ.. ولهذا النوع من الزواج أمثلة كثيرة في واقع حياة المسلمين الذين تحكمهم المادة وتكتشف الزوجة بعد ذلك أنها كانت ضحية ناصح غير أمين كان له مصلحة مادية من تنفيذ هذا الزواج غير المتكافئ.

ويمكن الخطر في التفاوت الكبير في السن بين الزوجين كذلك، حين يتزوج الفتى الصغير، الذي لم تعركه الحياة من زوجة كبيرة في السن، أكثر من ضعف سنه مثلا، من أجل مالها. فليس لدى هذا الصغير خبرة يفيد بها زوجته في تصريف مالها تصرفا شرعيا عقلانيا سليما. ولا سيما إذا كان بعيدا عن تعاليم الإسلام وتوجيهاته في الحياة، وفي الأمور المالية بوجه خاص. إذ قد يبدد هذا الزوج الصغير مال زوجته الغنية فيما لا يفيدها ويفيده. فقد يدفعه جهله بتعاليم الإسلام وتوجيهاته - إلى إهدار مال زوجته، وحرمان أولادها وبناتها من التمتع الشرعى معهما بهذا المال.. ولا تستطيع زوجته إذا كانت بعيدة مثله عن تعاليم الإسلام وتوجيهاته - أن تستفيد من مكانتها الاجتماعية مثلا في خدمة نفسها وزوجها وأولادها وبناتها من زوجها وأمثلة هذا الزواج القائم على منفعة شخص ما منفعة مادية دون حرص على مستقبل الزوجين - كثيرة أيضا في واقع الحياة... وبغير التمسك بالإسلام ومبادئه وإرشاداته للزوجين في حياتهما الزوجية، وفي التزاماتهما الإسلامية - لن يكون هناك أمل في حياة زوجية سعيدة في المثاليين السابقين.. فعلى الزوجين في هاتين الحالتين، أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتهما الحسنة. فقد استطاع كما أوضحنا سابقا أن يحيا حياة كريمة سعيدة

مع من تكبره سنا ومن تصغره سنا، بتطبيق مبادئ الإسلام وتعاليمه المفيدة في الحياة الزوجية...

عدم الكفاءة في الصحة العامة:

قد يخفى أحد الطرفين عن الآخر مرضاً معدياً أو خطيراً أصابه، أو عيباً خلقياً ولد به أو ظهر بعد تخطيه مرحلة الصغر. ويظن أن الطرف الآخر بعد الزواج لن يكون أمامه إلا الرضا بالأمر الواقع. لكن هذا تصرف خاطئ نتج عن فهم خاطئ للحياة الزوجية ومتطلباتها. لأن ظهور هذا المرض أو هذا العيب الخلقى بعد الزواج - يضع الحياة الزوجية ذاتها في مأزق كبير، ويهدد مستقبلها أو يحملها تبعات ومسئوليات وأعباء كانت في غنى عنها - إذا اتبع الزوجان من بداية الأمر إرشادات الإسلام في هذا الشأن. وقد أمر الإسلام - كما عرفنا - باختيار كل طرف لرفيقه اختياراً شرعياً سليماً، أساسه المصارحة. فكتمان أحد الطرفين لمرضه الخطير أو عيبه الخلقى عن الطرف الآخر ليس من مصلحة الطرفين في المستقبل. فلو رضى الطرف السليم فإن ذريتهما من البنين والبنات تصبح معرضة لانتقال المرض أو العدوى عن طريق الجينات الوراثية إليها كما سبق ذكره. وهذا خطأ آخر في حق الذرية. والإسلام يريد أسرة قوية تنتج ذرية قوية تستفيد من وطنها وتفيده. وتكون قادرة على العمل والبناء بعيدة عن الأمراض الخطيرة الفتاكة أو العيوب الخلقية التي تدمر معنويات النشء وتجعله غير قادر على الإنتاج والعمل وتعمير الأرض كما أراد الله رب العالمين من البشر أجمعين. فالله تعالى يقول: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]. ويقول جل شأنه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ

يُظَلِّمِ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ♂ المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان — (1) ..

ومن جهة أخرى فإن الطرف الذي أخفيت عنه الحقيقة من حقه شرعا أن يرفض هذا الزواج، بعد أن عرفها.. إذ تصبح الحياة الزوجية الناشئة مهددة بانتشار المرض إذا كان معديا إلى الطرف الآخر ومن حوله من الذرية والأقارب، ومهددة أيضا بانتشار العيب في الذرية. وكلاهما قد ينتقل كما قلنا عن طريق الجينات الوراثية. مما يتعارض مع الغرض الأسمى من الزواج. وهو إنجاب ذرية قوية نافعة لنفسها ولأسرتها ولمجتمعها. ولن يتوفر ذلك مع وجود الخطرين. وفي هذا الجو المهدد بخطر انتقال المرض والعيوب الخلقية، تتعثر الحياة الزوجية وتضعف الرابطة بين الزوجين التي يتواجد على أساسها السكن والمودة والرحمة. مما يجعل الحياة الزوجية نفسها تقوم على أسس واهية من الممكن أن تنتهى في أى وقت وهناك أمثلة كثيرة لفشل وتعثر الزواج بسبب ذلك. ومن تلك الأمثلة ذلك الشاب الذي تقدم لخطبة شابة من سنه لكنه وأهله أخفوا انه يعاني من متاعب عقلية ومرت فترة الخطوبة دون اكتشاف هذه الحالة لأن التركيز فيها عند كثير من الأسر يكون حول الأمور المادية. وعقد الشاب على الفتاة ولم يكتشف أمر مرضه إلا من خلال تعامل أسرة الفتاة معه كزوج لابنتهم إذ اكتشفوا الخلل في سلوكياته،

(1) رواه مسلم عن أبى هريرة ص42 من كتاب كنوز السنة - للمرحوم الشيخ محمد على الصابوني.

وبالطبع لم يعجبهم حاله فطلبوا الطلاق متنازلين عن كافة حقوق ابنتهم عنده. وتدخل الصحة الجنسية في مجال الصحة العامة. وسوف نتحدث عنها بما فيه الكفاية إن شاء الله.

انعدام الكفاءة بين الزوجين في السلم التعليمي والمستوى الثقافي :

الأفضل والأوفق أن يتساوى الزوجان في السلم التعليمي، متوسطا أو عاليا أو في نهاية السلم الأكاديمي.. وتعدم الكفاءة أو تقل كلما اختلف أحدهما عن الآخر. كأن يحمل أحدهما مؤهلا عاليا ويحمل الآخر مؤهلا متوسطا. ومن المعروف أن التعليم يكسب المتعلم خبرة في الحياة. وكلما زادت درجته العلمية كلما ازدادت خبرته في الحياة. وقد تختلف طريقة التفكير بين حامل المؤهل الأعلى ومن دونه. ولاشك أن ذلك ينعكس على أسلوب الزوجين في التغلب على ما يعترضهما من مشاكل وصعاب تخص الحياة الزوجية.. وتكون الخطورة أكثر إذا كان أحد الطرفين أميا والآخر يحمل مؤهلا متوسطا أو عاليا؛ لأن حامل المؤهل يستطيع أن يتعامل مع ما يصادفه من مشاكل إذا لم يجد من ينصحه - بالقراءة والفهم والتصرف السريع لاختيار الحل المناسب. أما الطرف الأمي فيعتمد حينئذ على خبرته في الحياة وهي قليلة. وقد لا يتمكن من التصرف بحكمة فيما يعرض له من مشاكل، وخصوصا إذا كان زوجه المتعلم بعيدا عنه. وهنا تكثر المشاكل ويصعب حلها. فتعرض الحياة الزوجية للتفكك وعدم الاستقرار..

وقد يكون الزوج هو الطرف المثقف فيستغل أمية زوجته أو ضعف مستواها الثقافي والتعليمي في تحقيق مصالح شخصية له أو لأحد أفراد عائلته أو أقاربه، دون نظره إلى مصلحة أسرته الناشئة، وخصوصا إذا كان غير ملتزم بمبادئ وتعاليم وإرشادات الإسلام،

ولا يهتم بسئوليته الشرعية كزوج نحو زوجته وأولاده وبناته، وربما يتجاهلها عن قصد... فهذا زوج متوسط الثقافة - يحمل مؤهلا متوسطا، وتزوج من امرأة أمية، من وسط عامى. لم تجد من يعلمها أو ينصحها بالحرص في تصرفاتها المالية مع زوجها بسبب قلة خبرتها وأميته. وكانت تملك أرضا زراعية ومنزلا ومبلغا من المال. وقد ورثت ذلك عن أبيها المتوفى. وكانت هذه الممتلكات تدر عليها قدرا معقولا من المال. ونظرا لظروفها وعدم إكمالها للسلم التعليمى، استعمل أبوها معها الحكمة حرصا على مستقبلها. فسجل لها كل ماتملك بالشهر العقارى، ووضع مالها وديعة في أحد البنوك؛ حتى لا تتعرض أملاكها وأموالها للضياع في غفلة منها، من طرف طامع لا يعترف بحق الزوجة في التملك والانتفاع بما تملكه من مال وعقار وأرض.. وقد وقعت الزوجة الأمية قليلة الخبرة والحيلة - ضحية لزوجها الطامع ذى التعليم المتوسط، والذى لم يستفد من تعليمه تقربا إلى الله ورسوله وتمسكا بمبادئ دينه الإسلامى وإرشاداته في الإخلاص لزوجته ومعاملتها بالحسنى. فأخذ يتظاهر في البداية بالحب والولاء والود لزوجته الأمية، ويغريها بالمعاملة الحسنة فترة من الزمن حتى كسب ثقتها وعطفها. وفى فترة من فترات ضعفها أمام حبه المزعوم، استطاع أن ينتزع توقيعها الضعيف الذي تكتبه بصعوبة على توكيل منها له بتصرف كل أمورها المالية والعقارية والزراعية. واستغل أميتها وضعفها في القراءة والكتابة عن الحد المطلوب - في عمل هذا التوكيل الذي وقعت عليه دون أن تعرف مافيه. وبهذا التصرف المشين استطاع نصف المتعلم هذا بمكره وفجوره - أن ينزع سلاح زوجته، الذي زودها به أبوها قبل موته. فأصبح تسجيل ملكيتها بالشهر العقارى لا

قيمة له. فقد استولى بتوكيل غير شرعى من زوجته الأمية المخلصة، على كل ما تملكه من أرض وعقار ومال، واحتفظ به لنفسه.. وبعد أن تمكن من فعلته اللإنسانية أظهر لها وجهه القبيح، فغير معاملته لها من حُسن إلى سوء ومن ود إلى غلظة. وبدأ الخلاف يظهر ويتزايد بينهما. وفتر حبه المدّعى لها. وأصبحت الحياة الزوجية بينهما مستحيلة فكان طلاقهما هو الحل.. وإلى أن تنتبه الغافلة لمؤامرتة الدنيئة وتطعن في ذمته أمام القضاء وتثبت حقها الضائع، ضاعت آمالها في حياة سعيدة يتخللها السكن والمودة والرحمة. فلقد تنصل زوجها الخائن من كل واجباته الشرعية نحو زوجته بسبب أميتها وجهلها بحقوقها الشرعية وإيمانها بحبه الزائف.

وقد يحدث العكس تماما فيكون الأمى هو الزوج، وتكون الزوجة هى المتعلمة.. فأمية الزوج وقلة مستواه الثقافى والفكرى عن الزوجة، كل ذلك يعصف بهدوء الحياة الزوجية واستقرارها.. فالزوج الأمى غير المثقف لا يكون - عادة - عالما بأحوال تصريف الأمور المالية للأسرة فضلا عن بقية أمورها الأخرى الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. وبذلك يستحيل عليه أن ينجح في تصريف أمور أسرته وخصوصا الأمور المالية منها. فتقلت من يده قوة السيطرة على مجريات الأمور وعلى كافة المستويات، المالية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وتقع أسرته في مهب الريح بسبب جهله وأميته وإصراره على أن تكون الأمور المالية في يده رغم جهله بكيفية تسييرها سيرا طبيعيا.. فتلك فتاة أتمت تعليمها العالى وأخذت تبحث عن زوج مناسب لها. لكن قدرها أوقعها في شاب يحمل مؤهلا متوسطا. وكان قليل الثقافة وقليل الالتزام بمبادئ الدين الإسلامى وتوجيهاته الهامة في تسيير أمور الحياة الزوجية،

فضلا عن عدم التزامه كمسلم بما افترضه عليه الإسلام من فرائض وواجبات ومبادئ أخلاقية. ومن البداية أصر على ممارسة مسؤوليته الشرعية كقيم على زوجته وعلى بيت الزوجية في الأمور المالية. مع عدم معرفته بما يريد ممارسته كمسئول عن زوجة وأسرة. وسرعان ما اتجه في إنفاقه إلى أهوائه ونزواته الشخصية فأهمل طلبات بيت الزوجية وأهمل حقوق زوجته في المأكل والمشرب والمسكن والملبس. وأهمل أمور أبنائه وبناته.. والإسلام في هذه الحالة يرفع عنه المسؤولية ويمنحها للقادر على ممارستها من الزوجين حسب ما ينص الشرع الإسلامي. والطرف القادر هنا هو الزوجة المتعلمة، الواعية لمسئولية بيت الزوجية، والقادرة على انتشاله من الهاوية التي ينحدر إليها ولا شرعية لاعتراض الزوج في هذه الحالة. لأنه لا يعرف معنى القوامة ولا يمارسها ممارسة شرعية.. لكنه اعترض بشدة على تمكين زوجته من القوامة عليه وعلى بيت الزوجية في الأمور المالية ومراعاة مصالح أولادهما وبناتهما. وأصر على أنه القيم الشرعي. وحفاظا على كيان الأسرة من التفكك والانحيار المنتظر وافقت زوجته على قيامه بالالتزامات المالية. لكنه ازداد تمسكا وشغفا بتناول المسكرات. فتناولها أكثر مما كان يتناولها. وازداد استهتاره بمبادئ الإسلام وقيمه وإرشاداته في صون بيت الزوجية وفي الحفاظ على حقوق زوجته وأولاده وبناته. وأدركت الزوجة أن زمام الأمور بدأ يفلت من يدها رغم نصائحها لزوجها وتوجيهاتها له حتى يسير في الاتجاه الصحيح. ولم تجد الزوجة بدا من القضاء لإنهاء حياتها مع هذا الزوج الذي ضيع زوجته وأولاده وبناته وبيت الزوجية الذي يحرص عليه كل مسلم.. وهكذا كان الانفصال هو الحل لوقف التدهور الحاد الذي أصاب

الأسرة في جميع نواحي الحياة الأسرية بسبب أمية الزوج وعدم موافقته على تحويل القوامة المالية عنه إلى زوجته المتعلمة الواعية لهذه المسؤولية...

عدم التكافؤ بين الزوجين في المستوى الديني والخلقى:

إذا افتقد أحد الزوجين المستوى الديني والخلقى الذي ينبغي أن يكون عليه باعتباره مسلماً فإن ذلك ينعكس على الحياة الزوجية، فتفقد الكثير من استقرارها وسعادتها. إذ لا سكن ولا مودة ولا رحمة بين الزوجين. ويسرى ذلك الحال على أولادهما وبناتهما حتى لو كانوا كباراً. ويحدث ذلك إذا كان طرفاً الزوج أو أحدهما لا يقيم أركان الإسلام الخمسة أو أحدها. فلا توافق بطبيعة الحال بين زوج يؤدي الصلوات الخمس المفروضة على المسلم والمسلمة، وبين زوجة لا تؤديها، أو العكس. وكذلك الحال في بقية أركان الإسلام. فقد يدفع الحرص على المادة الطرفين أو أحدهما إلى منع إخراج زكاة المال، أو منع القادر على أداء فريضة الحج من أدائها، وقد يؤدي ضعف المستوى الديني إلى عدم تمكين أحد الطرفين من صيام رمضان مع قدرته على ذلك، وقد تتكرر هذه المخالفات إلى أن تصبح شيئاً عادياً. وإذا حدث كل ذلك فمعناه أن هذه الأسرة الناشئة بكل أفرادها، لن تتذوق طعم السعادة. ولن يكون فيها سكن ولا مودة ولا رحمة. بل ستكون أسرة مفككة. وتكون عبئاً على المجتمع الإسلامى، وليست تقدماً وامتداداً له.. فهناك فرق بين أسرة يعتمد طرفاها على الله عز وجل في تحقيق أهدافها وأهداف أولادهما وبناتهما، وطموحاتهم جميعاً، مع الأخذ بأسباب تحقيق الآمال والطموحات، من عمل وجد واجتهاد - وبين أسرة تعتمد في تحقيق آمالها وطموحاتها على يد فلان من الناس أو منصب يتولاه أحدهم أو

قريب لهم. ففي الحالة الأخيرة يتضح أنه لا أخذ بالأسباب في تحقيق المصالح والأهداف. وهذا التواكل قد يضر بالأسرة؛ لأن فلانا صاحب المنصب، أو فلانا الواصل غير مضمون ضمانا مستمرا. وإذن فالتوكل على الله جل جلاله مع الأخذ بالأسباب هو الضمان الوحيد الباقي، والذي يوصل الأسرة كلها إلى ما يصبو إليه كل فرد فيها.

ومن ناحية أخرى فإن عدم التزام الأسرة أو أحد أفرادها بالأخلاق الحميدة التي دعا إليها الإسلام وأوصى المسلمين جميعا للتحلى بها - قد يقف حاجزا في سبيل تقدم هذه الأسرة وعدم تحقيقها للسعادة والاستقرار المنشودين.. فالقلوب العامرة بالخيرة الرحيمة، لا تعيش ولا تسعد إلا في جو أخلاقي فاضل، يلتزم به أصحاب هذه القلوب. ولن يؤدي الأخذ بالأخلاق الوضيعة إلا إلى تحقيق أهداف وضيعة. وإذا كان الشاعر يقولُ الأمم بأخلاقها فيقول:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت :: فإن هُم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
فنحن نقول: وكذلك الأسر. فالأسرة ملتزمة بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وأخلاقياته الكريمة التي ورد ذكرها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - هي التي تبقى، وتكوّن علاقات قوية دائمة مع غيرها من الأسر الشبيهة بها. أما الأسرة التي لا يلتزم أفرادها بمبادئ الدين الإسلامي، وأخلاقه العالية الرفيعة - فلن يتعامل معها أحد، ولن يتعاون معها أحد. وستبقى منعزلة إلى أن تندثر، مادامت قد خلت من السكن والمودة والرحمة..

وإذا تواجد المستوى الديني المطلوب بالالتزام أحد طرفي الزواج بتوجيهات الإسلام وإرشاداته التي تهم الأسرة في جميع مجالات الحياة - فمن الممكن أن يؤثر هذا الطرف الملتزم في الطرف الآخر

غير الملنزم ويجعله ملتزماً، إذا أخلص في توجيهه وبين له أنه لا هدف له إلا مصلحته والسعى لجلب الخير له في كل اتجاهات الحياة. وهذا أمر وارد سواء كان الملنزم هو الزوج أو الزوجة. وقد يكون الخير على يد أولادهم وبناتهم إن كانوا واعين ملتزمين مقدرين لمسئولياتهم مع أبويهم في إعلاء شأن الكيان الأسرى الخاص بهم..

أما إذا كان الزوجان غير ملتزمين بآداب الإسلام وإرشاداته في جميع جوانب الحياة الأسرية، والحياة العامة - فإن الأمر سيكون مختلفاً.. فهذا الثنائي غير الملنزم والذي كَوَّن أسرة لا تلتزم عادة بأداء الفرائض الدينية، ولا بآداب التعامل المطلوبة من كل طرف نحو الطرف الآخر، ولا بالأخلاق الإسلامية الحميدة - يكون عرضة للضياع، فضلاً عن ضياع من يتبعه من أولاد وبنات. وكمثال لعدم التزام الطرفين نذكر قصة رجل دُيُوث لا يغار على أهل بيته. ولا يتحرك للدفاع عن شرفه وشرفهم؛ لأنه لم يصل إلى المستوى الدينى والأخلاقى المطلوب في الإسلام، والذي يمكنه من تكوين أسرة مسلمة سعيدة بالتزامها الدينى والأخلاقى المطلوب من كل مسلم ومسلمة. وطبيعى في مثل هذه الظروف أن يترك هذا الزوج لزوجته الحبل على الغارب، وخصوصاً إذا كانت هى الأخرى قد حرمت من الوصول إلى هذا المستوى المطلوب من الاهتمام بتوجيهات وآداب الدين الإسلامى، وتنفيذ ما افترضه الدين على الزوجين من حقوق وواجبات، والوصول إلى مستوى رفيع من الأخلاق التي دعا إليها الإسلام في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. وقد دعت هذه المرأة الجميلة التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين والمسلمات في قوله صلى الله عليه وسلم: **إياكم وخضراء الدمن** — قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: **المرأة**

الحسنة في المنبت السوء—.. وقد سبق شرح الحديث.. دعتة إلى الزواج منها فقبل. وهكذا تزوج طرفان كلاهما لا يعبأ بتعاليم الإسلام وتوجيهاته، التي تحفظ على البشر كرامتهم وشرفهم وحياتهم السعيدة، ولا يهتم بالأخلاق الإسلامية الحميدة ولا يتخلق بها.. ولم يلجأ كلاهما في اختيار صاحبه إلى توجيهات الإسلام في اختيار الزوج والزوجة.. وبدأ الرجال ينظرون إلى زوجة الرجل في الغدوة والروحة، وفي كل وقت ومناسبة ممكنة، فلم تتحرك في الرجل نخوة الرجولة والحفاظ على الشرف. ولم يأمر زوجته بالحرص والحذر من نظرات الرجال؛ بلبس الحجاب أو النقاب. ولم يحثها على الاحتشام وأخذ الحيلة مما هو أبعد من مجرد النظرات. وتطور الأمر فأخذ رجال من نفس النوعية يبتسمون لها ويتحدثون معها دون أن تحاول صدهم، ودون أن يحرك زوجها ساكنا، متجاهلا بذلك تعاليم الإسلام في الحفاظ على الزوجة وعلى العرض والشرف. وبدا كأنه راض عن سلوك زوجته، وسلوك من يعاملونها معاملة دنيئة. ولم يدرك هذا الديوث أن خطوات الشيطان في تدنيس العرض تبدأ بنظرة فابتسامة فسلام لغرض غير شرعي فكلام - بقصد غرض سيئ فموعد فلقاء آثم. وكلها خطوات غير شرعية وغير مطمئنة على شرف الزوجين وكرامتهما.. وازداد الخطر، فصار بعضهم يجلس على باب دارهما أو قريبا منه، يختلس الابتسامات والنظرات والأحاديث. ولم يمنعهم الزوج من ذلك. وتفاقم الخطر فسمح بعضهم لنفسه بدخول دارهما في حضور الزوج في البداية دون اعتراض منه، ثم بعد ذلك في غيبته. وتمادى الزوج في إثمه وبلاهته، ولم يمنع هذا التصرف غير الشرعي، لا من زوجته ولا من الداخلين إليها. وانتهى الأمر إلى أن مارس أحدهم الفاحشة معها داخل منزل

الزوجية. وصارت بعد ذلك مطمعا لذئاب البشر. وتحول بيت الزوجية إلى بيت للدعارة، في غياب المستوى الدينى والخلقى الواجب توفره في كل من الزوج والزوجة. ومن الطبيعى مع هذا الحال أن تنتقل عدوى الديوثة إلى أبنائهما وبناتهما. فضاعت سعادة الأسرة بضياح السكن والمودة والرحمة منها وضاع معها شرف الأسرة وكرامتها في غياب تطبيق مبادئ الدين الإسلامى والأخلاق الكريمة التي يدعو الإسلام أفرادها وأسرهم إلى التمسك بها.

عدم الكفاءة بين الزوجين في الجنس:

تتنوع المشاكل الجنسية بين الزوجين، وتتفاوت أحيانا بين العجز الكلى أو الجزئى وبين الشذوذ. ولكل منها صور وأشكال..

فقد يكون العجز لسبب خلقى، وله أحوال: فقد تكون الحيوانات المنوية عند الزوج ميتة لا تؤدى دورها مطلقا في عملية الإنجاب. وصحيح أن الزوج في هذه الحالة يجامع زوجته ولا يعجز عن الإنزال. لكنه ينزل حيوانات منوية ميتة لا تؤدى إلى الإنجاب. وهذا ما يطلق عليه العقم الكلى أو التام. ولا علاج له إلا بالتوجه إلى الله عز وجل، خالق هذه الحيوانات المنوية والقادر وحده على إحيائها؛ لتؤدى دورها في عملية الإنجاب. ويذكر ربنا سبحانه وتعالى عباده بهذه النعمة فيسألهم عن خلقها ليقروا له بأنه خالقها. فيقول القادر على كل شيء: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} ٥٨ {أَتَسْتَخْلِقُونَهُ؟ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} ٥٩ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩]. وهو القادر سبحانه على أن يجعلها حية عند بعض الأزواج وميتة عند البعض الآخر. فيجعل بعضهم منجبا للبنين أو للبنات أو لهما معا. وبعضهم عقيما لا ينبج حسب مشيئته سبحانه. ويقول جلاله في ذلك أيضا: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ

إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ { [الشورى: ٤٩ - ٥٠] ..

وقد يكون العجز جزئياً، ناتجاً عن تعطل الجهاز التناسلي أو جزء من أجزائه عن السير في عملية الإنجاب.. وغالباً ما يعالج الطب الحديث هذا التعطل.. وهناك حالة يطلق عليها العُتَّةُ. وهي عجز يصيب الرجل فلا يقدر على الجماع ويرجع لأسباب نفسية أو عضوية. فمن النفسية إعراض الرجل عن امراته واشتهاؤه لغيرها، أو اشتهاؤها لغيره. وقد يدخل فيه السحر، أو النُّشْرَةُ (1). ومن العضوية اعتراض ذكر الرجل لقبل المرأة يمين أو شمالاً (2). وينتج عن انتفاخ في الخصية. والسبب النفسي يمكن علاجه بالقرآن الكريم وما ورد في السنة النبوية من الرقية الشرعية. وللنشرة أيضاً علاج بالقرآن الكريم (3). أما الأسباب العضوية فيمكن علاجها بالطب الحديث. لأنها تؤذى الرجل وتساهم في عجزه الجنسي، إلا أن تكون مدعاة أو غير حقيقية..

ويخبرنا القرآن الكريم كما تخبرنا السنة النبوية المباركة، أن طائفة من اليهود حاولت إلصاق تهمة العجز الجنسي بالإضافة إلى اتهامات أخرى، بنبي الله موسى عليه السلام ليشككوا في جدارته بالرسالة. فيقول جل جلاله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٦﴾} [الأحزاب: ٦٩]. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة، ما رواه البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ^١إن

(1) النُّشْرَةُ: تأخير الرجل عن امراته وتأخذه عنها.

(2) المصباح المنير - حرف العين كلمة عنين من العنة.

(3) هامش ص 315، 316 من كتاب فتح المجيد - للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل شيخ.

موسى كان رجلاً حياً سِتيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدرّة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر وجعل يقول: ثوبى حجر، ثوبى حجر، حتى مر على ملأ من بنى إسرائيل فرأوه أحسن ما خلق الله عريانا، وأبرأه مما يقولون—.. وفى رواية ابن عباس: أن قومه قالوا له: [♂]إنك أدر" فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على صخرة فخرجت الصخرة تشد بثيابه وخرج يتبعها عريانا حتى انتهت به إلى مجالس بنى إسرائيل. قال: فرأوه ليس بأدر—⁽¹⁾.. وهكذا اتهم فريق من بنى إسرائيل موسى عليه السلام أحيانا بالبرص وأحيانا بالأدرّة وهى انتفاخ الخصية، وهو عيب يمكن أن يعطل أو يعوق العملية الجنسية حتى أظهر الله براءته..

وقد يكون منى الرجل ضعيفا، وفى الطب الحديث علاج لهذا الضعف. وقد يسرع الزوج في قذف منيه في رحم زوجته قبل أن يصل إلى درجة المتعة والإشباع أو قبل أن تصل هى إلى تلك الدرجة، ولهذا القصور علاج أيضا في الطب الحديث.. أما بالنسبة للزوجة، فقد لا يحتوى جهازها التناسلى على بويضات يحصل بها الإخصاب والحمل، وقد لا يقدر الرحم على احتضان البويضة حتى يحصل الإخصاب، وفى الطب الحديث علاج لهذين الأمرين.. وقد يعجز الرحم نفسه عن احتواء عملية الحمل، وعلاج هذا الأمر ميسور في الطب الحديث. وهكذا يذل الله عز وجل الصعاب أمام الزوجة التى قدّر لها الحمل.. وقد وصل هذا التيسير إلى درجة أن

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - الجزء الثالث ص487 أدر: منتفخ الخصية.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **لَوْ أَنَّ الْمَاءَ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ أَهْرَقَتْهُ عَلَى صَخْرَةٍ لَأَخْرَجَ اللَّهُ مِنْهَا وَلَدًا** — (1) ..

على أن الثقة بالنفس لدى كل من الزوجين في مثل هذه الحالات المرضية، تعتبر من أهم العوامل النفسية التي تساعد على تخطي كثير من الصعاب الواردة في هذا الشأن...

والشريعة الإسلامية توجب على الطرف الذي لديه عيوب خلقية تمنع الإنجاب أو تعطله، أن يصارح بها الطرف الآخر. فإن رضى فيها ونعمت، وإن رفض فله منذ البداية أن يكون في حل من هذا الارتباط. وهذه المصارحة مطلوبة قبل الدخول بل قبل الارتباط الشرعى. حتى لا يفاجأ الطرف الآخر بعد الدخول أو بعد العقد بالمرض الخطير أو العيب الخلقى، فيحصل الخلاف ويكون الزواج في مهب الريح. فإذا لم تكن مصارحة وحصل علم بهذا المرض أو العيب بعد العقد أو بعد الدخول، فإن الأمر يحتاج إلى صبر وروية ومعالجة للعيب أو المرض إن أمكن ذلك. فإذا لم يمكن علاجه وكان الطرف الثانى السليم غير ملتزم بتوجيهات الإسلام وإرشاداته بحقوق وواجبات الزوجين في الحياة الزوجية، أو غير ملتزم بصفة عامة بتوجيهات وآداب وتعاليم الإسلام وتكليفاته الشرعية - فإن هذا الطرف السليم قد يعتمد إلى تعويض هذا النقص عند طرف ثالث في الخفاء، فيُدخل نفسه وأهله وأهلها في مشاكل كان في إمكانه النأى عنها إذا كانت هناك مصارحة ومكاشفة من أول الأمر...

ومن أمثلة المشاكل التي تترتب على العقم الكلى أو الضعف الجنسي الناتج عن مرض مزمن أو مؤقت - ذلك الشاب، الذي وقع

(1) رواه أحمد في المسند عن أنس بلفظ: لأخرج الله منها ولدا. أو لخرج منها ولد ص514 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

اختياره على فتاة رأى أنها مناسبة له. دون دراسة لأحوالها وتأكد من صلاحيتها للإنجاب قبل الزواج بها. واكتشف بعد فترة أنها عقيم لا تلد. وبعد نفس الفترة تقريبا وجدت الفتاة أن فارس أحلامها هو الآخر عقيم محروم من الإنجاب.. وكان من الممكن حينذاك أن يرضى كل منهما بما قسم الله له، خصوصا وأن العيب مشترك فيهما. ولعل الله تعالى يحدث بعد ذلك أمرا لصالحهما معا، إذا اتجها إليه سبحانه بالرجاء والدعاء. لكن الإنسان خُلِقَ عجولا. لقد راح كل منهما يفكر في مخرج له. ومع قلة وعيهما بمبادئ الدين وأخلاقياته وتوجيهاته العاصمة من الزلل - لم يجد كل منهما إلا أن يرمى في أحضان طرف ثالث. وطبيعي ألا ينجح أحدهما في مسعاه لأن الخروج عن تعاليم الإسلام لا يبشر بخير، ولا يرجى منه إلا الشر. فلم يشعرا بالسعادة المنشودة ولم يجد أحدهما في الآخر سكنا ولا مودة ولا رحمة. وكانت النتيجة الاختلاف والضياع ثم التفرق بسبب القصور في الكفاءة الجنسية بينهما..

وهناك نوع معروف من الضعف الجنسي يصاب به الزوج أحيانا نتيجة لبرود جنسى أصاب زوجته بسبب ختانها في الماضي بطريقة خاطئة وهى صغيرة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يواجه الخائنتات إلى الطريقة الصحيحة في الختان حتى لا تجرن ولا تنهكن من ثخنتهن من البنات. فعن أم عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر خاتنة تختن فقال: **إِذَا خَتْنَتْ فَلَا تَنْهَكِي**، فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعـل — (1). وعن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت للخاتنة: **" إِذَا خَفَضْتَ فَأَسْمِي وَلَا تَنْهَكِي**، فإنه

(1) رواه أبو داود ص131 من تحفة المودود بأحكام المولود - لابن قيم الجوزية - تنهكى: تجورى في القطع.

أسرى للوجه وأحظى لها عند زوجها " (1).. قال العلامة الشيخ أحمد الصاوى في شرحه لمتن العلامة أبى البركات الدرديرى: أى لا تجورى في قطع اللحمة الناتئة بين الشفرين فوق الفرج. فإنه يضعف بريق الوجه ولذة الجماع. فعدم المبالغة تكون أشرف للوجه وألذ عند الجماع؛ لأن الجلد تشد مع الذكر عند كمالها، فتقوى الشهوة لذلك. ويضيف الشيخ أحمد الصاوى أنه إذا بلغ الشخص قبل الختان وخاف على نفسه من الختان فهل يتركه أو لا؟ قولان أظهرهما الترك، لأن بعض الواجبات يسقط بخوف الهلاك. فالسنة أخرى، ولا يجوز للبالغ أن يكشف عورته لغيره لأجل الختان. بل إن لم يمكنه الفعل بنفسه سقطت السنة وسقوطها عن الأنثى أولى بذلك " (2). ففى الحديثين السابقين ما يدل على الإقلال وإبقاء الأصل كنواة. وغير هذا يعتبر جورا ويسبب المشاكل للزوجين ومنها البرود الجنسى لدى بعض النساء. فهن لايشعرن بلذة الجماع إلا بعد أن ينتهى دور أزواجهن فيه - وكأن الجماع بذلك قد حدث من طرف واحد هو الزوج ومع ذلك يكون الزوج محروما من تجاوب زوجته معه في تبادل اللذة. وقد تحدث له أعراض جانبية تجعله يفقد القدرة على التكيف مع زوجته في عملية الجماع. وعلى الرغم من ذلك فكثيرا ما ينتج عن هذا اللقاء الجنسى الضعيف ذرية قد تكون قوية صالحة. وذلك بالتعاون بين الطرفين لتبادل الشعور بينهما باللذة.. ويساعد الطب النفسى في إيجاد هذا التعاون مع اتباع أساليب الشريعة الإسلامية في

(1) ذكره حرب في مسائله عن ميمونة زوج النبى ﷺ نفس الصفحة من المرجع السابق. أشمى ولا تنهكى: أى اتركى الموضع أشم. والأشم المرتفع. أى لا تخفضيه بأخذ الكثير منه.

(2) ص151، ص152 من الجزء الثانى من الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - لأبى البركات الدرديرى - حاشية الصاوى.

تحبب كل طرف منهما إلى الآخر، والعمل بالآداب الإسلامية في الجماع.. ونظرا للتجاوزات الكثيرة التي حدثت وتحديث في هذه الأزمان المتأخرة في عمليات ختان البنات فقد تفضلت وزارة الصحة بجمهورية مصر العربية بإصدار قرار بمنع ختان الإناث وخصوصا بعد أن حدثت حالات وفاة عديدة لعدم خبرة الأطباء والطبيبات في هذا الأمر وساعد المسؤولين في اتخاذ هذا القرار أن كثيرا من علماء الشريعة الإسلامية لم يحددوا رأيا قاطعا في أمر ختان الإناث. ومنهم الشيخ العلامة الصاوي كما سبق أن بينا. ولولى الأمر في هذه الحالة أن يأخذ بما فيه مصلحة الإناث.

أما عن الشذوذ الجنسي فهو من أسوأ ما يصيب الرجل أو المرأة من أمراض الجنس. وقد ذكرنا آنفا أن للأسباب النفسية علاج بالقرآن الكريم وبما ورد في سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. فإذا كان الرجل معرضا عن دينه - أو المرأة - فإنه لا يستفيد من وسائل الإصلاح النفسى في القرآن الكريم، ولا يهتم حتى ببقية أمور دينه وكذلك المرأة - فإن هذا الإعراض يتحول إلى مرض خطير. إذ يحلو للرجل أن يبحث عن رجل يمارس معه الجنس، ويترك زوجته التي أحلها الله له. وهذا يسمى باللواط. وكذلك المرأة تبحث عن امرأة تمارس معها الجنس بطريقة أو بأخرى. وهذا يسمى بالسحاق. وكلاهما زنى محرم. وقد نفرت منهما السنة النبوية الكريمة. فعن السحاق بين النساء يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **السَّحَاقُ بَيْنَ النِّسَاءِ زِنَا بَيْنَهُنَّ** — (1). وعن اللواط يقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم: **من مات من**

(1) رواه الطبرانى ص86 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

أمتى يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم — (1) ..

ومن المعروف أن قوم لوط كانوا يمارسون هذا العمل، يأتي الرجل إلى الرجل فيمارس معه الجنس ويترك كلاهما زوجته. وقد عاقبهم الله عقاباً جماعياً جزاء ممارستهم جريمة اللواط.. إذ أرسل الله تعالى لهم جبريل عليه السلام فرفع قريتهم على جناحه إلى عنان السماء ثم هوى بها إلى الأرض بعد صيحة مدوية مرعبة منه عليه السلام. وقال فيهم سبحانه: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ} (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) { [الحجر: ٧٣ - ٧٤]. وكان هذا العذاب لقوم لوط بعد أن أنذرهم لوط عليه السلام بأنهم سيعاقبون على فعلهم الفاحشة وذكرهم بما يفعلون ويقول الله تعالى في ذلك: {وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) { [الأعراف: ٨٠ - ٨١]. ولو عالجوا أنفسهم وتحببوا إلى نساءهم ما فعلوا تلك الفاحشة التي عوقبوا على فعلها..

أما من يلجأ من الأفراد إلى الحلول غير الإسلامية لمشاكل الجنس. ولا يحاول تصفيتهما مع زوجته بالطريقة التي أشرنا إليها - فإنه يدخل نفسه وزوجته وأهله وأقاربه - في دائرة الخطر. حيث يلجأ إلى الاتصال الجنسي غير المشروع بامرأة غير زوجته. فيكون بذلك عرضة للإصابة بأمراض خطيرة. ويعرض زوجته لنفس الخطر علاوة على إثمه وعقابه على فعل الفاحشة يوم القيامة. ومن حسن الحظ أن هؤلاء الذين يعرضون أنفسهم وأسرهم للإصابة بهذه الأمراض قليلة من المسلمين غير الملتزمين بتعاليم الإسلام وإرشاداته في مجال الجنس، وفي غيره من مجالات الحياة، وهم

(1) رواه الخطيب عن أنس ص 148 من المصدر السابق.

كثرة كثيرة من غير المسلمين التواقين إلى الحرية المطلقة في المجال الجنسي..

فالإيدز الذي ينتج عن الشذوذ الجنسي بين الرجال وعن الاتصال الجنسي غير المشروع بين الرجل وغير زوجته - أصيبت به مجتمعات كثيرة في الدول غير الإسلامية التي لا التزام فيها بمبادئ وتوجيهات الإسلام وأصيبت به قلة قليلة من أفراد المجتمعات الإسلامية غير الملتزمين بمبادئ الإسلام وأخلاقياته. ومن تلك الأمراض أيضا بعض الأمراض السرية القاتلة، ومن أهمها السيلان. وهو أول ما يبتلى به الفاجر الذي تحلو له فروج النساء غير زوجته. وهو قرحة في الفرج لا تجف، ولا يسلم من أذاها الفاجر إلا نادرا. وهذه العاهة تتلف الكبد والمثانة والخصيتين وغيرها من الأعضاء، وتسبب وجع المفاصل وأمراضا كثيرة أخرى⁽¹⁾. ومن هذه الأمراض الزهري. وهو مرض يفسد نظام الجسم كله. فلا يبقى في الإنسان عضو غير متأثر بسمومه وآذاه. وينتقل من المريض إلى أولاده وأحفاده⁽²⁾.

وبذلك يسهم المريض المصاب به في إيجاد جيل من ذوى العاهات الدائمة.. والأولاد الصم والبكم والعمى والمجانين من أخط ثمرات ساعات اللذة القلائل غير الشرعية التي يعدها الأب الظالم لنفسه ولأهله من أسعد أوقات حياته⁽³⁾. بل إن من ثمرات هذا الاتصال غير الشرعي الابتلاء بالأخلاق الوضيعة، كالوقاحة، والخديعة، والكذب، والأثرة، والخضوع للشهوات وجموح النفس

(1) ص28 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السعيد الشرقاوى - الطبعة الثانية 1986 ببعض التصرف.

(2) نفس الصفحة من المصدر السابق.

(3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

وشرود الفكر، وفساد الطبع، وقلة الوفاء. وكلها تنتج عن التورط في شئون جنسية غير شرعية. فتنتقل العدوى بهذا المرض، الأخلاق المتدنية ونماذجها السابقة؛ لتصيب بها الأخلاق العالية الرفيعة وتقللها في المجتمع. فنسأل الله السلامة(1).

وكانت تنتشر في الجاهلية أنواع متعددة من الزواج كزواج الرهط وزواج الاستبضاع وزواج الأخدان وهي تتضمن نفس الخطر الذي تحدثنا عنه. وتبقى الصورة المألوفة في الزواج وهي الزواج الشرعي الإسلامي الذي يحمي الطرفين والأسرة من كافة الأخطار الصحية المحدقة بها، على أن يتبع به الأسلوب الإسلامي في الزواج..

وحتى يقل التنافر بين الزوجين وينعدم، ننصح بالأخذ ببعض التوجيهات التي عرضها أحد الباحثين في مجال العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته. ونشير إلى أهمها في إيجاز وقد عرضنا لها فيما سبق(2):

أولاً: لكل من يحرص على الإنجاب عليه ألا يعزل أو ينزع قبل الإنزال. ثانياً: يجب على الزوج ألا ينزع إذا أنزل حتى تنزل زوجته؛ لأنه عمل مشترك بينهما. ثالثاً: لا بد من معرفة الزوجة ورضاها قبل الممارسة. فلا يأتيها زوجها بغير رضاها ولا بطريقة مفاجئة. رابعاً: يحرم على الزوج أن يأتي زوجته ويجعل بين عينيه في مخيلته غيرها وكأنه يجمع تلك الأخرى التي ليست زوجته ففي ذلك إثم كبير.

(1) يتصرف من ص 29 من نفس المرجع.

(2) يتصرف من ص 141 إلى ص 146 من كتاب الزواج الإسلامي - تأليف طارق إسماعيل كاخيا - الطبعة الأولى ص 1966.

وهناك توجيهات أخرى لغير هذا الباحث نذكر منها: أولاً: يجب ألا يتجرد الزوجان من ملابسهما كما يدعى البعض فهما إن فعلاً ذلك يشبهان العيرين اللذين يمارسان عملية الجماع. وفرق بين الإنسان والحيوان كبير وواضح. والله تعالى أحق أن يستتر منه عباده.. وقد ورد في الخبر: "إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردان تجرد العيرين" (1). ثانياً: المداعبة مطلوبة قبل المواقعة. وقد ورد ذلك في قول النبي عليه الصلاة والسلام: ﷺ لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، ليكن بينهما رسول. قيل وما الرسول؟ قال: ﷺ القبلة والكلام — (2). وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ﷺ ثلاث من العجز عند الرجل: أن يلقي من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه ونسبه، والثاني أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته، والثالث: أن يقارب الزوج زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها، ويضاجعها، فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه — (3).

وغالبا ما يكون التوافق في عملية الجماع بين الزوجين مدخلا إلى التوافق بينهما في سائر العلاقات والعكس صحيح أيضاً.. ومن أمثلة ذلك: تلك الفتاة التي تزوجت من شاب رأت قبل الارتباط به أنه هو المناسب لها. حيث لم يظهر منه ما يحتمل أن يعكر صفو الحياة الزوجية. لكنها اكتشفت بعد فترة من الزمن، أنه غير صالح للإنجاب لخروج حيواناته المنوية إلى الرحم وهي ميتة، أي أنه كامل العقم.. فندبت حظها. لكنها كانت من جهة أخرى غير ملتزمة بأداب الإسلام

(1) ص 92 من كتاب الزواج الإسلامي وآداب اللقاء بين الزوجين - للشيخ أبي حامد الغزالي - تحقيق محمد عثمان الخشت عام 1984 ميلادية.

(2) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ص 133 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - عثمان السعيد الشرقاوي.

(3) نفس الصفحة من المرجع السابق.

وتوجيهاته في الحياة الزوجية والحياة بصفة عامة فكانت تغافله وترتمى في أحضان رجل آخر، لعلها تنجب منه. فصارت تمقت الحياة الزوجية وتمقت نفسها وتريد أن تتخلص من هذا الكابوس الذي تعيش فيه. وكانت تعبر عن سخطها من الزواج فتقول: " تستحق الضرب بالحذاء من تفكر في الزواج من البنات والنساء " وهكذا ابتعدت عنها وعن زوجها السعادة التي تتواجد في جو يسوده السكن والمودة والرحمة بين الزوجين ويسيطر عليه الأمل في الإنجاب.. وينتهي الأمر بافتراق الزوجين. حيث لا أمل في حياة كريمة سعيدة...

وقد يزداد الاضطراب والقلق النفسى بين الزوجين عن الحد الذي يمكن السيطرة عليه، فيأخذ أشكالاً شاذة وغير مألوفة في المجال الجنسي. فقد يهيئ للزوج خياله المضطرب، أنه لن يستطيع أن يجتاز عملية الجماع بنجاح إلا إذا فعل هو أو زوجته أمراً يدل على الغرابة. وقد ورد في هذا المجال أن زوجاً انتابته موجة من الاضطراب النفسى، فكان يهيئ إليه أنه لن يجامع زوجته بنجاح إلا إذا ضربته بالحذاء أو ضربها هو بالحذاء، وكثيراً ما كان يأمرها أن تضربه بالحذاء حتى يستطيع أن يجامعها.. لكن المؤكد أن هذا الشذوذ في التعامل الجنسي بين الزوجين يحدث عادة في حالة عدم التزامهما بتعاليم الإسلام في الأمور الجنسية.. كما يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن نجاح الزوجين في تسيير بقايا نواحي حياتهما الزوجية يؤدي في الغالب إلى سيطرتهم على المجال الجنسي. حيث يكون الاضطراب الجنسي غالباً أمراً نفسياً يمكن علاجه كما سبقت الإشارة إلى ذلك...

ثامناً: الغيرة:

الغيرة سلوك نفسى ينشأ عن شدة الحب لشخص معين لرغبة صاحب هذا السلوك في أن يكون الطرف المحبوب خاصا به لا يملكه ولا يسعد به غيره. وينشأ عادة بين الزوجين.. لكن هذه الغيرة تأخذ أحيانا طريق المبالغة غير المقبولة.. وعلى ذلك فهي نوعان: غيرة مصحوبة بريية أو تشكك في التزام الطرف الثانى بنفس الشعور الموجود عند الطرف الأول.. وهى الغيرة التي يحبها الله ورسوله. والواجب فيها أن يبحث جانب الشك ويتوصل فيه إلى رأى قاطع بالإيجاب أو السلب، ثم يعالجه إن كان موجبا. وغيرة غير مصحوبة بشك أو ريبة من الطرف الشاك وهى التي يكرها الله ورسوله؛ لأنها تنشئ صراعا بين الزوجين بغير دليل أو سند شرعى. وقد تعصف بالحياة الزوجية وتقتلعها من جذورها. فينتهى السكن والمودة والرحمة، وتنتهى معها الحياة الزوجية.. حيث يتشكك الزوج أو تتشكك الزوجة في سلوك زوجها وفى استمرارية حبه لها. والإسلام يوجب الروية والتأنى والبحث عن الحقيقة. فإذا وصل الأمر من الزوج مثلا إلى حد شبه التأكد من تغير سلوك زوجته بغير سند أو دليل شرعى أو شهود لإثبات ذلك بطريقة شرعية - فالإسلام هنا يحكم بالملاعنة بينهما ثم بافتراقه عنها بغير رجعة. وقد وردت صورة اللعان في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٦} وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٧ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ٨ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٩} [النور: ٦ - ٩].. وحتى لا يصل الأمر إلى هذا الحد المدمر للحياة الزوجية بغير سند أو دليل شرعى - يعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيرة بنوعيتها منبها ومحذرا للغيارى من

أمته فيقول صلى الله عليه وسلم: **من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يكره، فأما ما يحب الله فالغيرة في الريبة، وأما ما يكره فالغيرة في غير ريبة** — (1) ..

فالغيرة من غير ريبة هي التي تسير في طريق المبالغة غير المقبولة. ومن أجل ذلك لا يحبها الله ورسوله. إذ ليس لها ما يبررها ولا تتواجد معها أدلة شرعية تستدعي تواجدها. والأولى بمن يصاب بها أن ينصرف عنها إلى شئ مفيد.. وقد سبق لنا الحديث عنها وذكر أمثلة لها.. وأفضل مثال نذكره هنا على سبيل التذكرة تلك الغيرة التي كانت تتواجد وتظهر أحيانا من أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة حبها له ورغبتها في ألا تتملك قلبه غيرها. فكانت رضى الله عنها تغار عليه من بقية زوجاته رضوان الله عليهن أجمعين.. وفي كل مرة تمارس هذه الغيرة كانت رضى الله عنها تنتهي إلى أن غيرتها ليس لها ما يبررها.. وكانت أشد نوبات هذه الغيرة ما حدث منها ليلة النصف من شعبان. عندما خرج صلى الله عليه وسلم من عندها لابسا ملابسه بعد أن خلعها. وكانت ليلتها رضى الله عنها. فقد ظنت أنه خرج ليذهب إلى زوجة أخرى من زوجاته. فخرجت وراءه وتابعته عن بعد فإذا هو يقف عند البقيع، ويدعو لأهله من الأموات امتثالا لأمر ربه عز وجل في هذه الليلة.. وعندما رأت وعلمت حقيقة هذا الأمر رجعت مسرعة إلى الدار حتى لا يراها. وازدادت لسرعتها في المشى سرعة ضربات قلبها وتتابع أنفاسها. وما كادت تدخل حتى دخل وراءها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلاحظ نفسها الزائد وسألها عن سببه. وأخذ يناقشها في هذا السلوك الناتج عن الغيرة.

(1) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة 643/1. وأقرأ ص474 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور.

ويوضح لها أنه سلوك شيطاني يجب أن تترفع عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لأنه لا يستند إلى دليل شرعي⁽¹⁾. حيث لا محل ولا مجال للتشكك في أى عمل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أى جانب من جوانب الحياة.

أما الغيرة المصحوبة بريية وشك فعلى صاحبها الذي أحس بها أن يتأكد من سببها ويثبت صحة شكوكه أو عدمها. وإذا كان الطرفان صالحين، فعلى المتشكك منهما أن ينصح الطرف الآخر وينبهه إلى أن ما يفعله يثير في النفس الشكوك، فعليه ألا يفعل ذلك؛ حتى لا تتأثر العلاقة بينهما بسببه. ولا شك أن الطرف المتسبب في هذا الشك سيستجيب للنصيحة ويقطع عن هذا الفعل المثير للشك، وخصوصاً إذا كان بريئاً مما ينسب إليه.. وكم من زوج ارتاب في زوجته نتيجة قول أو فعل صدر عنها دون قصد. ثم اتضح له بعد ذلك أنها شريفة عفيفة محافظة على حصانتها.. وكم من زوجة ارتابت في زوجها نتيجة قول أو فعل صدر عنه دون قصد ثم اتضح لها أنه شريف عفيف، محافظ على عرضه وشرفه. ومثال الشك الذي لا محل له ولا فائدة من ورائه: ذلك الشاب الذي تزوج من فتاة فائقة الجمال. وكان عليه من البداية أن يوجهها ويرشدها إلى أن تتحجب أو تتنقب حتى لا تخرق جسدها سهام نظرات الرجال والشباب. وقد أمرت الشريعة الإسلامية بذلك خصوصاً إذا خافت المرأة الفاتنة أن تفتن الرجال أو يفتنوا بها.. لكن زوجها المفتون بجمالها لم يفعل ذلك. بل لجأ إلى طريقة غير شرعية، فعندما وجد أنظار الرجال والشباب

(1) وردت الرواية كاملة في صحيح مسلم كتاب الجنائز. وسنن النسائي في كتاب عشرة النساء باب الغيرة. وقرأ منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور - ص 459.

مصوبة إلى جسمها الفتان، ووجهها الجميل - منعها من الخروج وازداد في الخطأ فمنعها من النظر من النوافذ، والوقوف أو الجلوس في شرفة المنزل. ومن الطبيعي ألا يُنهى إجراء المتعنت مشكلة النظر إلى زوجته، بل إنه زاد الأمر حدة. ولم تطق الفتاة هذا السجن في منزل الزوجية فلجأت إلى أبيها كي يحل لها مشكلتها. لكن قلة وعيه ووعى أسرته وقلة وعى الفتى وزوجته الدينى، وجهلهم برأى الشريعة الإسلامية في إنهاء هذه المشكلة كان هو الغالب. فلم يهتد أحد منهم إلى هذا الحل الشرعى وهو الحجاب والنقاب. بل إن أحدا منهم لم يستسغ هذا الحل لبعدهم جميعا عن الأخذ بمبادئ وتوجيهات الشريعة الإسلامية.. ولم تجد الفتاة بدا من طلب الطلاق. وضاعت سعادة الأسرة المنشودة من الزواج بضياح السكن والمودة والرحمة التي لايتواجد منها شئ إلا في ظلال الأخذ والعمل بمبادئ الشريعة الإسلامية وتوجيهاتها. فغيرة الزوج هنا غير محمودة لأنه لا يستطيع في الواقع منع الناس من النظر إلى زوجته إلا إذا لجأ إلى الحل الإسلامى وهو الحجاب والنقاب. ولو نصحها به لانقلب القلق إلى سعادة ولامتلاً بيته سكنا ومودة ورحمة لكن الجهل بتوجيهات الإسلام غلب عليه وعلى زوجته - وأسرتيهما - فلم يقبلا حل الشريعة الإسلامية. وانتهى الأمر بالانفصال المحتوم نتيجة غيرة لا أساس لها ولا مبرر...

تاسعا: التفريق بين الأبناء والبنات في التعليم والمعاملات المختلفة:

قد يقع الآباء والأمهات في خطأ كبير، فلا يسهون بين أبنائهم وبناتهم في إتاحة الفرصة للتعليم الدينى. ويغفلون عن استيفاء بعض حقوقهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. وينتج ذلك غالبا عن قلة

وعى الآباء بمبادئ وتعاليم الشريعة الإسلامية العادلة، التي تحفظ للأبناء والبنات حقوقهم عند آبائهم وأمهاتهم. فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** — (1). الحديث. وقد مر إثباته وشرحه..

والمسؤول هنا هو الأب باعتبار قوامته على الأم وعلى الأسرة. فينبغي عليه أن يحصل على الخبرة في هذا الموضوع من ذوى الخبرة فيه، إذا لم يكن عنده وعى بذلك. والأم شريكة له في المسؤولية. وخصوصا إذا كانت متعلمة ومثقفة ومدركة لأهمية ذلك. وأهم حقوق الأبناء والبنات لدى والديهم هو التعليم. وأول ما يحرص الإسلام على أن يتعلمه الأبناء والبنات هو القرآن الكريم، تلاوة وتعلما، وحفظا، وفهما لعلومه المتعددة من توحيد وفقه وتفسير وحديث وتجويد.. وتتم تلاوته وتجويده وتحفيظه على يد متخصصين فيه أو من عندهم خبرة في هذا المجال.. وتتم دراسة التوحيد والفقه والتفسير والحديث بواسطة المتخصصين في هذه العلوم. ويستطيع الأب العارف بهذه العلوم أن يدرسها لأبنائه وبناته دون تفرقة بينهم. وليكن معلوما للآباء والأمهات، أن مرحلة الطفولة يسهل فيها تحفيظ القرآن الكريم وتلاوته مجودا، على يد متخصص أو عارف بذلك.. كما يسهل أيضا في هذه المرحلة فهم القرآن الكريم ودراسته بصفة عامة، وبطريقة مناسبة لسن الإبن والبنات وربنا الكريم سبحانه يقول: **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ}** [القمر: ١٧] (2). وفى الآية الكريمة تنبيه للآباء والأمهات الذين يميلون ويصرون على

(1) متفق عليه عن ابن عمر ص 112 من كتاب مختار الأحاديث النبوية - للمرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمي.

(2) المدكر: الخائف المتعظ.

تعليم أحد أبنائهم وتحفيظه القرآن الكريم - دون بقية أولادهم وبناتهم، مع أن الله العلى القدير قد يسر ذلك لمن يريد من الناس جميعاً، رجالاً كانوا أم نساء وصغاراً كانوا أم كباراً.. وعلى الأب كما سبق أن قلنا، إذا لم يستطع أن يحفظ القرآن الكريم ويفهمه ويدرسه لأبنائه وبناته بنفسه - أن يستعين بالمتخصصين في ذلك.. هذا بخصوص القرآن الكريم وعلومه المتعددة..

أما في مراحل التعليم ونوعيته، فأشير إلى خطأ آخر يقع فيه كثير من الآباء والأمهات. وهو أنهم يختارون لأبنائهم وبناتهم نوعية التعليم التي يريدونها لهم، دون الرجوع إلى مدى استعداد هذا الابن أو ذاك للتخصص الذي رشحه له أبوه. فبعض الآباء يختارون لأبنائهم وبناتهم التعليم العام، على حين يكون استعداد بعضهم وميله مثلاً إلى التعليم الزراعى أو الصناعى أو التجارى. والأب الواعى المدرك لمسئوليته عن ذلك الاختيار يدرس ميول كل ابن من أبنائه - وكذلك كل ابنة - ويلحقه بما يميل إليه ويسهل عليه السير فيه بتفوق. وإذا لم يستطع فعليه أن يستعين بذوى الخبرة في ذلك لتحديد نوعية التعليم اللازم لكل ابن وابنة من الأبناء والبنات.. وكذلك الأمر بالنسبة للتعليم الدينى..

أما بخصوص القرآن الكريم ووجوب تعليمه للأولاد والبنات قبل أى تعليم - فيجب أن أنبه إلى أن تخصيص الأب لابن من أبنائه أو بنت من بناته ليعمله القرآن الكريم ويحفظه إياه دون بقية أبنائه وبناته - خطأ كبير من الأب. إذ أنه لامجال للاختيار في هذا الشأن فمن المفروض أن يحفظ كل الأولاد والبنات القرآن الكريم، ويتعلمون تلاوته تلاوة مجودة. فليبدأ الأب مع كل منهم بنين وبنات. وما لا يدرك كله لا يترك كله. فإذا لم يستطع الأب القيام بهذه المهمة لسبب

أو لآخر فعليه أن يخبرهم عند كبرهم أن الواجب الأول على الأولاد والبنات هو تلاوة القرآن الكريم تلاوة مجودة وحفظه ودراسة علومه المتعددة. وهذا أقل ما يجب على الأب إذا أخفق مع أبنائه وبناته في القيام بهذا الواجب، ليزيح عن كاهله بعض المسؤولية عن هذا الأمر..

ومسألة تخصيص أحد الأبناء والبنات بحفظ القرآن الكريم دون غيره من الأبناء والبنات، أو التحكم دون دراسة ونظر في مصير الأبناء ودون علم بميولهم في نوع التعليم المناسب لهم - تترك أثرا سيئا في نفوس الأبناء والبنات، وتترك ظلالات قاتمة قد تحجب السعادة عن الأبناء والبنات طوال فترة التعليم. وحتى بعد تخرجهم بفترة طويلة. وهذا بدوره يؤثر على جو السعادة في الأسرة والاستقرار فيها بالسلب في أحيان كثيرة، وعلى الأقل خلال فترة التعليم..

وليس التمييز من بعض الآباء لأحد أبنائهم على حساب الآخرين - قاصر على التعليم. فقد يهب الأب ابنا من أبنائه عطية لسبب من الأسباب، كأن يكون متميزا في عين أبيه لوجه أو لآخر دون بقية إخوته. فيخصص له أبوه عطية كقطعة أرض أو منزل أو شقة ناسيا أن ذلك يقضى على أواصر المودة والمحبة بين الأخ وإخوته وبين الأب وبقية أبنائه، ويقطع صلة الرحم بينهم. والإسلام يمنع هذا التمييز والتخصيص؛ حتى لايسود الغل والكراهية بين أبناء الرجل الواحد في الأسرة الواحدة، وتتقطع صلة الرحم بينهم من أجل عطية دنيوية زائلة. وقد أشرنا سابقا إلى قصة النعمان بن بشير مع أبويه وإخوته. وأن النبي صلى الله عليه وسلم رفض عطية بشير لولده النعمان ولم يشهد عليها. وقال له: **اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم** — فرجع بشير وردد الصدقة التي كان قد خصصها لولده النعمان تنفيذا

لأمر النبي صلى الله عليه وسلم. وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال للنعمان: **أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء**— قال: بلى. قال: **فلا إذن**—⁽¹⁾. وفي هذا حرص من النبي صلى الله عليه وسلم على أن تبقى العلاقة بين البشير وسائر أبنائه وبين النعمان وإخوته بعيدة عن القطيعة التي تضيء نوعا من الكآبة على الأسرة بدلا من الود والوصال..

وإذا كان هذا التمييز قد حدث من بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورده الرسول الكريم ورفضه كما قدمنا - فإنه يحدث في أيامنا هذه الكثير والكثير من هذه الأنماط من التمييز غير الشرعي... فهذا أب قد تعلم تعليما متوسطا. وبعد أن تزوج وأنجب بنين وبنات ميز أصغر أبنائه عليهم جميعا. وكان هذا التمييز يظهر بين الحين والحين على شكل كلمة أو فعل أو منحة بسيطة، فقد كان فقيرا. واستمر الأب في لعبة التمييز وبرع فيها، فميز في مرحلة لاحقة الأخ الأكبر على بقية إخوته، وعمله القرآن الكريم، ووجهه إلى التعليم الديني، دون بقية أبنائه ظنا منه أن هذا الولد هو فقط الذي يستطيع أن يسير في هذا الاتجاه. أو لاعتقاده أن هذا أسلوب الرجال الناصحين في تربية أولادهم وبناتهم. فهو يستطيع حسب هذا الظن أن يصنع من أولاده وبناته تشكيلة ظريفة؛ فهذا دكتور، وهذا شيخ، وهذا مدرس، وهكذا دون أن يدرس ميولهم ويوجههم حسبها الوجهة الصحيحة، كما سبق أن بينا. وتدور الأيام، ويكتشف الرجل أن ابنا آخر من أبنائه كان يمكن أن يسلك طريق التعليم الديني بنجاح. وأن ولده الأصغر الذي أراده أن يكون طبيا ليس عنده استعداد لهذا الاتجاه. فيندم حين لا ينفع الندم. لكن الأب يستمر في تمييزه فيمنح

(1) هامش ص466 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

أحد أبنائه صكا بنصيبه من ميراث زوجته الذي أصبح حقا يوزع على الجميع كل حسب نصيبه. ويستمر في تمييزه الذي برع فيه فيمنح ابنا له سيكون له نصيب من الميراث - وصية برع ممتلكاته - مع أن الجميع يعرف أنه لا وصية لوارث. وهكذا برع الأب في إثارة التشاحن والتباغض بين أبنائه بعضهم مع بعض وبينه وبين بعض أبنائه وبناته فاستحال بيت الأسرة إلى موطن للصراعات والبغضاء والكراهية. وانفرط عقد الأسرة الإسلامية التي أراد الإسلام أن يتلأأ بالسعادة والاستقرار في ظل السكن والمودة والرحمة بين الزوجين أولاً وبين بقية أفراد الأسرة ثانياً. لقد أضاع هذا الأب أسرة كاملة صارت كأنها مجموعة من الأسر لا سعادة فيها ولا رابط يربطها وذلك بفعل التمييز الذي برع فيه بين الإخوة حتى صاروا غرباء عن بعضهم بسبب سوء تصرفه...

عاشر: تعطيل نقل ملكية الأخت الوارثة أو جزء منها إلى أبنائها وبناتها:

من أسباب التعثر في توفير السعادة بين أفراد الأسرة وسريانها بينهم - ما يحرص عليه ويتمسك به بعض الآباء وأبنائهم من بعدهم بتصورهم أن ملكية الأسرة من الأموال والعقارات والأراضي ونحوها، يجب عدم نقلها إلى أسرة أخرى بعد موت رب الأسرة. وهم يزكون هذا التصور بالعمل على تحقيقه. فيحاولون حرمان بناتهم من ميراثهن أو بعضه أو يحاولون إبطال أو تعطيل نقل ملكية البنات من ميراث أبيها بوسائل شتى لتعطيل تصرفها في حقها الموروث طبقاً لما تقرره الشريعة الإسلامية وينظمه القانون المعمول به.. ومن الوسائل التي يلجأ إليها بعض الإخوة في تعطيل تصرف أخواتهم في نصيبهن من الميراث - الجور في القسمة

وحصر نصيب البنت وجعله وسط أنصبة إخوتها الذكور وإنقاص نصيبها بطريقة أو أخرى عما هو مقرر شرعا.. وغالبا ما يترك الأب هذا الموضوع يتصرف فيه الأبناء بعد موته كما يروق لهم الأمر. ومحاولة الأبناء إنقاص أنصبة أخواتهم تصرف غير شرعى. والأب الحريص على أن يبره أبنائه وبناته بعد موته - يحرص على حسم هذا الأمر في حياته إذا توقع شرا أو خروجا على النظام الإسلامى في قسمة التركة بعد موته. والإسلام يقره في هذا التصرف ما دام يحرص على العدل بين أبنائه وبناته دون ميل إلى أحدهم، وعلى أن تبره ذريته جميعها ذكرانهم وإناثهم.. وهو بهذا يمنع أبناءه من الجور على بناته ويمنع ما قد يحدث بينهم من تشاحن وتباغض وقطيعة للرحم بعد موته.. والأبناء بجورهم على أخواتهم البنات في القسمة يشبهون أبناء الجاهلية الذين كانوا يحرمون المرأة من الميراث ومن الحصول على كل حقوقها المشروعة. كما يحاول بعض الأبناء اليوم ذلك بصورة من الصور. فإذا تزوجت الابنة من غير عائلتها ومن غير أقاربها فإن ورثة أبيها بعد موته يتحايلون في قسمة ميراث أبيهم، بحيث يبخسون هذه البنت حقها أو بعض حقها من ميراث أبيها. وذلك عن طريق إخفاء ما يثبت حجم الميراث الحقيقى. وقد يعتمدون إخفاء جزء منه ليبخسوا البنت حقها.. ويرجع ذلك إلى قلة الوعى الدينى عند هؤلاء المتحايلين، وعدم إحاطتهم بمبادئ الدين الإسلامى وإرشاداته العادلة، التي تحفظ للبنت حقها من ميراث أبيها، والتي تحذر من تسول له نفسه إخفاء ميراثها أو جزء منه ليبخسها حقها فيه. ويقول أصدق القائلين سبحانه لهؤلاء الطامعين في حقوق الغير: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَلْدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ [النساء: ١٣ - ١٤]..

ومن يمعن النظر في أحكام الميراث في الشريعة الإسلامية - يجد العدالة السماوية واضحة في قسمة الميراث بين الرجال والنساء. فقد راعت شريعة الإسلام العادلة، أن الرجل هو المسئول عن رعاية أسرته والإنفاق عليها وتحقيق متطلباتها وسعادتها. والمفروض والمتبع شرعا أنه هو الذي يعمل ويكد ويتعب ليغطي نفقات زوجته وأولاده وبناته، وما يلزم بيت الزوجية. راعت الشريعة الإسلامية كل ذلك فضاعفت من نصيب الرجل من الميراث ليناسب ذلك تعبته وكده والتزاماته نحو أسرته. فجعلت للذكر من الميراث مثل حظ الأنثيين. ويقول الحق تبارك وتعالى في ذلك: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ} الآية [النساء: ١١].. ومادامت الشريعة الإسلامية قد أعطت للولد حقه من الميراث مراعية دوره في الحياة الأسرية والزوجية - فلا داعى إذن لالتفافه حول نصيب أخته والطمع فيه؛ لأن ذلك ظلم للبنات التي منحها الله عز وجل نصيبها من الميراث وجعله نصف حق أخيها. ففى بخسها حقها ظلم يترتب عليه مشاكل عديدة وقطيعة للرحم وقطع لصلات الود والتحاب بين الناس.. وكما أنصفت الشريعة الابن أنصفت أخته أيضا فجعلت من حقها التمتع بهذا النصيب وأطلقت لها الحرية في ذلك. فلها أن تتصرف فيه بكامل حريتها دون ضرر شرعى لأحد من إخوتها الذكور أو أقاربها المستفيدين من هذا الميراث.. ومن يتسبب في إنقاص نصيب أخواته البنات من ميراث أبيهم، يتسبب في ضياع فرص الاستقرار الأسرى، وفى حدوث الفرقة والتشاحن والتباغض

بينه وبين أخواته البنات، وفي قطع صلة الرحم التي وصلها أبوهم قبل ان يموت.. وبذلك تتلاشى المودة والرحمة ويتلاشى السكن الذي أوجده الأبوان ليظل هذه الأسرة ويسعدها.. وتتلاشى مع كل ذلك أسباب السعادة بين أفراد الأسرة من بنين وبنات بعد موت والديهم. وكل ذلك بسبب طمع الإخوة في نصيب أخواتهم مما يتسبب في وجود أسباب للقطيعة بين هؤلاء الأبناء الطامعين وبين أخواتهم وأولادهم. وكل ذلك مخالف لتعاليم الإسلام وآدابه التي تدعو إلى الوفاق والاتفاق بدلا من الاختلاف والتفريق بين أفراد الأسرة الإسلامية. وخصوصا تلك الأسر التي توجد بينها مصاهرة. وتختفى السعادة التي ينشدها الإسلام من وراء الزواج بسبب أطماع لا أساس لها ولا سند من القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة.. ولو حسم الأب هذا الأمر قبل موته كما قدمنا لأراح نفسه وأراح عائلته، وعمل على استقرارها في ظل مبادئ الشريعة الإسلامية قرأنا وسنة...

حادى عشر: محاولة التدخل في شئون الزوجين من جانب الأهل:

من الطبيعي أن تبدأ الحياة بين الزوجين بداية طيبة، وأن تستمر هكذا - طالما كان اختيار كل منهما لصاحبه موفقا، قائما على الأسس التي سبق ذكرها في الاختيار. وطبيعى أيضا أن ينطلق الزوجان في تدعيم بناء أسرتهما الجديدة في جو من الصفاء والتفاهم، والود والتسامح والتراحم المتبادل. وأن يسيرا نحو تقدم هذه الأسرة الناشئة، وتنميتها في جميع النواحي: الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وفي علاقتها بأسر الأقارب والجيران..

ولكن قد يحدث ما لم يكن في الحسبان؛ فيحاول أهل الزوج أو أهل الزوجة التدخل بطريقة غير مشروعة في حياة الزوجين

الجديدين، ليعكروا صفو عشهما الهادئ. وقد لا يقصد أهل الطرفين أو أحدهما ذلك.. لكن الشئ المؤسف أن يتصور أهل الزوج أن باستطاعة ابنهم أن يظل تابعا لهم في طريقة عيشه بعد استقلاله ببيت الزوجية الجديد - حتى لو كان معهم تحت سقف واحد. وأن تظل طريقته في العيش مع زوجته خاضعة لآرائهم وتصوراتهم. ويصرفون النظر عن وضعه الجديد، كرب أسرة مستقلة ناشئة، لها طريقته الجديدة في العيش، ولها استقلاليتها بعيدا عن أهله، مع الحفاظ على علاقته الطيبة معهم.. وكذلك الزوجة يمكن أن يعكروا صفو عيشها محاولة أهلها التدخل في شئون أسرتها الجديدة واستمرار إخضاعها لما قبل مرحلة الزواج، مع صرفهم النظر عن أسرتها الجديدة الناشئة بالزواج، والتي استقلت وصارت لها سياستها الخاصة في تسيير شئونها غير المعادية لأسرتها التي ولدت ونشأت فيها، حتى تزوجت..

فمحاولة التدخل بين الإبن وزوجته كعائلة مستقلة - من جانب أهله وأهلها - تكون نتيجته صراعا مؤكدا بين الزوج وأهله من جانب وبين الزوجة وأهلها من جانب آخر، لاختلاف الرؤى في بعض أو كل أوجه الحياة الجديدة. ولو تركهما أهلها لنعما بالاستقرار والسعادة والهناء ولشكر كل منهما فضل أهله عليه.. ونتيجة لهذا الصراع لا يحس الزوجان صاحبا العش الجديد باستقرار ولا سعادة. بل تفقد حياتهما الجديدة لونها الزاهي. فلا سكن ولا مودة ولا رحمة، بل خلافات ومنازعات ومشاحنات ليل نهار؛ بسبب تدخل أهل كل منهما

على أن الزوجين يتصرفهما اللبق الراقى في الأزمات وتعلّمهما

واستقلالهما في أخذ القرار - يستطيعان امتصاص كل أزمة، والقضاء على كل صراع أو خلاف يظهر بين أسرتهما.. وهذه الاستقلالية في القرار لصالح الأسرة الناشئة لا تعنى فك الارتباط بين الزوج وأسرته والزوجة وأسرته. بل تعنى تعقل الزوجين وحسن تصرفهما واستقلالية قرارهما لتظل علاقة كل منهما بأسرته طيبة طبيعية، وتظل كذلك علاقة كل منهما بأسرة الآخر طيبة وطبيعية، خالية من محاولات التدخل في شئون أسرتهما الناشئة..

أما في حالة ميل كل من الزوجين إلى الأخذ بتعليمات أسرته، والسير في حياته الجديدة مع زوجته تبعاً لميول أسرته التي لا يراعى فيها استقلالية أحوال الأسرة الجديدة الناشئة، وخضوعها لمفاهيم جديدة

لا دخل لها بحياة أسرة كل منهما - فإن ذلك معناه أن تكون الأسرة الجديدة الناشئة بعيدة عن الاستقرار، وعن السعادة وعن السكن والمودة والرحمة، لاختلاف وجهات النظر في المسائل المتعددة وما يتبعها من مشاحنات وخلافات. وقد يعجل ذلك بانتهاء هذا الرباط الأسرى الناشئ، فتموت العلاقة الزوجية الناشئة التي خنقتها المشاحنات والخلافات والخصومات لتدخل أهل كل منهما في حياتهما. ولا يجد الطرفان في النهاية بدا من الافتراق..

فليقتد كل طرفين تنشأ بينهما علاقة زواج، بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما اختلفت ابنته فاطمة الزهراء مع زوجها على ابن أبي طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه. فلم يحاول النبي صلى الله عليه وسلم التدخل لصالح ابنته فاطمة، وكان يستطيع أن يفعل ذلك، لكنه أثر عدم التدخل في شأن يخصهما. وعندما دخل على ابنته وهى غاضبة من زوجها في بيتها، ذكرها بعلاقة القرابة بينها

وبين زوجها، والمفترض أنها علاقة ود وتعاطف وتسامح وتراحم، فقال لها سائلا عن زوجها: **أين ابن عمك؟**— ولما عرف مكانه ذهب إليه في المسجد فوجده نائما وقد سقط شق رداءه عنه وتعفر كاهله من التراب فقال له موقظا: **قم أبا تراب، قم أبا تراب**— ولم يحاول صلى الله عليه وسلم أن يسأله عن سر الخلاف بينه وبين زوجته فاطمة. ولذلك قام على رضى الله عنه من نومه ونفض التراب عن كاهله، فذهب مع التراب كل خلاف حدث بينه وبين زوجته فاطمة رضى الله عنها، ابنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، نظرا لموقف أبيها الذي رفض أن يتدخل لحل خلافهما، وكان يستطيع ذلك بالميل إلى جانب ابنته فاطمة لكنه أبى وترك الخلاف لهما ينهيانه بطريقتهما الخاصة في ساعة رضا، وما أكثر ساعات الرضا التي تمر بها تلك الصفة من البشر(1)..

لكن التدخل من أجل الزوجين ومن أجل أسرتهما الناشئة واستمرارا لسعادتهما - جائز؛ إذا خاف والد الزوج على ابنه من فتنة أو خاف والد الزوجة على ابنته من فتنة تهدد التزامها الديني بالإسلام ومبادئه وأركانه أو تعكر صفو الحياة الزوجية للزوجين السعيدين.. فقد تدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما علم أن عليا بن أبى طالب زوج ابنته قد خطب عليها ابنة أبى جهل.. وهنا تدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن معارضته لتلك الخطبة على ابنته. إذ لا يصح ولا يعقل أن يجتمع في بيت على بن أبى طالب - ابنة حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم وابنة عدو الله وعدو رسوله، أبى جهل.. وبناء على هذه المعارضة من رسول الله

(1) بتصرف من ص 468، ص 469 من كتاب منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

صلى الله عليه وسلم، ألغى على رضى الله عنه خطبة ابنة أبى جهل خوفا من أن تفتن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى جهل وابنته في دينها(1)..

ونذكر مثالا للعواقب السيئة لتدخل أهل الزوج أو أهل زوجته في الحياة الزوجية الهادئة للإبن والإبنة وإشعال نار البغضاء والكرهية في البيت الهادئ الناشئ.. فهذا شاب مسلم تزوج شابة مسلمة ابنة لأحد أقاربه. لكنه لم يكن غنيا ميسور الحال في بداية حياته الزوجية. ولذلك بقى مع زوجته في منزل أهله في شقة مستقلة. لكنهما كانا يجتمعان على مائدة واحدة للطعام مع أهله. واستمر الحال هادئا فترة من الزمن حتى عاد أخ له من الخارج. وأراد هذا العائد أن يتزوج كما تزوج أخوه. ووقع اختياره على فتاة تزوجها لرؤيته أنها مناسبة له. وازدادت بذلك مائدة الطعام المشتركة، فجمعت ثلاثا من الأسر. وصار لكل من الإبنين أولاد وبنات. والكل يجتمع على مائدة طعام مشتركة ولم يخل الأمر من قول هنا وقول هناك، وملاحظة هنا وملاحظة هناك، وتأويل لقول أو فعل هنا وقول أو فعل هناك وتحميل لأقوال أو أفعال من طرف لما لا تحمله تلك الأقوال والأفعال. وكان الظن السيئ من والد الشقيقتين المتزوجين، بأحد الابنين وزوجته وأهلها، أنهم هم المسئولون عن تلك المهاترات والمشاحنات والمضايقات التي تحدث في الكيان الأسرى الثلاثى العجيب.. ومن الأعجب أن تكون الزوجة المتهمة مع زوجها وأهلها من أقارب والدته ووالده اللذين عليهما حق صلة الرحم عند الوالد.. وبدأ الأب يكيل الاتهامات دون أى دليل يرقى إلى مرتبة الصحة، ودون روية وتفكير - لطرف بريء لم يفعل شيئا مما هو متهم به

(1) يتصرف واختصار من ص470، ص471 من نفس المرجع السابق.

وحاول الابن المتهم أن يبرئ زوجته وأمها وأهلها مما نسب إليهم دون جدوى. فقد رسخ في ذهن الأب أن زوجة ابنه وأمها وأبيها هم السبب في كل ما يحدث.. ولما كانت الخلافات تحدث عادة بسبب مائدة الطعام وأمور كثيرة متصلة بها - أراد الابن المتهم أن يريح نفسه ويريح خصومه، فأعلن انتهاء علاقته وعلاقة زوجته وأولاده وبناته بمائدة الطعام المشتركة التي تلتف حولها ثلاث من الأسر. وبين للجميع أنه سيستقل في مسكنه بمائدة طعام خاصة به وبأسرته الناشئة. مع احتفاظه بعلاقات طيبة ومرضية وشرعية مع أبيه وأمه وأخيه. لكن ذلك لم يعجب الأب ولا الأخ وزوجته. وقامت القيامة وازداد الصدام حدة. وازداد الجدل بين الابن المتهم وزوجته وأولاده وبناته من جهة وبين الأب وابنه الآخر، بأن الابن المتهم ينصاع لزوجته وأهلها في تذكية الخلاف بين الجانبين. مع أن العكس هو الذي كان واضحا للعيان. فقد كان انحياز الأب لابنه الآخر وفريقه واضحا كل الوضوح. وهكذا تاهت ثلاث من الأسر بين تجاوزات واتهامات ومعاملات سيئة من الطرف الثاني للابن المتهم وفريقه. وكل ذلك بسبب اعتقاد لا أساس له من الصحة. وانفرط عقد الألفة والمحبة والود بين الأسر الثلاثة. فأراد الابن المتهم أن يريح الجميع من هذا العناء وهذا الخصام، فبنى بيتا خاصا به وانتقل إليه مع أسرته الناشئة. لكن الخلاف ظل باقيا مع والده وأخيه وزوجة أخيه وأولاده وبناته. وتحول الأمر إلى كراهية. وحلت الفرقة محل صلة الرحم. وكل ذلك بسبب محاولة الأب إصاق التهم بأحد أبنائه دون روية وتفكير ودون أى دليل يدين هذا الابن. ولو ترك الأب ابنه يتعاونان سويا ويصفيان الخلافات أولا بأول - إن حدثت خلافات - لما حدث ما حدث من قطيعة للرحم ومن ضياع للألفة والمحبة بين

أفراد الأسرة الواحدة..

ونموذج آخر من نماذج تدخل أسرة الزوج في حياته الزوجية وفي حياة زوجته وأبنائه. فهذا شاب مسلم من أقصى صعيد مصر⁽¹⁾. ملتزم بتعاليم الإسلام يختار زوجة رآها صالحة له، بعد فشله في الاختيار الأول وحل ارتباطه به، لكن الاختيار الثاني كذلك كان ينقصه التريث والدراسة قبل الارتباط. وقد سارت الأمور على ما يرام سنوات عدة. وبدأت تلوح في الأفق إشارات استتكار لبعض ما تفعله زوجته من تصرفات لم تعجب إخوانه. وبدلاً من أن يناقش زوجها معها هذه التصرفات ليضع حداً لها، تركها تفعل ما تشاء، ولم يهتم باعتراضات إخوانه على بعض تصرفاتها. لكن الأمور تفاقمت بينه وبين زوجته فقد حدث له معوقات في عمله أحدثت خلافات بينه وبينها. واستمرت أزمة العمل بعض الوقت. فبدأ الخلاف بينه وبينها يتضح.. وكان يعرض حاله مع زوجته بين الحين والحين على أخ لها لعله يجد عنده حلاً لمشكلاته معها. لكن هذا الأخ كان قليل الحيلة. ولم يستطع حل خلافاتهما. واشتد الخلاف فصار صوتها يعلو بالانتقادات الحادة له والحديث في بعض جوانب القصور في بيت الزوجية. ولم يعجب هذا الأسلوب إخوانه وبدلاً من أن يحاول تقويمها وصدّها عن الانتقادات والتجريح لم يفعل شيئاً وبدأ عاجزاً عن حل مشكلته معها. مما جعل بعض إخوانه يتدخل لفك هذا الارتباط الذي رآه غير متكافئ ويسبب له ولبقية أخوته حرجاً. وانتهى الأمر بتزيين فكرة الطلاق لأخيه وانضم إليه بقية إخوانه فرأى نفسه مضطراً لتطليق زوجته فطلقها وحرم نفسه وأولاده وبناته من نعمة الاستقرار والسكن والمودة والرحمة وذلك

(1) عرفني بقصته زميل صعيدى عمل معي بالمملكة العربية السعودية.

بسبب تدخل إخوانه بينه وبين زوجته لحل خلافتهما بالانفصال...

ثاني عشر: الرغبة الملحة في إنجاب البنين:

إن حب إنجاب البنين رغبة تهفو إليها نفوس البشر أجمعين. ويحزن كل الحزن من تزوج فأنجب أول ما أنجب بنتاً. لأن الناس تعودوا أن ينادوا المتزوج بباكورة إنجابه، فيقولون: يا أبا فلان. ويحزن الزوج في قرارة نفسه لأنه ينادى بأبى فلانة.. والبنت عادة تتزوج وتترك بيت أبيها إلى بيت زوجها. ويقترن اسمها باسم زوجها. ويبقى أبوها حتى يموت فيتتهى ذكره إذا لم يكن قد أنجب ولداً.. وهذا أحد أسباب حب البنين.. ولتعمق هذه الفكرة في نفوس البشر، ولتعلقهم بإنجاب البنين - يُذَكِّرهم ربهم عز وجل بهذه النعمة ويدلهم على طريق من طرق تواجدها، فيقول سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام إذ يشتكى قومه لربه العظيم، حيث طلب منهم عبادته وحده سبحانه واستغفاره وطاعته، فرفضوا: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجعل لكم أنهرًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].. فالاستغفار هو أحد الوسائل التي يلجأ إليها الزوج في طلب البنين من الله سبحانه وتعالى؛ حتى لا ينقطع اسمه إذا مات كما سبق أن أشرنا. وفي ذلك يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: ❶ لا يدع أحدكم طلب الولد، فإن الرجل إذا مات وليس له ولد، انقطع اسمه — (1). وفي نفع الولد لأبويه يوم القيامة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ❷ يجمع الله أطفال أمة محمد صلى الله عليه وسلم في حياض تحت العرش، فيطلع الله عليهم اطلاعاً فيقول: مالي أراكم رافعي رؤوسكم؟ فيقولون: ياربنا الآباء

(1) رواه الطبراني في الكبير عن أبي حفصة ص16 من كتب الزوجة المسلمة والبيت السعيد - للأستاذ عبد العزيز الشناوي.

والأمهات في عطش ونحن في هذه الحياض فيوحى إليهم أن اغرقوا في هذه الآنية من هذا الماء ثم خللوا الصفوف فاسقوا الآباء والأمهات — (1). ومن فوائد الولد في الدنيا، ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: **«ما ولد في أهل بيت غلام إلا أصبح فيهم عز لم يكن»** (2).. فالولد في بيت أبيه وأمه عزّ لهما ولأسرته في دنياه وآخرته إذا كانوا جميعاً مؤمنين صالحين.

ولكل ما سبق ذكره يتعلق الناس بإنجاب الولد. حتى إن بعض الرجال يحزن إذا بُشِّرَ بإنجاب زوجته بنتاً. فينحو بذلك نحو أهل الجاهلية الذين كانوا يستقبلون نبأ إنجاب الأنثى بأسوداد وجوههم وتشاؤمهم من قومهم من سوء ما بشروا به. بل إن أغلبهم كان لا يطيق ذلك فيذهب إلى ابنته فيدفنها وهي حية، ويوارئها التراب. ويأخذ عليهم ربهم هذا الحكم القاسى على بناتهم فيقول عز وجل فيهم: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ٥٩ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩﴾** [النحل: ٥٨ - ٥٩].. وجاء الإسلام وانتشر وعاب على هؤلاء مسلكتهم الشائن. وأعلن أنهم مؤخذون يوم القيامة بما كانوا يفعلون في بناتهم. حيث يحاسبهم ربهم على ذلك بعد أن يسأل الموءودة عن سبب قتلها. ويقول ربنا سبحانه في ذلك: **﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ٩﴾** [التكوير: ٨ - ٩].. وبقي مع ذلك أناس مسلمون يتعلقون بإنجاب الولد. ولا يقوى إيمانهم ليتحمل قضاء الله وقدره. فقد قدر سبحانه وتعالى أن يرزق البعض بالذكور، والبعض بالإناث، وأن يزوج بعضاً ثالثاً فيجعلهم ينجبون ذكورا وإناثاً ويجعل

(1) أخرجه الديلمى عن ابن عمر. نفس الصفحة من المرجع السابق.

(2) أخرجه الطبرانى في الأوسط ورواه البيهقى عن ابن عمر ص17 من المرجع السابق.

بعضاً رابعاً عقيماً لا يلد ذكوراً ولا إناثاً: فيقول ربنا الكريم: {لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الشورى: ٤٩ - ٥٠].. فذلك إذن حكم الله. وتلك سنته في خلقه. ومادام ذلك هو قضاء الله فليرض كل بما قسم الله له. إذ هو الخير ولا خيره سواه. وهذا الرضا متمم للإيمان، لا يكتمل إيمان المسلم إلا به. فليس هناك خيار. وليس هناك تمرد على شئ قدره الله تعالى للمسلم. ومن لم يرض بما قسم الله به فهو ناقص الإيمان. ولعل الله جل جلاله فتنه بإنجاب البنات؛ ليختبر قوة إيمانه. وهذا الاختبار يثبت فيه أناس على إيمانهم، ويضيع فيه إيمان قوم آخرين. وذووا الإيمان القوى هم الذين يثبتون وعلى ربهم يتوكلون. أما ذووا الإيمان الضعيف فهم الذين يفقدون إيمانهم؛ بسبب عدم يقينهم في الله رب العالمين، وتعلقهم بعرض من أعراض الدنيا.. ومن هؤلاء الذين يتزعزع إيمانهم ولا يثبتون أمام فتنة الدنيا - أناس اتهموا زوجاتهم بأنهن السبب في عدم إنجاب البنين. وأخذوا منهم موقفاً معادياً؛ فإما أن ينجبوا البنين وإما أن يخرجوا من حياة هؤلاء الأزواج. ومن هؤلاء من يقال له أبو حمزة، فقد تزوج امرأة وأراد أن تنجب له ولدا لكنها أنجبت له بنتاً. فهجرها إلى بيت مجاور. وتعجبت الزوجة المؤمنة من موقف زوجها الراض لقضاء الله وقدره. فعبرت عن رأيها الإسلامى الصحيح في أبيات من الشعر منها:

مالأبى حمزة لا يأتينا :: يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألانلد البينا :: تالله ماذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا :: ونحن كالأرض لزارعينا

نبئت ما قد زرعوه فينا (1)

وإذا كان أبو حمزة هذا قد هجر زوجته لأنها أنجبت بنتا - فهناك من تصرف تصرفا أشد من تصرف أبي حمزة.. فهذا رجل تزوج امرأته عن حب. وبدأت الزوجة الإنجاب فأنجبت بنتا فلم يبد قلقه، لكنه تمنى أن يكون الحمل القادم ابنا. وجاء الحمل التالي فولدت زوجته بنتا. فتظاهر بالصبر وتمنى أن يكون الحمل القادم ولدا. وجاء الحمل الثالث فولدت زوجته بنتا. فبدأ يظهر قلقه وتبرمه من إنجاب البنات. وأعلن صراحة أمام زوجته: إن أنجبت بنتا في المرة القادمة فهي طالق. وجاء الحمل الرابع وولدت زوجته بنتا فطلقها وهو يعلم أنها لا حول لها ولا قوة لأن الأمر ليس بيدها. فاحتمل بهتاننا وإثما مبينا سيحاسبه الله عليه يوم القيامة..

ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ورد عنه ما يمكن به معرفة نوعية الجنين إلا أن ذلك يصعب التنبؤ به. وخصوصا لأن الأمر في هذه اللحظات القليلة - لحظات الإنزال حال الجماع - يصعب تحديده. فقد جاء يهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جئت أسألك عن الولد، قال: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله وإذا علا منى المرأة منى الرجل أثنا بإذن الله - فقال اليهودى: لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد سألتني عن الذي سألتني عنه ومالى علم بشئ منه حتى أتاني الله عز وجل به - (2).

وعلى الرغم من أن الحديث النبوى الشريف واضح في تحديد نوع

(1) ص58 من كتاب تربية الشباب في القرآن الكريم - للأستاذ عبد المعز خطاب.

(2) ص36، ص37 من كتب تنوير الأذهان بذكر أطوار خلق الإنسان لابن قيم الجوزية - تحقيق أبو سامة الطحاوى - الواعظ بالجمعية الشرعية.

الجنين في لحظات الإنزال أثناء جماع الزوج لزوجته - إلا أن هذا التحديد عمليا يصعب على البشر عادة تحديده. فلا يعلم أحدهما هل علأ ماء الذكر أم ماء الأنثى، علما يقينيا مؤكدا.. وحتى ما يحصل في أيا منا هذه من تمكن الطب الحديث من تحديد نوع الجنين. فهذا يكون بعد مضي زمان من الحمل. فيكون الأمر إذن تحصيل حاصل. ومع ذلك فإن الطب الحديث يخطئ أحيانا في تحديد نوع الجنين. وقد سبق لى الحديث في هذا الموضوع في بداية الكتاب، وبينت ما توصل إليه العلم الحديث في تحديد نوع الجنين. وأنه أيضا لا يمكن تحديده بقول فصل مع الأساس الذي تحدث عنه علماء الطب الحديث.

وكل هذا يؤكد أن الله عز وجل احتفظ لنفسه سبحانه بسر نوعية الجنين في هذه المرحلة الدقيقة والمبكرة أثناء عملية الجماع واستقرار ماء الرجل في الرحم. فقد استأثر ربنا القادر على كل شئ بعلم خمسة أشياء لا يمكن أن يعلمها إلا هو جل جلاله. وقد ورد ذلك في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤].. فلا داعى إذن أن نحمل الزوجة وحدها مسؤولية إنجاب البنات لأن ذلك أمر مشترك بين الزوجة وزوجها. استأثر الخالق عز وجل بعلمه لحظة نزول المنى. فأيهما علا ماؤه؟ الله وحده أعلم بذلك. فمن يحمل زوجته مسؤولية إنجاب البنات يخطئ خطأ جسيما يحاسبه الله عليه وعلى ما عاقب به زوجته من جراء ذلك الفهم الخاطئ لسر من أسرار الحمل استأثر الله تعالى بعلمه...

ثالث عشر: نشوز الزوجة أو الزوج أوهما معا:

نشوز الزوجة يعنى عصيانها لزوجها وعدم طاعتها له، وعدم

تنفيذ التزاماتها الشرعية نحوه.. والنشوز بالنسبة للزوج يعنى عدم التزامه بتحقيق المطالب الشرعية لزوجته، وعدم أداء حقوقها التي ألزمته الشريعة الإسلامية بها: كالإطعام والشراب والكسوة والمسكن المناسب والمعاملة الحسنة لها. فعدم إنفاق الزوج على المتطلبات اليومية للحياة الزوجية، وتصعيده للخلافات بينه وبين زوجته وعدم رغبته في إنهاؤها ليعيش في سلام معها، كل ذلك يعتبر نشوزا من الرجل تجاه زوجته. وطبيعى أن يؤدي هذا النشوز من أى منهما، إذا استمر دون علاج شرعى، إلى فقدان الشعور بالأمن، وفقدان الإحساس بالسعادة لكل أفراد الأسرة. وخصوصا إذا أحس أولادهما وبناتهما بهذا الشقاق.. ويمكن تصور الانفلات الأمنى في الأسرة وعدم إحساس أفرادها بالسعادة، بأنه مع نشوز الزوجة أو الزوج لا يمر يوم بدون صياح وجلبة وصخب وتبادل للاتهامات بين الزوجين..

وقد وضع الإسلام علاجا حاسما، مزيلا لأسباب نشوز الزوجة أو الزوج والزوجة معا. ويتمثل ذلك في برنامج إسلامى يتلخص في نقاط أربعة. وردت في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ زُجُورَهُمْ فَعُظُّهُمْ بِوَاعِظِهِمْ وَهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضِعَاتٌ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ۝٣٤ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٥﴾ [النساء: ٣٤ - ٣٥]. وتطبيق هذا البرنامج الحازم كما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كفيل بإنهاء النشوز، سواء كان من الزوجة أم من الزوج أم منهما معا.. ونصيب الزوجة من هذا البرنامج الإصلاحى ثلاث وسائل، هى على الترتيب العظة ثم الهجر ثم الضرب. فإذا لم تجد هذه الوسائل. وصعد الزوج

الخلاف وأصبح طرفا في النشوز فيجب التحكيم. وهذا التحكيم يكون إذا كان النشوز من الزوج أو منهما معا..

وقد تحدثنا بالتفصيل سابقا عن برنامج علاج النشوز. ولنا ملاحظات هامة ذكرناها سابقا؛ لأهميتها في اقتلاع النشوز من جذوره (1).

رابع عشر: نساء ورد النهي عن الزواج منهن:

لقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام والمسلمين جميعا معهم من الزواج من أصناف خمسة من النساء. وذلك لما قد ينتج عن الزواج من إحداهن من مشاكل تعكر صفو الحياة الزوجية، وتقلل من فرص استقرارها، وتحقيق السعادة المنشودة منها. وقد ظهر أمر هؤلاء النسوة واتضح من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ابن حارثة: **تزوج تزد عفة إلى عفتك، ولا تزوج خمسة: شهيرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوتا** — قال زيد بن حارثة: يا رسول الله لا أدري مما قلت وأنا بأحدهن جاهل. قال النبي صلى الله عليه وسلم: **ألستم عربا؟.. أما الشهيرة فالطويلة المهزولة. وأما اللهبرة فالزقاء البذية. وأما النهبرة فالقصيرة الذميمة. وأما الهيدرة فالعجوز المدبرة. وأما اللفوت فهي ذات الولد من غيرك** — (2).

وقد سبق شرح الحديث بما فيه من صفات مذمومة لبعض النساء في مجال الحديث عن الاختيار على أساس الأصل والأخلاق الفاضلة. وقد قال بعض العرب في مجال حديثه عن حسن خلق الزوجة

(1) من صفحة 227 إلى صفحة 232 تحت عنوان: دور الزوج في توفير السعادة لزوجته في بيت الزوجية.

(2) رواه الديلمي ص57 من كتاب الزوجة المسلمة والبيت - السعيد للأستاذ عبد العزيز الشناوي.

واختيارها للزواج من أجل أخلاقها الرفيعة - قال بعضهم محذرا من الزواج من ست من النساء: " لا تتكحوا من النساء ستا: لا أنانة ولا منانة ولا حنانة ولا تنكحوا حداقة ولا براقة ولا شداقة " (1) وقد سبق الحديث عن هذه الأصناف الستة في مجال اختيار الزوجين من ذوى التمسك بالدين والأخلاق الفاضلة. فالنهى عن الزواج من هذه الأنواع الستة من النساء، والذي ورد في أقوال بعض العرب يحمل الكثير من المصادقية. لأن كلا من هذه الأنواع يحمل طابعا منفرا للزوج وللناس، يعكر صفو الحياة الزوجية بين الحين والحين، ويلفت أنظار الناس إلى تلك الزوجة العجيبة التي تحمل طابعا منفرا تؤذى به زوجها وتؤذى به من يعرفها من الناس عن قرب. فإذا استطاع المعجب بها أن يخلصها من هذا الطابع المنفر ويتزوجها بعد أن تكون قد انخلت نهائيا من هذا الطابع وانخلع منها - فله أن يتزوج منها حينئذ، وإلا فلا يجب أن يعرض نفسه للفشل أو التعثر أو الرضى بحياة تسبب له الاضطراب والقلق بين الحين والحين، وتبعده عن الاستقرار والسعادة المرتقبة في الحياة الزوجية والتي تكمل بالسكن والمودة والرحمة..

وهناك أنواع من النكاح كانت منتشرة بين أهل الجاهلية. وقد حرمها الإسلام لكنها ما زالت موجودة بصورة أو بأخرى في بعض البلدان ولا سيما في بلدان غير المسلمين، كنكاح الأخدان ونكاح الاستبضاع ونكاح الاستلحاق ونكاح البغايا. والسر في تحريم الإسلام لها تجاوزها للحد المشروع الذي تضيع به الأنساب والحقوق الزوجية، وما ينتج عنها من أمراض خطيرة فتاكة قد تنتقل إلى الذرية التي لا ذنب لها فيما يقترفه الكبار من آثام. وقد تحدثنا عنها

(1) ص 53 من كتاب الإسلام والحياة الزوجية - للأستاذ عثمان السعيد الشرقاوى.

فيما سبق. وتحدث عنها قبلنا نخبة من العلماء الأجلاء منهم الأستاذ الدكتور محمد الأحمدي أبو النور. والأستاذ الدكتور محمد البهي. ويكفي أن الإسلام حرّمها لتلافي آثارها المدمرة....

خامس عشر: التسرع في قرار الارتباط:

لو تتبعنا أسباب التعثر في الوصول بالأسرة الناشئة إلى السعادة الزوجية والأسرية، وأسباب حرمان الزوجين من السكن والمودة والرحمة التي هي من أهم مظاهر السعادة الزوجية المنشودة - لوجدنا أن عاملاً مشتركاً يربط غالبية هذه الأسباب، وهو التسرع في أخذ قرار الارتباط. وعدم دراسة كل من الطرفين لظروف الآخر دراسة كافية تفيد الطرفين ومن يتبعهما....

وهذا الأمر في حد ذاته - قد يعرض الحياة الزوجية لكثير من المشاكل والمتاعب والهزات إذا لم ينته بها إلى التعثر والانفصال.. ولذلك فنحن ندعو إلى دراسة كل من الطرفين للآخر دراسة شاملة من جميع النواحي الدينية والصحية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ويدخل الجنس في كلتا الناحيتين الصحية والاجتماعية. وندعو أيضاً إلى أن تكون هذه الدراسة متمهلة قائمة على أسس سليمة، يراعى فيها مصلحة الطرفين، وأولادهما وبناتهما مستقبلاً في حالة الارتباط. كما ندعو إلى اللجوء إلى الطب إذا تطلب الأمر ذلك.

وليعلم الجميع أن كثيراً من الأسر الآن تلجأ إلى الطب حتى لو لم تكن هناك حاجة كشك في قصور أو مرض؛ وذلك للاطمئنان العام على حالة العروسين قبل الارتباط. وتلك خطوة تدل على راحة العقل والشجاعة، نؤيدها لأنها تقلل من خطر المفاجأة بشيء لم يكن في الحسبان.. فقد يُخفى أحد الطرفين في فترة الخطوبة مرضاً خطيراً عنده أو عيباً خلقياً واضحاً أو غير واضح حتى يتم الزواج.

وقد يخفى الزوج أو الزوجة بعض نواحي القصور في المجال الجنسي. وقد يخفى الزوج عجزه عن العمل أو بعض المشاكل الهامة فيه.. وبالرغم من أن فترة الخطوبة قد تطول، وتتكشف فيها للطرفين أشياء كثيرة كانت غير معروفة إلا أن طول هذه الفترة قد يعرض الطرفين لمشاكل وتعقيدات شتى، وعلى الأخص من أهل العروس الذين يصيبهم القلق على مستقبل ابناتهم، ويخشون مبدأ التأخير والتأجيل. ومهما طالّت فترة الخطوبة فإن طولها لا يغنى عن وجوب دراسة كل من الطرفين لظروف الآخر الهامة والتي يمكن أن تؤثر على الحياة الزوجية بالسلب مستقبلا. وقد ثبت بالتجربة أنه لا يمكن معرفة ظروف كل من الطرفين في هذه الفترة.. ويتضح الآن للجميع أن فترة الخطوبة طويلة كانت أم قصيرة - لا يُخرجُ فيها كل من الطرفين كل ما عنده من العوامل المؤثرة في حياتهما الزوجية بالسلب أو حتى بالإيجاب..

ومن هنا ندرك أن الحاجة ماسة إلى دراسة كل من الطرفين للآخر قبل الارتباط الشرعي، أو حتى قبل تقديم الشبكة في نهاية فترة الخطوبة.. وفي زماننا هذا أوجدت الحاجة إلى هذه الدراسة - ما يسمى بمكاتب الزواج. وقد تقوم هذه المكاتب بإنجاز ما يعجز عنه أفراد الأسرتين في فترة الخطوبة. خصوصا وأن كافة إجراءاتها وما تنجزه من أعمال يحاط بسرية تامة حرصا على إنجاح مهمتها المتمثلة في تعريف كل من العروسين وأسرته بالآخر. وذلك حتى يكون الزواج أنجح، والاستقرار أمكن، والسعادة والهناء أضمن، والسكن والمودة والرحمة أكد.. وليعلم الجميع أن حاجة الأسر التي ترتبط مع بعضها بالزواج، إلى الفحص قبل الارتباط الشرعي أو قبل الدخول على الأقل، أمر واجب شرعا؛ يحمي عش الزوجية مما

ينتظره من مشاكل صحية أو اجتماعية أو وراثية قابلة للظهور مستقبلاً، لم يفصح الطرفان عنها في فترة الخطوبة. ويحمى الأسرتين المرتبطتين من الحرج إذا وُجِدَ أو ظهر ما يدعو إلى الانفصال أو عدم إتمام الزواج. كما أنه يجعل الزوجين يعيشان في أمان وسلام واستقرار وحب، ويتمتعان بالسكن والمودة والرحمة، في ظل التعاون الوثيق والصادق، بين الأسرتين المرتبطتين وفي ذلك استقرار لعش الزوجية والأسرتين المرتبطتين وكافة أسر المجتمع الإسلامي بصفة عامة وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، الحريصون على إتمام الزواج بنجاح...

سادس عشر: الطلاق:

[illegible]

الإسلامي كله.. وتلك آية من آيات الله جل جلاله لتعمير الأرض،
يقول
فيها ربنا سبحانه وتعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }
[الروم: ٢١].

وقد حث القرآن الكريم المسلمين على استمرار قيام الأسر
بالزواج الشرعي، ودلهم على الطريقة التي تدوم بها العشرة بين
الزوج والزوجة في محيط الأسرة، فقال عز وجل: {وَعَاشِرُوهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا
كَثِيرًا } [النساء: ١٩]. فليس معنى وصول الزوج مع زوجته إلى
مرحلة الكراهية - أن تنتهي الحياة الزوجية بينهما. إذ ربما يكون
الشعور بالكراهية من جانبه هو فقط. ومن هنا فالفرصة متاحة أمام
الآخر لتحسين موقفه من زوجه حتى يعود إليهما كأسرة، السكن
والمودة والرحمة.

فالشعور بالكراهية قد يُبنى على عوامل أو أشياء خيالية، ربما لو
ناقش الزوج زوجته فيها لوجد أنه غير محق في تلك الكراهية.
وحتى لو تأكدت في نفسه تلك الكراهية، فإن الشريعة الإسلامية تحثه
على مضاعفة جهده من أجل استمالة زوجته إليه من جديد، محافظة
على الميثاق الغليظ بينهما. والزوجة الصالحة تتفاعل مع زوجها إذا
رأت منه رغبة في تحسين علاقته معها. حتى لو لم يكن لها منه
ذرية تُحْكُمُ رباطه بها..

وقد حثت السنة النبوية الكريمة الزوجين أيضا على أن يحسن
كل منهما معاملة الآخر؛ حتى تسير الحياة الزوجية والأسرية بينهما
سيرا طبيعيا. فقد خطت لهما منهاج لحياتهما الزوجية يعرف كل

منهما بموجبه ماله وما عليه. ونفرت كلا منهما من المعاملة غير السوية، إذا فكر أحدهما أن يعامل الآخر معاملة سيئة.. فحثت الزوجة على الطاعة والإخلاص للزوج وعمل كل ما من شأنه إسعاده. فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: ^١ ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها صانتة في نفسها وماله — ⁽¹⁾ ويقول صلى الله عليه وسلم: ^٢ أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة — ⁽²⁾.. ومن ناحية أخرى تغرى السنة النبوية المسلمين وتحثهم على الزواج وتنفرهم من الفرقة والطلاق. فالزواج مجمع والطلاق مفرق. ومن أجل ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز منه عرش الرحمن " ⁽³⁾.. ويحذر النبي صلى الله عليه وسلم الذواقين الظالمين لزوجاتهم، فيقول صلى الله عليه وسلم: ^٣ إن أعظم الذنوب عند الله رجل تزوج امرأة فلما قضى حاجته منها طلقها، وذهب بمهرها، ورجل استعمل رجلاً فذهب بأجرته — ⁽⁴⁾..

فالذواق لا يخلص لزوجته ويستغنى عنها في أول فرصة ممكنة؛ لأنه قضى حاجته منها فذاق عسيلتها ولم يعد يهتم بها لدرجة أنه يستولى على ما تبقى لديه من مهرها ولا يرده. ولذلك فهو أعظم مذنب عند الله سبحانه وتعالى. ويتعاضم ذنبه بطلاقها؛ لأن الطلاق ليس مجرد كلمة تقال، بل إنه يترك وراءه آثاراً وخيمة.. فنفقة

(1) رواه ابن ماجه ص127 من مختار الأحاديث النبوية - للشيخ المرحوم السيد أحمد الهاشمي.

(2) رواه الترمذي 50 من المرجع السابق.

(3) رواه ابن عدى ص60 من المرجع السابق.

(4) رواه البيهقي ص41 من المرجع نفسه.

للمطلقة إلى أن تنتهي عدتها، ونفقة لأولاده وبناته منها إلى أن يبلغ الأولاد سن الرشد وتزوج البنات، وأوقات عصيبة تقضيها الأسرة بغير عائنها، لا استقرار فيها، ولا سكن ولا مودة ولا رحمة. ومن أجل ذلك كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله، وإلى الزوج والزوجة وأسرتهما كذلك؛ لما يتركه من مشاكل وحساسيات يكون الأولاد والبنات فيها هم الضحية الأولى له. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **أبغض الحلال إلى الله الطلاق**—.. (1).

فمشاكل الطلاق كثيرة وآثاره متعددة سواء كان رجعيًا أم بائنًا.. فأحوال المطلقات عديدة ولكل حالة حكم وربما أحكام. وكذلك حالات العدة، وحالات النفقة والمتعة والرضاع والزواج من المراجعة.. والشئ المهم الذي يغفل عنه كثير من الناس في حالات الطلاق الرجعي - هو الإشهاد على الطلاق والزواج بعد الرجعة وهو في غاية الأهمية إذ يتوقف عليه انتهاء نفقة وبداية عهد جديد من الارتباط يجتمع فيه شمل الأسرة بعد الرجعة أو لا يجتمع بعد الطلاق البائن.. وفي كل الأحوال يترك خلفه مشاكل لا حصر لها، تُفقد المطلقين السعادة التي تمتعوا بها فترة ما قبل الطلاق. وتجعلهما يتحسran على ما كانا يتمتعان به من سكن ومودة ورحمة. فقد ضاع كل شئ بكلمة طائشة ربما لم يحسب حسابها الطرفان.

والأمثلة من واقع الحياة كثيرة ومؤلمة ومؤثرة.. فقد ينقذ طفل رضيع أبويه من مأساة الطلاق.. فذلك شاب بسيط يعمل تاجرا في الخردوات. تزوج من امرأة لم يدرسها دراسة كافية. وكانت تبدو أحيانا ملتزمة بأساسيات ومبادئ وآداب الدين الإسلامي، وأحيانا أخرى تبدو غير ملتزمة. لكن زوجها كان ملتزما بقدر استطاعته

(1) رواه أبو داود في سننه ص4 من المرجع السابق.

وعلمه أكثر منها. لكن أحوالها المتقلبة جعلت زوجها يفكر. وكما راودته فكرة طلاقها تذكر ولده منها وكان رضيعا في سنته الأولى يتعلق بأمه وأبيه تعلقا كبيرا، على الرغم من أنه لم ينطق بعد. وذات يوم احتد فيه النقاش بين الزوجين، وانتهى الأمر بأن أخذ زوجها قرارا بطلاقها وأعلنها بهذه الرغبة. وكانت النتيجة أن طلب منها مصاحبته إلى المأذون لإتمام طلاقها. وما أن سارا خطوات في الطريق إلى المأذون، إذا بولدهما يصرخ مخاطبا أباه: " لا يابه لا ". وإذا بهما يتجمدان مكانهما وتتهمر دموعهما. ويتلقف الأب ولده ويقبله ويحتضنه، ويقول لزوجته: لقد صدر القرار الصحيح ممن هو أقوى مني ومنك، لقد أنطق الله عز وجل الرضيع لينفذ أمه وأباه من مصيبة الطلاق. واستمع الرجل إلى نداء الحق، وأعلن لزوجته أنه لن يفكر في طلاقها أبدا بعد ذلك. وبالفعل ظل معها إلى أن فارقتها إلى دار الكرامة بعد أن أنجب منها بنين وبنات تربوا في عش الزوجية المتواضع الهادئ، ونعموا فيه بالسعادة والاستقرار، مستظلين بسعادة أبويهم حتى تزوجوا وأنجبوا بنين وبنات. ولا يسعني إلا أن أقول في هذا الشأن: إذا كان الأستاذ الدكتور الشيخ محمد المسير، قد تحدث عن أطفال تكلموا في المهد منهم عيسى عليه السلام، ومنهم طفل العابد جريج، ومنهم الصبي الداعي لنفسه، وطفل صاحبة الأخدود، وطفل ماشطة بنت فرعون⁽¹⁾، فأنا أضيف إليهم قصة من واقع حياتنا اليومية أنقذ فيها طفل رضيع - لم يتجاوز عامه الأول - أمه وأباه من مشاكل الطلاق بقوله لأبيه " لا يابه لا ". فهو طفل لم ينطق بعد أنطقه الله تعالى ليكون عبرة لأبيه وأمه. ولكل

(1) من سلسلة ألفها فضيلته عن أطفال تكلموا في المهد - بقلم الأستاذ الدكتور محمد سيد أحمد المسير - أستاذ العقيدة والفلسفة، بكلية أصول الدين جامعة الأزهر.

من تحدثه نفسه بالطلاق دون تريث وتمهل وحذر...

وذاك شاب أراد أن يتزوج فكان يختار اختيارا عشوائيا لا دراسة فيه لأحوال من يختارها. هدته عاطفته إلى الارتباط برجل طيب فخطب ابنته واستمر خاطبا لها فترة من الزمن. وأراد على حد قوله أن يروضها حسب هواه. وكان صالحا من أسرة صالحة. ولو أنه التزم معها ببرنامج تربية إسلامية لنجح في مسعاه. لكنه خلط الجد بالهزل، فلم يستطع أن يروضها كما أراد. فتركها بعد أن سبب صدمة عنيفة لأبيها الذي رحب به في بداية الخطبة، لكنه مالبث أن تنكر له لخلطه الجد بالهزل، وفعله أمورا كان يستحي منها والد البنت. وانتهت تلك التجربة بالفشل. فبدأ تجربة أخرى رأى أنها مجدية. إذ عدلَ بعض الشيء من عشوائيته في توجيه خطيبته الجديدة. واقتنع أخيرا بصلاحياتها كزوجة له. فعقد عليها ودخل بها. واستمرت معه سنين طويلة. يتاجر في المواد الغذائية بالتجزئة في العاصمة التي تتبعها قريته التي نشأ وتزوج فيها. ويأتى آخر اليوم حاملا رزق الله له ولزوجته وأولاده وبناته. واستمر الحال على ذلك سنين، رأت خلالها زوجته أن الله تعالى يبسط له في رزقه. وبدأت تغير اتجاهها، من التزام بآركان وتعاليم وإرشادات الشريعة الإسلامية، التي تدعو إلى القناعة والرضى بما قسم الله تعالى، إلى تعنت وخروج عن هذه التعاليم السحاء في غيبة زوجها عنها لسعيه على رزقه طوال اليوم في عاصمة قريته التي يعيش فيها. ومن الواضح أنها استغلت طيبة قلب زوجها، وتعبه في الحصول على الرزق واغترابه وغيابه طوال اليوم عن بيته. ففرضت عليه مبلغا من المال شهريا تأخذه منه في مقابل أن فتح الله له طرق الخير والرزق. ووافق الزوج الطيب. لكن الزوجة الطماعة غير الملتزمة بمبادئ دينها طلبت زيادة المبلغ

الشهرى. وشرعت في زيادته كل فترة على مدار السنة، حتى صارت الزيادة غير مقبولة وغير معقولة في نظر الزوج. وغيّرت من سلوكها نحو زوجها فدأبت على تلكنها في تأدية ما يطلبه منها من أعمال وإرشادات ونصائح. ورأى زوجها أن زوجته صارت ناشزا، ولا بد أن يستعمل معها العلاج الشرعى للنشوز. وبدأ بعظتها فلم تستجب لعظته. فلجأ إلى بعض أقاربها وأقاربه في عظتها فلم تستجب أيضا. وجاء دور الهجر، فلم يستطع هجرها، وبدا كأنه عاجز عن ذلك. ورأى أن الهجر ليس هو العلاج المفيد. وربما لو نفذ الهجر لكان هو المنقذ له ولزوجته. وتراءى له أن حل مشكلة زوجته وإنهاء نشوزها يكمن في ضربها. ولطيفة قلبه وعزيمته الفاترة كان يضربها ضربا غير مفيد. ولم تكن زوجته تشعر أساسا أنها تضرب. وقد عرفنا أن الضرب الشرعى لا بد وأن يكون موجعا وغير مؤثر. أى لا يترك أثرا في جسم الزوجة ولا يكسر عضوا أو يسيل دما. وكل ذلك لم يحدث في ضربه لزوجته. ولهذا زاد عنادها وأصرت على عصيانها. وأشهرت كراهيتها لهذا الزوج الفاتر في طبعه الهادئ في سلوكياته في مواضع تجب فيها الشدة ويكره فيها الهدوء. وانتهى الأمر إلى طلبها الطلاق منه. فاتفقا على ذلك ونفذه. إلا أن الضحية الأولى لهذا الطلاق كانت أولاده وبناته من تلك الزوجة. فقد اختار الأولاد - وهم كبار - أن يبقوا مع أبيهم. واختارت البنات - وهن كبيرات - البقاء مع الأم. وهكذا فتح الزوج على نفسه أبواب الهم والغم من كل جانب. فمطالب الأولاد ونفقة لأهمهم ونفقة للبنات. وذهبت السعادة الزوجية في خضم تلك الأحداث الجسام. وتبعثر عقد السكن والمودة والرحمة الذي جمع الأسرة فترة من الزمن ليست بالقصيرة. وسبقى الحال على ما هو عليه إلى أن يستقل الأولاد

ويكوّن كل منهم أسرة جديدة. وإلى أن تتزوج البنات مكونات أسرا جديدة. ولعل الجميع قد أخذوا العبرة من هذا الزواج السريع غير المبني على دراسة كل من الطرفين للآخر قبل الارتباط..

وعلى الرغم من أن الطلاق قد يكون هو الحل الوحيد أمام زوجين لم يسعدهما الحظ في التغلب على مشاكلهما التي تفاقمت واستفحلت. وهو أبغض الحلال عند الله عز وجل كما مر بنا - إلا أن الإسلام قد يبيح سلوك طريق آخر. يجرب فيه كل من الطرفين المفترقين حياة جديدة مع إلف جديد. فإن وفاقا، كل مع أليفه الجديد، فبها ونعمت. وإن لم يوفقا يراجع كل منهم نفسه بعد فشلها الجديد ويقارنان بين حالهما الأول والحال الجديد. وربما يدركان أن التجربة الأولى كانت أصلح مما هما فيه. وربما كان الخير في العودة إليها. والإسلام يبيح ذلك إلا أنه يشترط الدخول في الحالة الثانية أى في حالة ارتباط كل منهما بآخر جديد ثم الطلاق بعد فشل التجربة إذا فشلت. عندئذ يمكن عودة كل من الزوجين المطلقين أولا إلى الآخر. ويقول الحق تبارك وتعالى في ذلك: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٣٠].. فالآية الكريمة توضح إمكان العودة إلى الزوجة الأولى بعد طلاقها طلاقا بائنا بشرط أن تتزوج من آخر ويدخل بها هذا الآخر ويطلقها إذا فشلت حياتهما الزوجية معا.. وذلك إذا وجدت بارقة أمل في استئناف العلاقة بينها وبين زوجها الأول. على أساس الاحترام المتبادل وأداء كل منهما ما عليه شرعا للطرف الآخر حتى يعيشا في سلام وسعادة ويتوفر لهما من جديد السكن والمودة والرحمة...

سابع عشر: أثر الوضع السياسي في المجتمع على الأسرة

وأفرادها:

وإذا كانت كل المساوئ الاجتماعية والاقتصادية التي تحدثنا عنها، تتواجد بمخالفة الناس لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - فإن الوضع السياسى في أى مجتمع إسلامى - ليس بمعزل عن ذلك. فالمساوئ السياسية التي تنجم عن مخالفة الدستور السماوى الذي ارتضاه الله للبشر، أو مخالفة الدستور الذي يضعه الناس لحكامهم، حتى تستقيم الأمور بين الحاكم والمحكوم - هذه المساوئ التي أشرنا إليها تتسبب في ارتباك الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية لأفراد المجتمع الإسلامى وأسرته. ومما يترتب عل ذلك فقدان السعادة بين الأفراد والأسر في المجتمعات الإسلامية. ففقدان جزء من دخل الفرد أو الأسرة شهريا على سبيل المثال، يحول بين الأفراد والأسر وطموحاتهم في حياة عزيزة كريمة تؤدى إلى الاستقرار والرخاء. بفقدان هذا الجزء قل أوكثر يحس الفرد في أسرته بالشقاء والإحباط؛ نتيجة لشعوره بالظلم في مجتمعه الذي يعيش فيه، وعدم تحقيق رغباته في الاستقرار والنماء فقد يحتاج الابن إلى عمل يساند به أسرته الفقيرة ويعين به نفسه على الزواج فلا يجد. وقد يحتاج أحد أفراد الأسرة إلى علاج طويل كثير النفقات فلا يجد. وقد يحتاج طالب إلى أن يمضى في تعليمه الأكاديمى إلى النهاية فلا يجد. وهذا ما كان يشعر به الناس في مجتمعنا المصرى قبل الخامس والعشرين من يناير من العام الحادى عشر الميلادى بعد الألفين.. ونأمل بعد ثورة الشباب التي أحييت الأمل عند الرجل والمرأة، والصغير والكبير - أن يجد كل فرد في الأسرة ما يساعده على المضى بأسرته إلى النماء والازدهار. والله ولى ذلك والقادر عليه.

مسك الختام

وبعد... فقد حلقت معك عزيزى القارئ في سماء القرآن الكريم، والسنة النبوية المباركة؛ لنتبين معا أركان ودعائم السعادة التي تغمر جسم الأسرة المسلمة، وتغذى أوصاله. بادئنا بأول أسرة نشأت في الوجود، وهى أسرة آدم وحواء عليهما السلام، التي نشأت في رعاية الله تعالى وحفظه وتقديره. وتتبع معك الجنين في بطن أمه، وتطور نشأته في رحمها طوال فترة حملها، وولادته، ورعاية الوالدين له لإمداده بأسباب السعادة التي منحها الله له، في طفولته وصباه. حتى إذا وصل إلى مرحلة الشباب، دعمه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بتوجيهات وإرشادات، تضمن له السعادة والهناء، في ظل أسرة سعيدة هنيئة. فإذا وصل إلى مرحلة الرجولة، واستطاع الاعتماد في كل شئونه على خالقه العظيم، ثم على نفسه الخبيرة في فعل الخيرات، واجتناب المنكرات - كون أسرة مستقلة سار معها على نهج أسرته المؤمنة السعيدة.. ومضيت معك إلى أسس اختيار الزوجة الصالحة والزوج الصالح، مع الاسترشاد بما ورد في كتاب الله العزيز وسنة نبيه الكريم، من هذه الأسس والعوامل المساعدة على نجاح الاختيار؛ حتى تنتج ثمرة صالحة، تنمو وتتطور، وتكتمل وتستمر، في إنتاج أسر سعيدة. وهكذا تدور الدورة، ويعمر بنو آدم الأرض كما أراد الله جل جلاله؛ بأسر مؤمنة، ومجتمعات مسلمة صالحة، تمارس دورها في عمارة الأرض بالصالحين والصالحات، ذوى النشاطات المختلفة في كل مجالات الحياة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... وتتبع معك أسباب الصلاح؛ لتحقيقها والعمل بها، وأسباب الفساد والفجور؛ للابتعاد

عنها وتجنبها.. ولم أنس عزيزي القارئ أن أذكرك بأسباب التعثر في الوصول إلى السعادة الأسرية المنشودة؛ لتلافيها وتجنبها والقضاء عليها.. وكل ذلك عزيزي القارئ حتى يُحسَّ بنو آدم وحواء - عليهما السلام - في كل جنبات الأرض بالسعادة التي ينشدونها في الدنيا، وإن كانت مؤقتة، وصولاً إلى سعادة الآخرة الدائمة الخالدة. واستعنت بالله رب العالمين متتبعاً توصيات نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين، وصحابته وتابعيه الأولين.. آملاً أن أكون قد وصلت معك عزيزي القارئ إلى ما نرجوه من أسباب السعادة والهناء، التي تتطلع إليها نفوس بنى آدم الطيبة، في كل بلاد الدنيا المسلمة؛ ليعملوا بها حتى يصلوا إلى السعادة الكبرى في الآخرة، مع الآباء والأمهات، الصالحين والصالحات، ومع الأبناء والبنات الذين فازوا بسعادة الآخرة التي لا تنتهى، ونعيمها الذي لا يزول. ومع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا والحمد لله رب العالمين..

* * *

المراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى. المكتبة القيمة. مدينة نصر. القاهرة 1993.
- 3- صفوة التفاسير - الطبعة الأولى للمرحوم الشيخ محمد على الصابونى. دار القرآن الكريم. المكتبة العصرية. بيروت. 2005.
- 4- حاشية الصاوى على الجلالين: جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى. دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة.
- 5- صحيح البخارى للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى البخارى: طبعه ورقم أحاديثه ووضع فهرسه عناية الدكتور محمد تامر. دار التقوى. 2003.
- 6- صحيح مسلم: للإمام أبى الحسن بن الحجاج القشيرى النيسابورى 206 - 261هـ - طبعة مميزة مرقمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث - مكتبة الإيمان بالمنصورة.
- 7- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان إماما المحدثين: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردبذبه البخارى وأبو الحسن مسلم بن حجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى - وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث خلف الجامع الأزهر. القاهرة. 1986.
- 8- مختار الأحاديث النبوية والحكم المحمدية تأليف المرحوم الشيخ السيد أحمد الهاشمى. دار الجيل. بيروت.
- 9- من كنوز السنة للدكتور الشيخ محمد على الصابونى. دار القلم. دمشق. الطبعة الثالثة 1989.
- 10- التذكرة في احوال الموتى وأمور الآخرة - تأليف القرطبى 671هـ. الطبعة الثانية. المكتبة التوفيقية بالحسين. القاهرة.
- 11- قصص الأنبياء للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير - تحقيق

- أبى عبد الله الأنصارى - دار القلم للتراث: فيصل الهرم.
- 12- البداية والنهاية للحافظ بن كثير. مكتبة دار المعارف. بيروت. الطبعة الثانية. 1990.
- 13- تنوير الأذهان بذكر أطوار خلق الإنسان لابن القيم الجوزية. تحقيق أبو أسامة الطحاوى الواعظ بالجمعية الشرعية.
- 14- تحفة المودود بأحكام المولود لابن القيم الجوزية. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى 1983.
- 15- موطأ مالك - طبعة الشعب. صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي.
- 16- شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك. دار الفكر. بيروت. طبعة 1936.
- 17- الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك - حاشية الصاوى. دار المعارف بمصر. 1972.
- 18- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن حسن آل الشيخ. دار القلم. بيروت. الطبعة الأولى. 1985.
- 19- صفوة السيرة المحمدية للشيخ أحمد حسن الباقورى. مطبعة المدنى العباسية. القاهرة.
- 20- جامع العلوم والحكم لابن رجب - تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور. الجزءان الأول والثانى. مطبعة نهضة مصر. 1986.
- 21- منهج السنة في الزواج - للدكتور محمد الأحمدي أبو النور. دار التراث العربى. الطبعة الثانية. 1974م.
- 22- المرأة في الإسلام بين الماضى والحاضر للمرحوم الدكتور عبد الله شحاته.
- 23- أهداف الأسرة في الإسلام - حسين محمد يوسف - دار الاعتصام بيروت 1977م.
- 24- الزواج الإسلامى السعيد للعلامة الشيخ أبى حامد الغزالى. تحقيق محمد عثمان الخشت يونيه 1984م.
- 25- تربية الشباب في القرآن الكريم عبد المعز خطاب. مطبعة

- المعرفة. لاطو غلى. القاهرة.
- 26- الإنسان في القرآن الكريم - للدكتور السعيد عاشور أستاذ الهندسة الصناعية والإدارية بكلية الهندسة - جامعة المنصورة - الطبعة الأولى 1998م.
- 27- الإسلام والحياه الزوجية - عثمان السعيد الشرقاوى - الطبعة الثانية 1986م.
- 28- مكانة المرأة في الإسلام محمد عطية الإبراشى.
- 29- الأسرة والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافي.
- 30- سيكولوجية الجنس للدكتور يوسف مراد - دار المعارف - سلسلة اقرأ.
- 31- الزوجة المسلمة والبيت السعيد - عبد العزيز الشناوى. دار اليقين للنشر والتوزيع. المنصورة. الطبعة الأولى.
- 32- الزواج الإسلامى - طارق إسماعيل كاخيا - طبعة أولى 1966م.
- 33- الاختلاط وما ينتج عنه من مساوئ الأخلاق للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر
- 34- تطور النظرية التربوية صالح عبد العزيز 1947م.
- 35- التعامل التجارى في ميزان الشريعة للدكتور يوسف قاسم. دار النهضة العربية. القاهرة. الطبعة الأولى. 1980م.
- 36- سلسلة أطفال تكلموا في المهدي بقلم الدكتور محمد سيد أحمد المسير أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر.
- 37- تيسير مصطلح الحديث - للدكتور محمود الطحان. مكتبة المعارف. الرياض. الطبعة الثامنة. 1987م.
- 38- الأهرام الأسبوعى 10 من إبريل 2009م.
- 39- رعاية الطفل - للدكتور أحمد خليل عبد الخالق عضو الجمعية الطبية بلندن - الطبعة الرابعة 1949م.
- 40- علم وظائف الأعضاء الجزء الأول - للدكتور محمد طلعت

- والدكتور أحمد طلعت الطبعة الثانية.
- 41- درر الأقوال لوقاية الأطفال في الصحة والمرض - للدكتور جورج عز قننجي - الطبعة الثانية 1926م.
- 42- تربية الطفل تأليف مبل بك رئيسة إصلاحية البنات.
- 43- رعاية الأم والعناية بالطفل في الصحة والمرض - للدكتور زكى شعبان والدكتور إبراهيم مجدى والدكتور إسماعيل صبرى
-

- طبعة ثالثة.
- 44- المرأة والسياسة في صدر الإسلام - للدكتور أحمد الكبيسي. مكتبة 14 المكتبة بالعين أبو ظبي.
- 45- معجم المصباح المنير.
- 46- المعجم الوجيز للغة العربية 1993م.
- 47- تحفة الطلاب في تاريخ الآداب - الطبعة الثانية 1932م.

* * *

فهرس المحتويات

3	إهداء.....
5	مقدمة.....
12	الباب الأول: خلق آدم وحواء وذريتهما.....
14	الفصل الأول: التمهيد لخلق آدم وحواء - عليهما السلام وذريتهما من بعدهما.....
24	الفصل الثاني: خلق آدم عليه السلام.....
30	الفصل الثالث: خلق حواء وإقامتها مع آدم في الجنة.....
	الفصل الرابع: طرد إبليس من الجنة وهبوطه إلى الأرض وهبوط آدم وحواء بعده إليها.....
35	الفصل الخامس: اعتراف بنى آدم بالربوبية والألوهية لله رب العالمين وحده والإشهاد على ذلك.....
41	الفصل السادس: بداية التكاثر السعيد لبنى آدم عليه السلام.....
46	الفصل السابع: مراحل خلق الإنسان والاهتمام بها.....
52	الفصل الثامن: تخيير النطفة.....
55	الباب الثاني: ركائز وأسس الاختيار الصحيح للزوجين في الإسلام.....
64	الفصل الأول: الاختيار على أساس الدين والأخلاق الفاضلة.....
67	الفصل الثاني: الاختيار على أساس الأصل والشرف.....
75	الفصل الثالث: اختيار الغرباء والبعد عن الأقارب.....
84	الفصل الرابع: تفضيل البكر في الاختيار.....
95	الفصل الخامس: تفضيل المرأة الولود في الزواج.....
102	الفصل السادس: تفضيل واختيار المرأة الجميلة.....
111	الفصل السابع: مراعاة الكفاءة بين الزوجين.....
125	الباب الثالث: أسس أخرى لازمة لإتمام الزواج وإضفاء الشرعية والسعادة عليه.....
138	الفصل الأول: الخطبة.....
141	الفصل الثاني: عقد القران.....
160	الفصل الثالث: ما يصاحب العقد.....
169	الفصل الرابع: ما يكون بعد العقد.....
200	الباب الرابع: الحياة الزوجية الإسلامية ومتطلباتها.....
226	الفصل الأول: دور الزوج في توفير السعادة لزوجته في بيت الزوجية.....
229	الفصل الثاني: دور الزوجة المسلمة في إسعاد زوجها المسلم.....
265	

293	الفصل الثالث: اهتمام الإسلام بالإنجاب والحمل والمولود
332	الباب الخامس: تتابع اهتمام الوالدين بمولودهما في ظل الكتاب والسنة
335	الفصل الأول: دور الوالدين في تثبيت الفطرة وتنشئة المولود عليها
338	الفصل الثاني: مرحلة الرضاعة
354	الفصل الثالث: مرحلة الطفولة وإسعاد الوالدين لطفلهما
382	الفصل الرابع: الإسلام وعناية الوالدين بأبنائهم في مرحلة الصبا والشباب
440	الباب السادس: مرحلة الرجولة والأنوثة
443	الفصل الأول: في القرآن الكريم
464	الفصل الثاني: في السنة النبوية المباركة
499	الباب السابع: أسباب التعثر في الحياة الزوجية
501	أولاً: اختلاف الدين بين الزوجين
506	ثانياً: عدم تطبيق أسس ومبادئ وتعاليم ونظم الإسلام في الحياة الزوجية
513	ثالثاً: الزواج من الزناة
516	رابعاً: عقم الزوجين أو أحدهما
521	خامساً: الزواج للتمتع فقط بجمال المرأة
526	سادساً: الزواج من الغنية للتمتع بمالها فقط
530	سابعاً: عدم التكافؤ بين الزوجين
556	ثامناً: الغيرة
560	تاسعاً: التفريق بين الأبناء والبنات في التعليم والمعاملات المختلفة
565	عاشراً: تعطيل نقل ملكية الأخت الوارثة أو جزء منها إلى أبنائها وبناتها
568	حادى عشر: محاولة التدخل في شئون الزوجين من جانب الأهل
575	ثانى عشر: الرغبة الملحة في إنجاب البنين
579	ثالث عشر: نشوز الزوجة أو الزوج أوهما معاً
581	رابع عشر: نساء ورد النهى عن الزواج منهن
583	خامس عشر: التسرع في قرار الارتباط
585	سادس عشر: الطلاق
592	سابع عشر: أثر الوضع السياسى في المجتمع على الأسرة وأفرادها
595	مسك الختام
597	المراجع
601	فهرس المحتويات